الدولة الفاطمية في مصر

تفسير جديد

الدكتور أيمن فؤاد سيد



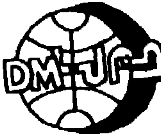
الناشر
الدار المصرية اللبنانية

الدولة الفاطمية في مصر

تفسير جديد

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م



الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

فهرست الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

الكتاب الثانى

النُّظُم والحَضارَة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

- ١ -

رغم كثرة ماكُتِب عن الفاطميين ، سواء بالعربية أو اللغات الأوربية ، فإن عددًا قليلًا من هذه الدراسات يمكن الرجوع إليه والاعتماد عليه بثقة واطمئنان ، فقد اعتمدت أغلب هذه الدراسات على المصادر المتأخِّرة واكتفت باستعادة معلومات ذات طابع عام دون مناقشة للأصول أو تفسير واع لسير الأحداث .

ومع ذلك فإن الخطوط العريضة والحقائق المتعلِّقة بتاريخ الفاطميين تكاد تكون معروفة ، وأصبحت مهمة الباحث فى التاريخ الفاطمى مهمة صعبة ، فعليه أن يجمع كل المصادر المتوافرة ويتعرَّف من خلالها على المصادر المُبَكِّرة أو التى ترجع حقيقة إلى العصر الفاطمى ويعرض من خلالها تاريخًا صحيحًا للدولة يقوم على أساس تفسير هذه الأحداث وتحليل الظواهر الرئيسية للتاريخ الفاطمى .

فالدولة الفاطمية تعد نموذجًا واضحًا للدولة الثيوقراطية فى التاريخ الإسلامى ، قامت على أساس ادّعاء إيصال نسب أصحابها إلى النبى ﷺ عن طريق السيدة فاطمة والإمام على . ويتَّصف تاريخ الحركة الإسماعيلية ، طوال المائة عام الأولى التى أعقبت وفاة الإمام جعفر الصّادق سنة ١٤٨/ ٧٦٥ ، بالغموض . واعتمدت هذه الحركة على نشاط مُكَثَّف للدعاة السّريين الذين انتشروا فى أرجاء العالم الإسلامى يدعون إلى قُرْب ظهور الإمام المهدى من آل فاطمة . ولكن

ابتداءً من النصف الثانى للقرن الثالث/التاسع ، بعد دخول الإمام محمد بن الحسن العسكرى آخر الأئمة الإثنى عشرية فى السِّرداب سنة ٢٥٥ / ٨٦٩ ، أصبحت الحركة الإسماعيلية هى الجناح الثورى الأكبر أهمية للشيعة ، وظهرت كحركة ديناميكية ومنظمة مركزية اكتسبت سريعًا شهرة فاقت بكثير شهرة أية حركة شيعية أخرى فى هذه الفترة .

وفى السنوات الأخيرة للقرن الثالث الهجرى نجحت الحركة الإسماعيلية فى إقامة دولة قوية فى إفريقية هى « الخلافة الفاطمية » التى هَدّدت لفترة أكثر من مائتى عام وَضْع العديد من الأسرات الحاكمة فى العالم الإسلامى ، كما اعتبر أئمتهم الخلفاء العبّاسيين مغتصبين لحقهم الشرعى فى حكم هذا العالم .

ولاتحدّثنا المصادر الإسماعيلية والفاطمية إطلاقًا عن (الإسماعيليين) أو (الفاطميين) ، وهو مصطلح لانجده إلّا فى كتب الفرق والعقائد وعند المؤرخين . فقد أطلق المؤرخون على الدولة التى قامت فى شمال إفريقيا فى أواخر القرن الثالث اسم « الدولة الفاطمية » . أما كتب الدعوة نفسها والسجلات الرسمية فتطلق على الدعوة اسم « الدعوة الهادية » أو « دعوة الحق » . أما مصطلح « الفاطميين » فربما نشأ ابتداء من عهد الإمام عبد الله المهدى بقصد تأكيد انتسابهم أولًا إلى السيدة فاطمة إبنة النبى ﷺ ثم إلى السيدة فاطمة زوجة الإمام جعفر الصّادق وأم ولديه إسماعيل وعبد الله اللذين ينتسب إليهما الإسماعيليون .

وبينما جاء انتصار العبّاسيين سريعًا وحاسمًا واستقروا فى الحكم طوال خمسمائة عام ، فقد استغرق انتصار الفاطميين وقتًا أطول كما أن هذا الانتصار لم يكتمل أبدًا . وبينما قطع العبّاسيون كذلك صلاتهم بالدُّعْوَة ورجالها فور استيلائهم على السُّلْطة ، فإن الفاطميين لم يستطيعوا الانفصال عن « الدَّعْوة » لأنه كان لايزال

يُنتَظر منها الكثير ، وكانت بمثابة السِّلاح الإيديولوجى للحركة . فقد كان هدفهم إرساء دعائم المذهب الإسماعيلى والإمامة الفاطمية فى كل العالم الإسلامى .

ولم تكن إفريقية ، حيث أُعْلِنَ قيام الخلافة الفاطمية ، لتفى بغرض الفاطميين وتُحَقِّق أحلامهم ، فقد كانت أنظارهم تتجه دائمًا إلى الشرق . ولجأوا فى سبيل ذلك إلى الدعاية السياسية ضد العبّاسيين والأُمويين على السواء ، ونشطت هذه الدعاية فى أيام المُعِزّ لدين الله وعبَّر عنها بوضوح شاعرهم ابن هانئ الأندلسى .

وقد تحقَّقَت أعظم انتصارات الفاطميين على يد المُعِزّ لدين الله ، فلا شك أن فتحهم مصر فى سنة ٣٥٨/ ٩٦٩ هو أعظم إنجازاتهم التى حَفَظَت لهم مكانًا بارزًا فى التاريخ . وفى مصر أنشأ الفاطميون عاصمة جديدة ، هى « القاهرة » ، تُعَبِّر عن كيانهم وعن اتجاهاتهم ، وكانت آمالهم ومحاولاتهم التوسُّعية تتَّجه دائمًا إلى الشرق وكان هدفها الأول أراضى الخلافة العبّاسية .

ورغم أن الفاطميين كانوا وهم بإفريقية بحاجة إلى « عَصَبِيَّة » تمثَّلت فى قبيلة كُتَامَة ، فقد اختلف الوضع فى مصر حيث انفصلوا عن مجموع سكان الشعب وقرَّبوا أهل الذِّمَّة .

وطوال المائة عام الأولى من التاريخ الفاطمى فى مصر ، لم يحاول الفاطميون اتخاذ إجراءات حاسمة لتحقيق حلمهم فى حكم العالم الإسلامى وتكوين الإمبراطورية العالمية التى حلموا بها ، بل إن أئمتهم شغلوا أنفسهم بمشاكل عقائدية وطموحات شخصية خاصة فى عهد الحاكم بأمر الله . كما أنّ النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر بالله الطويل شهد أسوأ أزمة اقتصادية عرفتها مصر فى العصور الوسطى ، بالإضافة إلى فوضى إدراية شاملة وحروب أهلية هدَّدت الأمن والاستقرار الذى عرفته مصر فى العقود الأولى للقرن الخامس/ الحادى عشر ، وتطلَّبت الاستعانة بقائد عسكرى قادر على حفظ الأمن وإعادة النظام .

ومع ذلك فقد ظلّ الفاطميون لفترة غير قصيرة ، خلال النصف الأوّل للقرن الخامس / الحادى عشر ، أكبر قوة فى العالم الإسلامى . فقد وصلت الإمبراطورية الفاطمية فى أوائل حكم المستنصر إلى أقصى اتساع لها وكانت تضم مصر والشام وشمال إفريقيا وصِقِلّية والشاطئ الإفريقى للبحر الأحمر والحجاز ، بمافيه مكة والمدينة ، واليمن وعُمان والبحرين والسِّند وإن كان القسم الأكبر من هذا التوسع قد تم عن طريق الدعاة ولم يكن للقوات الفاطمية أى دور فيه ، ولكنها سرعان ماهوت بعد ذلك ، فعند موت المستنصر سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ كانت الدعوة الإسماعيلية قد تمزّقت إلى أجزاء .

وبوصول بدر الجمالى إلى قِمّة السلطة فى مصر سنة ٤٦٧ / ١٠٧٤ بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، وأصبح « أمير الجيوش » — وهو اللقب الذى اتخذه وزراء التفويض أرباب السيوف — هو السيِّد الحقيقى لمصر ، وأصبح الخلفاء الفاطميون مجرَّد رؤساء صوريين لسلسلة متتابعة من الطغاة العسكريين ، مثلما أضحى الخلفاء العبّاسيون فى بغداد بمثابة دمى عاجزة فى أيدى حماتهم من البويهيين والسَّلاجقة . فمنذ عهد الحاكم بأمر الله ، الذى اتسمت سياسته بالاستبداد ، لم يحاول أى خليفة أن تكون له سلطة مباشرة فى شئون الدولة ، إذا استثنينا الخليفة الآمر بأحكام الله ، الذى حاول أن يكون وزير نفسه بمساعدة الراهب ابن قنا .

وفى أعقاب وفاة المستنصر انقسم الإسماعيليون إلى « مُسْتَعْلية » و « نِزارية » ، وحتى سنة ٥٢٤ / ١١٣٠ اعْتُبِر إسماعيلية مصر والشام واليمن ، الذين عرفوا « بالمُسْتَعْلية » ، فريقًا واحدًا يتميَّز عن « النزارية » ، الذين انتشروا فى فارس . ولكن بعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله فى هذه السنة دون وريث وإعلان الحافظ نفسه خليفة فى سنة ٥٢٦ / ١١٣٢ ظهر انشقاق جديد فى الطائفة المُسْتَعْلية التى انقسمت إلى « حافظية » و « طيبية » .

ومنذ اعتلاء الحافظ كرسى الخلافة أصبح تاريخ الفاطميين تاريخًا محليًا ، فقد

فَقَد الفاطميون كل ممتلكاتهم خارج مصر فيما عدا عَسْقلان التى لم تلبث أن سقطت فى أيدى الفرنج سنة ١١٥٣/٥٤٨ ، وكان حكّام عَدَن الزُّرَيْعيين الوحيدين الذين يقيمون الدَّعْوَة لخلفاء مصر ، وأصبح تاريخ الفاطميين صراعًا داخليًا بين ولاة الأقاليم حول منصب الوزارة حيث أصبح الوزير هو السَّيِّد الفعلى للبلاد . وتعكس لنا هذا الوضع الوثائق التى وصلت إلينا وترجع إلى هذه الفترة ، حيث أصبح الكثير من العرائض والشكاوى Petitions ترفع إلى الوزير وليس إلى الخليفة[١] .

وإلى هذه الفترة يرجع بداية استعانة الوزراء بملوك وأمراء الدول المجاورة من السُّنَّة والفِرنْج لتمكينهم من الحكم أو مساندة بعضهم ضد بعض ، مما أدّى إلى تطلع هذه القوى إلى الاستيلاء على مصر ، حتى نجح صلاح الدين فى وضع نهاية للدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ / ١١٧١ وأعاد مصر مرة أخرى إلى دائرة الأقاليم التى يحكمها السنيون .

ورغم النجاح والتوَسُّع الذى حقَّقَتْه الدولة الفاطمية فى القرن الخامس/الحادى عشر فنستطيع القول أن الجيش الفاطمى لم يُخْتَبَر على الإطلاق بعد فتح مصر والشام وحرب القرامطة ، ولم يدخل هذا الجيش فى أية مواجهة حقيقية خارج حدود مصر ، فقد جاء هذا الامتداد والتوسُّع الذى حقّقته الدولة عن طريق الدُّعاة والدعاية الدينية والسياسية .

وإذا كانت الدولة الفاطمية دولة ثيوقراطية ذات إيديولوجية خاصة وكان هدفها بسط نفوذها وسيادتها على كل الأراضى الإسلامية ، فمع ذلك لا نجد واحدًا من خلفائهم أدّى فريضة الحج رغم حرصهم الشديد على إقامة الدعوة لهم على منابر مكة والمدينة ، وإنما وجّهوا اهتمامهم إلى إحياء بعض المظاهر الإسلامية بفخامة وبَذَخ داخل عاصمة ملكهم .

---

[١] Stern, S. M., " Three Petitions of the Fatimid Period " Oriens 15 (1962), p. 184.

– ٢ –

تُعَدّ الفترة الفاطمية واحدة من أكثر فترات التاريخ الإسلامى غناء بالوثائق والمصادر التاريخية ، ولكن العديد من هذه المصادر ، التى كتبت فى زمن الفاطميين ، فُقِد اليوم للأسف الشديد وإن كان قد عُرِفَ للمؤرِّخين المتأخرين الذين حفظوا لنا أغلب مانعرفه عن التاريخ الفاطمى . لذلك فقبل مرحلة التأليف يجب على الباحث أن يُحَدِّد المصادر التى وصلت إلينا من العصر الفاطمى وتلك التى ترجع حقيقة إلى هذا العصر وحفظها لنا المؤرِّخون المتأخِّرون . ونظرة عامة على هذه المصادر تُظْهر لنا أن تقسيم المصادر الفاطمية غير متكافئ ؛ ففيما يخص الدور الإفريقى نجد أن مُؤَلّفى القاضى النعمان بن حَيُّون (المتوفى سنة ٣٦٣ / ٩٧٣) « افتتاح الدعوة » و « المجالس والمسايرات » وكذلك « سيرة الأستاذ جَوْذَر » لأبى على منصور العزيزى الجَوْذَرى (المتوفى بعد سنة ٣٧٠ / ٩٨٠) أهم مصادر هذه الفترة . أما بالنسبة لتاريخ الفاطميين فى مصر فإننا نملك معلومات مُفَصَّلة عن فترة خلافة كل من المُعِزّ والعزيز والحاكم وأوائل عصر الظّاهر بفضل مؤرِّخين من أمثال : ابن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٦ / ٩٩٦) والمُسَبِّحى (المتوفى سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩) ويحيى بن سعيد الأنطاكى (المتوفى سنة ٤٥٨ / ١٠٦٦) . أما فترة خلافة المستنصر بالله على طولها وأهميتها والتى تُمَثِّل نقطة تَحَوُّل خطيرة فى تاريخ الدولة ، فإن مصادرها قليلة ومفقودة تتمثَّل فى مؤلَّفات القُضاعى (المتوفى سنة ٤٥٤ / ١٠٦٢) وصاحب « الذَّخائر والتحف » و « سيرة المستنصر » و « سيرة اليازورى » التى لا نعرف أسماء مؤلفيها ، بالإضافة إلى مصدر فارسى لم يعرفه المؤرِّخون المتأخِّرون هو « سَفَرْنامة » ، رحلة الرحّالة الفارسى ناصرى خسرو . وقد عَوَّضَت المصادر المادية والسِّجلّات الرسمية ، وخاصة قرب نهاية عهد المستنصر ، نَقْص المصادر الأدبية لهذه الفترة .

وعلى العكس من ذلك فإن تاريخ الفاطميين المتأخِّرين قد رُوِى بعد فترة قصيرة من سقوط دولتهم نقلًا عن مصادر مفقودة مثل « تاريخ خلفاء مصر » للمرتضى المُحَنَّك (المتوفى سنة ٥٤٩ / ١١٥٤) و « تاريخ » ابن المأمون (المتوفى سنة ٥٨٦ / ١١٩٠) ، كما وصلت إلينا من هذه الفترة مؤلَّفات هامة لابن الصَّيْرَفى (المتوفى سنة ٥٤٢ / ١١٤٧) وابن القَلانِسِى (المتوفى سنة ٥٥٥ / ١١٦٠) وعمارة اليمنى (المتوفى سنة ٥٦٩ / ١١٧٣) وأسامة بن مُنْقِذ (المتوفى سنة ٥٨٤ / ١١٨٨) .

ووَصَفَ « النظام المالى والإدارى » و « رسوم الفاطميين » فى آخر عهد الدولة مؤلِّفون عاشوا فى آخر عهد الدولة الفاطمية وأوَّل عهد الدولة الأيوبية وخدموا فى دواوين الدولتين مثل : المَخْزومى (المتوفى سنة ٥٨٥ / ١١٨٩) وابن مَمّاتى (المتوفى سنة ٦٠٦ / ١٢٠٩) وابن الطُّوَيْر (المتوفى سنة ٦١٧ / ١٢٢٠) والنابُلْسى (المتوفى سنة ٦٣٢ / ١٢٣٤) وكذلك ابن المأمون . كما سجَّل تاريخهم السياسى مؤرِّخون من أمثال ابن ظافر الأَزْدى (المتوفى سنة ٦١٢ / ١٢١٥) ويحيى بن أبى طَىّ (المتوفى نحو سنة ٦٣٠ / ١٢٣٣) وابن الأثير الجَزَرى (المتوفى سنة ٦٣٠ / ١٢٣٣) وأبى شامة المَقْدسى (المتوفى سنة ٦٦٥ / ١٢٦٧) وابن سعيد المغربى (المتوفى سنة ٦٨٥ / ١٢٨٦) والنُّوَيْرى (المتوفى سنة ٧٣٢ / ١٣٣١) وابن أَيْبَك الدَّوادارى. (المتوفى نحو سنة ٧٣٦ / ١٣٣٥) .

ولاشك أن أهم مؤرِّخ أرَّخ لتاريخ الفاطميين المتأخِّرين ، ووصل إلينا مختصر لكتابه هو تاج الدين ابن مُيَسَّر (المتوفى سنة ٦٧٧ / ١٢٧٨) الذى كان مصدرًا أساسيًا لكل من النُّوَيرى والمقريزى وابن حَجَر العَسْقَلانى . كما أن كتاب « وفيات الأعيان » لابن خَلِّكان (المتوفى سنة ٦٨١ / ١٢٨٢) مليىء بفقرات مُطَوَّلة عن تاريخ الفاطميين رغم كونه كتاب فى التراجم .

وللمصادر الإفريقية قيمة كبيرة فى دراسة تاريخ الفاطميين ، وخاصة

فيما يتعلَّق بعلاقات الفاطميين بشمال إفريقيا ، مثل مؤلَّفات ابن حمّاد الصِّنْهاجى (المتوفى سنة ٦٢٦ / ١٢٣٠) وابن القَطّان (المتوفى فى القرن السابع) وابن عِذارىّ (المتوفى سنة ٧١٢ / ١٣١٣) .

ولاجدال فى أن مؤلَّفات المؤرِّخين المصريين فى القرن التاسع/الخامس عشر هي أوسع وأشمل المصادر التى وصلت إلينا عن تاريخ الفاطميين . وتستمد هذه المؤلَّفات أهميتها من اعتمادها على أغلب المصادر السابق ذكرها والتى فُقِدَت اليوم . ويأتى على رأس هؤلاء المؤرِّخ المغربى ابن خَلْدون (المتوفى سنة ٨٠٨ / ١٤٠٦) وابن الفُرات (المتوفى سنة ٨٠٧ / ١٤٠٤) وابن دُقْماق (المتوفى سنة ٨٠٩ / ١٤٠٦) والقَلْقَشَنْدى (المتوفى سنة ٨٢١ / ١٤١٨) والمَقْريزى (المتوفى سنة ٨٤٥ / ١٤٤١) وابن حَجَر العَسْقَلانى (المتوفى سنة ٨٥٢ / ١٤٤٨) وأبو المحاسن بن تَغْرى بِردى (المتوفى سنة ٨٧٤ / ١٤٧٠) وأخيرًا ابن إيّاس (المتوفى سنة ٩٣٠ / ١٥٢٤) .

وتُمَثِّل مؤلَّفات تقى الدين أحمد بن على المَقْريزى (المتوفى سنة ٨٤٥ / ١٤٤١) بين هذه المصادر قيمة خاصة . فلم يشعر المشتغلون بالتاريخ الفاطمى أنهم أمام مادة أصلية يمكن الاعتماد عليها باطمئنان إلّا بعد اكتشاف النسخة الكاملة لكتاب « اتعاظ الحُنَفا » للمَقْريزى المحفوظة فى استامبول[٢] . ورغم أننا نملك مؤلَّفًا آخر للمَقْريزى عرفته الأوساط العلمية قبل أكثر من قرن هو كتاب « المَواعِظ والاعْتِبار » المعروف « بالخِطَط » ، فإن المادة التى يقدِّمها لنا فى « الاتعاظ » عن تاريخ الدولة الفاطمية تختلف كثيرًا من ناحية العرض والقيمة . فلا يمكن بأى حال اعتبار مُصَنَّفَه سردًا بسيطًا للأحداث التاريخية ، فقد جهد المَقْريزى فى إطار

---

[٢] كان ذلك فى سنة ١٩٣٦ راجع ، Cahen, Cl., "Les chroniques arabes concernant la Syrie, L'Egypte et la Mesopotamie", REI X (1936), p. 352 ولم تنشر هذه النسخة كاملة إلّا بين سنتى ١٩٦٧ و١٩٧٣ فى ثلاثة أجزاء ، الجزء الأول بتحقيق جمال الدين الشيّال والثانى والثالث بتحقيق محمد حلمى محمد أحمد وصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

ذلك المصنِّف أن يقدِّم لنا عرضًا جيدًا لتاريخ الدولة الفاطمية منذ ظهورها فى إفريقية فى نهاية القرن الثالث/التاسع وحتى سقوطها فى مصر فى أواسط القرن السادس/الثانى عشر اعتمادًا على المصادر المعاصرة التى كُتِبَت فى عصر الدولة أو بعد سقوطها بقليل .

ومازال عددٌ من مصادر المَقْريزى فى « الاتعاظ » مجهولًا لنا ، ولكن فى الحالات التى أمكن فيها تحقيق روايته فى أصولها تبيَّن لنا أن المَقْريزى أهلًا للثقة بصورة تجعلنا نعتمد عليه اعتمادًا كاملًا حتى فى الحالات التى نجهل فيها جهلًا تامًا المصادر التى استقى منها مادته . ولكن العيب الموجود لدى المَقْريزى هو أنه يبدو أحيانًا من الصعوبة تحديد بداية النقل ونهايته ، فى الحالات التى يذكر فيها مصادره ، فهو لم يلتزم كثيرًا بالقواعد الصارمة التى اتّبعها النَّقَلَه التقليديون . فهو يُهْمل عادة ، وخاصة فى « الاتعاظ » ، الإشارة إلى مصادره أو تحديد النصوص التى نقلها بوضوح .

وللمقريزى مؤلَّف آخر فى تراجم أهل مصر هو « المُقَفّى الكبير » لم يصل إلينا منه سوى أربعة أجزاء منها ثلاثة بخط المقريزى نفسه ، تحوى الحروف من الألف إلى الخاء وبعض حرف العين والمحمدين . وتشتمل تراجمه لرجال العصر الفاطمى فى هذا الكتاب على تفصيلات دقيقة قد لانجدها فى « الخِطَط » أو « الاتعاظ » عن تاريخ هذه الفترة[٣] .

ويعتبر الداعى عماد الدين إدريس بن حسن الأنف (المتوفى سنة ٨٧٢ / ١٤٦٧) أكبر مؤرِّخ للدعوة الإسماعيلية ، ويُعَدّ كتابه « عيون الأخبار وفنون الآثار » أشمل كتاب فى تاريخ الحركة الإسماعيلية يمثل وجهة نظر الدعوة . وهذا الكتاب ، الذى مازال جزؤه السابع المتعلِّق بتاريخ الفاطميين فى مصر واليمن مخطوطًا ، لم يُسْتَفَد

---

[٣] لتفاصيل أكثر عن مصادر تاريخ الفاطميين راجع مقالى : « دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين فى مصر » ، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٨٢ ، ١٢٩ — ١٦٣ .

منه بعد الاستفادة الحقيقية لندرة نسخه التى تحتفظ بها مكتبات الدعوة فى اليمن والهند ، رغم أنه لا يخلو أحيانًا من المحاباة والتحفظ وعدم التمييز بصورة واضحة بين المصادر الإسماعيلية والمعادية للإسماعيلية .

أما المصادر الشامية والعراقية فلا يمكننا الاعتماد عليها فى دراسة تاريخ الفاطميين فى مصر ، وعلى الأخص مؤلَّفات ابن الجَوْزى وسِبْط ابن الجَوْزى والذَّهَبى وابن كثير ، فهؤلاء جميعًا مؤلِّفون سنيون ذوو ميول حنبلية يعادون الفاطميين . والذَّهَبى وابن كثير ، على الأخص من رجال الحديث ، أو من « العلماء » المشتغلين بالتاريخ ولا يعترفون بشرعية الخلافة الفاطمية ، فالذَّهَبى يسميهم دائمًا « خلفاء المصريين » . وقد تنبَّه إلى ذلك المقريزى وقال عن مؤرِّخى الشام والعراق . « وغير خاف على من تبحَّر فى علم الأخبار كثرة تحاملهم على الخلفاء الفاطميين وشنيع قولهم فيهم ، ومع ذلك فمعرفتهم بأحوال مصر قاصرة عن الرتبة العلية ، فكثيرًا مارأيتهم يحكون فى تواريخهم من أخبار مصر مالا يرتضيه جهابذة العلماء ويرده الحُذّاق العالمون بأخبار مصر ، وأهل كل قطر أعرف بأخباره ومؤرِّخو مصر أدرى بماجرياته »[٤] . وذكر فى موضع آخر « أن الأخبار الشنيعة ، لاسيما التى فيها إخراجهم من مِلَّة الإسلام ، لاتكاد تجدها إلَّا فى كتب المشارقة من البغداديين والشاميين « كالمُنْتَظم » لابن الجَوْزى و « الكامل » لابن الأثير و « تاريخ حَلَب » لابن أبى طَىّ و « تاريخ العماد » لابن كثير وكتاب ابن واصل الحموى ... أما كتب المصريين الذين اعتنوا بتدوين أخبارهم فلا تكاد تجد فى شىء منها ذلك البتة »[٥] .

ولاتفيدنا هذه المصادر إلَّا فيما يخص علاقات الفاطميين الخارجية . ولم يعتمد عليها من المؤرِّخين المصريين سوى أبو المحاسن بن تغرى بردى الذى نقل نصوصًا

---

[٤] المقريزى : اتعاظ الحنفا ١ : ٢٣٢ .

[٥] نفسه ٣ : ٣٤٦ .

مُطَوَّلة عن الذَّهبى وسِبْط ابن الجَوْزى وابن القَلانِسى وهو يترجم للخلفاء الفاطميين .

وإذا كانت هذه هى أهم المصادر التى تعالج الفترة الفاطمية على امتدادها ، فإن السنوات العشر الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية نستمد معلوماتنا عنها من مصادر مختلفة تتعلّق بشخصيتين محوريتين فى التاريخ الإسلامى فى القرن السادس/الثانى عشر هما : نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى . فقد أصبحت مصر منذ عام ٥٥٩/١١٦٤ هدفًا مباشرًا لنور الدين فى مواجهته مع الصليبيين . وأهم مصادر هذه الفترة التى تفيدنا فى دراسة السنوات العشر الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية هى : « التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية » لابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠/١٢٣٣) ، و « الرَّوضتين فى أخبار الدولتين » لأبى شامة المقدسى (المتوفى سنة ٦٦٥/١٢٦٧) ، و « مُفَرِّج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لابن واصل الحموى (المتوفى سنة ٦٩٧/١٢١٧) .

وتعتبر أوراق جِنِيزَة القاهرة Gairo Geniza Documents من أهم مصادر هذه الفترة وخاصة بالنسبة للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى وما يخص تجارة الهند . والجِنِيزَة Geniza كلمة عبرية مأخوذة عن نفس الأصل الفارسى والعربى « جَنازَة » ، وهى تعنى مكانًا دُفِنَت فيه أوراقٌ مستهلكة حتى لا يُدَنَّس اسم الله الذى يمكن أن يكون فيها[٦] . وأرى أنها ربما حُرِّفَت عن كلمة « كَنْز » العربية خاصة وأن المقصود بها هو حفظ أوراق أيًّا كانت أهميتها .

و« الجِنِيزَة » فى جوهرها مستودع للأوراق المستهلكة المكتوبة باللغة العربية ولكن بحروف عبرية – وهى الكتابة التى كان يستخدمها اليهود فى بلاد العالم الإسلامى فى هذا الوقت – وتتَّصل هذه الأوراق فى الأساس بالنشاط الاقتصادى لليهود بين بعضهم البعض ، وتشتمل على أوراق أسرية وغير أسرية تتعلّق بالمعاملات

---

[٦] Goitein, S. D., EI².., art. Geniza II, p. 10 .

التجارية وعقود الزواج والطلاق والإيجارات والأسعار والمقايضات والهبات ، بالإضافة إلى مئات الأوراق التى تحوى طلبات وشكاوى مرفوعة إلى السلطات . وقد اكتشفت هذه الأوراق المهملة فى نهاية القرن الماضى فى سيناجوج بِنْ عِذْرَة اليهودى بالفُسْطاط وكذلك فى مقابر اليهود بالبساتين جنوب القاهرة ، وذلك عندما هُدِم المعبد اليهودى وأعيد بناؤه فى سنتى ١٨٨٩ – ٩٠ . وقد عرفت الأوراق التى وجدت بهما طريقها إلى خارج مصر وسعت إلى شرائها مكتبات أوربا والولايات المتحدة المختلفة ، وحمل Salomon Schechter أكبر كمية من هذه الأوراق إلى مكتبة جامعة كمبردج وكَوَّن بها مجموعة Taylor - Schechter الشهيرة حيث توجد أكبر مجموعة من هذه الأوراق فى هذه المكتبة وكذلك فى مكتبة فيينا[٧] .

ورغم صدور هذه الأوراق عن أوساط اليهود فإنها تمدنا بمعلومات عن كثير من الأنشطة المتعلّقة بغير اليهود ، وتقدِّم لنا صورة للمجتمع اليهودى الذى كان يعيش فى مدن حوض البحر المتوسط فيما بين القرنين الخامس/الحادى عشر والثامن/الرابع عشر . ولا تقف أهمية هذه الأوراق عند الطائفة اليهودية وحدها بل تتعداها إلى كل المجتمع الذى تعايشت معه هذه الطائفة ، خاصة وأن الفترة الفاطمية لم تعرف الـ Gheto الدينى أو الحِرفى ، وبذلك فإن المعلومات التى نعرفها عن أحد فئات هذا المجتمع يمكن اعتبارها صالحة للتعرُّف على بقية فئاته . ميزة أخرى لهذه الأوراق هو احتوائها على وثائق أصلية صادرة عن ديوان الإنشاء أو غيره من الدواوين ، تَسَرَّبَت بطريقة أو بأخرى إلى أيدى اليهود الذين استخدموا ظهورها أو الأماكن الشاغرة فيها فى كتاباتهم المختلفة .

وتوفَّر على دراسة هذه الأوراق عالِمٌ يهودى أمريكى هو البروفيسير صمويل د . جويتين S. D. Goitein الذى كتب سلسلة طويلة من المقالات

---

[٧] طلبًا لمقدمة شاملة عن هذه الأوراق راجع ، Goitein, S. D., A Mediterranean Society, California 1967, I, pp. 1 - 28

والدراسات الاقتصادية الخاصة بتجارة الهند اعتمادًا على هذه الأوراق ابتداء من خمسينات هذا القرن [٨]، ثم كتب مؤخرًا مؤلّفا ضخمًا فى خمسة مجلدات عن مجتمع اليهود فى البلاد العربية المطلة على البحر المتوسط كما تصوره أوراق الجنيزة ظهر فيما بين سنتى ١٩٦٧ و ١٩٨٩ [٩]. واهتم بدراسة هذه الأوراق كذلك عدد من الباحثين منهم J. Mann و M. Gil و S. Shakad و N. A. Stilmann وحسنين محمد ربيع .

– ٣ –

ولاشك أن الدراسات المتخصِّصَة التى تناولت مسائل جزئية من تاريخ الفاطميين قد أنارت لنا الطريق ويَسَّرت لنا فهم وتفسير الكثير من الأحداث والظواهر التاريخية . هذه الدراسات التى بدأها منذ أكثر من مائة وخمسين عامًا أبو الاستشراق الفرنسى سلفستر دى ساسى De Sacy ، وماتبعها من دراسات متخصِّصة حول أصول الإسماعيلية وتاريخ الدعوة المُبَكِّرَة كتبها إيفانوف Ivanov ولويس B. Lewis وشتيرن S. Stern ومادلونج W. Madelung وحسين وعبّاس همدانى Hamdani ومحمد كامل حسين . ثم الدراسات الخاصة بتاريخ الفاطميين السياسى وخاصة دراسات : دى لاسى أوليرى O'Leary ووستنفلد Wustenfeld وحسن إبراهيم حسن وجاستون فييت G. Wietوفرحات الدّشراوى وجمال الدين سرور وتيارى بيانكى Th. Bianquis ويعقوب ليف Y. Lev وكذلك الدراسات المتعلّقة بالنُّظُم والرُّسوم والاقتصاد الفاطمى التى قام بها إنسترونزف Inastrontsefوكانار M.

---

[٨] أعاد جويتين نشر عدد من هذه المقالات فى كتابه Goitein, S. D., Studies in Islamic History and Institutions, Leiden - Brill 1966ونقل قسمًا منها إلى العربية الدكتور عطية القوصى بعنوان « دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية » ، الكويت ١٩٨٠ .

[٩] انظر الهامش رقم ٧ وثبت المصادر والمراجع .

وراشد البرّاوى وكلود كاهن P. Sanders وعبد المنعم ماجد وبولا سوندرز Canard و إس . د . جويتين S. D. Goitein. وأيضًا الدراسات التى تناولت Cl. Cahen الوثائق والسِّجلّات الفاطمية التى قام بها شتِيرن S. Stern وجمال الدين الشيّال . كذلك فإن دراسات ماكس فان برشم Van Berchem وجاستون فييت G. Wiet عن النقوش والكتابات الأثرية قدَّمت لنا فوائد كثيرة فى هذا المجال .

ولاأستطيع أن أُنهى هذا العرض دون الحديث عن كتاب ظهر حديثًا يُعَدّ أهم وأشمل عرض تناول تاريخ الإسماعيليين وعقائدهم منذ البدايات الأُولى للحركة الإسماعيلية وحتى العصر الحديث اعتمادًا على المصادر الأصلية والدراسات الحديثة ، هو كتاب فرهاد دفترى Daftary, F., The Ismaᶜilism their History and Doctrines, Cambridge 1990. ولعل أهم فصول هذا الكتاب هى تلك الفصول المتعلّقة بالبدايات الأُولى للحركة [١٠] وبالدعوة النزارية حتى العصر الحديث .

— ٤ —

وقد تجنَّبت فى كتابة هذا الكتاب الخوض فى التفاصيل الدقيقة للأحداث ، واستعضت عن ذلك بتقديم تحليل لأطوار التاريخ الفاطمى وتوضيح للخطوط العريضة والظواهر الرئيسية لتاريخ الدولة الفاطمية ، وشرح للإستراتيجية التى كانت تحكم سياستهم والأهداف التى كانوا يتطلّعون إليها ومدى نجاحهم أو فشلهم فى تحقيقها .

---

[١٠] أعاد المؤلف صياغة هذا المبحث مع الإشارة إلى العلاقة بين القرامطة والإسماعيلية ونشره فى مقال بعنوان Daftary, F., « The Earliest Ismaᶜilis », Arabica XXXVIII (1991) pp. 214-245.

كذلك حرصت على إظهار التطورات والتغييرات الإيديولوجية والاجتماعية التى طرأت عليهم ، وشرح سياستهم الاقتصادية التى حدَّدَت استراتيجيتهم فى النصف الثانى لتاريخ دولتهم .

ولم أكتف فى هذا العرض بالاعتماد على المواد والمصادر الجديدة أو التى اكتشفت حديثًا ، بل أعدت النظر فى المواد المتوافرة المعروفة والتى أظن أنه لم يُستَفد منها الفائدة المرجوة ، كما أنها أصبحت بحاجة إلى نظرة تحليلية أدق فى ضوء ماظهر من مصادر أدبية ومادية جديدة فى العقود الأخيرة . فقراءة متأنية لمصادر التاريخ الفاطمى من شأنها أن تجلو لنا الكثير من الحقائق التى كانت بعيدة عنّا .

وحرصت كذلك على عدم معالجة الموضوع معزولًا عن قضايا العصر الأخرى مما ساعدنا على إبراز الترابط بين هذه القضايا المعقّدة وتوضيحه .

وبعد ، فأرجو أن أكون قد أسهمت فى تقديم عرض وتفسير وافٍ لتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر اعتمادًا على المصادر الأصلية ونتائج الدراسات الحديثة .

والله من وراء القصد والسبيل ،،،

أيمن فؤاد سيد

مَدْخَل

الإسماعيلية المُبَكِّرة

نشأت الحركة الإسماعيلية كحركة اجتماعية فلسفية سياسية معًا ويَدَّعي أصحابها إيصال نسبهم إلى السيدة فاطمة والإمام علي بن أبي طالب ، وتساءل كاترمير منذ نحو قرن ونصف القرن فيما إذا كانت ادعاءاتهم هذه تستند على الحقيقة ، وهل ينتمون حقًا إلى بيت علي ، أم كانوا مجرد أدْعياء مَهَرَة حالفهم الحظ ؟ وأكَّد أن هذا السؤال يجب أن يثار قبل كل شيء وأنه ذو أهمية قصوى مهما كانت نتيجة الإجابة عليه[1] .

ولاشك أن الفترة المُبَكِّرة في تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، التي تعد فترة حضانة الحركة ، هي الجانب الأكثر غموضًا في كل تاريخ الحركة . وتمتد هذه الفترة من بدايات الحركة الإسماعيلية في منتصف القرن الثاني / الثامن وحتى إعلان الخلافة الفاطمية في إفريقية سنة ٢٩٧/٩٠٩ ، أي نحو قرن ونصف القرن .

وترجع صعوبات دراسة الحركة الإسماعيلية المُبَكِّرة إلى ندرة المعلومات الدقيقة عن التَشَيُّع خلال الفترة العبّاسية الأولى ، عندما لجأت غالبية فرق

---

[1] Quatremère, M., Memoires historiques sur la dynastie des khalifes fatimites, JA 3eme serie t. II (1836), p. 101

الشيعة الإثنا عشرية والإسماعيلية ، وهى فى طور تكوينها ، إلى التَّقِيَّة والعمل السِّرِّى .

ويبدأ تاريخ الإسماعيلية كحركة مستقلة عندما نشأ الجَدَل حول خلافة الإمام جعفر الصّادق ، الذى توفى عام ١٤٨/٧٦٥ . وتشير أغلب المصادر المتاحة إلى أن جعفر الصّادق عَيَّن ابنه إسماعيل خليفةً له بطريق « النَّصّ » . ولايوجد أى شك حول شرعية هذا التعيين الذى تعتمد عليه كل ادعاءات الإسماعيلية التى استمدت إسمها من نسبتها إلى إسماعيل بن جعفر الصّادق[٢] .

ولما كان إسماعيل بن جعفر الصّادق قد توفى فى حياة أبيه ، نحو سنة ١٤٥ / ٧٦١[٣] فقد ذهبت الفرقة التى عُرِفَتْ فيما بعد بالإثنى عشرية ، نسبة إلى أئمتهم الذين كَوَّنوا سلسلة من إثنى عشر إمامًا تبدأ بعلى بن أبى طالب وتنتهى بمحمد بن الحسن العسكرى الذى اختفى وينتظرون عودته ، ذهبت إلى أن موسى الكاظم ، الابن الثانى لجعفر الصّادق ، هو الإمام السابع فى سلسلة الأئمة الإثنى عشر[٤] .

وقد أمسك موسى الكاظم ، مثل والده ، عن أى نشاط سياسى ، فقد كان أحد العلويين الذين رفضوا مساندة الحسين بن على صاحب فَخّ ، الذى ثار فى الحجاز خلال خلافة الهادى القصيرة (١٦٩ – ١٧٠ / ٧٨٥ – ٧٨٩) وقُتِل فى فَخّ قرب مكة مع عدد آخر من العلويين سنة ١٦٩ / ٧٨٦[٥] .

وعاش موسى الكاظم بعد ذلك حتى توفى مسمومًا فى بغداد سنة

---

[٢] راجع ، Daftary, F., The Ismailis their History and Doctrines, Cambridge 1990, pp. 91- 93

[٣] الصفدى : الوافى بالوفيات ٩ : ١٠١ – ١٠٤ .

[٤] Nasr, S. H., EI², art Ithna 'ashriyya IV, pp. 289- 91

[٥] الصفدى : الوافى ١٢ : ٤٥٣ – ٥٤ ، الفاسى : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ٤ : ١٩٦ – ٢٠٠ ، Veccia Vaglieri, L., EI²., art. al. Husayn b. Ali Sahib Fakhkh III p. 636 - 38

٧٩٩/١٨٣ فى أغلب الظن بناءً على أوامر الخليفة هارون الرشيد[٦] .

وكانت هناك فرقتان أخرتان ساندت إمامة إسماعيل بن جعفر الصّادق وتعد البدايات الأولى للحركة الإسماعيلية . ظهرت هاتان الفرقتان عند وفاة إسماعيل وافترقت عن بقية الإمامية فقط بعد وفاة جعفر الصّادق سنة ١٤٨ / ٧٦٥ .

الفرقة الأولى تُنكر وفاة إسماعيل فى حياة أبيه وتؤكّد أنه الإمام الحقيقى بعد جعفر الصّادق ، وتعتقد أنه لم يمت وأنه سيعود « كمهدى » أو « قائم » . وتُدافع هذه الفرقة عن ادعاءاتها بأن جعفر الصّادق إمام لا ينطق سوى الحق ، وأنه أعلن وفاة ولده إسماعيل تَقِيَّة فحسب لحمايته ، وكتم أمره ، خوفًا على سلامته . وقد سمّى النَّوْبَخْتى والقُمّى هذه الفرقة « بالإسماعيلية الخالصة »[٧] ، وأطلق عليها فيما بعد الشَّهْرِسْتانى « الإسماعيلية الواقفة »[٨] .

أما الفرقة الثانية فتؤكّد وفاة إسماعيل فى حياة أبيه وتعترف بإمامة محمد بن إسماعيل وتعتبره صاحب الحق الشرعى فى خلافة إسماعيل ، وترى أن جعفر الصّادق قد عَيَّنه بنفسه فى مكان أبيه بعد وفاته .

وتبعًا لهؤلاء فإن الإمامة لاينبغى لها أن تنتقل من أخ إلى أخيه بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين وأنها يجب أن تستمر فى الأعقاب ، وأن النَّصّ لايرجع القهقرى ، وأن الفائدة منه بقاء الإمامة فى أولاد المنصوص عليه . وهذا هو سبب رفضهم لادعاءات موسى الكاظم وبقية إخوة إسماعيل الآخرين[٩] .

---

[٦] الذهبى : العبر فى خبر من غبر : ٢٨٧ .

[٧] النوبختى : فرق الشيعة ٥٧ – ٥٨ ، القمى : المقالات والفرق ٨٠ ، Daftary, F., op. cit., p. 95 - 90

[٨] الشهر ستانى : الملل والنحل ١ : ١٤٩ .

[٩] النوبختى : فرق الشيعة ٥٨ ، ٦٢ ، القمى : المقالات ٨٠ – ٨١ ، ٨٤ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٥ : ١٦٠ – ١٦١ وفيه نقلا عن جعفر الصادق : « الإمامة فى العقب تجرى فى واحد عن واحد لا ترجع القهقرى ولا تعود إلى الوراء » . وانظر كذلك Stern, S., Heterodox Isma^{c}ilism at - the time of al - Mu^{c}izz, BSOAS XVII (1955), p. 26; Daftary, F., op. cit., p. 96

نَسَبُ الفاطميين

ولا نعرف أى شىء عن تاريخ الإسماعيلية بين نقطة انطلاقها وحتى ظهورها فى أواسط القرن الثالث / التاسع كتنظيم ثورى سرى يعتمد على حركة نشطة من الدعاة الذين انتشروا فى مختلف أقطار العالم الإسلامى .

فتبعًا للرواية الفاطمية الإسماعيلية ، كما أوردها الداعى عماد الدين إدريس فى نهاية القرن التاسع / الخامس عشر ، فقد سبق عبدالله المهدى ، مؤسِّس الخلافَة الفاطمية فى إفريقية سنة ٢٩٧/٩٠٩ ، سلسلة من « الأئمة المستورين » من أبناء محمد بن إسماعيل امتنعت المصادر الإسماعيلية عن ذكر أسمائهم[١٠] . فالأئمة الذين يَصِلون المهدى عبدالله بمحمد بن إسماعيل أشخاص عاشوا فى ظل ظروف يكتنفها الكثير من الغموض ، وحتى المصادر الإسماعيلية المُبَكِّرة التى كُشِفَت حديثًا لا تذكر أسماءهم . كما أن الخلفاء الفاطميين ، فيما بعد ، لم يحاولوا قط إبطال الحملات التى شنَّها ضدهم أعداؤهم أو الرد عليها بسبب إصرارهم على عدم إذاعة أى نسب رسمى لأصولهم اعتمادًا على مبدأ معروف فى دوائر الشيعة هو « عدم كشف أولئك الذين سترهم الله » حتى أن الخليفة الفاطمى الرابع المُعِزّ لدِين الله عندما دخل إلى مصر ولقيه أشرافها وسألوه عن نسبه ، اكتفى بأن سَلَّ لهم نصف سيفه وقال : هذا نسبى ، ونثر عليهم ذهبًا كثيرًا وقال : هذا حسبى[١١] .

---

[١٠] عماد الدين إدريس : عيون الأخبار وفنون الآثار ٤ : ٣٥١ – ٤٠٤ .

[١١] ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ٢٧ – ٢٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ : ٨٢ ، ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر ٦ : ١٤٦ – ١٤٧ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٤٣ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ١٧ : ٤٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤ : ٧٧ .

وقد كذَّب عماد الدين إدريس هذه الرواية (تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ٧٢٧ – ٧٢٨) .

كان الخليفة الفاطمى الأول عبدالله المهدى الوحيد الذى قام بمحاولة لكشف النسب الفاطمى . ففى الرسالة التى بعث بها المهدى إلى جهة اليمن ، والتى أوردها من ذاكرته فى فترة تالية جعفر بن منصور اليمن ، شرح المهدى نسَب الخلفاء الفاطميين معلنًا أسماء الأئمة المستورين[١٢] ، وهى محاولة يمكن أن نضيفها إلى الغموض الذى مازال قائمًا حول هذه القضية .

فهذه الرسالة تثير مشكلات ثلاث هامة هى : هل كان جد الفاطميين الأعلى حقيقة هو إسماعيل أم أخوه الأكبر عبدالله ؟ ثم هل ينتسب المهدى إلى أسرة النبى وآل البيت أم إلى ميمون القدّاح ؟ وأخيرًا هل كان المهدى هو الإمام الشرعى أم كان بديلًا تَنكَّر فى هيئة الإمام عندما داهم الموت فجأة الإمام الحقيقى ؟

ففى هذه الرسالة يُنكِر المهدى اتصال نسبه إلى إسماعيل بن جعفر الصّادق ويقرر أن جده الأعلى هو أخو إسماعيل الأكبر عبدالله ، وأن جعفر الصّادق عيَّن عبد الله وليس إسماعيل كوريث شرعى له[١٣] . وبذلك يفاجأ المرء بأن مهندس الحركة الإسماعيلية لم يكن إسماعيليًا على الإطلاق .

ويتَّفق ماجاء فى رسالة المهدى مع ماجاء فى بعض كتب الأنساب والفِرَق ، وإن اختلفت فى التفصيلات . فيذكر ابن حَزْم أن بنى عُبَيْد ، ولاة مصر الآن ، قد ادَّعوا فى أول أمرهم إلى عبدالله بن جعفر بن محمد .. ، فلما صَحَّ عندهم أن عبدالله هذا لم يُعَقِّب إلّا ابنة واحدة [اسمها فاطمة] تركوه وانتموا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد »[١٤] . ولكن مُصْعَبِ بن الزُّبير ، وقد كتب كتابه قبل قيام الخلافة الفاطمية بنحو ستين عامًا ، يذكر أن عبدالله

[١٢] فى نسب الخلفاء الفاطميين ، تقديم حسين الهمدانى ، القاهرة – الجامعة الأمريكية ١٩٥٨ .

[١٣] نفسه .

[١٤] ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ٥٩ . مصعب بن الزبير : نسب قريش ، تحقيق ا . ليفى بروفنسال ، ٦٤ .

وإسماعيل ابنى جعفر الصّادق من زوجته فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن على بن أبى طالب[١٥] ، وأن لعبدالله ولدًا أو أولادًا ، لم يذكر أسماءهم ، لأم ولد[١٦] .

كذلك يذهب النُّوبَختى والقُمّى إلى أن عبدالله لم يترك أولادًا بعد وفاته ، ولكن القُمّى يذكر فى موضع آخر أن عبدالله وُلِدَ له ولد من أم ولد اسمه محمد ، وأنه أرسله إلى جهة اليمن وانتقل بعد وفاة والده إلى خراسان وأنه هو الإمام بعد أبيه وهو « القائم » . وأن هذه الفرقة صغيرة يوجد بعضها فى العراق واليمن ولكن أغلبها يوجد فى خُراسان . كما توجد أيضًا شِرْذِمَة تعتقد أن الإمامة باقية فى ذرية عبدالله حتى يوم القيامة وأن عبدالله مات وخَلَّف بعده ولدًا وأن الإمامة فى ولده[١٧] . وهذا يُثْبِتَ على الأقل أن المهدى لم يكن الوحيد الذى يَدّعى أن لعبد الله ذرية من الذكور .

أما الرواية المضادة للرواية الفاطمية فمصدرها هو أبو عبدالله محمد بن على ابن رزام الطائى الكوفى الذى كتب مؤلَّفه فى مطلع القرن الرابع / العاشر . وقد ضاع نَصّ ابن رزام الأصلى ولكنه حُفِظَ فى بعض المؤلّفات المتأخرة وعلى الأخص عند ابن النديم فى « الفهرست »[١٨] والمقريزى فى « الاتعاظ »[١٩] . وكذلك الشريف أخو محسن أبو الحسن محمد بن على المتوفى سنة ٩٨٥/٣٧٥ ، وقد فُقِد كذلك نص أخى محسن وإن حفظه لنا النويرى فى « نهاية الأرب » وابن أَيْبك فى « كنز الدُّرر »[٢٠] والمقريزى[٢١] ، الذى يُعَدّ أوّل

---

[١٥] مصعب : نسب قريش ٦٣ .

[١٦] نفسه ٦٤ .

[١٧] النوبختى : فرق الشيعة ٦٥ – ٦٦ ، القمى : المقالات ٨٧ – ٨٨ ، ١٦٣ – ١٦٤ .

[١٨] ابن النديم : الفهرست ، طهران ١٩٧١ ، ٢٣٨ – ٢٣٩ ،

[١٩] المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ١ : ٢٢ – ٢٩ ، الخطط ١ : ٣٤٨ ، المقفى ، تحقيق محمد اليعلاوى ، ٧٥ – ٨١ ،

[٢٠] النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب – خ ٢٦ : ٢٣ – ٢٥ ، ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ٦ : ٦ – ٢١ .

[٢١] المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٢ .

من ذكر أن ابن رزام كان مصدر أخى محسن .

وأهم مايميّز هذه الرواية هو الزعم بأن شخصًا غير علوى يُدْعى عبدالله بن ميمون القَدّاح هو المؤسّس الحقيقى للحركة الإسماعيلية وأيضًا الجد الأعلى للخلفاء الفاطميين . وميمون القدّاح كان مولى لبنى مخزوم ومن أهل مكة ، وهو تلميذ للإمام محمد الباقر وروى عنه العديد من الأحاديث . أما ابنه عبدالله ، الذى توفى خلال النصف الثانى للقرن الثانى / الثامن ، فقد كان راوية لجعفر الصّادق وهو من العلماء المعتبرين عند الشيعة الإمامية ، لذلك فإن « المَحْضَر » الذى أصدره العبّاسيون فى سنة ٤٠٢ / ١٠١١ بالطعن فى نسب الفاطميين ووقّع عليه الشريف المرتضى لم يرد فيه ذكر لميمون هذا وابنه .

ولكن لماذا اختار ابن رزام عبدالله بن ميمون القدّاح الذى عاش فى القرن الثانى / الثامن ليعتبره مهندس حركة ظهرت فى القرن الثالث / التاسع بعد عدة عقود من وفاته . إن الرجوع إلى رسالة المهدى التى أرسلها إلى جهة اليمن يُمَكّننا من إيجاد إجابة مقبولة لهذا التساؤل . فتذكر الرسالة أن جعفر الصّادق خلف أربعة أولاد : عبد الله وإسماعيل وموسى ومحمد ، صاحب الحق فيهم هو عبدالله بن جعفر[٢٢] . ولما أراد الأئمة أولاد جعفر « إحياء دعوة الحق » خافوا من نفاق المنافقين وحفظوا شخصياتهم بعيدًا عن اضطهاد العبّاسيين ، فتسمّوا بغير أسمائهم وأطلقوا على أنفسهم مبارك وميمون وسعيد للفأل الحسن فى هذه الأسماء[٢٣] . وهى إشارة واضحة إلى مبدأ « التَّقِيَّة » عند الشيعة[٢٤] . فلقب ميمون الذى أطلق على أحد أولاد جعفر الصّادق هو الذى قاد إلى هذا الخلط .

---

[٢٢] المهدى عبدالله : فى نسب الخلفاء الفاطميين ٩ .

[٢٣] نفسه ١٠ .

[٢٤] فقد روى عن جعفر الصّادق قوله : « التقية دينى ودين أبائى ، ومن لاتقية له فلا دين له » . (نفسه ٩) .

ويضيف المهدى فى رسالته أنه أشير بالإمامة إلى عبدالله الذى تسَمّى بإسماعيل ، ودعى إلى أن المهدى سيكون محمد بن إسماعيل . فكان كلما قام منهم إمام تسمّى بمحمد إلى أن يظهر صاحب الظهور الذى هو محمد بن إسماعيل فتزول التقية[٢٥] .

وتبعًا لمبدأ التقية فى كتم أسماء الأئمة يكون تسلسل الأئمة المستورين كما أورده المهدى عبدالله فى رسالته كالآتى : الإمام عبدالله بن جعفر الصّادق ، ثم بعده عبد الله بن عبدالله ، ثم أحمد بن عبدالله ثم محمد بن أحمد ، وقد تسمى كل واحد من هؤلاء بمحمد خلا عبد الله بن جعفر فقد تسمى بإسماعيل[٢٦] . « والإشارة فى الدعوة إلى محمد بن إسماعيل ، والمراد بإسماعيل عبدالله »[٢٧] .

ويشير جعفر بن منصور اليمن ، الذى حفظ لنا هذه الرسالة ، أن الإمام محمد بن أحمد أوصى إلى ابن أخيه ، وأعطاه باختيار الله أمره كله ، وتسمى سعيد بن الحسين وصارت الدعوة إليه زمانًا . فلما آن وقت الظهور أظهر مقامه وأظهر اسم عبدالله ، وظهر معه كذلك أبو القاسم محمد « فصَحَّت الإشارة إلى القائم بن المهدى : محمد بن عبدالله أبى القاسم الإمام المنتظر لعِزّ دولة الدين والجهاد برايات المؤمنين »[٢٨] .

وعندما نسب المهدى نفسه فى الرسالة قال : « والولى الآن (يعنى نفسه) على بن الحسين بن على بن أحمد بن عبدالله بن عبدالله ثانية بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب .... وإسمه الظاهر عبدالله بن محمد ، لأنه ابن محمد بن أحمد فى الباطن »[٢٩] .

---

[٢٥] نفسه ١٠

[٢٦] المهدى عبدالله : المصدر السابق .

[٢٧] نفسه ١٠ .

[٢٨] نفسه ١١ .

[٢٩] نفسه ١١ – ١٢ .

نخرج من ذلك إلى أن محمدًا أبا المهدى الباطن ليس مثل المهدى من نسل عبدالله بن جعفر الصّادق (الذى تسمى بإسماعيل) وإنما من نسل أخيه الثانى إسماعيل (الذى تسمى بمبارك) وعلى وجه الدقة هو ابن حفيد إسماعيل[٣٠] .

وهذا يعنى أن قائمة الأئمة المستورين التى ذكرها المهدى تنتسب فى الحقيقة إلى فرعين متوازيين لأبناء جعفر الصّادق . فمحمد عم المهدى ليس بمعنى أنه شقيق والده ، وإنما بإرجاع نسبهما إلى الأخوين عبدالله وإسماعيل ابنى جعفر الصّادق[٣١] .

وتشير الرسالة بوضوح إلى أن محمد بن إسماعيل ، الذى يعده الإسماعيليون الإمام السابع ، ليس سوى محمد بن عبدالله الذى تسمى بإسماعيل .

ويبدو أن المقريزى قد اطّلع على أحد الرسائل الفاطمية التى تثبت حقيقة نسب المهدى ، أطلعه عليها واحد من بقايا الإسماعيليين الموجودين فى صعيد مصر فى زمنه . فبعد أن يذكر رواية ابن رزام وأخى محسن ، ذكر نسبه كما ورد فى رسالة المهدى التى أرسلها إلى ناحية اليمن ، كما يلى : أبو محمد بن محمد الحبيب (أو الحكيم) بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن الإمام إسماعيل بن جعفر الصّادق[٣٢] ، أو عبدالله بن التقى بن الوفى بن الرضى ، وهؤلاء الثلاثة يقال لهم « المستورون فى ذات الله تعالى » . وأوضح أن « الرضى » هو ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق ، وأن « التقى » اسمه الحسين ، واسم « الوفى » محمد[٣٣] .

ومن الغريب أن عماد الدين إدريس ، الداعى الفاطمى الشهير ، قد خلط

---

[٣٠] Hamdani, A. & de Blois, F., « A Re- examination of al- Mahdi's Letter to the yemenites on the Geneology of the Fatimid Caliphs » , JRAS (1982) p. 182

[٣١] Ibid., p. 185 .

[٣٢] المقريزى : المقفى الكبير ٥٣ ، اتعاظ الحنفا ١ : ٥٠ .

[٣٣] نفسه ٥٥ .

نسب المهدى بين فرعى إسماعيل وعبدالله ابنى جعفر الصّادق فقال إنه « المهدى بالله أبو محمد عبدالله بن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق »[٣٤] .

وقد قام أبو على محمد الحبيب بن أحمد المكنى « سعيد الخَيْر » بدور هام وأساسى فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية . فهو لم يكن إمامًا وإنما عم المهدى وزوج أمه ، وهى من فرع إسماعيل ، استكفله له أبوه بعد أن انتقل من عسكر مُكْرم فى خوزستان إلى سَلَمْية[٣٥] . ورغم أن محمد بن أحمد المكنى سعيد الخير لم يكن إمامًا فهو الذى أنفذ الدعاة بعد وفاة والد المهدى إلى اليمن وغيرها . فقد توفى والد المهدى وهو ابن ثمان سنين ، نقل عماد الدين إدريس هذا الخبر عن كتاب « سيرة الإمام المهدى » الذى فقد اليوم[٣٦] .

وتزوّج المهدى من ابنة عمه الباطن محمد بن أحمد فولدت له ابنه القائم بأمر الله محمد بن عبدالله سنة ٢٨٠ / ٨٩٣[٣٧] . وبذلك فعلينا استبعاد فكرة أن القائم ليس ابنًا للمهدى إذ هو بوضوح ابن للمهدى وفى الوقت نفسه ابن لابنة الإمام السابق لوالده الإمام محمد بن أحمد . فيكون بذلك قد جمع بين فرعى أبناء جعفر الصّادق : عبدالله (من والده) وإسماعيل (من والدته) .

كانت المشكلة التى واجهت الدعاة ، كما يذكرها صاحب « رسالة استتار الإمام » ، أن الحسين بن أحمد والد المهدى الحقيقى عندما أتته الوفاة استودع له أخاه محمد الحبيب المكنى سعيد الخير الذى استبد بالإمامة ونص بها على ولده فهلك هذا الولد وهلك بعده تسعة من أولاده ، كما فى رواية « استتار الإمام » . فعلم سعيد الخير أن الحق لايفارق أهله وجمع دعاته وأعلمهم أنه

---

[٣٤] عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٤٣ .

[٣٥] المقريزى : المقفى الكبير ٥٥ .

[٣٦] عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٤٤ .

[٣٧] نفسه ١٤٤ .

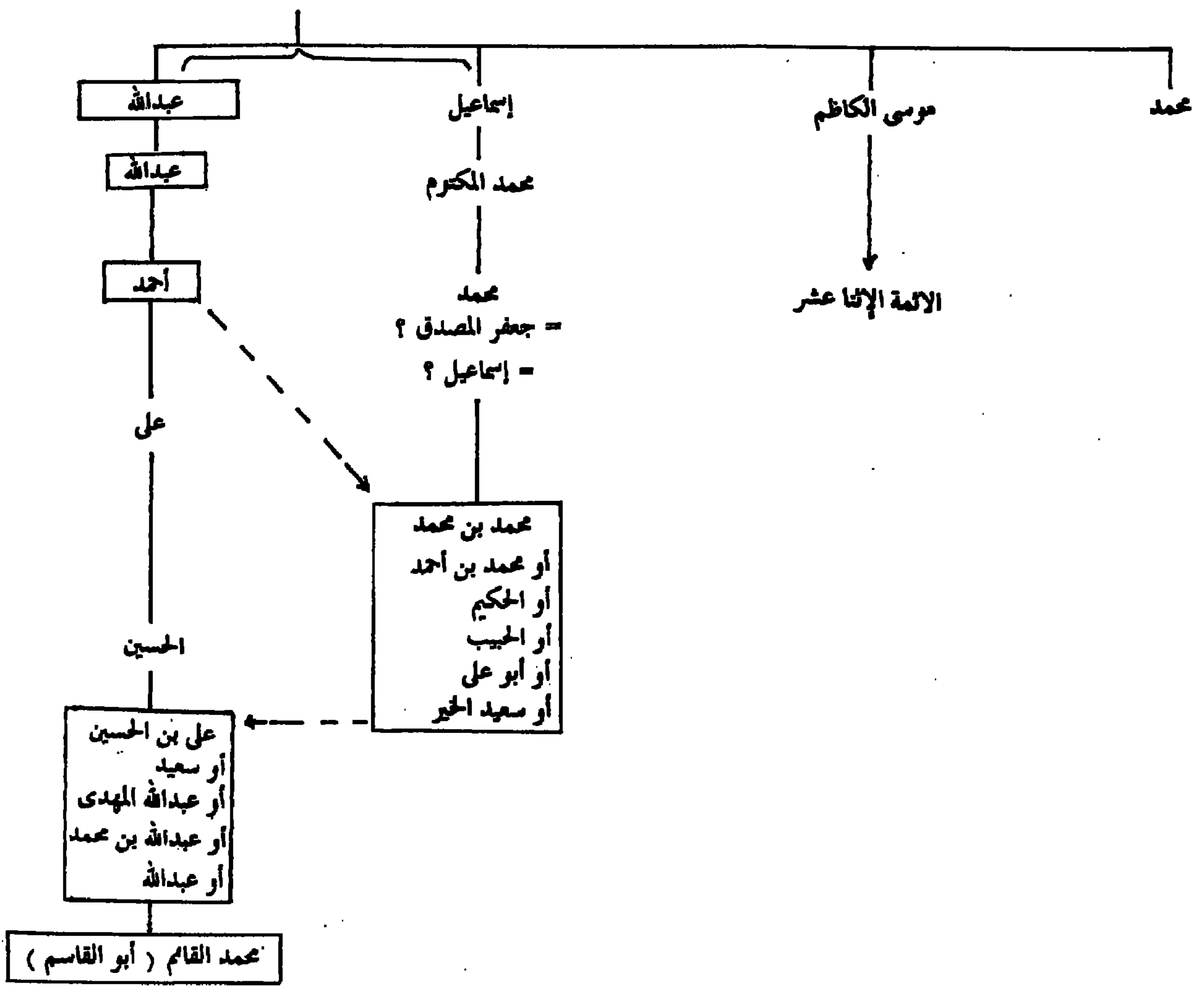
مستودع للمهدى وسلّم له الإمامة[٣٨] .

وبما أن سعيد الخير هو الذى أرسل الدعاة لبدء نشر الدعوة الإسماعيلية ، فإن بعض أتباع الدعوة لم يعترفوا بإمامة المهدى وخرجوا عليه وانضموا إلى القرامطة .

ونستخلص من رسالة المهدى إلى ناحية اليمن أمورًا ثلاثة : أولًا التأكيد على أن عبدالله وليس إسماعيل هو الذى عيّنه جعفر الصّادق ليكون وريثًا له . ثانيًا أن المهدى من آل البيت وأنه ابن عم فى الباطن للرجل الذى كان فى زمنه وريثًا للإمامة . وأخيرًا فإن المهدى ربما كان إمامًا مستودعًا للقائم أبى القاسم محمد الذى يبدأ به دور الظهور الحقيقى لأنه هو محمد بن عبدالله الذى أشارت إليه الدعوة وزالت به التقية .

---

[٣٨] استتار الإمام ، مجلة كلية الآداب ـ الجامعة المصرية ٢/٤ (١٩٣٦)) ٩٥ – ٩٦ .


فاطمة = جعفر الصادق
عبدالله
إسماعيل
موسى الكاظم
محمد
عبدالله
محمد المكترم
أحمد
محمد
= جعفر المصدق ؟
= إسماعيل ؟
الائمة الإثنا عشر
على
محمد بن محمد
أو محمد بن أحمد
أو الحكيم
أو الحبيب
أو أبو على
أو سعيد الخير
الحسين
على بن الحسين
أو سعيد
أو عبدالله المهدى
أو عبدالله بن محمد
أو عبدالله
محمد القائم (أبو القاسم)

الدَّعْوَة الإسماعيلية
حتى إعلان الخلافة الفاطمية

بدأت الحركة الإسماعيلية كتنظيم ثورى سرى يعتمد على مجموعة من الدعاة النشيطين المنتشرين فى أرجاء العالم الإسلامى اعتبارًا من منتصف القرن الثالث/ التاسع . وقصد هؤلاء الدعاة بوجه خاص الأطراف التى غلب على أهلها الغَفْلة والجهل ، وعلى الأخص فى أقاليم إيران وخُراسان والشمال الإفريقى واليمن الذى وصفه أبو العلاء المَعَرّى بأنه كان « معدنًا للمتكسبين بالتدين والمحتالين على الحق بالتزيُّن »[٣٩] . وعلى ذلك فقد بدأ القاضى النعمان بن حَيّون « رسالة افتتاح الدعوة » بإرسال الإمام الإسماعيلى للداعى ابن حَوْشَب إلى جهة اليمن يدعو إلى قرب ظهور الإمام المهدى من آل فاطمة ، ولا يمدنا القاضى النعمان بأية تفصيلات عن الفترة السابقة على ذلك .

وقد بدأ النشاط المُكَثَّف للدعاة فى الظهور فى أعقاب اختفاء الإمام محمد بن الحسن العَسْكرى ، آخر الأئمة الإثنى عشرية ، فى السرداب . ويبدو ، كما يقول الدكتور محمد كامل حسين ، أن بعض الشيعة من الإثنى عشرية صدموا لاختفاء ، الإمام الثانى عشر فى السرداب دون وريث ، فتطلّعوا إلى الفرع الآخر من أبناء جعفر الصّادق المتسلسل من محمد بن إسماعيل فتبنوا الدعوة لهم بعد أن ظل أبناء محمد بن إسماعيل بعيدين كل البعد عن أى نشاط علنى للدعوة

---

[٣٩] أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمٰن ، القاهرة - دار المعارف ١٩٦٩ ، ٣٧٦ .

لأنفسهم طوال هذه المدة [٤٠] . يؤيد هذا الرأى أن دعاة الإسماعيلية الأوائل مثل ابن حَوْشَب وأبو عبد الله الشيعى كانوا فى ابتداء أمرهم إثنى عشرية .

وقد قَسَّم الإسماعيليون العالم الإسلامى إلى اثنتى عشرة جزيرة بكل منها داعٍ مطلق يرأس مؤسسة الدعوة فى الجزيرة . وكانت جزيرة اليمن من أخصّ الجزائر عند الإسماعيليين ، وقد وصفها الخليفة الفاطمى العاشر الآمر بأحكام الله فى أحد سجلّاته بأنها « من الأصقاع التى يراعى أمير المؤمنين جميع أمورها ويؤثر إصلاح كبير أحوالها وصغيرها وذلك لأنها من مهاجر المسلمين من أوّل الزمان ومحل أهل الإيمان ، منذ اشتدت قاعدة الإسلام إلى الآن ، ولم تخل من أبناء الدعوة الفاطمية وأولياء الدولة العلوية » [٤١] .

كان انتشار الشيعة والمتشيعين فى بلاد اليمن سرًّا وعلانيةً من أهم الأسباب التى دعت الإمام محمد بن أحمد ، آخر الأئمة المستورين ، إلى إرسال أبى القاسم بن حَوْشَب إلى هناك . وحال بُعْد اليمن عن مركز الخلافة ووعورة طرقها بسبب طبيعتها الجبلية ، بالإضافة إلى انشغال العبّاسيين بمواجهة ثورة الزّنج ، حال بينهم وبين توجيه الجيوش إلى اليمن لإنقاذها من دعاة الإسماعيليين .

واعتبر القاضى النعمان اليمن « أصل الدعوة وإليها أرسل الداعى ومنها نفذ إلى المغرب وعن صاحب دعوتها أخذ وبآدابه تأدّب [٤٢] . فدعوة اليمن هى الطور

---

[٤٠] محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية – تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، القاهرة – مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، ٢١ .

[٤١] الحامدى : تحفة القلوب فى ترتيب الهداة والدعاة فى الجزيرة اليمنية (متضمن فى كتاب الأزهار للحسن بن نوح) ، نشره صمويل شتيرن فى مقاله القيم - Stern, S. M., " The Succession of the Fatimid Imam al - Amir, the claims of the later Fatimid to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism ", Oriens IV (1951), p. 233.

[٤٢] القاضى النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، بيروت – دار الثقافة ١٩٧٠ ، ٣٢ .

الرئيسى فى أطوار تطور الدعوة الإسماعيلية ، فهى التى مَهَّدت لظهورها علانية وإعلان قيام الخلافة المنتظرة ، رغم أنه كان للإسماعيليين فى أواسط القرن الثالث/ التاسع تنظيم دقيق وجذور قوية فى مناطق مثل فارس والشام ولكنها كانت قريبة فى متناول الخلافة العبّاسية ومركزها فى بغداد .

وارتبطت دعوة اليمن بشخصيتين رئيسيتين ارتبطت بهما فى الوقت نفسه الدعوة الإسماعيلية الأم هما : أبو القاسم الحسن بن فَرَح بن حَوْشَب ابن زادان النجار الكوفى الذى عرف فيما بعد بـ « منصور اليمن » لما أتيح له من النصر هناك [43] ، وأبو الحسن على بن الفَضْل الجَيْشانى . وأهم مصدر يحدثنا عن ابن حَوْشَب هو « رسالة افتتاح الدعوة » للقاضى النعمان الذى ذكر أنه كان فى ابتداء أمره على مذهب الإمامية الإثنى عشرية وأوضح لنا كيفية انتقاله إلى المذهب الإسماعيلى ولقائه بـ « إمام الزمان » الذى بعثه إلى اليمن بعد فترة إعداد وتكوين بصحبة على بن الفضل . وأمره أن يقصد هناك مدينة « عَدَن لاعة » قائلا له : « إلى عَدَن لاعة فاقصد وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا وفيها تعز دولتنا ومنها تفترق دعاتنا » [44] .

ولن أعيد هنا ذكر ماجرى من أحداث لابن حَوْشَب وصاحبه فى اليمن وما حقّقه من نصر هناك ومخالفة ابن الفَضْل له . ومايهمنا فى هذه الأحداث هو أن الإمام المستور لما تأكّد من ظهور دعوة ابن حَوْشَب وتمكنها فى اليمن أرسل الداعى أبا عبد الله الشيعى (الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا) إلى اليمن

---

[43] راجع عنه ، القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ٣٢ – ٦٣ ، ١٤٩ – ١٥٠ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ٥٩ – ٧٨ ، حسين الهمدانى : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ، القاهرة ١٩٥٥ ، ٢٩ – ٤٨ ، أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ، القاهرة ١٩٨٨ ، ٩١ – ٩٦ ، Halm, H., "Die Sirat Ibn Hawshab : Ismailitische da'wa im Jemen und die Fatimiden", Die Welt des Orients XII (1981), pp. 108 - 35; Madelung, W., EI²., art. Mansur al - Yaman VI, pp. 424 - 25

[44] القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ٤١ .

وكتب إلى ابن حَوْشَب أن يُبَصِّرَه ويرشده ويلقنه ، ووصَّى أبا عبد الله فى الوقت نفسه أن يمتثل سيرته وينظر إلى أفعاله ويحتذيها [٤٥] .

وذكر القاضى النعمان أن الإمام طلب إلى أبى عبد الله أن يذهب بعد ذلك حيث يشاء يدعو ، وقيل إنه حَدَّد له المغرب وأرسله إلى بلد كُتامَة ، وعلَّق على ذلك بأنه « أثبت الأمرين » [٤٦] . ويفهم من نص « سيرة جعفر الحاجب » ومما ذكره ابن خلدون والمقريزى ، أن الإمام أرسله بعد اليمن إلى مصر وأنه التقى بحاج كُتامة بمكة فى طريقه إلى مصر فمضى معهم إلى المغرب [٤٧] . وقد عَدَّ المقريزى أبا عبد الله الشيعى « أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظام من غير مال ولا رجال » [٤٨] .

كان الشمال الإفريقى أرضًا مهيأة لنُصْرَة المذهب الإسماعيلى ، ذلك أن التَشيُّع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعرب وللعصبية العربية . فكما اعتمد فى المشرق على الموالى من الفرس اعتمد فى المغرب على الموالى من البَرْبَر ، فقامت فيه بالفعل أسرة شيعية من الفرع الحسينى أسَّسَت سنة ١٧٣/٧٨٨ « دولة الأدارِسَة » التى سيطرت بدون مشقة كبيرة على المغرب الأقصى [٤٩] ، كما اشتمَل المغرب الأوسط فى النصف الثانى للقرن الثالث/التاسع — باستثناء الأراضى التابعة لإمام تاهرت — على إمارات كثيرة تابعة للعلويين بلغ عددها كما يذكر الجغرافى اليعقوبى ، الذى زار المنطقة بين سنتى ٢٦٣/٨٧٦ — ٢٧٦/٨٨٩ ، تسع إمارات علوية [٥٠] .

---

[٤٥] المصدر نفسه ٥٩ ، عماد الدين إدريس : المصدر السابق ٧٢ .

[٤٦] نفسه ٥٩ — ٦٠ .

[٤٧] ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٥٠ .

[٤٨] المقريزى : اتعاظ الحنفا ١ : ٦٨ .

[٤٩] عن هذه الدولة راجع ، حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب قيامها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة .

[٥٠] اليعقوبى : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩٢ ، ٣٥١ — ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، Talbi, M., L'Emirat Aghlabide 184 - 296 / 800 - 909 - Histoire Politique, Paris 1966, pp. 567 - 69

وقد كان فرار العلويين من الشرق هربًا من الاضطهاد الذى تعرَّضوا له هناك . وكانوا جميعًا تقريبًا من فرع الحسن بن على الذين لوحقوا من العبّاسيين دون هوادة ، بينما احترم العبّاسيون جعفر الصّادق وذريته عامة . وقد تمكن هؤلاء العلويون من التمركز فى الشمال الإفريقى فى الأراضى التى ضعفت فيها سلطة الخليفة العبّاسى وممثليه ، ولكن وجودهم لم يمثل ثورة على السلطة العباسية وإنما فرارًا من اضطهادها لهم [٥١] .

ولا شك فى أن المذهب الشيعى قد دخل إلى إفريقية بصورة أكثر سرية وتنظيمًا قبل وصول الداعى الإسماعيلى أبى عبد الله الشيعى ، فقد وصل أوَّل تسَلُّل شيعى إسماعيلى إلى إفريقية فى أواسط القرن الثانى/الثامن قبل نحو ١٣٥ عامًا من وصول أبى عبد الله الشيعى إلى هناك ، وهى بعثة الداعيين أبى سُفْيان والحَلْوانى . وقد ذكر خبر هذين الداعيين باقتضاب ابن الأثير – الذى نقله فى أغلب الظن عن المؤرِّخَيْن الرقيق القيروانى وعبد العزيز بن شَدّاد – والنُّوَيْرى وابن خَلْدون والمقريزى [٥٢] ، بينما لم يذكرهما إطلاقًا ابن عِذارىّ وابن حمّاد الصِّنْهاجى . أما تفصيل أخبار بعثة أبى سُفْيان والحَلْوانى ونشاطها ، فقد وصل إلينا عن طريق التاريخ الرسمى للدولة الفاطمية من خلال كتاب « افتتاح الدعوة » للقاضى النعمان [٥٣] . ويفيدنا هذا الكتاب بأنهما قدما من الشرق للاستقرار فى المغرب سنة ٧٦٢/١٤٥ وأن الذى بعثهما – فيما يقال – الإمام جعفر الصّادق وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة وينشرا فضلهم ، وطلب منهما أيضًا اجتياز حدود إفريقية ذاتها والافتراق والاستقرار بين البَرْبَر .

وقد استقر أبو سُفْيان بضواحى مَرْماجَنّة فى تالا التى صارت بتأثيره « دار

---

[٥١] Talbi, M., op. cit., p. 569

[٥٢] ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣١ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٢٤ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٥٠ ، Talbi, M., op. cit., p. 574

[٥٣] القاضى النعمان : افتتاح ٥٤ – ٥٨ وعنه عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٤ : ٣٢٤ – ٣٢٥ .

شيعة » بصورة تدريجية وحافظت على ذكراه وتعاليمه بعد موته بورع شديد [٥٤] . أما الحلْوانى ، الذى عاش « دهرًا طويلًا بعد أبى سفيان » ، فذهب إلى ناحية سوجْمار واستقر بالناظور على حدود بلاد كُتامَة « وتشيع كثيرٌ منهم على يديه » وكان يقول لهم : « بُعِثْتُ أنا وأبو سُفْيان فقيل لنا : اذهبا إلى المغرب فإنما تأتيان أرضًا بورًا فاحرثاها واكرباها وذلّلاها إلى أن يأتيها صاحب البَذْر فيجدها مذللة فيبذر حَبَّه فيها » [٥٥] . وأضاف القاضى النعمان ، مصدر كل هذه المعلومات ، أنه كان « بين دخولهما المغرب ودخول صاحب البذر – وهو أبو عبد الله – مائة وخمس وثلاثون سنة » [٥٦] .

وهكذا فإن القاضى النعمان قد حاول من خلال هذا النص الإيحاء بأن المهمة التى أوكلت إلى أبى عبد الله الشيعى لم تكن سوى تتويج لعمل دُبِّر بعناية بدىء به قبل مائة وخمس وثلاثين عامًا مضت . ولكن الاحتمال الذى يمكننا الأخذ به هو أن أبا سفيان والحلوانى كانا تلميذين لجعفر الصّادق ولم يقوما بدعوة بالمعنى المعروف فى الاصطلاح الإسماعيلى ، وإنما قاما بشىء مختلف وأبسط من ذلك بكثير تمثَّل فى نشرهم محبة أهل البيت وفضلهم الذى صاحبه دون شك نشر الأصول العامة للمذهب الشيعى وهو الذى أطلق عليه القاضى النعمان « ظاهر علم الأئمة » ، فيكون أبو سفيان والحَلْوانى رائدين بهذا المعنى وهيئا التربة للداعى الإسماعيلى [٥٧] .

ولا شك أن إنجاح مهمة أبى عبد الله الشيعى كان يتطلّب إيجاد مبشرين يعلنون عن ظهوره وظهور المهدى إثره ، وهو الأمر الذى أسهم فى تجسيد قصة أبى سُفْيان والحَلْوانى لتتحقق علامات وصول الفاطميين إلى السلطة بعد مراحل

---

[٥٤] نفسه ٥٤ – ٥٦ ، نفسه ٣٢٤ – ٣٢٥ .
[٥٥] نفسه ٥٧ – ٥٨ ، نفسه ٣٢٥ .
[٥٦] نفسه ٥٨ ، وانظر كذلك Dachraoui, F., Le Califat Fatimide au Maghreb pp. 56 - 58
[٥٧] Talbi, M., op. cit., pp. 577 - 78

ثلاث هى الحَرْث والبَذْر والحَصْد . فيذكر ابن الأثير والمقريزى أن ابن حوشب عندما عهد إلى أبى عبد الله الشيعى بالدعوة فى المغرب قال له : إن أرض كُتامَة من المغرب قد حرثها الحَلْوانى وأبو سفيان ، وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك [٥٨] .

فى هذا الوقت وَفَد الإمام الإسماعيلى على بلاد الشام وأقام فى مدينة « سَلَمْية » قرب حِمْص يعاشر قومًا من أهلها هاشميين ويظهر لهم أنه عبّاسى . وفى الوقت نفسه كان يلاطف كل من يلى سَلَمْية ويبالغ فى الإحسان إليه حتى يكسبه إلى جانبه [٥٩] . وقد استراب أحد ولاة المدينة من الأتراك فى أمر الإمام الإسماعيلى وأخذ يتعرَّف أخباره ويسأل عنه الناس ، فلما أحس به الإمام كتب إلى دعاته ببغداد للعمل على عزله ونجحوا فى مهمتهم . وعندما عاد الوالى إلى بغداد أَسَرَّ إلى الخليفة العبّاسى ما قيل له عن شخص الإمام الإسماعيلى وأقنعه فى أن لا يتردد فى إلقاء القبض عليه [٦٠] .

وتصادف أن خرج فى هذا الوقت رجل بالشام يزعم أنه قرمطى [٦١] (نحو سنة ٩٠٢/٢٨٩) ، فلم يشك الخليفة العباسى فى أنه خرج يدعو للإمام الإسماعيلى خاصة وأنه سار يريد سَلَمْية . فأمر الخليفة الوالى التركى بالتوجه إلى سَلَمْية وأن يسبق القرمطى ليقبض على الإمام . كتب الدعاة ببغداد إلى الإمام بما جرى ليتدبَّر أمره ، فأعد العُدّة ليخرج من سَلَمْية [٦٢] . وهكذا فلولا حركة القرامطة بالشام لما عرف العبّاسيون عن الإمام الإسماعيلى شيئًا ، وكانت حركتهم إيذانًا

---

[٥٨] ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣١ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٥٥ ، المقفى (خ . ليدن) ٢ : ٢١٨ ظ .

[٥٩] محمد اليمانى : سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقّادة ، تحقيق و . ايفانوف ، مجلة كلية الآداب — الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ١٠٨ .

[٦٠] نفسه ١٠٩ .

[٦١] راجع ، المسعودى : مروج الذهب ٥ : ٩٢ ، م . مجهول : العيون والحدائق ٤ : ١٠٧ .

[٦٢] محمد اليمانى : المصدر السابق ١١٠ .

بظهور الإسماعيلية على مسرح السياسة بصفة إيجابية بعد أن ظلت مستترة لا يعرف أحدٌ شيئًا عنها زهاء قرن من الزمان [٦٣] .

وأهم مصدر يحدِّثنا عن رحلة المهدى (الإمام الإسماعيلى) من سَلَمْية إلى مصر ثم إلى الشمال الإفريقى وما صاحبها من أحداث هو « سيرة الحاجب جعفر » ، الذى صاحب المهدى فى رحلته ورواها لنا شخصٌ يعرف بمحمد اليمانى . تذكر السيرة أن المهدى أمر أصحابه بالأخذ فى أهبة السفر والخروج معه « وأظهر لهم أنه يريد إلى اليمن » [٦٤] ، يقول جعفر : « فسرنا مع المهدى لا نشك أن إلى اليمن سيرنا » [٦٥] . سار الركب إلى طَبَرِيّة ومنها إلى الرَّمْلَة حيث توجه إلى مصر فاستقبلهم بها الداعى أبو على صهر الداعى فيروز الذى كان فى صحبة المهدى . وقد طلب المهدى من أبى على أن ينزله عند من يثق به ، فأنزله عند رجل يقال له ابن عيّاش [٦٦] . فى ذلك الوقت وصل الكتاب الوارد من بغداد بصفة المهدى وطَلَب القبض عليه ، فاستفسر عامل مصر من ابن عيّاش عن أمر الرجل الذى ينزل عنده ، فأخبره أنه رجلٌ شريف تاجر و « أن الذى أتى الرسول فى طلبه قد أعطيت خبره أنه توجّه إلى اليمن قبل ورود الرسول بمدة طويلة » [٦٧] .

كان رفقاء المهدى حتى هذا الوقت يعتقدون أنهم سيتجهون إلى اليمن ، إلّا أن الكتاب الوارد من بغداد إلى عامل مصر بصفة المهدى وطَلَب القبض عليه ، جعله يُفْصِح عن نيته فى الخروج إلى المغرب وأَسَرَّ بها إلى حاجبه جعفر [٦٨] فشق ذلك على مرافقيه وخاصة داعيته الرئيسى فيروز الذى وصفه جعفر بأنه « داعى

---

[٦٣] محمد كامل حسين : المرجع السابق ١٥ .

[٦٤] محمد اليمانى : المصدر السابق ١١٠ – ١١١ ، القاضى النعمان : افتتاح ١٤٩ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٣٢ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٥٢ .

[٦٥] نفسه ١١١ ، ١١٤ .

[٦٦] نفسه ١١٣ .

[٦٧] نفسه ١١٣ .

[٦٨] نفسه ١١٤ ، القاضى النعمان : افتتاح ١٥٠ – ١٥١ .

الدعاة وأجلّ الناس عند الإمام وأعظمهم منزلة ، والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده ، وأنه باب الأبواب إلى الأئمة »[٦٩] ، والذى خاب أمله فى الاتجاه إلى اليمن فوقع المهدى بين خطرين : عمال الخلافة العبّاسية الذين كانوا يتعقبونه ، ودعاته أنفسهم الذين انشقوا عليه وأصبح فى مقدورهم فَضْح أمره .

كان نجاح الداعى أبى عبد الله الشيعى فى نشر الدعوة وسط قبيلة كُتامَة فى إفريقية وما حققه من نصر على الأغالبة من الأسباب المباشرة التى دعت المهدى إلى التوجه إلى إفريقية . وقد أدّى ذلك إلى انشقاق داعيته فيروز الذى توجه إلى اليمن ، بينما أكّد المهدى نيته وبعث جعفر الحاجب إلى سَلَمْية ليحضر نساء المهدى وكنوزه ويلحق به فى طرابلس الغرب[٧٠] ، ثم أرسل أبا العباس الشيعى ليلحق بأخيه أبى عبد الله فى إفريقية ويعرفه بقرب قدوم المهدى[٧١] . ونجح المهدى فى نهاية الأمر بعد تفاصيل كثيرة مذكورة فى كتب الدعوة من الوصول إلى سِجِلْماسَة عن طريق قَسْطيلة وتَوْزَر وإيكجان . وفى سِجِلْماسَة ألقى عليه القبض أمير المدينة وسجنه ، فى الوقت الذى كان أبو عبد الله الشيعى فى طريقه إلى تفويض السلطة الأغلبية ونجح فى السيطرة على مدينة رَقّادة — عاصمة الأغالبة — وطرد زيادة الله آخر أمرائهم فى رجب سنة ٢٩٦/مارس سنة ٩٠٩ فذهب إلى سِجِلْماسَة حيث خَلّص المهدى من السجن واصطحبه ليدخل به منتصرًا إلى رَقّادة فى ٢١ ربيع الثانى سنة ٢٩٧/١٥ يناير سنة ٩١٠ حيث أعلن قيام الخلافة الفاطمية وتلقب بـ « المهدى لدين الله » و بـ « أمير المؤمنين »[٧٢] .

---

[٦٩] نفسه ١١٠ ، نفسه ١٥٠ .

[٧٠] نفسه ١١٤ .

[٧١] نفسه ١١٦ ، القاضى النعمان : افتتاح ١٥١ — ١٥٤ .

[٧٢] نفسه ١١٦ — ١١٩ ، نفسه ٢٤٥ — ٢٤٩ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٣٦ — ١٥٤ . وراجع Dachraoui, F., op. cit., pp. 115 - 124, id., EI²., art. al - Mahdi ubayd Allah V, pp. 1233 - 1234

ومثلما تخلَّص العبّاسيون من أبى مُسْلم الخُراسانى مؤسِّس دولتهم ، تخلَّص الإمام المهدى من داعيته الرئيسى أبى عبد الله الشيعى الذى مَهَّد له الطريق فى إفريقية وكذلك أخيه أبى العبّاس الداعى[٧٣] ، سواء لأنّ الداعى شك فى شخصية المهدى نفسه أو لأنّ المهدى أراد أن يتخلَّص من سلطته ونفوذه المتزايد فى وسط قبيلة كُتامَة . وهو الأمر الذى آثار الكُتاميين بعض الوقت ضد المهدى[٧٤] . وقد حاول القاضى النعمان أن يُحَمِّل أبا العبّاس الشيعى مسئولية الانشقاق الذى دعى المهدى إلى التخلّص منهما معًا[٧٥] .

---

[٧٣] القاضى النعمان : افتتاح ٢٦٦ – ٢٦٧ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ١٦٢ – ١٦٨ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٦٧ – ٦٨ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٣٣ – ٣٤ .

[٧٤] عماد الدين إدريس : المصدر السابق ١٦٣ ، ١٧٠ .

[٧٥] القاضى النعمان : افتتاح ٢٥٩ – ٢٦٦ .

الكتاب الأول

التاريخ السياسي

الفصل الأول

قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا

العَالَمُ الإسلامي فى مَطْلَع القرن الرابع الهجرى
عَصْرُ انْتِصَار الشِّيعَة

ما كاد القرن الثالث الهجرى يُشْرف على نهايته إلّا وكان الفاطميون الشيعة قد نجحوا فى تتويج نشاطهم السرى المكثّف الذى قام به « تَنْظيم الدُّعَاة » والذى استمر أكثر من مائة وخمسين عامًا ، بإعلان قيام الخلافة الفاطمية فى إفريقية فى سنة ٢٩٧ / ٩٠٨[١] . وهكذا ، فبعد إعلان قيام الخلافة الأموية فى الأندلس بعد ذلك بنحو عشرين عامًا فى سنة ٣١٧ / ٩٢٩ ، أصبح يتقاسم حكم العالم الإسلامى خلافات ثلاث . خلافتان سُنِّيتان : الخلافة العباسية فى بَغْداد والخلافة الأموية فى قُرْطُبَة ، وخلافة ثالثة شيعية هى الخلافة الفاطمية الإسماعيلية فى إفريقية . وعلى الجانب الآخر كانت الدولة البيزنطية المسيحية فى القسطنطينية تتربَّص بها وتتحيَّن الفُرَص لاستغلال هذا الانقسام الذى اعترى الإمبراطورية الإسلامية .

وقد بدأ الضَّعْف يدب فى أوصال الخلافة العبّاسية السنية بعد أن أخذت فى التفكك إلى دول صغيرة ، وخاصة ابتداء من عصر الخليفة الرَّاضى (٣٢٢ –

---

[١] انظر أعلاه ص ٤١ – ٦٥ .

٩٢٩/٩٣٤ – ٩٤٠) . فقد انفصلت الأقاليم الشرقية عن الخلافة ، بينما أخذت بقية الممتلكات العبّاسية تستقل تدريجيًا عن سيطرة الخلافة المركزية[٢] .

وصحب ذلك مدٌّ شيعيٌّ كبيرٌ شهده القرن الرابع الهجرى أفْقَد الخلافة العبّاسية السنية الكثير من سيطرتها وسطوتها ، حتى نستطيع أن نُطْلق عليه « عَصْرُ انتصار الشِّيعَة » . فقد نجح الزَّيديون فى إقامة دولة حاكمة فى طَبَرِسْتان سنة ٢٥٠/٨٦٤ وفى اليمن سنة ٢٨٤/٨٩٧ ، واستولى القَرامِطَة على جنوب العراق والبحرين والأحْسَاء . ولم يمض نحو ثلاثون عامًا على انتصار الفاطميين إلّا وقد ظهر جليًا إنهيار سلطة الخلافة العبّاسية ، عندما نجح البُوَيْهيُّون الشيعة فى فرض سيطرتهم على بغداد مركز الخلافة السنية ، فكثرت بها الفِتَن بين الشيعة والسنة ، وجُهِر بالأذان « بحَىّ على خَيْر العَمَل » فى الكَرْخ ، كما أقيم مأتم عاشوراء لأول مرة فى بغداد[٣] .

وفى الواقع فقد أصبحت الخلافة العبّاسية ، بعد دخول البويهيين إلى مسرح الأحداث ، مؤسَّسة إسمية بحتة تُمَثِّل السُّلْطة العليا للإسلام السُّنّى ، وتُضْفى الشرعية على السلطات المُطْلَقَة التى تَمَتَّع بها العديد من الولاة ، الذين كانت لهم السيادة الحقيقية سواء فى الأقاليم أو فى العاصمة العبّاسية نفسها[٤] . وبالرغم

---

[٢] مؤلف مجهول : العيون والحدائق ٤ : ٢٩٨ – ٢٩٩ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣٢٢ – ٣٢٤ وانظر كذلك مقال كانار Canard, M., « L'imperialisme des Fatimides et leur Propagande ", AIEO VI (1947), pp. 56 - 193.

[٣] ابن الجوزى : المنتظم ٧ : ١٥ و ١٩ و ٢٣ و ٣٣ و ٣٨ و ٤٣ و ٤٧ ؛ المقريزى : الخطط ٢ : ٣٥٧ – ٣٥٨ .

[٤] Lewis, B., EI², art. 'Abbasides I, p. 20; Cahen, Cl., EI²., art. Buwayhides ou Buyides I, pp. 1390- 1397

من هذا الانتصار الشيعى الكبير ، الذى لم يتكرّر أبدًا بعد ذلك ، فإن هذه الأنظمة الشيعية لم تجد مجالًا للتعاون فيما بينها ، مع أنها استطاعت أن تسيطر على القسم الأكبر من العالم الإسلامى بضعة عقود ، لأنها أخذت فى الواقع تتخاصم بينها دفاعًا عن مصالحها الإقليمية[٥] .

وفى وسط هذا التلاحق المُطَّرد للأحداث كان الفاطميون يمثّلون القوة الفتية الطموحة الآخذة فى النماء والتى تريد مَدّ نفوذها وسيطرتها ، بدلًا من الخلافة العبّاسية المنهكة المتداعية ، على كل الأراضى الإسلامية ، وأخذوا وهم فى إفريقية يتحيّنون الفرص للعودة إلى الشرق لتحقيق حلمهم فى استرداد حكم العالم الإسلامى من منافسيهم السنيين[٦] .

الصُّعوبات التى واجهت الفاطميين فى إفريقيـة

اصطدم الفاطميون فى المرحلة الإفريقية بالعديد من الصِّعاب ، فقد كان الشمال الإفريقى عندما قدم إليه الفاطميون منقسمًا بين أهل السُّنَّة (وخاصة أصحاب المذهب المالكى) والخوارج (وخاصة الإباضية والصُّفرية) ، وجاء المذهب الإسماعيلى ليضيف مصدرًا جديدًا للاضطراب فى المنطقة . كذلك فإن وجود فريقين متنافسين من القبائل البربرية : زَناتَة فى الغرب وصِنْهاجة — التى تنتمى إليها كُتامَة — فى الشرق كان عنصرًا مساعدًا للاضطراب والقلاقل فى المنطقة .

---

[٥] Shaban, M. A., Islamic History A.D. 750 - 1055 (A.H. 132 - 448) , A New Interpretation, Cambridge 1976, p. 121

[٦] المقريزى : الخطط ٢ : ٣٥٧ — ٣٥٨ .

كما كانت هناك أيضًا أسرتان حاكمتان ذات أصول شرقية : الدولة الرستمية الخارجية فى تاهرت والدولة الإدريسية العلوية فى فاس[٧] .

ومنذ وصول المهدى إلى إفريقية أدرك أنها لن تستطيع أن تُحَقّق أهداف الخلافة الفاطمية أولًا لقِلّة مواردها ، وثانياً لمقاطعة علماء المالكية ومقاومتهم لهم ، ثم بسبب الطبيعة الجغرافية الجبلية للشمال الإفريقى وصعوبة السيطرة عليها وأخيرًا لأن أنظار الفاطميين كانت متّجهة دومًا إلى الشرق ، فقد أدرك الفاطميون تمامًا أنهم إذا أرادوا أن يكونوا الحكام الوحيدين للعالم الإسلامى فليس أمامهم حَلّ سوى التوجه إلى الشرق وإلى مصر بصفة خاصة . فقد كان العالم الإسلامى بحاجة ماسة إلى مركز متوسط يتولّى قيادته ، وموقع مصر الاستراتيجى فى ملتقى قارات ثلاث وسيطرتها على طرق التجارة الدولية التى تربط أوربا بالهند غنى عن البيان ، فلا غرو أن كان حلم الفاطميين فى إفريقية هو العودة إلى المشرق وإلى مصر بصفة خاصة .

المقاومة السُنية

وقد وجد الفاطميون صعوبات كبيرة فى بسط نفوذهم المذهبى على المجتمع الإفريقى السنى ، حيث واجه الخليفة المهدى مقاطعة سلبية وإنكارًا صامتًا جابهه به أهل إفريقية وعلماؤها المالكية . فقد ثَبّتت المالكية السُنية أقدامها فى القيروان وغيرها من دول إفريقية ، وجاهره علماء المذهب بإنكار مذهبه وازورّوا عنه وتبعهم فى ذلك عامة الناس . ووقفت إفريقية كلها موقف معارضة سلبية وعدم تعاون شديد الخطورة على كيان الدولة الناشئة[٨] . وبما أنه

---

[٧] . Canard, M., EI² ., art. Fatimides II, p. 872

[٨] راجع تفصيل ذلك عند المالكى : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ٢ : ٧٤ – ٩٦ ، Marcais, G., La Berbérie musulmane et L'Orient au Moyen Age, Paris 1946, pp. 136 - 162; =Monés, H., " Le Malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya ", Etudes d'Orien

لا سبيل إلى فرض دولة على أناس يقاطعونها مقاطعة تامة ويعيشون بعيدًا عنها ، فقد كان طبيعيًا أن يبحث الفاطميون عن « عَصَبِيَّة » يعتمدون عليها ، فلم تستقر دعائم نظامهم هناك إلّا بقوة أنصارهم الكتاميين الذين أشاد الخليفة المُعِزّ ، فى كل مناسبة ، بفضلهم على الدعوة[9] .

لذلك فقد حرص الخليفة المهدى على البعد عن رَقّادة والقيروان ، مركز المقاومة السنية ، وأسَّس مدينة جديدة فى سنة ٩١٥/٣٠٣ هى « المَهْدِيَّة » على طرف الساحل الشرقى لإفريقية فوق جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند ، وإن لم ينتقل إليها إلّا فى عام ٩٢٠/٣٠٨ بعد أن نَقر ميناءها فى الصخر وابتنى بها دار صناعة ونَقَر بداخل المدينة الأهْراء وجلب إليها الماء ، كما بنى لى مسجدًا جامعًا وقصرًا كبيرًا[10] . وقال بعد أن شاهد تمام بنائها « اليوم آمنت على الفاطميات »[11] .

كان المهدى يهدف من وراء بناء هذه المدينة الساحلية إلى مواجهة البيزنطيين الذين حاولوا التحرش به من جنوب إيطاليا ومن صقلية ، إلى أن نجح فى بسط سيطرة الفاطميين على الحوض الغربى للبحر المتوسط ومد النفوذ الفاطمى على جزيرة صقلية واستناب بها أسرة عربية تنتمى إلى قبيلة بنى كَلْب ، وقد عمل الفاطميون كذلك على تحييد دور الأمويين فى الأندلس فى صراعهم مع البيزنطيين[12] .

= ta lisme dédiées à la mémoire de Lévi - Proveneal, Paris 1962; I, pp. 209 - 225
محمود إسماعيل : « المالكية والشيعة بإفريقية إبان قيام الدولة الفاطمية » ، المجلة التاريخية المصرية ٢٣ (١٩٧٦) ٧٣ – ١٠٦ .

[9] القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢٥٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٣٢١ ؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين فى المغرب ٦٠٦ – ٦٠٧ .

[10] انظر البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (الجزائر ١٨٥٧) ٢٩ – ٣٠ ، مؤلف مجهول : الاستبصار ١١٧ – ١١٨ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٧٠ – ٧١ .

[11] المقريزى : اتعاظ ١ : ٧١ .

[12] Canard, M., op. cit., p. 873

محاولات الفاطميين فتح مصر

وفى السنوات الأولى لحكم الخليفة المهدى باءت محاولتان لفتح مصر بالفشل (٩١٣/٣٠١ ، ٩١٩/٣٠٧) ، وتكرّرت المحاولات فى زمن ابنه القائم بأمر الله (٩٣٤/٣٢٣) ولكنها لم تُحَقّق شيئًا على الإطلاق[١٣] ، بل نَبّهت الخلافة العبّاسية إلى أن استمرار هذه المحاولات يتطلّب وجودًا عسكريًا قويًا فى مصر ، فقد اكتشف القائد مُؤْنس الخادم ، الذى تَصَدّى لهجوم الفاطميين المتتالى ، أن للفاطميين عملاء كثيرين بمصر[١٤] . فأسند العبّاسيون إلى محمد ابن طُغْج الإخشيد ولاية مصر بالإضافة إلى ولايته على الشام.، ولم يكن تعيينه فى الواقع سوى عودة إلى النظام الطولونى الذى سقط عام ٩٠٤/٢٩٢[١٥] .

وقد فَسَّر فرحات الدّشْراوى فى كتابه « الخلافة الفاطمية فى المغرب » محاولات الفاطميين المتكرِّرة لفتح مصر تفسيرًا عاطفيًا أرجعه إلى أن المهدى

---

١٣ عن محاولات الفاطميين المتكررة لفتح مصر راجع ، الطبرى : التاريخ (القاهرة ١٩٧٢) ١٠ : ١٤٨ — ١٥٠ ، القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ٣٢٦ ، ابن ظافر : أخبار ١٤ — ١٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٨٤ ، ٨٩ ، ١١٣ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ١٩ — ٢٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب ١ : ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨١ — ١٨٢ ، ٣٥١ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٣٥ — ٤٠ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٧٤ ، ٣٢٧ - ٣٢٩ ، ٣٥١ ، اتعاظ ١ : ٦٨ — ٦٩ ، ٧١ — ٧٢ ، ٧٤ ، المقفى ٩٠ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٧٦ — ١٨٩ ، Dachraoui, F., Le Califat fatimide au Maghreb 296 - 362 909- 973- Histoire politique et Institutions, Tunis 1981, pp. 142 - 150, 163 - 164, id., EI²., art. al - Ka'im bi Amr Allah, IV, p. 479, Lev, y., " The Fatimid and Egypt 301 - 358 / 914 - 969 ", Arabica XXXV (1988), pp. 186 - 196.

١٤ ابن عذارى : البيان ١ : ١٨٢ ، الكندى : الولاة ٢٧٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٣ : ١٨٩ .

١٥ الكندى : الولاة والقضاة ٢٨٧ ، ابن سعيد : المغرب (قسم مصر) ١٥٨ — ١٥٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٢٨ — ٣٢٩ ، Canard, M., L'impérialisme des Fatimides p. 160., Shaban, M. A., op. cit., p. 195 .

والقائم ، ذوى الأصول الشرقية ، كان يحركهما فى هذه المحاولات حنينٌ إلى الشرق وكانت أنظارهما دائمًا موجهة إليه . بينما كان خليفتاهما المنصور والمُعِزّ ، ذوى الأصل الإفريقى ، أكثر التصاقًا بإفريقية وقضاياها الاقتصادية والاجتماعية ، فشُغِل المنصور بإخماد ثورات المتمردين (حركة مَخْلَد بن كَيْداد النُكّارى سنة ٩٤٨/٣٣٦) ، بينما اهتم المُعِزّ مباشرة بالقضايا الخارجية فوطّد سيادته ونفوذه فى المغرب الأقصى ، ولم يُحَوِّل أنظاره إلى مصر إلّا فى أُخريات أيام خلافته[١٦] .

وهذا التفسير ينقصه الإشارة إلى إلحاح مصادر الدعوة الفاطمية نفسها بأن الائمة والدعاة على السواء كانوا يتحينون الفرصة للعودة إلى المشرق[١٧] . ويكون التفسير الصحيح لهذه المحاولات هو أن قوة الفاطميين لم تكن قد نَمَت بعدُ فى هذا الوقت المُبَكِّر ، وكانت ماتزال محصورة بقبيلة كُتامة البربرية[١٨] بالإضافة إلى المقاطعة السلبية التى واجههم بها أهلُ القيروان والعلماء المالكية ، وبالتالى فإنهم لم يكونوا يملكون القوة العسكرية اللازمة للقيام بمثل هذه المغامرة التى تفوق قدراتهم ، ويكونوا قد استهدفوا بهذه الحملات السيطرة على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط وتمكين نفوذهم فى الصحراء الواقعة بين ممتلكاتهم فى طرابلس الغرب ووادى النيل[١٩] وإخراج النفوذ المصرى من بَرْقة وحصره قدر الإمكان داخل حدود الوادى[٢٠] .

---

١٦ Dachraoui, F., op. cit., pp. 250 - 260.

١٧ القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٤٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٦٦٣ حيث يورد حديثا دار بين المُعِزّ وهو فى مصر ورسول لإمبراطور بيزنطة كان يتردد عليه فى إفريقية حيث قال المُعِزّ للرسول : « أتذكر إذ أتيتنى رسولًا وأنا بالمهدية فقلت لك : لتدخلن علىّ وأنا بمصر مالكًا لها ، قال : نعم . قال : وأنا أقول لك لتدخلن علىَّ ببغداد وأنا خليفة » . وأيضا المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٢٦ .

١٨ عن قبيلة كتامة ودورها فى مناصرة الخلافة الفاطمية راجع ، لقبال محمد موسى : دور قبيلة كتامة فى قيام الخلافة الفاطمية ، الجزائر ١٩٧٩ ، Basset, R., EI²., art. Kutama V, pp. 544 - 45.

١٩ حول سيطرة الفاطميين على ليبيا راجع ، Hamdani, A., « Some Aspects of the History of Lybya during the Fatimid Period » , Lybya in History Beirut s.d. pp. 321 - 27.

٢٠ Shaban, M. A., op. cit., pp. 192 - 193.

المُعِزّ لدين الله وتحقيق هَدَف الفاطميين

لا شك أن ثورات البربر المتتالية والحركات الخارجية[٢١] التى وجدت تأييدًا مؤقتًا من أهل السنة والتى أمضى الخليفة الفاطمى الثالث المنصور بالله إسماعيل فترة خلافته فى احتوائها وإخمادها ، هى التى دفعت الخليفة الفاطمى الرابع المُعِزّ لدين الله إلى وضع هدف الفاطميين فى التحول إلى الشرق موضع التنفيذ بعد أن كادت المشاكل التى واجهها الفاطميون فى إفريقية أن تصرفهم عن تحقيق هدفهم .

فما هى أهمية الانتقال إلى الشرق لدى الخلفاء الفاطميين ودعاتهم ؟ .

كان قيام خلافة الفاطميين فى إفريقية سببًا فى انقسام الحركة الإسماعيلية فى زمن مُبَكِّر . فقد بنيت الحركة الشيعية الإسماعيلية ضد العقيدة السنية والتطلعات العبّاسية السياسية ونَمَت على فكرة تدميرها ، وكوّنت لذلك

---

[٢١] كانت أهم هذه الحركات ثورة أبى يزيد مَخْلَد بن كَيْداد المعروف بصاحب الحمار والذى اكتسب تأييد أهل السنة وقضى على ثورته المنصور بالله سنة ٩٤٨/٣٣٦ . وقد اضطر المنصور بالله بعد انتصاره عليه إلى ترك المهدية والانتقال إلى العاصمة الجديدة صبرة المنصورية التى أسّسها المنصور بالقرب من القيروان حتى يجعل المالكية تحت أنظاره . راجع ، القاضى النعمان : المجالس ٥٥ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٤ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٥ ، ٣٣٦ ، ٤٩٢ ، ٥٤٢ ، ٥٥٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٤٢٢ — ٤٤١ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٢٣٥ ، الصفدى : الوافى ٩ : ٢٠٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ١ : ٢١٦ — ٢٢٠ ، ٢٨٥ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٠ — ٤٥ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ١ : ٧٥ — ٨٦ ، المقفى الكبير ١٤٦ — ١٤٩ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٥ : ١٧٢ — ٣٠١ ، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ٣٤٧ — ٤١٧ ، Le Tourneau, G., " La revolte d'Abu Yazid au X° siècle ", CT I (1953), pp. 103 - 125; Stern, S.M., EI²., art. Abû yazîd al - Nukkâri I, pp. 167 - 169; Dachraoui, F., op. cit., pp. 165 - 182, 188 - 205; Halm, H., " Der Mann auf dem Esel - Der Aufstand des Abu Yazid gegen die Fatimiden nach einem Augenzeugenbericht ", Die Welt des Oriens . XV (1984), pp. 144 - 204.

التنظيم السياسى الدينى المعروف « بالدَّعْوَة » ، فانتشر دعاة الفاطميين فى طول الأراضى العبّاسية وعرضها يقومون بنشاط سياسى وإيديولوجى ليتمكنوا من القضاء على خلافة العبّاسيين السنيين .

فهلْ أراد الفاطميون بعد تأسيس خلافتهم فى إفريقية أن يستقرّوا بها ، أو أرادوا أن يَتخذوها مركزًا تمهيديًا يُعدّون فيه العُدّة لينطلقوا منه نحو الشرق فى محاولة لتدمير الخلافة العبّاسية والإحلال محلها ؟

الإجابة على ذلك أن الإمام المهدى كان بعيد النظر ووَجَد أن الفرصة غير مواتية للإجهاز على الخلافة العبّاسية ، وأنه من الأفضل للحركة الفاطمية أن تظهر على الخريطة السياسية للعالم الإسلامى ، ولامانع أن تقوم فى أحد أطرافه لتكون بعيدة عن العبّاسيين ولتحتفظ فقط بعداء بعيد معهم ، بحيث أن المهدى لم يُرد أن يدخل فى هذا الوقت المُبَكِّر فى صدام مباشر مع العبّاسيين . ولم يكن بعض الدعاة ــ وهم فى الحقيقة صانعو الحركة – على مستوى إدراك المهدى للأحداث ، فلما تبيَّنت لهم حقيقة نِيَّة المهدى بدأوا فى الانفصال عن الفاطميين وانضموا إلى القرامطة وعارضوا فكرة اتجاه المهدى بعيدًا عن أراضى الخلافة العباسية ، ووجدوا أن حماس الدعوة كان حتمًا سيُفْقَد وهم بعيدين عن أراضى العبّاسيين[٢٢] .

وعلى ذلك فإن بلاط المُعِزّ فى صَبْرَة المنصورية لم يخل من الدُّعاة والرسل الذين توافدوا عليه يَحُثونه على تحقيق هدف الدعوة وأن يُعَجِّل بغزو الشرق ، فكان يجيبهم بأن الوقت لم يحن بعد ويُذكِّرهم بمحاولات جده القائم فى فتح مصر ، ويؤكِّد لهم يقينه فى أن الله سيُوَرِّث الأئمة الأرض كلها[٢٣] . وقص

---

[٢٢] Hamdani, A., « Some Considerations on the Fatimid Caliphate as a Miditerranean Power... », Atti del Terze Congresso di Studi Arabi e Islamici, Ravello - Napoli 1964, pp. 388 - 390.

[٢٣] القاضى النعمان : المجالس ٤٧٥ – ٤٧٦ .

علينا القاضى النعمان فى « المجالس والمسايرات » خبر رؤية رأى فيها المُعِزّ والده المنصور يتنبأ له بقرب فتح مصر[٢٤] ، وحديثًا جرى بين المُعِزّ ومشائخ كُتامَة أخبرهم فيه بأنه لا يشك فى افتتاح المشرق قريبًا ، وأنهم – أى الكتاميين – طُرِدوا قديمًا من المشرق ، وأنهم سيعودون إليه بفضل الأئمة[٢٥] .

فعالية الدّعاية الفاطمية

ولدينا دليلٌ مادى بالغ الأهمية يدل على تبييت المُعِزّ النِّيَّة للانتقال إلى الشرق وإلى مصر بوجه خاص قبل فتحها بوقت طويل . فقد وصل إلينا « ثلاثة دنانير فاطمية » تحمل مكان الضرب (مصر) مؤرَّخه فى السنوات ٩٥٢/٣٤١ ، ٩٥٤/٣٤٣ ، ٩٦٤/٣٥٣ ضربت ، كما هو واضح ، قبل دخول الفاطميين إلى مصر وتأسيس القاهرة[٢٦] بغَرَض ترويجها بواسطة الدعاة على الأفراد الذين يتوسّمون فيهم الاستجابة للدعوة ، بالإضافة إلى « طِراز » باسم المُعِزّ عُمِل بمصر فى سنة ٩٦٦/٣٥٥[٢٧] . وهو أمر غير مستبعد فى ضوء ما هو معروف من كفاءة الفاطميين فى خِططهم . ويؤكّد ذلك ماذكره أبو المحاسن بن تغرى بردى من أن أمور الديار المصرية قد اضطربت فى أواخر عهد الإخشيديين « بسبب المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميين الواردين إليها من المغرب »[٢٨] . وقد استمال هؤلاء الدعاة نفرًا من القُوّاد ووجوه الرعية ، وأنفذ

---

[٢٤] نفسه ٥٠٨ – ٥٠٩ .

[٢٥] القاضى النعمان : المجالس ١٣٨ – ١٣٩ .

[٢٦] Miles, G., Fatimid Coins p. 51 ، محمد أبو الفرج العش : « مصر ، القاهرة على النقود العربية الإسلامية » ، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة ٩١١ – ٩١٢ ، ٩٤٧ – ٩٤٨ وقارن ذلك بما ذكره ابن الأثير وابن أيبك من أن الخليفة المُعِزّ بذل مائة ألف دينار لابن جرّاح الطائى إن هو خالف الحسن بن أحمد القرمطى ، وأن المصريين استكثروا هذا المال ، فضربوا أكثره دنانير من صفر وألبسوها الذهب وجعلوها فى أسفل الأكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤسها .
(الكامل ٨ : ٦٣٨ – ٦٣٩ ، كنز الدرر ٦ : ١٥٩) .

[٢٧] Wiet, G., RCEA V, p. 11 n. 1622

[٢٨] أبو المحاسن : النجوم ٣ : ٣٢٦ .

إليهم المُعِزّ بنودًا ففرّقوها فيمن استجاب لهم وأمروهم أن ينشروها إذا قاربت عساكره مصر[٢٩] .

وهكذا فإن فكرة العودة إلى الشرق ومواجهة الخلافة العبّاسية كانت الشاغل الذى شغل بَال الأئمة والدعاة على السواء ، ولم يبق لتحقيقها إلّا تَحَيُّن الوقت المناسب .

الفاطميون يضمنون ولاء الشمال الإفريقى

وقبل أن يُقرِّر المُعِزّ التوجه إلى المشرق وتوجيه كل اهتمامه إلى تحقيق هدف الفاطميين ، وجّه كل قوته فى مغامرة عسكرية للاستيلاء على كل الشمال الإفريقى وليختبر عن طريقها القوة العسكرية لجيشه الذى سيبعث به لفتح مصر . وقد عهد المُعِزّ بمهمة تثبيت سلطة الفاطميين ومَدّ نفوذهم فى المغرب الأقصى إلى القائد الشهير جوهر الصِّقْلّبى . وقد قاد جوهر فى سنة ٩٥٨/٣٤٧ حملة عسكرية ناجحة ضد البَرْبَر الناهضين للخلافة الفاطمية وخاصة فى إقليمى سِجِلْماسة وتاهَرْت ، وتمكّن خلالها من هزيمة مراكز مقاومة الفاطميين فيما عدا المراكز التابعة لأموى الأندلس فى سَبْتَة وصالة التى احتلّها عبد الرحمٰن الثالث خليفة الأندلس . وفى خلال هذه الحملة تم أسْر ابن واسول أمير سِجِلْماسة الذى كان يخطب للخلفاء العبّاسيين[٣٠] . وفى سنة ٩٦٨/٣٥٧

---

[٢٩] المقريزى : المقفي الكبير ٣٣٢ .

[٣٠] القاضى النعمان : المجالس ٢١٤ ، ٤١١ – ٤١٢ ، ابن ظافر : أخبار ٢٢ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٥٢٤ – ٥٢٥ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٢٥ ، ابن عذارى : البيان ١ : ٢٢٢ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٣٨ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٦ – ٤٧ ، القلقشندى : صبح ٥ : ١٦٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٧٧ – ٣٧٨ ، المقفى الكبير ٣٢٧ – ٣٢٨ ، اتعاظ الحنفا ١ : ٩٣ – ٩٤ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٠٢ – ٦٣٣ ، Dachraoui, F., op. cit., pp. 230-234; id., " La captivité d'Ibn Wasul le rebelle de Sililmasa d'après le Cadi an - lNu'man " CT IV (1956), pp. 295-99; Idris, H.R., La Ber beérie Orientale Sous les Zirides pp. 24 - 28; Monès, H., EI²., art. Djawhar II, p. 50

قاد جوهر حملة مماثلة بغرض فرض النظام فى المغرب الأقصى[٣١] . وقد أثبتت هذه الحملات أن جوهر الصِّقلِّى كان بلا شك أكبر قائد عسكرى عرفه الفاطميون ، ووجّهت انتصاراته المُظَفَّرة أنظار الخليفة المُعِزّ إلى مواهبه العسكرية وأقنعته بأن باستطاعته ، بمساعدة هذا القائد الفذّ ، أن يُحقِّق أغلى أمانى الفاطميين منذ اعتلائهم السلطة : « فَتْح مصر » .

حالة مصر الداخلية إبان الفَتْح

كانت السلطة الحقيقية فى مصر خلال عهد الإخشيديين ، الذين خلفوا المُؤسِّس الأول محمد بن طُغْج ، فى يد كافور العبد الأسود الخصى الذى أصبح قائد جيوش الإخشيديين ومُدَبِّر أمر مملكتهم[٣٢] .

وقد أثار الفاطميون من جانب والحمدانيون من جانب آخر الخلافات فى ممتلكات كافور الذى تمكن من الاحتفاظ بسيطرته عليها بفضل حُنْكته السياسية[٣٣] . فقد كثر دعاة الفاطميين فى مصر ونجحوا فى استمالة عدد كبير من أهل البلاد[٣٤] ، حتى إن يوم عاشوراء كان لايخلوا من الفِتَن عند قبر كُلْثُم وقبر السيدة نفيسة ، وكثرت المنازعات بين الجُنْد السودان وجماعات من الرّعية كان الجنود يتعصّبون فيها على الشيعة[٣٥] . وبشّر هؤلاء الدعاة أتباعهم بقرب

---

[٣١] المقريزى : المقفى ٣٢٩ .

[٣٢] راجع ، ابن سعيد : المغرب (قسم مصر) ١٩٩ – ٢٠١ ، حسن إبراهيم حسن : « كافور الإخشيد » ، مجلة كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول (١٩٤٦) ٢٣ – ٤٦ ، سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين : القاهرة ١٩٧٠ ، ١٣٤ – ١٥٨ ، . Ehrenkreutz, A.S., EI² ., art., Kâfûr IV, pp. 436 - 437 .

[٣٣] أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٦ ، Shaban M. A. , op. cit., p. 196 .

[٣٤] ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ٤٠ وفيه أن أبا جعفر أحمد بن نصر شيّد دارًا كبيرة كانت تؤخذ فيها البيعة لصاحب المغرب ، المقريزى : اتعاظ ١ : ١٠٢ ، الخطط ١ : ٣٢٧ ، ٢ : ٢٧ ، ابن الزيات : الكواكب السيارة ٦٣ وفيها أن القاضى أبا الطاهر الذُّهْلى ناظر رسولًا قدم مصر من قبل المُعِزّ ، سيدة كاشف : المرجع السابق ٣٨١ .

[٣٥] المقريزى : الخطط ٢ : ٣٤٠ ، اتعاظ ١ : ١٤٦ .

قدوم جيوش الفاطميين متى ذهب الحجر الأسود ، يعنون كافور[٣٦] .

واجتمعت عِدَّة عوامل مَهَّدَت الطريق لتحقيق هدف الفاطميين فى غزو الشرق ، كان على رأسها الحالة الاقتصادية السيئة التى كانت تمر بها مصر فى أواخر حُكْم الإخشيديين (٣٥٢ - ٩٦٣/٣٥٨ - ٩٦٨)[٣٧] وضَعْف الخلافة العبّاسية المتزايد تحت سيطرة الشيعة البويهيين[٣٨] . وجاءت وفاة كافور فى سنة ٩٦٨/٣٥٧ لتزيل آخر عَقَبَة أمام الفاطميين نحو تحقيق هدفهم[٣٩] ، فلم توجد شخصية قوية تخلف كافور فى البيت الإخشيدى[٤٠] ، وتولىَّ زمام الأمور الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات فعجز عن تلبية رغبات الطائفتين الإخشيدية والكافورية ، فى نفس الوقت الذى استمر فيه نقص ماء النيل وتزايد فيه الغلاء واضطربت الأسعار مع هبوط قيمة الخراج[٤١] . فضاق قومٌ

---

[٣٦] القاضى عبد الجبار : تثبيت دلائل النبوة ٦٠٤ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ١٠٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٧٢ - ٧٣ .

[٣٧] قصر ماء النيل ابتداء من سنة ٩٦٣/٣٥٢ ووقع الغلاء فى كل البلد وكثرت الفتن ونهبت الضياع وزاد غضب الناس لارتفاع الأسعار ، وفى سنة ٩٦٧/٣٥٦ بلغ ماء النيل اثنى عشر ذراعًا وأصابع وهو مالم يحدث من قبل . (ابن الأثير : الكامل ٨ : ٥٩٠ ، ابن سعيد : المغرب ١٩٩ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٧ - ٤٨ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٤٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٢٩ - ٣٣٠ ، إغاثة الأمة ١٢ - ١٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٣ : ٣٢٦ .

[٣٨] ابن الأثير : الكامل ٨ : ٤٥٢ - ٤٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٧٢ .

[٣٩] ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٦ ، ٥ : ٢٢٥ ، ابن عذارى : البيان ١ : ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ابن سعيد : المغرب ٢٠١ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٤٤ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ١١٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٧٢ - ٧٣ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٦٦ .

[٤٠] بعد وفاة كافور عقد الأمر بمصر للأمير أبى الفوارس أحمد بن على الإخشيد على أن يكون القائم بتدبير أمره الحسن بن عبيد الله بن طغج والى الرَّملة ، ولكن السلطة الفعلية فى مصر كانت فى يد الوزير ابن الفرات . (النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٢١ ، المقريزى : المقفى ٣٠٠ ، ٣٢٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٠ ، ٢١ ، Biahquis, Th., " L'acte de succession de Kāfūr d'après Maqrizi ", An. Isl. XII (1974), pp. 263 - 69

[٤١] يحيى بن سعيد : تاريخ ١٢٩ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٤٧ ، ٣٧٦ ، ٥ : ٢٢٥ ، ابن سعيد : المغرب ٢٠١ ، النجوم ١٠١ ، المقريزى : إغاثة ١٣ ، الخطط ١ : ٩٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٣ : ٣٢٦ ، ٤ : ٢٣ .

من المصريين بالأوضاع وكتبوا إلى المُعِزّ بإفريقية يدعونه لإرسال جنوده لِيُسَلِّموا إليه مصر[٤٢] ، ولم يقصد هؤلاء المصريون المُعِزّ إلّا لإدراكهم مدى ضعف الخلافة العبّاسية الواقعة تحت سيطرة الشيعة البويهيين ، ولتوسُّمهم فى الخلافة الفاطمية قوة فتية قادرة على تدارك ما اعترى البلاد من تدهور وفساد[٤٣] .

وقد حاول الوزير ابن الفُرات إصلاح بعض هذا الفساد ، فخانه سوُ تدبيره وأدّى به إلى محاصرته فى داره وتهديد حياته من قِبَل الإخشيدية والكافورية ، بعد أن قَبَض على جماعة وصَادَرهم كان من بينهم يعقوب بن كِلِّس – وهو يهودى من أهل العراق أسلم فى زمن كافور[٤٤] – ولكنه تمكّن من الهرب مستترًا إلى إفريقية حيث التقى بالخليفة المُعِزّ وأطْلَعه على ما تمُرُّ به مصر من أزمات سياسية واقتصادية[٤٥] ، فوجد المُعِزّ الفرصة المناسبة لإرسال جيشه لفتح مصر . ومن الممكن أن يكون ابن كِلِّس قد اعتنق المذهب الإسماعيلى وهو مايزال بمصر على يد الدُّعَاة . وستوضّح لنا الأحداث كيف لعب هذا اليهودى[٤٦] دورًا بارزًا فى تثبيت دعائم الدولة الفاطمية فى مصر ، حيث أسْنَد له

---

[٤٢] ابن زولاق : فضائل مصر ٤٥ ظ ، القاضى عبدالجبار : تثبيت دلائل النبوة ٦٠٤ – ٦٠٥ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٢٩ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٢ : ٨٧ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٦ ، ابن سعيد : النجوم ١٠١ ، الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٤ ، المقريزى : إغاثة ١٣ ، المقفى ٣٨٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٠ ، ابن إياس : بدائع ١/١ : ١٨٤ .

[٤٣] بلغ من فساد الأوضاع فى آخر حكم الإخشيديين أن ابنة ، الإخشيد اشترت صبية مغربية . بستمائة دينار لتتمتع بها . فلما بلغ ذلك المُعِزّ قَال لأصحابه : إن الغيرة قد ذهبت من نفوس الرجال بمصر حتى إن إمراءة من بنات ملوكهم تخرج لتشترى لنفسها جارية تتمتع بها . (المقريزى : اتعاظ ١ : ١٠٠) .

[٤٤] انظر فيما يلى ص ٢٤٧ .

[٤٥] ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٤٧ ، الصفدى : الوافى ١١ : ١٢٠ ، ابن شاكر : فوات ١ : ٢٩٣ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٥٥ ، المقريزى : المقفى ٣٨١ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢١ ، سيد كاشف : المرجع السابق ٣٨٢ – ٣٨٣ .

[٤٦] عن دور اليهود فى التاريخ الإسلامى ودور يعقوب بن كلس بصفة خاصة راجع كتاب Fischel, J. W., Jews in the Economic and Political Life in Medieaval Islam, New york 1969, pp. 45 - 69 ولعرض شامل لتاريخ الفاطميين فى شمال إفريقية راجع كتاب Dachraoui =

المُعِزّ ، بعد أن دَخَل مصر ، أمر تنظيم الإدارة الحكومية الفاطمية والإشراف على الدَّعْوة نفسها .

= المذكور فى هامش ١٣ أعلاه وللمؤلف نفسه " L'Ifrigiya sous la dynastie des Fatimides " in histoire de la Tunisie - le Moyen Age, Tunis, S.d., II, pp., 205 - 252 وأيضا Brett, M., " the Fatimid Revolution (861 - 943) and its Aftermath in North Africa " , Cambridge History of Africa 1978, II, pp. 589 - 636 .

الفصل الثانى

انتقال الخلافة الفاطمية

إلى المشرق

مُقدِّمات الفتح

عندما أعلن الخليفة المُعِزّ عن عزمه على التوجه إلى الشرق وعن إرسال جيشه لفَتْح مصر ، لم يتَّخذ هذا القرار إلَّا بعد أن كان قد استعد لذلك تمامًا ووَضَع الضمانات الكافية لإنجاح مشروعه .

وقد رأينا كيف مدَّ المُعِزّ السيطرة الفاطمية على جميع أراضى الشمال الإفريقى ، فيما عدا النقاط الحصينة للأمويين فى المنطقة ، وكذلك على الجُزُر المختلفة الواقعة فى البحر المتوسط مثل : سَرْدينية وإقريطش (كريت) وصقلية . كما أنه حاول كذلك فَتح الأندلس أو على الأقل تحييد دورها فى صراع الفاطميين مع العبَّاسيين .

ورغم الفراغ السياسى الذى كان يغلب على الشمال الإفريقى ، بمعناه الواسع ، فإن الفاطميين لم يحاولوا إطلاقًا تركيز جهودهم فى هذه الساحة وتنظيمها والاستقلال بها . كذلك فإنهم لم يحاولوا إنشاء إمبراطورية مغربية إفريقية ذات وحدة اقتصادية تجعل منها منطقة ذات قوة وحيوية كبيرتين . لأن الفاطميين كان لهم اختيارٌ استراتيجى مغاير هو الانطلاق إلى الشرق ، وحاولوا فقط طوال فترة إقامتهم بإفريقية تنظيم قاعدة انطلاق لهم ، وذلك بضمان أطراف آمنة مُتَمَركزة غربًا فى المغرب الأوسط وشرقًا فى طَرَابُلُس وبَرْقَة وبحرًا فى صِقِلِّيَة .

كذلك فقد كان يهم الفاطميين ، إلى جانب هذا التنظيم الأساسى ، بلوغ هدفين استراتيجيين هامين يتمثّلان فى السيطرة الكاملة على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ويتّضح هذا من بناء « المَهْدِيَّة » وإعادة بناء أسطول سُوسَة والحرص على التمكّن من طرابلس وبَرْقة ، وكذلك فى المحاولات المستمرة للسيطرة على مصر نفسها لفتح الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، ولضمان إمكانية التدخل المباشر عن طريق البحر الأحمر واليمن فى تجارات المحيط الهندى والشرق الأقصى . وهذا هو ما أسماه ماريوس كانار M. Canard بالإمبريالية الفاطمية " L'impérialisme des Fatimides "[١] . والذى يُثْبِت أن الفاطميين كان لهم اختيارٌ استراتيجى شرقى ، وأنهم لم يعتقدوا أبدًا أن الشمال الإفريقى يصلح لتحقيق أهدافهم البعيدة ، ويُفَسِّر لنا كذلك المحاولات المستمرة لفتح مصر سواء عن طريق التدخل العسكرى المباشر أو الدعاية السياسية أو الطرق الدبلوماسية[٢] .

ولا شك أن الفاطميين بعد انتقالهم إلى الشرق تَخَلَّوا تمامًا عن الشمال الإفريقى واكتفوا بتركه لأسرة بربرية محلية تدين لهم بالولاء . فقد أدرك المهدى منذ وصوله إلى إفريقية أنها لايمكنها أن تحقق أهداف الفاطميين ، وأنهم إن أرادوا أن يكونوا فى يوم من الأيام الحكّام الوحيدين للعالم الإسلامى فليس أمامهم خيارٌ سوى الرجوع إلى الشرق .

***

وقد ساعدت سرعة تعاقب الأحداث فى مصر فى السنوات الأخيرة للحكم الإخشيدى مع ماصاحبها من فوضى سياسية وأزمات اقتصادية ، دون أن ننسى

---

[١] انظر أعلاه الفصل الأول هـ[٢] .

[٢] عمر السعيدى : « انتقال الفاطميين إلى مصر » ، ملتقى القاضى النعمان الثانى للدراسات الفاطمية ، تونس ١٩٨١ ، ١٤٨ – ١٤٩ .

النجاح الكبير الذى حقّقه الدعاة الفاطميون ، ولا الدور الذى لعبه ابن كِلِّس ، ساعدت كل هذه الظروف على تعجيل تحقيق حُلْم الفاطميين .

وقد بدأ الفاطميون منذ سنة ٩٦٦/٣٥٥ باتخاذ إجراءات عملية للانتقال إلى الشرق وإلى مصر بصفة خاصة . فقد أمر المُعِزّ بِحَفْر الآبار فى طريق مصر وأن يُبْنى له فى كل مَنْزِلَة قصرًا[٣] ، وقد قام بالإشراف على بناء هذه القصور (استراحات) الأمير تميم بن المُعِزّ الفاطمى ، وقد كَشَفَت حفائر حديثة أقيمت بمدينة أَجْدَابِيَة بليبيا عن أطلال أحد هذه القصور الذى نُقِلَت زخارفه الرائعة إلى متحف الشَّحّات قرب البيضاء بليبيا[٤] .

فَتْــحُ مِصْــر

لن أعيد هنا ذكر قصة فتح الفاطميين لمصر ، ولكن سأكتفى بالتذكير ببعض الأحداث التى تبدو لى ذات دلالة خاصة حتى نستطيع أن نفهم عقلية الفاطميين وتوجهاتهم[٥] .

ففى المحرم سنة ٩٦٨/٣٥٨ جمع المُعِزّ لدين الله بالقرب من رَقّادة[٦] نحو مائة ألف فارس أغلبهم من القبائل البربرية ، وخاصة كُتَامة وزُوَيْلَة ، ومن

---

[٣] المقريزى : اتعاظ ١ : ٩٦ .

[٤] حول هذا الموضوع راجع مقال عثمان الكعاك : « مسلك القاهرة » فى الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة ١٩٧٣ ، ٧٨٢ و ٨٣٢ – ٨٣٣

[٥] عن المظاهر السياسية والاجتماعية والعسكرية للفتح الفاطمى لمصر راجع Lev, Y., " The Fatimid conquest of Egypt- Miliary, Political and Social Aspects ", Isr. or. St. IX (1979), pp. 315 - 28 بالإضافة إلى مقال بيانكى Th. Bianquis المذكور فيما يلى هـ ١٥ .

[٦] تذكر بعض المصادر أن ذلك كان بالقرب من صبرة المنصورية ولكن الشاعر ابن هانئ الأندلسى الذى حضر هذه المناسبة بنفسه يذكر أنها بالقرب من رقّادة .

الصَّقَالِبَة[٧] . وفى يوم الأحد ٢٧ المحرم منحهم المُعِزّ رواتبهم التى تراوحت بين ألف دينار وعشرين دينارًا تبعًا لرتبتهم[٨] . وفى ١٤ ربيع الأول استعرض المُعِزّ هذا الجيش الجرَّار وقدَّم لهم جَوْهَر الصَّقْلبى[٩] القائد الذى سيقودهم لفتح مصر والذى منحه المُعِزّ تفويضًا كاملًا بسلطاته العسكرية والسياسية والمالية .

وقد أُعِدَّ هذا الجيش بعناية فائقة من ناحية العُدَّة والعَتَاد ، وكذلك من الناحية النفسية عن طريق الدعاية السياسية المنظَّمة التى مهَّد بها الفاطميون لهذا الحَدَث . وتذكر لنا المصادر أن جوهر حمل معه أكثر من ألف ومائتى صندوق مليئة بالأموال ، غير الذهب الذى جمعه الفاطميون طوال فترة إقامتهم فى إفريقية تحسُّبًا لهذا اليوم ، وقد أُفْرِغَ هذا الذهب على هيئة الأَرْحية وحمله جوهر على ظهور الجمال ظاهرًا للعيان[١٠] .

ولعل جُمْلَة ما أنفقه المُعِزّ على تجهيز جيش جوهر ، والذى بَلَغ ، تبعًا

---

[٧] ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٣٧ ، المقريزى : الخطط ١ : ٩٤ ، ٣٧٨ ، اتعاظ ١ : ١١٣ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٤٥ ، Beshir, B. I., " Fatimid Military Organization ", Der Islam 55 (1978), pp. 37,44; Lev, Y., " Armty, Regime and Society in Fatimid Egypt, 358 - 487 / 968 - 1094 ", IJMES 19 (1987), pp. 338 - 47

[٨] نفسه ٥ : ٢٢٦ ، المقريزى : المقفى ٣٣٠ .

[٩] جاء نسب جوهر فى أغلب المصادر « الصِّقِلّى » . ورسم هذه الكلمة يتماثل مع كلمة « صَقْلَبى » بزيادة نقطة الباء . ونحن لا نملك معلومات كافية عن انتشار العنصر الصقلى فى بلاط الفاطميين ، وإنما نعلم أن عبيد الفاطميين فى الدور الإفريقى كانوا ، على الأغلب ، من الصَّقالبة الذين كانوا يطالبون دائمًا بمساواتهم بالكتاميين . (القاضى النعمان : المجالس ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٢١) كما أن Ivan Herbek أوضح بحجج قوية أن صحة نسبة جوهر هى الصَّقْلَبى وليس الصِّقِلّى Herbek, I., " Die Slaven im Dienst der Fatimiden ", Archiv Orientall XX 1 (1953), pp. 543 - 81 وعن مراجع ترجمة جوهر انظر Monés, H., EI² ., art. Djawhar al - Sikilli II, pp., 507 - 508 وماذكر من مراجع وأضف إليها المقريزى : المقفى ٣٢٧ – ٣٥٣ .

[١٠] ابن سعيد : النجوم ١٠٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٧٨ ، الاتعاظ ١ : ١١٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٩ ، ٤١ ، عماد الدين أدريس : تاريخ الخلفاء ٦٦٧ – ٦٦٨ .

للروايات ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار[١١] ، وخروجه بنفسه ومعه ولى عهده وكبار رجال دولته لوداع جوهر وجيشه وحرصه على الاختلاء به وتوجيهه إلى أهمية ماهو مقدم عليه[١٢] ، يدل على مدى الأهمية التى كان يعلّقها المُعِزّ على فتح مصر .

وهكذا رحل جوهر على رأس الجيش الفاطمى يوم السبت ١٤ ربيع الأول سنة ٩٦٩/٣٥٨ إلى الشرق لينجز أهم أعمال الفاطميين التى ضمنت لهم مكانة خاصة فى التاريخ الإسلامى : فَتْحُ مِصْر .

وعندما وصل جوهر إلى مصر وتسلّمها يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨/ يوليو ٩٦٩[١٣] لم يواجه الجيش الفاطمى أية مقاومة حقيقية ، اللهم إلّا من بعض فلول الإخشيدية والكافورية . وقد وَصَفَ المفاوضون المصريون الذين تفاوضوا مع جوهر وكَتَب لهم « الأمان » حجم جيشه بأنه « مثل جمع عَرَفَات كثرة وعُدّة »[١٤] « حتى قيل إنه لم يطأ الأرض بعد جيش الإسكندر أكثر عددًا من جيوش المُعِزّ »[١٥] .

---

[١١] الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٣٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٣ ، اتعاظ ١ : ٩٧ .

[١٢] ابن سعيد : النجوم ١٠٦ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٨ ، الصفدى : الواقى ١١ : ٢٢٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٧٨ ، الاتعاظ ١ : ١١٤ ، المقفى ٣٣٠ .

[١٣] ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٤٥ ، المقريزى : المقفى ٣٣٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٨ .

[١٤] المقريزى : اتعاظ ١ : ١٠٧ .

[١٥] المقريزى : الخطط ١ : ٩٤ . وراجع Bianquis, Th., " La prise du pouvoir par les Fatimides en Egypte ", An. Isl. XI (1972), pp. 49 - 108

الفَاطِميُّون فى مِصْر

لم يكن الفَتْح الفاطمى لمصر يعنى قيام حكومة مكان أخرى ، بل كان بمثابة انقلاب دينى ثقافى واجتماعى بعيد المدى ، صَحِبَه تحوُّلٌ ظاهرٌ فى نظام الحكم خَلَق موقفًا جديدًا تمامًا . فلأول مرة فى التاريخ الإسلامى تُحكَم مصر بدولة لا تدين حتى بالولاء الإسمى لبغداد . فمع دخول الفاطميين إلى مصر تزايد دورُها فى العالم الإسلامى وتَحوَّل بشكل أساسى . حقيقة أن الطولونيين والإخشيديين بدأوا سياسة جديدة خاصة بمصر ، ووضعوا أُسُس نواة حربية لها دورها فى المنطقة ؛ إلَّا أن طموحاتهم كانت محدودة فى بعض الأطماع الشخصية ، وكانوا يدورون فى فَلَك السياسة العبّاسية[١٦] . أما الفاطميون ، الحكام الجُدُد ، فكانوا يتزعَّمون حركة دينية فلسفية اجتماعية عظمى كان هدفها لايقل عن تحويل وتجديد كل الإسلام ، وكانوا يرون فى أنفسهم الأئمة الأحقاء بحكم العالم الإسلامى بمقتضى الحق الإلهى فى الحكم ، فهم أبناء فاطمة بنت الرسول ﷺ . ومهما قيل فى صِحَّة نسبهم أو عدمه ، وهل كانوا حقًا ينتسبون إلى السيدة فاطمة ، أم كانوا مجرد أدعياء مَهَرَة ، فالحقيقة الثابتة أن عددًا غير قليل من الأتباع قد آمنوا بقضيتهم ودافعوا عنها[١٧] .

وكان تولِّى الفاطميين الحكم بمصر وتأسيسهم خلافة مُسْتَقِلَّة بها ، هو عودة إلى وضع جغرافى سياسى أنشأته الوقائع وثبَّتته أحداث التاريخ . فالعالم الإسلامى كان بحاجة دائمًا إلى مركز متوسط كانت تشغله الإسكندرية فى العصر الرومانى البيزنطى[١٨] ، ولاشك أن الفاطميين قد تنبهُّوا لذلك ، كما

---

١٦ Lewis B., " the Fatimid and the Route to India " RFSE Univ. Istanbul IX (1949-50), p. 51; id., « An Interpretation of Fatimid History », CIHC, P. 288

١٧ عن قضية النسب الفاطمى انظر أعلاه ص ٣٢ – ٣٩ .

١٨ Blachère, R., " La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme arabo - islamique IV° siècle ", CIHC, p. 95

وجدوا مصر بسعة مواردها وكثرة أرزاقها ومكانها من القلب بالنسبة للعالم الإسلامى ، قادرة على تحقيق أهدافهم الاستراتيجية فى يوم من الأيام . وإذا كان الفاطميون قد فشلوا فى كسب كل العالم الإسلامى لصَفِّهم تمسُّكهم بتحدِّياتهم الإيديولوجية التى عَزَلوا أنفسهم بسببها عن إجْماع المسلمين ، فإن « القاهرة » التى أرادوا أن يحكموا منها العالم الإسلامى ، سجَّل لها التاريخ دورها فى قيادة هذا العالم أمام كل التيارات الأجنبية بدءًا من المَدِّ الصَّليبى ومرورًا بالغزو المُغُولى وحتى العصر الحديث ، وأثبتت بُعْد نظر الفاطميين عندما اختاروا مصر ليحققوا من خلالها أهدافهم .

وِلَايَةُ جَوْهَر القَائِد

كان أوَّل عمل قام به القائد جوهر بعد فَتْح مصر هو اختطاط مدينة جديدة ، بناء على توجيهات الخليفة المُعِزّ ، قُصِد بها أن تكون مدينة ملكية وعاصمة للإمبراطورية العالمية الشاملة التى تضم جميع الأراضى الإسلامية ، هى مدينة « القاهرة » فى الشمال الشرقى للفسطاط[١٩] .

وقد أدرك القائد جوهر ، فور دخوله إلى مصر ، طبيعة المجتمع المصرى . فالأمَانُ الذى مَنَحه للمصريين والذى كتبه بخَطِّه[٢٠] ، يُثْبت مرة أخرى براعة الفاطميين البالغة فى الدعاية . فالوثيقة مقبولة تمامًا من أى قارئ سُنِّى ، فقد تَعَهَّد فيها بترك الحرية الدينية للمصريين و « أن يجرى الأذان ، والصلاة ، وصِيَام شهر رمضان وفِطْره وقيام لياليه ، والزَّكَاة ، والحَجّ ، والجِهَاد على أمر الله وكِتَابه وما نصَّه نبيه ﷺ فى سُنَّته ، وإجراء أهل الذِّمَّة على ماكانوا

---

[١٩] راجع للمؤلف Fu'ad Sayyid, A., La Capitale de L'Egypte jusqu'à L'époque Fatimide (al - Qāhira et al - Fustāt), Essai de reconstitution topographique, thèse pour le doctorat d'état - es - lettres presentée à la sorbonne (Sous press)

[٢٠] المقريزى : اتعاظ ١ : ١٠٦ .

عليه »، و « أن يجرى فى المواريث[٢١] على كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ » و « إسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرتضى أمير المؤمنين بإثباتها عليكم » و « أن يتقدَّم فى رمِّ مساجدهم وتزيينها بالفَرْش والإيقاد وإعطاء مؤذنيها وقَوَمَتها ومن يؤمُّ الناس فيها أرزاقهم »[٢٢] .

وكانت السنوات الأربع التى حَكَم فيها جوهر مصر نيابة عن الخليفة المُعِزّ (٣٥٨ - ٣٦٢) ، من أهم فترات التاريخ الفاطمى فى مصر . فقد تمَّت فيها التغييرات المذهبية والإدارية اللازمة التى عبَّرت عن مظاهر انتقال السيادة إلى الفاطميين ، ومهَّدت لقدوم الخليفة المُعِزّ وانتقاله إلى الشرق ليُعْلن مصر دار خلافة وليقود دولته المنتظرة فى الشرق .

وقد عاصر سنوات الفتح مُؤَرِّخ مصرى ثقة هو الحسن بن أحمد بن زُولاق المتوفى سنة ٣٨٦/٩٩٦ ، وبفضل كتابه « تتمة كتاب أمراء مِصر للكِنْدى » ، الذى أظن أنه هو نفسه كتابه فى « سيرة جوهر »[٢٣] ، والذى حَفَظ لنا المقريزى ومن قبله ابن خَلِّكان نصوصًا مطوَّلة منه ، أمكننا عن طريقها التعرُّف على الخطوات التى اتخذها جوهر وكيفية انتقال السيادة إلى الفاطميين فى مصر ، وإلى أى مدى التزم الفاطميون بنص الأمان الذى منحه

---

[٢١] لم يكد يمض أقل من عام على الفتح الفاطمى إلّا وقد أمر جوهر فى المواريث « بالرد على ذوى الأرحام ، وأن لايرث مع البنت أخ ولا أخت ، ولا عم ولا جد ، ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد ذكرًا كان أو أنثى إلّا الزوج والزوجة والأبوين والجدة ، ولا يرث مع الأم إلّا من يرث مع الولد » ، فقد اعتبر الفاطميون عدم توريث البنت التى لا إخوة لها كل الميراث عداوة للسيدة فاطمة عليها السلام » . (المقريزى : المقفى ٣٤٥ ، عماد الدين إدريس ، تاريخ الخلفاء ٦٩٥) وانظر فيما يلى ص

[٢٢] ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٧ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٣٩ - ٤٠ ، ابن حماد : أخبار ٥٠ - ٥٢ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ١٠٣ - ١٠٦ ، المقفى ٣٣٢ - ٣٣٦ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٧٣ - ٦٧٨ ، Blanquis, Th., op. cit, pp. 65 - 75 .

[٢٣] راجع بحثى Fu'ad Sayyid, A., " Lumières nouvelles rus quelques sources de l'histoire Fatimide en Egypte ", An. Isl. X111 (1977),p. 5

جوهر للمصريين . فهذا الأمان لم يكن فى الواقع سوى إجراء ماهر لكسب تأييد المصريين .

وتمثّلت هذه الخطوات فى سلسلة من الإجراءات المتتالية فى النواحى العقائدية والإدارية والتنظيمية . بدأها بأن أقرّ على رأس المناصب الإدارية والدينية نفس الأشخاص الذين كانوا يشغلونها وقت الفتح . فأقرّ جعفر بن الفرات مشرفًا على المسائل المالية ، والقاضى أبا الطاهر الذُّهْلى على القضاء ، كما احتفظ عبد السميع بن عمر العبّاسى بمنصبه كخطيب لجامع مصر ولكنه امتنع لعدّة شهور عن اعتلاء المنبر[٢٤] . ويلاحظ أن العراقيين والشوام ظلّوا يتولّون مناصب القضاء والخطابة حتى أوائل عهد الظّاهر .

ولم يستبح جوهر لنفسه أن يحل أشخاصًا من طرفه فى محل الإدارة المصرية قبل أن يتعرّف على نظامها جيدًا ، خاصة وهى إدارة أكثر تعقيدًا وتحضرًا من تلك التى عهدها فى إفريقية . وقد اضطر للجوء إلى نظام الحكم غير المباشر ، عن طريق الاعتماد على رجال العصر السابق ، لحين انتهائه من إتمام فتح الوجهين البحرى والقبلى ، ولكنه بعد أن أنهى هذه المهمة « لم يدع عملًا إلّا جعل فيه مغربيًا شريكًا لمن فيه »[٢٥] . ولكن لما ظهر أن هؤلاء المغاربة أكثر إتعابًا للدولة من غيرهم لم يتم ماكان مزمعًا من إخراج العمال القدماء والذين كانوا فى الغالب من الأقباط[٢٦] .

وقد قَطَع جوهر خُطْبة العباسيين من على منابر مصر ، وحَذَف اسمهم من على السّكّة وأَحَلّ اسم الخليفة المُعِزّ محل ذلك ، وأزال السَّواد – شعار

---

[٢٤] النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٤٠ ، ابن الزيات : الكواكب السيارة ٦٣ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ١١٩ ، Bianquis, Th. op. cit., p. 76

[٢٥] المقريزى : اتعاظ ١ : ١١٩ .

[٢٦] آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١ : ١٣٤ .

العبّاسيين – وألْبَس الخطباء فى الجوامع الثياب البيض – شعار الفاطميين[٢٧] ، وأمر بفتح دار الضَّرْب بالفُسْطَاط ، التى كانت مُعَطَّلة فى آخر عهد الإخشيديين[٢٨] ، وضرب سِكَّة حمراء[٢٩] عليها اسم المُعِزّ لدين الله فى سنة ٩٦٩/٣٥٨[٣٠] .

إصلاحات جَوْهَر

١ – الدِّينيَّة

كان أوَّل تغيير أثار حَنَق المصريين خاص بصَوْم رمضان وفِطْره ، الذى أصبح بعد دخول الفاطميين إلى مصر يتم بدون رُؤْيَة الهلال . فشهر رمضان كان دائمًا عند الفاطميين الإسماعيليين ثلاثين يومًا[٣١] . فقد أفْطَر القائد جوهر

---

٢٧ ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٩ ، الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٥ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ١١٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٢ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء ٦٨٤ .

٢٨ كان آخر دينار ضرب فى عصر الإخشيديين فى سنة ٣٥٥ . (محمد أبو الفرج العش : المرجع السابق ٩٣٨) .

٢٩ السكة هى الدينار والدرهم المضروبين ، سمى كل منهما سكة لأنه طبع بالحديدة المعلمة ، ويقال لها السكة . (المقريزى : الأوزان والأكيال الشرعية (نشرة Tychsen سنة ١٧٩٧ م) ٨٦) . والسكة الحمراء هى الدينار المصنوع من الذهب الجيد العيار .

٣٠ النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٤١ ، المقريزى : المقفى ٣٤٢ واتعاظ ١ : ١١٥ – ١١٦ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء ٦٨٦ . وجاء على هذه السكة : « دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد » فى سطر ، وفى السطر الآخر « المعز لدين الله أمير المؤمنين » ، وفى السطر الثالث « بسم الله . ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » – وفى الوجه الآخر : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، علىٌّ أفضل الوصيين وزير خير المرسلين » .

٣١ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٩٤ . فتبعًا للمذهب الإسماعيلى فإن صوم رمضان وفطره يتم بالرؤية والحساب جميعًا ، واعتبروهما كالظاهر والباطن ، إذا أُشكل الأمر فى أحدهما التمس فى الآخر . فالهلال كالظاهر لأنه مشاهد ، والحساب كالباطن لأنه معقول ، وهو يستعمل من أول كل سنة ثم يراعى طلوع الهلال ، فإن وافق الحساب الرؤية فقد اتفق الظاهر والباطن وزال الإشكال . (المجالس المستنصرية ، تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٧ ، ١٢٨ – ١٢٩) ، وانظر =

وأصحابه فى سنة ٩٦٩/٣٥٨ بغير رؤية وصلُّوا صلاة عيد الفِطْر بمُصَلَّى القاهرة . ولم يعجب ذلك أهل مصر وصَلُّوا غداة هذا اليوم بالفُسْطاط ، لأن القاضى أبا الطاهر الذُّهْلى التمس رؤية الهلال - كما جرت العادة - على سطح جامع عمرو فلم يره ، فلما بَلَغ ذلك القائد جوهر أنكره وتهدَّد من أعاد فعله ، فأشار شهود القاضى عليه أن لا يطلب الهلال ثانية لأن الصوم والفِطْر على الرؤية قد زالا . فانقطع طلب الهلال بمصر طوال حكم الفاطميين[٣٢] .

وفى يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٩٧٠/٣٥٩ جاء التغيير الذى عَبَّر عن ترك المذهب السنى فى مصر لأول مرة ، فقد صلَّى القائد جوهر مع عساكره فى جامع ابن طولون (لم يكن جامع القاهرة قد تم بناؤه فى هذا التاريخ) وأمر المؤذنين بالأذان « بحَىّ على خَيْر العَمَل » - وهو من مميزات الأذان عند الشيعة - وكان هذا أوَّل ما أُذِّن به فى مصر . ثم أُذِّن به فى جامع عمرو بعد أسبوعين فى يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى من السنة نفسها ، ثم أُذِّن به بعد ذلك فى سائر مساجد مصر[٣٣] . كذلك أمر جوهر بالجَهْر بالبَسْمَلة فى الصلاة ، وزيادة القنوت فى الركعة الثانية من صلاة الجمعة ، ومَنَع من قراءة

= المقريزى : اتعاظ ٢ : ٨٧ حيث يورد أمرًا للخليفة الحاكم بتحديد موعد الصوم وموعد الفطر لسنة ٤٠١ وكذلك ٢ : ٦٧ والخطط ٢ : ٣٤٢ . وانظر كذلك حميد الدين الكرمانى : « الرسالة اللازمة فى صوم رمضان وحينه » ، تحقيق وتقديم محمد عبد القادر عبد الناصر ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٣١ (١٩٦٩) ١ - ٥٢ .

[٣٢] الكندى : الولاة والقضاة ٥٨٤ ، المقريزى : المقفى ٣٤٢ والخطط ٢ : ٣٤٠ والاتعاظ ١ : ١١٦ ، عماد الدين ادريس : تاريخ الخلفاء ٦٩١ ، ٦٩٩ - ٧٠٠ .

[٣٣] ابن الأثير : الكامل ٨ : ٥٩٠ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٩ ، ابن حماد : أخبار ٥٠ ، ابن سعيد : المغرب ابن سعيد : المغرب ٢٠١ ، ابن أيبك : كنز ٦ : ١٢٥ ، الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٥ ، ابن خلدون ٤ : ٤٨ ، المقريزى : المقفى ٣٤٤ ، والخطط ٢ : ٢٧٠ ، ٣٤٠ والاتعاظ ١ : ١٢٠ - ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٥٩٩ ، ابن إياس : بدائع ١/١ : ١٨٥ ، عماد الدين ادريس .

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ [الآية ١ سورة الأعلى] . وأزال التكبير بعد صلاة الجمعة[٣٤] ، وأن يُقَال فى الخطبة : « اللَّهم صلِّى على محمد النبى المصطفى ، وعلى علىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سِبْطى الرسول ، الذين أذْهَبْت عنهم الرِّجْس وطهَّرتهم تطهيرًا ، اللَّهم صلِّى على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين »[٣٥] .

٢ – الاقتصادية

عند قدوم جوهر ، كانت مصر تَمُرُّ بأخطر أزمة اقتصادية عرفتها منذ أكثر من قرن وهى أزمة لم تتوقَّف عن التفاقم منذ سنة ٩٦٣/٣٥٢ واستمرت لمدة ثلاث سنوات بعد الفتح الفاطمى . وقد اهتم جوهر فى أول الأمر بالقضاء على المجاعة واستتباب النظام ومعالجة الأمور بسخاء نسْبى . وكان هذا أهم ماشغله فنادى فى سنة ٩٦٩/٣٥٨ برفع « البَرَاطيل »[٣٦] ورد أمر الحِسْبَة إلى سليمان ابن عَزَّة – وهو تبعًا للمصادر ثانى من تولَّى الحِسْبَة فى زمن الفاطميين – فضرب فى سنة ٩٧٠/٣٥٩ جماعة من الطَّحَّانين وطاف بهم البلد ، وجمع القمَّاحين وسَمَاسِرة الغِلال فى موضع واحد ، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحدة فكان لايخرج قَدَح قمح إلَّا ويقف عليه[٣٧] . ومع ذلك ، فقد استمر الغلاء إلى سنة ٩٧١/٣٦٠ بسبب قصور مدّ النيل مما أدَّى إلى اشتداد الوباء وتَفَشِّى الأمراض وكثرة الموت إلى أن انحل السِّعر وأُخْصِبَت الأرض وظهرت

---

[٣٤] ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٦ و ٣٧٩ ، المقريزى : المقفى ٣٤٤ – ٣٤٥ واتعاظ ١ : ١١٩ ، ١٢٠ – ١٢١ ، عماد الدين إدريس : تاريخ ٦٩٥ .

[٣٥] نفسه ١ : ٣٧٦ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٤١ ، الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٥ ، المقريزى : المقفى ٣٤٣ والخطط ٢ : ٣٤٠ واتعاظ ١ : ١١٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٢ .

[٣٦] المقريزى : المقفى ٣٤٣ والاتعاظ ١ : ١١٧ . والبراطيل هى الأموال التى تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها على سبيل الرشوة . (الخطط ١ : ١١١) ذلك أن جوهر قد وعد فى أمانه بإسقاط الرسوم الجائرة التى لايرضى عنها أمير المؤمنين .

[٣٧] المقريزى : إغاثة الأمة ١٣ – ١٤ واتعاظ ١ : ١٢٠ والخطط ٢ : ٣٤٠ .

بوادر الرخاء فى سنة ٩٧٢/٣٦١[٣٨] .

ولما كانت الزراعة هى عَصَب الاقتصاد المصرى ، فقد وجَّه القائد جوهر عنايته إلى تجديد مافَسَد من جسور وقناطر وغير ذلك[٣٩] . كذلك ضاعف ضريبة الأرض (الخَرَاج) من ثلاثة دنانير ونصف إلى سبعة دنانير للفدان الواحد وزاد قيمة قَبالَة الأراضى بغرض سد حاجته للمال لتغطية نفقاته المباشرة . وقد بلغ قيمة ماجباه فى سنة ٩٧٠/٣٥٩ ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار[٤٠] ، وفى سنة ٩٧١/٣٦٠ ٣,٢٠٠,٠٠٠ دينار[٤١] ، ولم تتكرر هذه القيمة بعد ذلك أبداً[٤٢] . والغريب أننا لا نعرف كيف تمكن المصريون من دفع هذا الخراج المضاعف مع قصور النيل والأزمة الاقتصادية التى كانوا يمرون بها .

٣ – النَّقْدِيَّة .

عمل جوهر على إصلاح النظام النقدى المعمول به فى مصر ، فقد جاء فى أمانه وعدٌ بإصلاح العملة المصرية وضربها على العيار الذى عليه العملة الفاطمية فى إفريقية[٤٣] . فاستجد ضرب دينار عالى القيمة هو « الدِّينار المُعِزِّى » الذى يقرب وزنه وقيمة نقائه من أربعة وعشرين قيراطًا[٤٤] . ففى زمن الفتح كان المصريون ، كما فى سائر البلاد الإسلامية ، يستخدمون نقودًا ذهبية وفضية ، ونحاسية بالإضافة إلى نقود وسيطة مخلَّطة ، وكانت الدنانير تُحْفظ كرصيد

---

[٣٨] نفسه ١٤ ، نفسه ١ : ١٢٨ .

[٣٩] ابن زولاق : فضائل مصر ٤٧ ظ ، المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر ٣ – ٤ ، ابن إياس : بدائع ١/١ : ١٩١ .

[٤٠] ابن حوقل : صورة الأرض ١٦٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ ، وعن نظام القَبالَة انظر فيما يلى الفصل الثانى عشر .

[٤١] أبو المحاسن : النجوم ١ : ٤٦ .

[٤٢] قارن ، المقريزى : الخطط ١ : ٩٩ – ١٠٠ .

[٤٣] المقريزى : المقفى ٣٣٤ والاتعاظ ١ : ١٠٤ .

[٤٤] المقريزى : النقود الإسلامية ٦٥ .

ولا تدفع إلّا فى المشتريات الضخمة ، وعلى الأخص المشتريات العقارية . أما بالنسبة للحياة اليومية فقد كان من الضرورى استبدال قطع فضية مقابل الدنانير لدى أحد الصيارفة . وتوجد بين الدينار الذهب والدرهم الفضة علاقة رسمية بما أن الاثنين ضُرِبا فى دار ضَرْب الحكومة ، ولكن قوانين العرض والطلب جعلت الصيارفة يطبقون علاقة أخرى تبعًا للسوق[٤٥] . وكان الدينار المستخدم فى مصر عند الفتح الفاطمى هو « الدِّينار الرَّاضى » الذى ضربه العبَّاسيون . كذلك كانت تستخدم دنانير من الفضة المذهبة يُعرف واحدها « بالدينار الأبيض » ، وهو دينار منخفض القيمة حيث ترتفع فيه كثيرًا نسبة الفضة . وبعد أن ضرب جوهر « الدينار المُعِزّى » فى سنة ٩٦٩/٣٥٨ عمل على تثبيت قيمة صرف الدِّينار الرَّاضى عند خمسة عشر درهمًا بينما بلغت قيمة الدينار المُعِزّى خمسة وعشرين درهمًا[٤٦] . ومَنَع من تداول الدينار الأبيض الذى لم تتعد قيمته عشرة دراهم ، فضجَّ نفرٌ من المصريين بالشكوى فأبقاه ولكنه خفَّض قيمته إلى ستة دراهم ، مما أدَّى إلى تلفه وإفلاس بعض الناس مما دفعه إلى إعادة تقدير قيمته فى سنة ٩٧٣/٣٦٢ ورفعها إلى ثمانية دراهم[٤٧] . وبعد وصول المُعِزّ إلى مصر تلاشى استخدام الدينار الراضى والدينار الأبيض فقد امتنع يعقوب بن كِلِّس وعُسْلوج بن الحسن أن يأخذا قيمة الخراج وقَبَالَة الأراضى إلّا بالدينار المُعِزّى[٤٨] .

---

[٤٥] Bianquis, Th., op. cit., p . 78

[٤٦] المقريزى : المقفى ٣٤٧ والاتعاظ ١ : ١٢٢ بينما يذكر ابن ميسر : أخبار ١٦٤ والمقريزى : الخطط ٢ : ٦ والنقود الإسلامية ٦٥ أن قيمته كانت خمسة عشر درهم ونصف ، وراجع كذلك Rabie, H., The Financial System of Egypt, pp. 163 - 164

[٤٧] المقدسى : أحسن التقاسيم ٢٠٤ ، المقريزى : الاتعاظ ١ : ٢٢٢ ، ١٣٢ والمقفى ٣٤٧

[٤٨] ابن ميسر : أخبار ١٦٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٦ والنقود الإسلامية ١٣ – ١٤ .

تأمينُ الحُدود

ما أن انتهى جوهر من السيطرة على كل الأراضى المصرية عمل على تأمين الدفاع عن الحدود المصرية فى الجنوب وفى الشمال .

١ - النوبة

ففيما يخص الحدود الجنوبية أرسل جوهر أحد سكان أُسْوان هو عبدالله بن أحمد بن سُلَيْم الأُسْوانى برسالة إلى قيرقى (جورج) ملك النوبة يحثه فيها على إعادة دفع البَقْط[٤٩] ، الذى كان قد قطعه فى آخر عهد الدولة الإخشيدية ، ويدعوه بحضور شاهدين إلى ترك النصرانية واعتناق الإسلام[٥٠] . ويبدو أن ابن سُلَيْم لم يوفَّق فى مسعاه الأخير ولكنه انتهز هذه الفرصة وقام برحلة إلى مملكة النوبة زار خلالها فيما يبدو فقط المنطقة الجنوبية المعروفة بعَلْوة ، حيث أنه لايوجد بين أيدينا مايفيد أنه زار منطقة البُجَة . وهذه الرحلة التى أسماها « أخبار النوبة والمَقْرة وعَلْوة والبُجَة والنيل » والتى احتفظ لنا المقريزى وابن

---

[٤٩] هذه الكلمة تعنى الضريبة السنوية التى كانت تدفعها النوبة المسيحية للدولة الإسلامية فى مصر كضريبة مقابل الهدنة المعقودة بينهما ، وهى عبارة عن ٣٦٥ رأسًا من السبى لبيت مال المسلمين بالإضافة إلى أربعين رأسًا تحمل لأمير مصر وعشرين رأسًا لوالى أسوان الذى يتولى قبض هذا البَقْط، وخمسة للأمير المقيم فى أسوان ، واثنى عشر رأسًا للإثنى عشر شاهد عدل الذين يحضرون مع الحاكم قبض البقط . (البلاذرى : فتوح البلدان ٢٨١ - ٢٨٢ ، المسعودى : مروج الذهب ٢ : ١٢٩ - ١٣٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٩٩ - ٢٠٢ ، Lokkegaard, F., EI²., art. Bakt I, p. 996 وانظر كذلك Beshir, B. I., " New Light on Nubian Fatimid Relations ", Arabica XX11 (1975), p. 16

[٥٠] المقريزى : المقفى ٢٥٢ .

إيَّاس والمُنُوفى بنقول هامة منها هى التى حَفَظَت خبر هذه الرسالة التى أُرسلها جوهر إلى ملك النوبة[٥١] .

كذلك فقد ذكر لنا ابن زولاق (ت . ٩٩٦/٣٨٦) وجود « رباط الحرس من جهة الحَبَش والبُجَة وما يقرب منهم ، ورباط أسوان على النوبة ، ورباط الواحات على البربر والسودان »[٥٢] ، وهذا النص يدل على وجود استحكامات دفاعية أمام الحدود الجنوبية قد تعود إلى ماقبل الفتح الفاطمى . ولم يتبق من آثار هذه الاستحكامات شئ اليوم ، فآثار المنائر الموجودة اليوم فى الصعيد الأعلى فى أسوان والمَشْهد البحرى والمَشْهد القبلى والأُقصر وإسْنا والتى شُيِّدت وفقًا لطراز أسطوانى لتيسير مهمة المرابطين للحراسة ترجع كلها ، تبعًا لما أثبته حسن الهَوَّارى وكريزويل ، إلى عهد أمير الجيوش بدر الجمالى[٥٣] بينما يرى إبراهيم شبوح أن منارة الطابية والمشهد البحرى بأسوان ترجع إلى أواسط القرن الثالث فى أيام المتوكل العبّاسى[٥٤] .

---

[٥١] عن هذا الشخص انظر ، المقريزى : المقفى ٢٥٢ – ٢٥٤ والخطط ١ : ١٩٠ ، كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغراق العربى ١٩٢ – ١٩٣ ، Brock., GAL SI, 410; Troupeau, G., " La description de La Nubie d'al - Uswâni ", Arabica I (1954), pp. 276 - 288; Yusuf F. Hasan, EI²., art. Ibn Sulaym al - Uswani III, p. 973; Fu'ad Sayyid A., " Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte ", An. Isl. XIII (1977), p. 5; Kheir, H. M., " A Contribution to a Textual Problem : Ibn Sulaym al - Aswani's Kitab Ahbar al - Nuba wal - Maqurra wal - Bega Wal - Nil ", An. Isl. XXI (1985), pp. 9 - 72; Cuoq, J., Islamisation de la Nubie chrétienne VII - XVI siècles, Paris 1986, pp. 55 - 63

[٥٢] ابراهيم شبوح : « حول منارة قصر الرباط بالمنستير وأصولها المعمارية » ، مجلة إفريقية ٣ – ٤ (١٩٧١ – ٧٢) ١٠ .

[٥٣] Al - Hawwary, H. M., " Trois minarets Fatimides à la frontière nubienne ", BIE XVII (1934 - 35), p. 146; Creswell, K. A. C., MAE I, pp. 146 - 155

[٥٤] إبراهيم شبوح : المرجع السابق ١٠ – ١٣ .

٢ – فتح الشّام

كانت السيطرة على الشام تُمَثِّل دائمًا أولية استراتيجية لكل نظام يتولى حكم مصر . فعلى ذلك فقد أرسل جوهر أحدَ قادة كُتَامَة الذين شاركوا فى فتح مصر هو جعفر بن فَلاح الكُتَامى على رأس جيش إلى الشام . فتمكن من فتح الرَّمْلَة ثم دِمَشْق وإقامة الدَّعْوة بهما للخليفة المُعِزّ فى سنة ٩٧٠/٣٥٩ . وأتم جعفر فتح الشام فى سنة ٩٧١/٣٦٠ ودخلت قواته فى مواجهة مع البيزنطيين فى أنطاكية . كذلك فقد اعترف حكام حَلَب الحمدانيون بالخلافة الفاطمية . وهكذا ومع نهاية عام ٩٧١/٣٦٠ كان الأذان « حى على خير العمل » يُطلق من على كل مآذن مصر والشام[°°] .

إذن فقد كان فتح الشام امتدادًا طبيعيًا لفتح مصر . فقد كانت الشام ستُتَّخذ كقاعدة إنطلاق للهجوم الأخير الذى كان سيحمل جيوش الفاطميين إلى بغداد لتضع نهاية لحكم البويهيين وللخلافة العبّاسية . ولكن موقعة دمشق مع القرامطة ومقتل جعفر بن فلاح فى ٦ ذى القعدة سنة ٣١/٣٦٠ أغسطس سنة ٩٧١ وضعت نهاية لهذه الأوهام .

[°°] راجع عن فتح الفاطميين للشام ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٣٨ ، ابن ظافر ، أخبار ٢٤ – ٢٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٥٩١ – ٥٩٢ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٦١ ، ابن سعيد : النجوم ١٠٣ – ١٠٤ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٤١ – ٤٢ ، الصفدى : الوافى ١١ : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٨ – ٤٩ ، المقريزى : المقفى ٢٢٠ – ٢٢٨ ، اتعاظ ١ : ١٢٠ ، ١٢٢ – ١٢٧ ، ١٢٨ – ١٢٩ ، درويش النخيلى : فتح الفاطميين للشام فى مرحلته الأولى ، الإسكندرية ١٩٧٩ ، خاشع المعاضيدى : الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى ، بغداد ١٩٧٦ ، ٢٢ – ٢٩ ، أمينة البيطار : موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجرى ، دمشق ١٩٨٠ ، ٣٢ – ٥١ ، Bianquis, Th., Damas et la Syrie sous la domination fatimide, Damas 1986, pp. 44 - 64; Lev, y., " Fatimid Policy towards Damascus (358 / 968 - 386 / 996) Military, Political and Social Aspects ", dans Jerusalem Studies in Arabic and Islam III (1981 - 82), pp. 165 - 183 .

وكان الإخشيديون فى مصر ، فى نهاية عهدهم ، يدفعون إلى القرامطة مبلغًا كبيرًا من المال قيمته ٣٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة ، مقابل تأمين سلامة وصول القوافل المارة فى الطرق البرية من مصر وسوريا إلى الحجاز . ولكن الفاطميين ، بعد فتحهم الشام فى سنة ٩٧١/٣٦٠ ، قطعوا هذه المعونة ، مما أثار غضب القرامطة وجعلهم لايترددون عن مهاجمة الفاطميين فى مصر[٥٦] .

٣ - الحَرْبُ القَرْمَطِية الأولى

كان هجوم القرامطة على مصر هو أول خطر حقيقى يواجه الدولة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر . وقد تمكن القائد جوهر بحنكته الحربية من صد هذا الهجوم الذى كان ينتظره . فقد أخذ وهو يؤسِّس مدينة القاهرة فى مباشرة بعض الأعمال الدفاعية . فأخذ فى حفر خَنْدَق كبير أمام الأسوار الشمالية للقاهرة بين المقطم والخليج[٥٧] ، وأقام قنطرة على الخليج فى مواجهة الباب الشمالى الغربى للمدينة ، الذى صار منذ هذا التاريخ يعرف بباب القَنْطَرَة ، لتسهيل الانتقال إلى جهة المَقْس ، كما أن بابين أُخِذا من ميدان الإخشيديين كانا يتحكمان فى المداخل الأساسية لهذا الخندق[٥٨] .

كذلك فقد حَفَر خَنْدقاً آخر شرق المدينة يبدأ جنوبًا من عند بركة الحَبَش ويخترق القَرافة إلى أن يصل إلى موضع قبر الإمام الشافعى موازيًا فى قسم منه

---

[٥٦] ابن الأثير : الكامل ٨ : ٤٥٢ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٥٠ ، Shaban A., op. cit. p. 197

[٥٧] راجع ، المقدسى ، أحسن التقاسيم ١٩٨ ؛ يحيى بن سعيد : تاريخ ١٤٢ ، ابن ظافر : أخبار ٢٥ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ١٤٣ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٣٧ ، اتعاظ ١ : ١٢٩ ، ١٣٠ - ١٣١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٨٠ . وعن الخندق راجع المقريزى : الخطط ١ : ٣٦٠ ، ٢ : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٩٧ ، المقفى (خ . السليمية) ٣١٠ ظ .

[٥٨] القلقشندى : صبح ٣ : ٢٢٩ - ٢٣٥ المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٢ - ٣٨٣ ، ٢ : ١٤٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٩ ؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء ٧١٤ - ٧١٦ .

الخندق القديم الذى كان قد حفره عبدالله بن جَحْدَم فى سنة ٦٨٣/٦٤[٥٩] ، ثم يدور ناحية الشرق تجاه المقطم وحتى موقع قبر كافور . وهذا كله حتى يتحاشى مجىء القرامطة من جهة الشرق مخترقين الطريق الذى يربط الفُسْطاط بمدينة القُلْزم .

وقد شجَّع هجوم القرامطة أهالى الفَرَما وتِنِّيس على التمرد على الفاطميين فغيروا دعوتهم ولبسوا السواد – شعار العبّاسيين – ولم يرجع الهدؤ الدائم إلى هذه الأقاليم إطلاقًا بين سنتى ٣٦٠ / ٩٧١ و ٣٦٣ / ٩٧٤ حتى تمكن جيشاً بقيادة أبو محمد بن عمَّار كانت تحت إمرته أكثر من عشرة آلاف رجل من القيام بسلسلة من عمليات الردع العنيف لسكان هذه المناطق[٦٠] .

المُعِزّ لدين الله يَصِلُ إلى القاهرة

عندما أصبحت الظروف مهيأة لاستقبال الخليفة المُعِزّ لدين الله فى « القَاهَرة » ، العاصمة الخليفية الجديدة ، التى أراد الفاطميون بإنشائها أن تكون عاصمة لإمبراطورية واسعة ينشرون من خلالها مذهبهم الدينى فى كل الأراضى الإسلامية ، مسَخِّرين لذلك كافة إمكانيات مصر ومواردها لإضفاء العَظَمة والأُبَّهة عليها لتكون جديرة بالإحلال محل بَغْدَاد فى حكم العالم الإسلامى ، كتب جوهر إلى المُعِزّ يدعوه للحضور إلى مصر .

---

[٥٩] الكندى : الولاة والقضاة ٤٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٠١ ، ٢ : ٤٥٨ ، أبو المحاسن : النجوم ١ : ١٥٨ ، ١٦٥ – ١٦٨ ، ١٧١

[٦٠] المقريزى : اتعاظ ١ : ١٣٠ ، Bianquis, Th., La Prise de pouvoir p. 86 .

كان انتقالُ الفاطميين إلى مصر انتقالًا بمعنى الكلمة ، ولم يكن توسُّعًا بغرض كَسْب أراضٍ جديدة للخلافة الفاطمية . فعندما كتب جوهر إلى المُعِزّ يدعوه للحضور إلى القاهرة قَطَع الفاطميون كل صِلَة لهم بإفريقية ، فقد نَقَل المُعِزّ معه كل ذخائره وأمواله[٦١] وحتى توابيت أبائه حملها معه وهو فى طريقه إليها[٦٢] . واستَخْلَفَ على إفريقية أسرة بربرية محلية هى « أسرة بنى زيرى » كان على رأسها يوسف بن بُلُكين الصَّنْهاجى[٦٣] ، واستَخْلَفَ على حكم صِقِلِّية أسرة عربية تنتسب إلى قبيلة بنى كَلْب ، أما طَرابُلسُ فقد عَهَد بها إلى عبدالله بن يَخْلف الكُتامى[٦٤] . وإذا كان المُعِزّ قد أبعد يوسف بن بُلُكين عن صقلية وطرابلس فذلك لأنه لم يُرِد أن تكون له قدمٌ فى أوربا ، أو يكون بمستطاعه التحكم فى الطريق إلى مصر . وبذلك فإن دوره تركز فى ضمان أمن الشمال الإفريقى ومحاولة مناوشة أمويى الأندلس ووَضْع يده على مايستطيع الوصول إليه فى إفريقيا جنوب الصحراء .

---

[٦١] الكندى : الولاة والقضاء ٢٩٨ ، ابن زولاق : فضائل مصر ٤٦ ظ - ٤٧ و ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٣٩ ، ابن ظافر : أخبار ٢٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٦٢٠ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٢٦ - ٢٢٧ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٤٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٢ ، الاتعاظ ١ : ١٠٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٣١ .

[٦٢] ابن زولاق : فضائل ٢٤٧ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٤٣ ، ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٣٦ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ٢٠٠ و ، الخطط ١ : ٣٥٣ ، ٤٠٧ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٣٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ١/١ : ١٨٧ - ١٨٨ ،

[٦٣] ابن الأثير : الكامل ٨ : ٦٢٠ - ٦٢٥ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٢٦ ، ابن سعيد : النجوم ٤٤ - ٥٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ١ : ٢٢٨ ، ٢٩٦ ، النويرى : نهاية ٢٤ : ١٠٥ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٣ ، الاتعاظ ١ : ٢٩٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٧٢ ، Idris, H.R., La Berbérie Orientale sous les Zirides X - XII siècles, Paris 1962, I, pp. 127 142

[٦٤] نفسه ٨ : ٦٢٠ .

سياسة الفاطميين تجاه المصريين

نَبعت قوة الدولة الفاطمية من قدرتها على الاستفادة من إمكانيات كل الأفراد المنتمين إلى مختلف التكتلات العنصرية والاجتماعية ، التى كانت تُؤلِّف مجموع الشعب المصرى ، استفادة لم يسبق لها مثيل من قبل[٦٥] . فقد استعان الفاطميون بالعناصر الأجنبية ، لا سيما المغاربة والأتراك والدَّيالمة والسُّودان والأرْمَن ، وأفادوا بخبرة أهل الذِّمَّة ، ولاسيما بمعرفة الأقباط بالمسائل المالية ، وعهدوا إليهم بالوظائف الرئيسية فى الدولة التى أُبْعِدَ عنها المسلمون السنيون[٦٦] .

وهكذا فقد ظلَّ الفاطميون فى حكمهم مصر كحكومة أقلية منفصلة عن مجموع رعاياها ، بسبب أرائهم الدينية ، مما أفقدهم تأييد أهل البلاد الحقيقيين . وقد أدرك الفاطميون أن الإسماعيلية لم تتجذَّر فى شمال إفريقيا بعد عشرات السنين من الدعاية ، برغم مناسبة البيئة لذلك ، كما أن مصر بما فيها من ذمِّيين ومسلمين على مذهب السنة لن تكون أرضًا خِصبَة للتبشير[٦٧] . فلم يعمد المُعِزّ إلى نشر الدَّعْوة فى مصر إلَّا فى أضيَق الحدود ، فنادرًا ماجرت أية محاولة لحثّ الشعب المصرى على اعتناق المذهب الإسماعيلى[٦٨] ، واكتفى الفاطميون فقط بإسناد مناصب الدولة العليا إلى أهل الذِّمَّة أو إلى من يعتنق مذهبهم . وعلى ذلك فإنه بعد أكثر من مائتى عام من الحكم الفاطمى فى مصر ، لم يكن بها إسماعيلى واحد سوى من ارتبط بالسلطة الحاكمة . فقد كان الفاطميون يدورون فى حلقة مفرغة ، فمن حيث أنهم فشلوا مبدئيًا فى كسب

---

٦٥ Grunebaum, G.E. " The Nature of the Fatimid Achievment ", CIHC, p. 200

٦٦ يحيى بن سعيد : تاريخ Patr. Or. (1932) p. 509

٦٧ Shaban, A., op. cit., p. 198

٦٨ المقريزى : الخطط ٢ : ٣٤١ – ٣٤٢ .

كل العالم الإسلامى لصَفِّهم ، نراهم فى نفس الوقت مضطرين للحفاظ على تحدّياتهم الإيديولوجية ، الأمر الذى عَزَلَهم عن إجماع المسلمين ، وبهذا تسبَّبوا فى إلحاق الهزيمة بأنفسهم وفى اختفائهم من المسرح السياسى .

وقد استعاض الفاطميون عن تحويل مسلمى مصر إلى المذهب الإسماعيلى بكسب وُدّ أهل الذِّمَّة . فقد انتهج الفاطميون سياسة اتسمت « بالتَسَامُح الدِّينى » مع أهل الذِّمَّة ، الذين يحق لهم – إذا استثنينا الاضطهاد الذى تعرَّضوا له فى زمن خلافة الحاكم بأمر الله – أن يعتبروا العصر الفاطمى عصرهم الذهبى ، الذى تمكَّنوا فيه من الإندماج الحقيقى فى الحياة السياسية العامة للدولة فى مصر . وهذا التسامح لم يتمتَّع به حتى المسلمون من أهل السنة . ولعل انتقال ابن كِلِّس – اليهودى الذى أسلم فى آخر عهد كافور – إلى إفريقية ودعوته المُعِزّ لفتح مصر ، ثم الدور الهام الذى لعبه بعد ذلك فى مصر كوزير وأهمية الطائفة اليهودية فى العصر الفاطمى ، تجعلنا نظن تمامًا أن الفاطميين حاولوا كسب ود هذا العنصر النشيط من الشعب المصرى[٦٩] .

ولاشك أن مصر فى العصر الفاطمى قد أصبحت بفضل سياسة الفاطميين الاقتصادية المتفتحة والمتسامحة أكثر مفترقات الطرق التجارية نشاطًا فى العالم الإسلامى . وفى هذه الظروف سرعان ماوجد يهود مصر أنفسهم كما توافد إلى مصر مهاجرون يهود جدد فى أعقاب انتصار الفاطميين من المغرب ومناطق أخرى فى الشرق الأوسط[٧٠] .

وحتى منتصف القرن الخامس كان يقوم بخدمة الخلفاء الفاطميين سلسلة من الأطباء اليهود أسَّسها طبيب المُعِزّ موسى بن العازار اليهودى (بَلَطْيال بن

---

[٦٩] Wiet, G., L'Egypte arabe pp. 118, 184.

[٧٠] كوهن ، م : المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى ، جامعة تل أبيب ١٩٨٧ ، ١٦ .

شَفْطيا)[٧١] . ومن الجائز أن الفاطميين فضّلوا استخدام الكتاب والأطباء من اليهود والنّصارى ، لأن وضع هؤلاء كذميين ضمن ولاءهم للحاكم بما يفوق الأكثرية السنية[٧٢] .

وقد بَدَت سياسة التسامح التى اتّبعها الفاطميون واضحة منذ وصول الخليفة المُعِزّ إلى مصر . فقد طلب إليه أفرهام السُّريانى ، البطرك الثانى والستين ، أن يُمكّنه من بناء كنيسة أبى مَرْقورة بالفسطاط ، وكذلك الكنيسة المُعَلَّقة بقصر الشَّمْع ، فكتب له سِجِلًّا يُمَكّنه من ذلك وأطلق له من بيت المال ما يصرفه على هذه العمارة ، فتصدَّى الناس للأقباط ومنعوهم من البدء فى عملية البناء ، فجاء المُعِزّ وأشرف بنفسه على بناء أساس الكنيستين ، ثم أمر ببناء كل الكنائس التى تحتاج إلى عمارة دون أن يعترضه أحد فى ذلك[٧٣] .

ولما كان ولده الخليفة العزيز بالله متزوجًا من نصرانية على المذهب المَلْكانى ، فقد جعل أخاها أُرِسْتَس Aureste بطريركًا على بيت المقدس سنة ٩٨٦/٣٧٥ ، كما جعل أَرْسانيوس Arsenius مُطْرانًا على القاهرة والفسطاط[٧٤] ، الأمر الذى ساعد على توطيد العلاقة بينه وبين بيزنطة .

---

[٧١] ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، القاهرة ١٨٨٢ ، ٢ : ٨٦ ، القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ٢١٠ – ٢١١ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٢/٢ : ٩٢ – ٩٣ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ١٤٤ ، ١٤٦ ، المقفى (مخ . السليمية) ١٧٥ ظ ، حسن حسنى عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ، تونس ١٩٦٥ ، ١ : ٣٠١ – ٣٠٤ ، Lewis B., " Palial : A Note ", BSOAS 30 (1967), pp. 177-181

[٧٢] كوهن : المرجع السابق ١٩ .

[٧٣] ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ٢/٢ : ٩٦ – ٩٧ ، أبو صالح : تاريخ ٤٥ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٢٥ . وقارن ذلك بما فعله محمد بن طغج الإخشيد عندما بذل له النصارى مالًا ليسمح لهم بإعادة عمارة قطعة انهدمت من كنيسة أبى شنودة ، فاستفتى الفقهاء فى ذلك فلم يجيزوه فيما عدا واحد أفتى بان لهم حق ترميمها ، وكيف ثار الناس على هذا القاضى . (ابن سعيد : المغرب ١٨٣ – ١٨٤) .

[٧٤] يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخ ١٦٤ – ١٦٥ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٢ : ١١٣ .

واستمرارًا لروح التسامح الدينى هذه ، عهد العزيز بالله ، فى أعقاب وفاة ابن كِلِّس ، إلى عيسى بن نَسْطورس النصرانى بتولى دواوين الدولة فى سنة ٩٩٤/٣٨٤ ، واستناب على الشام يهوديًا يُدْعى مِنَشًا بن إبراهيم القزّاز مما مكّن لأهل الذِّمَّة فى زمانهما ، وأثار حفيظة المسلمين السُّنَّة عليهما[٧٥] . ووجد أهل الفسطاط – مركز المقاومة السنية فى مصر – فى ذلك فرصة سانحة للتعبير عن سخطهم على هذا الوضع . فيروى لنا ابن الجَوْزى أن أهل الفسطاط جعلوا امراءة (ربما تمثال على هيئة امراءة) تعترض طريق الخليفة وتقدم له ورقة فيها : « بالذى أَعَزَّ اليهود بمِنَشًا ، والنَّصارى بابن نسطورس ، وأذَلّ المسلمين بك ، إلَّا نظرت فى أمرى ؟ » . وقد اضطر الخليفة أمام تذمر أهل مصر من هذا الوضع إلى القبض عليهما وأخذ من ابن نسطورس ثلاثمائة ألف دينار[٧٦] .

المُعِزّ لدين الله وولاية عهده

عيَّن المُعِزّ لدين الله لولاية عهده ابنه نِزار ، رغم أنه ليس صاحب الحق فى ذلك تبعًا للنظام الإسماعيلى . وكان المُعِزّ ، وهو مازال فى إفريقية ، قد عَيّن لولاية عهده ابنه الأوسط عبدالله[٧٧] متخطيًا ابنه الأكبر تميم ، صاحب

---

[٧٥] أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ١٨٦ ، ابن القلانسى : ذيل ٣٣ ، ابن ظافر : أخبار ٤٠ – ٤١ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٧٧ ، ١١٦ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٤٩ ، المقريزى : اتعاظ : ١ : ٢٩٧ .

[٧٦] ابن الجوزى : المنتظم ٧ : ١٩٠ ، ابن ظافر : أخبار ٤٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١١٥ – ١١٦ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ١٩٦ .

[٧٧] الجوذرى : سيرة الأستاذ جوذر ١٣٩ ، ١٨٧ – ١٨٨ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٤٢ ، ويذكر عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٠٢ أن المعز أقام ابنه عبدالله « إمامًا مستودعًا » حتى يبلغ ولده الأصغر نزار أشده .

الحق الشرعى تبعًا للعقيدة الإسماعيلية ، لأنه كان يحيا حياة عابثة بعيدة عما يجب أن يتحلّى به من يُرشّح لإمامة المؤمنين[٧٨] .

وقد ظَلّ عبدالله ، بعد انتقال الفاطميين إلى مصر ، هو ولىّ عهد المُعِزّ ، وكان له دورٌ فى انتصار الفاطميين على القرامطة فى سنة ٩٧٣/٣٦٣[٧٩] ؛ إلّا أنه توفى فجأة ، فى حياة أبيه ، من مرض ناله بعد قليل من عودته من حرب القرامطة[٨٠] ، الأمر الذى قلب نظام الإمامة الفاطمية . فقد كان على المُعِزّ أن ينص بولاية العهد إلى حفيده : ابن عبدالله استنادًا إلى قاعدة ترجع إلى عصر جعفر الصّادق ، الذى مات ابنه إسماعيل فى حياته ، فأصبح محمد بن إسماعيل ، تبعًا للعقيدة الإسماعيلية ، هو صاحب الحق الشرعى فى الإمامة ؛ لأن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخيه بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين ، وأنها يجب أن تكون فى الأعقاب .

وبتعيين المُعِزّ لابنه الثالث نزار وليًا لعهده يكون قد تجاهل هذه القاعدة الأساسية فى العقيدة الفاطمية . وسنرى هذا التجاوز يتكّرر بعد ذلك مرتين فى تاريخ الدولة الفاطمية . ولكنه فى هذا الوقت ، أوجد صعوبات ضخمة أدّت إلى انقسام الدعوة الفاطمية على نفسها . وكان ذلك سببًا فى ضعف الخلافة وفى وصول خلفاء صغار السن إلى كرسى الإمامة ، وكذلك إلى ازدياد نفوذ كبار رجال الدولة ونساء القصر الذين فرضوا الخليفة الذى يريدونه[٨١] .

---

[٧٨] الجوذرى : المصدر السابق ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ومقدمة الأعظمى لديوان الأمير تميم بن المعز الفاطمى ، القاهرة ١٩٥٦ .

[٧٩] ابن زولاق عند ابن ميسر : أخبار ١٦٥ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٤٥ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٣٥ .

[٨٠] ابن ظافر : أخبار ٢٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٦٦ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٢١٦ - ٢١٧ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٣٥ .

[٨١] انظر فيما يلى ص ، ، ، ،

الخليفة العَزيز وإرْساء دَعَائم الدَّوْلة

كان عهد المُعِزّ والعزيز هو فترة إرساء دعائم الدولة الفاطمية وتثبيت أركانها فى مصر . فقد منح هاذان الخليفتان للدولة الفاطمية ، بفضل خبرة ومعاونة القائد جوهر والوزير ابن كِلّس ، قواعد ثابتة جعلتها تستمر بعد ذلك نحو قرنين من الزمان . ولم تكن سياستهما الخارجية نشطة إلّا فى بلاد الشام ، فتركزت سياسة العزيز بالله الخارجية على تأكيد سيطرة الفاطميين على سوريا الوسطى والجنوبية وعلى إمارة حَلَب فيما بعد[٨٢] فقد كان الفاطميون يرون فى سوريا الشمالية « الطريق إلى العراق » وأن امتلاكهم لها سيضمن لهم الوصول إلى ماورائها من بلاد[٨٣] ، وخاصة « بغداد » المركز الروحى والسياسى للعالم الإسلامى السنى .

ولتأكيد هذه السياسة قرّر الخليفة العزيز بالله ووزيره ابن كِلّس ، فى أعقاب مواجهة الجيش الفاطمى لألبتكين (أفتكين) التركى فى دمشق ، القيام بعملية إصلاح شامل للجيش الفاطمى كان أهم ماميّزها هو تجنيد الجنود من المناطق الشرقية وعلى الأخص الأتراك والديالمة . ونتج عن ذلك نشؤ جيش متعدد الجنسيات مع تنوع شديد فى التخصصات العسكرية . وقد عارضت قوات العزيز بالله من البَرْبَر المغاربة هذا الاتجاه واعتبروه تهديدًا لمكانتهم فى الدولة[٨٤] .

ومع ذلك فإن الخليفة العزيز لم يقم بأية محاولة للتحرُّش بالخلافة العبّاسية ، واكتفى فقط بالقيام باتصال دبلوماسى بعضُد الدولة البويهى ، فى عهد الطائع

---

[٨٢] Canarol, M., EI²., art. al - 'Aziz billah I, p, 847 وعن سياسة العزيز بالله

[٨٣] ابن الأثير : الكامل ٩ : ٨٥ نص رسالة بكجور إلى العزيز بالله يطمعه فى حلب ويقول له « إنها دهليز العراق » .

[٨٤] ابن ميسر : أخبار ١٧٦ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٤٩ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٥٤ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٩٤ ، ٢٦١ ، الخطط ١ : ٩٤ ، ٤٥١ ، ٢ : ١٢ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ١٩٢ ، Beshir, B. I., op. cit pp. 41- 43; Lev, Y. op. cit., pp. 342- 343

العباسى ، اعترف فيه عضد الدولة بفضل أهل البيت وخاطب العزيز « بالحضرة الشريفة » وأقرّ له بأنه فى طاعته[٨٥] . ويبدو هذا التصرف من عضد الدولة غريبًا خاصة وأن ابن ظافر يذكر أنه لم يكن يعترف بالنسب الفاطمى[٨٦] ! ولكن الفاطميين نجحوا دون شك فى التصدى للبيزنطيين ووضعوا نهاية لمحاولاتهم المتكرِّرة لاسترجاع الشام منذ عام ٩٦٥/٣٥٤ .

وبدلًا من المواجهة المباشرة اعتنق الفاطميون نظرية جديدة مؤدّاها أن صاحب السيادة الفعلية على العالم الإسلامى ، هو من تقام له الخطبة فى الأراضى الإسلامية المقدسة (مكة والمدينة)[٨٧] . فكان الفاطميون يتقرّبون لشرفاء مكة لهذا السبب . وهكذا أقيمت الدعوة للمُعِزّ وهو مازال فى إفريقية[٨٨] ، كما أقيمت له فى سنة ٩٧٤/٣٦٣ بعد انتقاله إلى مصر[٨٩] ، ثم أقيمت للخليفة العزيز سنة ٩٧٦/٣٦٥[٩٠] . وظلّ الفاطميون حريصين على ذلك إلى أن تقلّصت ممتلكاتهم وشغلتهم مشاكلهم الداخلية عن تحقيق أهدافهم الاستراتيجية[٩١] .

---

[٨٥] ابن الأثير : الكامل ٨ : ٧٠٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٢٤ – ١٢٥ ، Kabir, H., " The Relation of the Buwayhides with the Fatimids " Indo - Irania VIII, 4 (1955), pp. 28 - 33

[٨٦] ابن ظافر : أخبار ٣٤ .

[٨٧] المسعودى : مروج الذهب ١ : ١٩٢ ، متز ، آ : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١ : ٢٣ .

[٨٨] المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٣

[٨٩] ابن الجوزى : المنتظم ٧ : ٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣٤٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٦٧ ، ابن خلدون : العبر ٤ : ٥١ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٠٦ .

[٩٠] نفسه ٧ : ٨٠ – ٨١ ، نفسه ٨ : ٦٦٧ ، ابن ظافر : أخبار ٣٣ ، المقريزى : اتعاظ : ١ : ٢٣٨ .

[٩١] عن حرص الفاطميين على استمرار إقامة الدعوة لهم فى الحرمين الشريفين ، انظر السجلات المستنصرية ، السجلات رقم ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٢ .

الفصل الثالث

التوسّع
ومناقشة قضية الحاكم بأمر الله

مع نهاية عهد العزيز بالله حول سنة ٩٩٢/٣٨٢ اتسعت مملكة الفاطميين ، وتمكن الدُّعاة من إقامة الدعوة للفاطميين فى أماكن متفرِّقة من العالم الإسلامى ، فى اليمن والموصل[١] بالإضافة إلى الشام وإفريقية ، كما اشترط العزيز على رُسُل إمبراطور بيزنطة أن يُخْطَب له فى جامع القسطنطينية فى كل يوم جمعة[٢] .

الصِّراع بين الأتراك والمَغارِبَة

كانت فترة حكم العزيز بالله هى الفرصة المواتية للفاطميين لتحقيق حلمهم فى مواجهة العبّاسيين . يقول أبو المحاسن ، تعليقًا على رد عضد الدولة البويهى على كتاب العزيز السابق ذكره : « وما أظن عضد الدولة كتب له ذلك إلّا عَجْزًا عن مقاومته »[٣] . فبعد وفاة العزيز فى سنة ٩٩٦/٣٨٦ ، تولّى الخلافة تسعة من الفاطميين ، كان بينهم وقت اعتلاء العرش ثلاثة مراهقين وخمسة أطفال كان أوّلهم الحاكم بأمر الله ، الذى ظَنّ بَرْبَر كُتامَة عند تَوَلّيه أن الفرصة

---

[١] المسبحى : نصوص ضائعة ١٨ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٣٤٧ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٧٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١١٦ ، ١٢٢ ، ٢٢٤ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤١٣ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٣٠٠ – ٣٠٢ .

[٢] أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٥١ – ١٥٢ .

[٣] نفسه ٤ : ١٢٥ .

قد سنحت لهم لتطهير الجيش من أبناء الشرق ، وشرطوا عليه أن يولّى الحسن ابن عّمار المغربى الوَسَاطة[٤] ، مما مكّن المغاربة من استعادة مكانتهم فى الدولة ، بعد أن أضعفهم الوزير ابن كِلّس ، وحَلُّوا مؤقتًا محل الأتراك فى ولايات الأعمال ، حتى اضطر جماعة من الأتراك إلى الهرب من مصر خوفًا من ابن عمّار فرُدُّوا من الطريق[٥] . وخلع الحاكم على ابن عمَّار لقب « أمين الدَّوْلة » ، فأصبح بذلك أوَّل منْ لُقِّب فى الدولة الفاطمية[٦] .

ولم يلبث الأتراك والمشارقة أن تحالفوا مع بَرْجَوان ، الذى كَفَل الحاكم بعد وفاة العزيز . وثارت فِتْنَة بينهم وبين المغاربة سنة ٩٩٧/٣٨٧ انتهت بإقصاء ابن عمّار وإحلال بَرْجَوان محله ، فاستقل بالأمور مع كاتبه فَهْد بن إبراهيم النَّصْرانى[٧] ، ولم يدع الخليفة يتصرَّف فى شئ إلّا برأيه[٨] . فضاق الحاكم به ذَرْعًا وقرَّر التخلص منه لينفرد بأمر الدولة . فأوعز إلى رَيْدان الصَّقْلبى ، صاحب المِظَلَّة ، أن يقتله فى القصر فى سنة ١٠٠٠/٣٩٠ ، كما قُتل فى هذه الأحداث

---

[٤] ابن الصيرفى : الإشارة ٥٦ – ٥٧ ، أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ٢٢٢ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٤٤ ، ٤٥ ، ابن ظافر : أخبار ٤٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٧٧ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦ – ٣٧ والمقفى ٣٧١ – ٣٧٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٢٢ ، Wiet, G., EI² ., art. ʿAmmar, Banu I, p. 461

[٥] يحيى بن سعيد : تاريخ ١٨٦ ، ابن القلانسى : ذيل ٤٨ ، ٤٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٧٧ – ١٧٨ ، ١٨١ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦ والاتعاظ ٢ : ٤ ، ١٠ ، ١٢ – ١٣ .

[٦] نفسه ١٨٠ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٥٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ١١٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٧٩ ، ابن سعيد : النجوم ٥٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦ ، اتعاظ ٢ : ٥ – ٦ ، المقفى ٣٧٢ .

[٧] المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٤ .

[٨] أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ٢٢١ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٥٧ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ١١٨ ، ١٢٠ ، إبن خلكان : وفيات ١ : ٢٧١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٣ – ١٤ ، الخطط ٢ : ٣ – ٤ ، ١٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٤٨ .

كذلك ابن عمّار وتولى تدبير الدولة الحسين بن جوهر القائد[٩] .

وقد أعقب ذلك اضطرابات بين طوائف الجند ، فقد اعتبر الأتراك ماحدث ضربة لهم من بَرْبَر كُتامة ، مما حمل الخليفة على الخروج إلى باب قصره ومخاطبة المتظاهرين ، ووَجَّه حديثه إلى الكُتاميين ووصفهم بأنهم « شيوخ دولته » ثم وجَّه حديثه إلى الأتراك ووصفهم بأنهم « تربية والده العزيز » ، وطلب إلى الكافة الولاء والطاعة كما أمر أبا منصور بن سورين ، كاتب الإنشاء ، بكتابة سجل يُبرِّر فيه قتله لبَرْجَوان[١٠] .

ديكتاتورية الحاكم

وابتداء من هذا التاريخ أصبح الحاكم طاغية مُطْلَق لاينبع فى قراراته سوى عن هواه أو مزاجه الشخصى ، ووضحت فى تصرفاته المتناقضات ، فقد كان مصابًا بانفصام الشخصية يأخذ القرار ثم ينقضه بعد قليل[١١] .

---

[٩] يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٧ – ١٩٨ ، أبو شجاع : ذيل ٢٣٠ – ٢٣٢ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٢ : ١٢١ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٥٨ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ١٢٢ ، ابن ظافر : أخبار ١٤٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٨١ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٢٧٠ – ٢٧١ ، ابن سعيد : النجوم ٥٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥١ ، المقريزى الخطط ٢ : ٤ ، ١٤ ، اتعاظ ٢ : ٢٥ – ٢٦ ، المقفى ٤٠٧ – ٤٠٨ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٥٤ – ٢٥٧ (رواية مفصلة) ، Lewis, B., EI² ., art. Bardjawan I, pp. 1073 - 74.

[١٠] المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٧ وانظر نص السجل فى الاتعاظ أيضا ٢ : ٢٧ – ٢٩ والشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٣١ – ١٣٥ ، ٢٩٩ – ٣١١ ، كما منح الحاكم أمانًا للكتاميين الذين خشوا على أنفسهم بعد قتل ابن عمار (عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٥٧ – ٢٥٨) .

[١١] وضعت مؤلَّفات كثيرة عن عصر الحاكم بأمر الله بين متعاطفة معه مدافعة عن سياسته أو مهاجمة متهمة له بالخَلَل والجنون ، أهمها ، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (القاهرة ١٩٣٧، ١٩٥٩) ، عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٨ ، Sadik, A. A., The Reign of Al-Hakim Bi Amr Allah (386/96-411/1021), A Political Study, Beirut 1974; Canard, M., EI²., art. Al-Hakim Bi Amr Allah III, pp. 79 - 84;

ويمكننا تقسيم فترة حكم الخليفة الحاكم ، بعد تخلصه من بَرْجَوان واستقلاله بأمور الدولة فى سنة ١٠٠٠/٣٩٠ ، إلى ثلاث فترات اتّبع خلال كل منها سياسة متماسكة نسبيًا ، ولكنها كانت تنتهى دائمًا بتغيير عنيف لاختياراته .

الاعتدال

وتمتد المرحلة الأولى حتى نهاية سنة ١٠٠٥/٣٩٥ عندما أصبحت ثورة أبى رَكْوَة مُهَدِّدَة للنظام الفاطمى . ففى هذه المرحلة ، التى تتسم بالاعتدال ، ظل الحاكم محافظًا على العبارات الشيعية للإسلام فى الأذان وفى الصيام ، كما حرص على احترام الطقوس والشعائر وعلى الأخص ما يتعلّق منها بالأخلاق[١٢] . وشهد عام ١٠٠٣/٣٩٣ أهم إنجازات الحاكم ، التى ظلّت شاهدة على عصره حتى الآن ، وهى الشروع فى إتمام بناء الجامع الأنْوَر ، المعروف الآن بجامع الحاكم خارج أسوار القاهرة الشمالية عند باب الفتوح ، وبناء جامع رَاشِدَة على أرض كانت لقبيلة راشِدَة فى الفسطاط وأزال من عليها بعض الكنائس ومقابر لليهود والنصارى ، وكذلك بناء جامع المَقْس على شاطئ النيل[١٣] .

وقد حاول كذلك فى هذه الفترة أن يُنَمّى رتبة الوَسَاطة والسِّفارة فظل الحسين بن جوهر فى رتبته حتى سنة ١٠١٠/٤٠٠ ، وأن يُوَفّق العلاقات بين الطوائف المختلفة للجيش ، وأن يمنح مصداقية متزايدة لنظامه عن طريق كَسْب وُدّ أهالى الفسطاط . وتأكد هذا الاتجاه اعتبارًا من نهاية سنة ١٠٠٥/٣٩٥

Bianquis, Th., "Al-Hakim Bi Amr Allah ou la folie de l'ùnité chez un souverain fatimide" , Les Africains XI (1978), pp. 107 - 133; Van Ess, J., Chiliastishe Erwartungen und die Versuchung der Gattlichkeit : der Kalif Al-Hakim (375 - 411 H.) Heidelberg : Winter, 1977.

١٢ Bianquis, Th., op. cit., p. 128

١٣ Fu'ad Sayyid, A., La capitale de l'Egypte (تحت الطبع) .

عندما انفجرت ثورة أبي رَكْوَة[14] فقد اكتشف الحاكم خيانةً فى صفوف أتباعه واتضح له عدم فاعلية الجيش ، ولم يجد التأييد الذى كان يحتاج إليه إلّا بين سكان مصر الفسطاط الذين كانوا يعادون قَطْعًا ثورة يقودها البدو[15] . وكاعتراف بمؤازرتهم له ألغى الحاكم سَبّ الصحابة وسمح بممارسة بعض الشعائر والطقوس السنية التى حرَّمها أباؤه . فأعاد صوم رمضان بدون رؤية الهلال[16] . وأنشأ دار الحكمة (دار العِلْم) فى سنة ١٠٠٥/٣٩٥[17] وأراد أن يكسب بها فى أول الأمر حماس أهل السنة ، فكان من بين متوليّها جماعة من شيوخ السنة على رأسهم الحافظ عبد الغنى بن سعيد وأبو أسامة جُنَادة بن محمد اللغوى وأبو الحسن على بن سليمان المقرئ الأنطاكى[18] . وربما قصد الحاكم من وراء ذلك أن يسحب من جامع عمرو ، الواقع فى قلب الأحياء التجارية للفسطاط ، دوره المميز فى صنع الفكر الدينى . ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلًا ففى نهاية عام ١٠٠٩/٣٩٩ قُتِلَ الشيخان أبو أسامة اللغوى وأبو الحسن الأنطاكى واضطر عبد الغنى بن سعيد إلى التَّستُّر[19] .

---

[14] عن ثورة أبى ركوة راجع ، النويرى : نهاية الأرب ٢٦ : ٥٤ — ٥٥ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢ : ٦٠ — ٦٧ وإغاثة الأمة ٦٤ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٥٩ — ٢٧٢ .

[15] Bianpuis, Th., op. cit., p. 156

[16] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، اتعاظ ٢ : ٧٨ .

[17] المسبحى : نصوص ضائعة ٢٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٥٨ — ٤٦٠ ، اتعاظ ٢ : ٥٧ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٣٦٠ — ٣٦١ ، وانظر فيما يلى الفصل الثالث عشر .

[18] القلقشندى : صبح ٣ : ٥٢٠ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١١٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٢٢ — ٢٢٣ .

[19] ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٢ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٨٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٢٢ — ٢٢٣ ، Bianquis, Th., " 'Abd al - Gani ibn Sa'id, un savant sunnite au service des Fatimides ". Actes du XXIX Congrés international des Orientalistes Etudles arabes et islamiques, I - Histoires et Civilisations, Paris 1975, I, p, 43 - 44

اضطهاد أهل الذِّمَّة

واعتبارًا من عام ١٠٠٥/٣٩٥ بدأ تشدُّد الحاكم مع الرعية ، وخاصة أهل الذِّمَّة الذين لقوا فى عهده عنتًا شديدًا ، كما أخذ فى إصدار سلسلة من الأوامر والقرارات تحوى قائمة بممنوعات توعَّد من يُقْدِم عليها بالعقاب بالقتل أو التعذيب .

فألزم أهل الذِّمَّة بلبس الغيار ، ومنعهم من دخول حمامات المسلمين ، وهدم كنائسهم وبِيَعهم ، وأمرهم باعتناق الإسلام أو الخروج إلى بلاد الروم ، مما اضطر كثيرًا منهم إلى اعتناق الإسلام كارهين [٢٠].

وأدَّت سياسة الحاكم المتشدِّدة مع النصارى ، والملكانيين منهم بوجه خاص ، وهدمه لكنيسة قُمامَة (القيامة) ببيت المقدس سنة ١٠٠٧/٣٩٨ إلى الإضرار بتجارة الفاطميين مع البيزنطيين [٢١]، حيث قطع باسيل الثانى فى سنة ١٠١٥/٤٠٦ جميع العلاقات التجارية مع الفاطميين [٢٢]، خاصة بعد أن أمر الحاكم فى سنة ١٠١٣/٤٠٣ بهدم جميع كنائس الديار المصرية ووهب جميع

---

[٢٠] المسبحى : أخبار ٩٧ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٢ : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ابن ظافر : أخبار ٥٥ ، النابلسى : تجريد سيف الهمة ١٣٩ – ١٤٠ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٢٠٩ ، ٣١٧ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٣ – ٢٩٤ ، ابن سعيد : النجوم ٥٢ ، ٥٣ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٦ – ٥٧ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٢٩٨ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٨٨ ، ٣٤١ ، اتعاظ ٢ : ٤٨ ، ٥٣ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ٩٣ – ٩٥ ، ١٠٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٧ ، ١٧٨ ، Atiya, A. S., EI², art. Kibt IV p. 94.

[٢١] يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٥ – ١٩٦ ، ناصر خسرو : سفرنامة ٧٥ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٧٤ – ٧٥ ، Canard, M., "La destruction de l'église de la resurrection par le calife Hakim et l'histoire de la descente du feu sacré", Byzantion XXXV (1965), pp. 16 - 43

[٢٢] يحيى بن سعيد . تاريخ ٢١٤ – ٢١٥ ، Shaban, A., op. cit., p. 209

مافيها ومالها من رباع وأملاك إلى جماعة من الصَّقالبة والفراشين والسَّعْدية [٢٣].

وقد ذكر ابن عبد الظاهر أن الخليفة الحاكم قد أحرق كذلك حارة الجودرية على أهلها اليهود ، الذين كانوا يجتمعون بها ويسخرون من المسلمين [٢٤].

وبالرغم من ذلك فإننا نجد فى أوراق الجنيزة مايخالف بعض ما جاء فى المصادر التاريخية حول موضوع اضطهاد اليهود بصفة خاصة .

ففى طومار عبرى وجد فى أوراق الجنيزة يرجع تاريخه إلى أواخر شهر يناير سنة ١٠١٢/جمادى الآخر سنة ٤٠٢ ، نجد مدحًا للخليفة الحاكم مع وصفه بأنه يشبه المسيح أمير العدالة الذى يحمى غير المسلمين من التهم الباطلة المُوَجَّهة إليهم . ويرى جويتين S.D. Goitein أن ثورة اليهود والقبط المفاجئة فى عهد هذا الخليفة تبدو لنا من خلال الجنيزة على أنها انفجار ضد الحكم الفاطمى الليبرالى بصفة عامة ، وليست بسبب أهواء هذا الخليفة الشخصية [٢٥]!

وقد لقى موقف الحاكم من النَّصارى ، بصفة خاصة ، قبولًا من المسلمين السنيين الذين أبغضوا النصارى بسبب أعمال الابتزاز والمحاباة التى عانوها من موظفى المال النصارى .

النَّواهى

أما قوائم الممنوعات التى توعَّد من يُقْدم عليها بالقتل والتعذيب فيمكن تفسيرها على أنها إجراءات إصلاحية . فعندما أمر بمنع صناعة

---

[٢٣] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٤ — ٢٠٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٧ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٩٤ .

[٢٤] المقريزى : الخطط ٢ : ٥ .

[٢٥] Goitein, S. D., Studies in Islamic History and Institutions

النبيذ والمزر والفُقّاع ، فإن هذا الإجراء يتفق مع ما يجب أن يكون من حاكم مسلم غيور . كما أن تحريمه ذَبْح الأبقار السالمة من العيب إلّا فى أيام المواسم يهدف إلى المحافظة على الثروة الحيوانية للبلاد . كذلك فإن منعه الخبازين من استخدام أقدامهم فى عجن العجين يعد عملًا متماشيًا مع أبسط قواعد الصحة العامة [٢٦] .

ونظرًا لأن نساء مصر والقاهرة كن يتبعن ، فيما يبدو ، عوائد فيها بعض التحلّل ، حيث كن يتبرَّجْن وَيكْشِفْن وجوههن خلف الجنائز [٢٧]، وكن لا يتورعن من الجلوس فى الطرقات العامة أمام المنازل ، ويكثرن من الاختلاط بالرجال فى الأسواق [٢٨]، فقد قرَّر منعهن من الخروج من منازلهن والاجتماع بالمآتم ، وهداه تفكيره إلى أن يطلب إلى الأساكفة أن يمتنعوا من عمل الخفاف لهن . وكانت إذا دعت الضرورة إلى حضور قابلة أو غاسلة لمن تلد أو لمن تموت ، استؤذن فى ذلك برقْعَة ترفع إليه فيوقِّع على ظهرها بخطِّه إلى متولى الشرطة فيندب من يثق به ليصحبها إلى حيث مقصدها [٢٩].

كذلك فقد منع الحاكم من أكل السمك الذى لاقشر له [٣٠]، وهو سمك

---

[٢٦] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٢ ، ابن ظافر : أخبار ٤٣ – ٤٤ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٣ ، ابن سعيد : النجوم ٥٢ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٧ ، ابن أيبك : كنز ٦ : ٢٨٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، اتعاظ ٢ : ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٧ ، ١٧٨ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ١٩٩ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤١٤ .

[٢٧] المقريزى : اتعاظ ٢ : ٥٣ .

[٢٨] نفسه ٢ : ٣٨ .

[٢٩] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٨ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٢ : ١٢٤ ، ابن حماد : أخبار ٦٤ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٧ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٤ ، ابن سعيد : النجوم ٥٣ ، ٢٦٤ ، النويرى ، نهاية ٢٦ : ٥٧ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٣٤٢ ، اتعاظ ٢ : ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٨ ، ٢٣٦ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤١٥ ، حسن المحاضرة ٢ : ٢٨٣ .

[٣٠] المقريزى : اتعاظ ٢ : ٥٣ .

يعيش فى الأوحال ويحتفر فيها ممرات ليحيا على الترسبات التى تبقى فى القاع ، وهو بذلك يقوم بوظيفة بيئية هامة هى تنظيف المجارى المائية ، وهو النوع المعروف باسم القرموط [٣١]. وأباح كذلك قتل الكلاب فيما عدا كلاب الصيد [٣٢]، وإذا عرفنا أن القاهرة والفسطاط كانتا تمتلئان بالآلاف من الكلاب الضالة ، وهو أمر حرص على تسجيله جميع الرحّالة الذين زاروا مصر فى العصور الوسطى ، عرفنا سبب دعوته لقتل الكلاب . كما أن أمره بأن لايدخل أحدٌ الحمام إلّا بمئزر يتمشى مع قواعد الذوق والآداب العامة [٣٣]. وعلّل الحاكم تحريمه لأكل الملوخية بميل معاوية إليها ، كما علّل تحريم الجرجير لنسبته إلى السيدة عائشة ، ونهى عن المتوكلية لنسبتها إلى المتوكل العباسى [٣٤].

سياسة الحاكم الدينية وموقفه من معاونيه

أما الشيء الذى يصعب تفسيره فى تصرفات الحاكم فهو سياسته الدينية وموقفه من أعوانه ومساعديه .

ويمكن أن نعتبر تشدُّد الحاكم مع أهل الذِّمّة ، خلافًا لروح التسامح التى سادت بقية العصر الفاطمى ، محاولة من هذا الخليفة لتطبيق « العَهْد العُمَرى » عليهم . ولكنه فى الوقت نفسه لم يراع مشاعر أهل السنة ، فقد شاع فى عصره سَبُّ الصحابة وأمر بكتابته على جدران المساجد وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه ، وعلى أبواب الحوانيت والدور والقياسر ، ولَوَّنه بالأصْباغ

---

[٣١] Shaban, A., op. cit. p. 258.

[٣٢] ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٢ : ١٢٤ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٣ ، ابن حماد : أخبار ٦٢ ، ابن سعيد : النجوم ٥١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٥٦ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٧ ، ١٧٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٨١ .

[٣٣] المقريزى : اتعاظ ٢ : ٥٣ ، النويرى : نهاية — خ ٥٣ .

[٣٤] ابن ظافر : أخبار ٤٤ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٣٤١ ، اتعاظ ٢ : ٥٣ .

والذهب وأَكْرَه الناس على فعله ، فعظم ذلك على المسلمين من أهل السنة . ثم تراجع عن ذلك وأمر بمحوه من على المساجد وغيرها ، وأوكل إلى صاحب الشرطة أن يلزم كل صاحب دار أو دكان بمحو ما كُتِب على داره أو حانوته [٣٥].

أمّا موقفه من أعوانه ومساعديه ، فيلاحظ أن أحدًا من خواصه أو المقربين إليه لم يَسْلَم من القتل ، حتى بات كل إنسان خائفًا على نفسه ، وكثُرت فى عهده الأمانات وإن لم يلتزم بها [٣٦]. فقد قتل جميع وسطائه وقضاته [٣٧]، وأبدى ندمه على أنه لم يقتل زُرْعَة بن عيسى بن نَسْطورس [٣٨]. وحتى رجال الدعوة أنفسهم ومَنْ أبْلَوا بلاءً حسنًا فى نُصْرة الدولة مثل الحسين ابن القائد جوهر وعبدالعزيز بن النعمان القاضى لم يسلما من القَتْل [٣٩].

---

[٣٥] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٦ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٣ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٥١٣ ، ابن سعيد : النجوم ٥١ ، ابن أيبك : كنز ٦ : ٢٧٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٨٦ ، ٢٤١ — ٣٤٢ ، اتعاظ ٢ : ٥٤ ، ٦٩ ، ٢٩٨ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٧ ، ابن إياس : بدائع ١/١ : ٢٠٠ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤١٤ .

[٣٦] يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٨ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٢٦٠ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٨٢ .

[٣٧] نفسه ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ٢٣٣ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٢ : ١٢١ — ١٢٢ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٢٧١ ، ابن سعيد : النجوم ٥٨ ، ٥٩ — ٦٠ ، ٦٦ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٥٧ ، اتعاظ ٢ : ١٢٠ — ١٢١ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٠١ ، ٢١١ .

[٣٨] نفسه ٢٠٩ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٩٣ .

[٣٩] يحيى بن سعيد : تاريخ ١٩٨ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٨ ، ابن سعيد : النجوم ٣٣ — ٣٤ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٣٦٦ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٤ — ١٦ ، ٢٨٧ ، اتعاظ ٢ : ٨٤ ، ٨٦ — ٨٧ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٦٤ ، ٣٦٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٣ — ٣٤ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٧٦ — ٢٨٠ .

تساهل الحاكم فى أصول العقيدة الإسماعيلية

وربما كان تساهل الحاكم فى كثير من أمور العقيدة الإسماعيلية فى هذه المرحلة بغرض كسب شعبية لنظامه ، قد أغضب كبار رجال الدعوة ، ومع ذلك فقد أصر على سياسته وخَوّفَ معارضيه بأن أعدم بعض رموزها كالحسين بن جوهر وعبدالعزيز بن النعمان فى سنة ١٠١١/٤٠١ .

فقد أمر فى سنة ١٠١٠/٤٠٠ برفع ماكان يؤخذ على أيدى القضاة من الخُمْس والزكاة والفِطْرَة والنَّجْوى ، وإبطال مجالس الحكمة فى المُحَوّل فى القصر ، ثم أعاد كل ذلك مرة ثانية [٤٠]. وفى العام نفسه منع المؤذّنين من الأذان « بحىّ على خير العمل » [٤١] وأباح الصوم على رؤية الهلال ، وترك الحرية لمن يريد أن يصلى صلاة التراويح وصلاح الضُحَىٰ ، ثم عدل عن ذلك كله وتشدّد فيه [٤٢]. وفى عام ١٠١٢/٤٠٢ أصدر مرسومًا يقضى بعدم مخاطبته « بالإمام » وأن يكتفى بمخاطبته « بأمير المؤمنين » [٤٣].

---

[٤٠] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٩ ، ٢٢١ ، المسبحى : نصوص ضائعة ٢٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٩٠ ، ٢ : ٣٤٢ ، الاتعاظ ٢ : ٨٢ .

[٤١] نفسه ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٠ ، ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، الاتعاظ ٢ : ٨٦ ، السيوطى : حسن ٢ : ٢٨٢ .

[٤٢] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٧ – ٢٠٨ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٦ ، ابن سعيد : النجوم ٥١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٠ ، ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، الاتعاظ ٢ : ٧٨ ، ٨٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٧ ، السيوطى : حسن ٢ : ٢٨٢ . وقد منع الفاطميون « صلاة التراويح » لأنها لم تكن من سنة النبى وانما استنها عمر بن الخطاب . (ابن عذارى : البيان ١ : ١٢٧) .

[٤٣] نفسه ٢٠٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٨٨ ، الاتعاظ ٢ : ٩٦ ، ابن حماد : أخبار ٦٢ .

الحاكم يُعَيّن عبد الرحيم بن إلياس وليًّا لعهده

ولم يلبث الحاكم ، فى سنة ٤٠٤/١٠١٤ ، أن خرج على أحد أُسُس العقيدة الإسماعيلية التى تشترط النص فى الإمامة على الإبن الأكبر [٤٤]، عندما جعل ابن عمه عبدالرحيم بن إلياس ، وهو ابن امرأة مسيحية ، وليًّا لعهده [٤٥]، ونَقَش اسمه على السّكّة [٤٦]وكتبه على الطّراز والبنود [٤٧]. ويبدو أنه اضطر إلى ذلك بعد أن قام فى أول هذا العام بإخراج جماعة من حظاياه وأمهات أولاده من القصر ومن بينهن أم ولده أبى الحسن على (الظّاهر) وولده نفسه ، مما اضطر أخته سيدة الملك إلى أخذهما خوفًا عليهما وأسكنتهما بقصرها (المواجه للقصر الفاطمى الكبير) ، وظلّا كذلك حتى فُقِد الحاكم [٤٨].

---

[٤٤] Canard, M., EI², art. Fatimides II, p. 877

[٤٥] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٧ – ٢٠٨ ، ابن سعيد : النجوم ٢٦٤ ، الهداية الآمرية ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ١ : ٢٦٠ (وفية أن الحاكم أرسل سجلًا بهذا المعنى إلى نصير الدولة باديس) ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٧ ، القلقشندى : صبح ٩ : ٢٩٥ – ٢٩٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٢٨ ، اتعاظ ١٠٠ – ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٩٣ – ١٩٤ .

[٤٦] المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٠٣ ، وقد وصلت إلينا عملة عليها اسم عبد الرحيم كولى عهد المسلمين ضربت فى السنوات ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ انظر ، Lane-Poole, S., catalogue of Oriental Coins in the British Museum, IV. Coinage of Egypt, London 1879, p. 22 n. 88, p. 26 n. 106; id., Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo, Lodon 1897, p. 165 n°. 1048.

[٤٧] راجع Wiet, G., RCEA Vi, pp. 119-120 n° 2212-17

[٤٨] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٧ – ٢٠٨ .

ويلاحظ أن الداعى عماد الدين إدريس لم يشر فى تاريخه للدعوة الإسماعيلية إلى محاولة الحاكم جعل ابن عمه عبدالرحيم بن إلياس وليًّا لعهده ، وذكر أنه نصب ابنه الظاهر وليًّا لعهده وكتب بذلك إلى جزائر الدعوة وإلى الدعاة القائمين بالدعوة . (عيون الأخبار ٦ : ٣٠٣) .

تصوُّف الحاكم

واعتبارًا من عام ١٠١٢/٤٠٣ – ١٠١٣ ، بدأ الحاكم بأمر الله يدخل فى المرحلة الأخيرة من حياته ، وهى المرحلة التى تتميز ببعض جوانب التَقَشُّف والزُهد فى الحياة . فقد شهدت هذه المرحلة ميله إلى ارتداء الخَشِن من الثياب وركوب الحمير والإكثار من الخروج وحيدًا فى الليل ، كما أخذ فى ارتداء ملابس الكتان مثل المتصوفة ، ورفض جميع أنواع المواكب [٤٩]. وفى الوقت نفسه أخذ يصرف بسخاء مفرط على المنشآت الدينية وقَومَةَ المساجد ويوقف الأوقاف على ذلك . فحول هذه الفترة ، وبالتحديد فى رمضان سنة ١٠١٠/٤٠٠ أوقف رباعًا وأملاكًا كثيرة على الجامع الأزهر وجامع المَقْس والجامع براشِدة والجامع الحاكمى ودار العِلْم (الحِكْمَة) بالقاهرة [٥٠] . وفى سنة ١٠١٢/٤٠٣ أمر بتسجيل المساجد التى لا غَلَّة لها ، ولا أحد يقوم بها فكانت ثمانمائة مسجد ، فأطلق لها فى كل شهر من بيت المال تسعة آلاف ومائتين وعشرين درهمًا [٥١]. كما حَبَس فى سنة ١٠١٤/٤٠٥ سبع ضِياع على القُرّاء والمؤذنين بالجوامع وعلى المارستانات وفى ثمن الأكْفان . وأمر فى نفس العام بعمل رواقين فى صحن جامع عمرو [٥٢]. وكذلك تخلّى لولى عهده عبدالرحيم بن إلياس عن كل مظاهر البَذَخ والعظمة ، مما يجعلنا نظن كما لو أنه كان يعتزم اعتزال منصب الإمامة [٥٣]!

---

[٤٩] ابن ظافر : أخبار ٥٠ ، Bianquis, Th., Al - Hākhim bi Amr Allah p. 131

[٥٠] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٣ – ٢٧٥ .

[٥١] المسبحى : نصوص ضائعة ٣١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٥ ، ٤٠٩ .

[٥٢] نفسه ٣٢ ، نفسه ٢ : ٢٩٥ ، ٤٠٩ .

[٥٣] Bianquis, Th., op. cit., p. 130

ألوهية الحاكم وتحقيق فكرة الملك الإله

وفى نحو سنة ٤٠٦ – ١٠١٦/٤٠٧ – ١٠١٧ حدثت القطيعة النهائية بين الحاكم وأهالى الفسطاط السُّنَّة . ففى سنة ١٠١٧/٤٠٧ وصل إلى القاهرة فريقٌ من الدعاة الفرس يضم الحسن بن حيدرة الفَرْغانى الأَخْرَم وحمزة بن أحمد اللبّاد الزَّوْزَنى ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين الدَّرَذى وأعلنوا تأليه الحاكم ، وحاولوا فرض هذه العقيدة على أهل الفسطاط [٥٤]. وقد ترك الحاكم هؤلاء الدعاة يقومون بالدعوة إلى الدين الجديد دون دَعْم منه ، وإن لم يمانع فى مَنْح تعاطفه لحركة تحاول أن تجمع الدولة حول شخصه ، وتطلق على أتباعها اسم « المُوَحّدين » [٥٥].

وعلى خلاف عادة الفاطميين ، فإن دعاة الدين الجديد حاولوا تحويل أهل الفسطاط إليه ، ومدّوا تحدياتهم إلى داخل جامع عمرو نفسه مركز المقاومة السنية . وبذلك أصبح الصدام بينهم وبين السنة أمرًا لامفر منه . وشهدت السنوات من ١٠١٧/٤٠٨ وحتى ١٠١٩/٤١٠ سلسلة من المصادمات والاغتيالات والقتل ،

---

[٥٤] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٢ – ٢٢٣ ، ابن ظافر : أخبار ٥٢ – ٥٣ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١١٣ ، ١١٨ ، ١٤٠ ، الخطط ١ : ٣٥٤ ، ٢ : ٢٨٩ ، المقفى (خ ، السليمية) ٢٢٥ و .
ولمزيد من التفصيلات عن الدروز الذين أعلنوا تأليه الحاكم وتاريخهم وأصل مذهبهم راجع ، محمد عبدالله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (القاهرة ١٩٣٧ ، ١٩٥٩) ، محمد كامل حسين : طائفة الدروز (القاهرة ١٩٦٢) ، de Sacy, S., Exposé de la religion des Druzes, I - II, Paris 1838; Hodgson, M. G. S., "Al - Darazi and Hamza in the Origin of the Druze Religion", JAOS 82 (1962), pp. 5 -20; id., EI²., art. Druze II, pp. 647 - 50; Madelung, W., EI²;. art. Hamza b. 'Ali III, pp. 157 - 58; Bryer, D., "The Origins of the Druze Religion", Der Islam 52 (1975), pp. 47 -84, 239 -262; 53 (1976), pp. 5 - 27; Abu - Izzedin, N. M., The Druzes : A New Study of their History, Faith and Society, Leiden 1988.

[٥٥] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٢ .

قتل فى أثنائها الداعى محمد بن إسماعيل الدَرَزى سنة ١٠١٧/٤٠٨ أثناء سيره فى موكب الحاكم [٥٦].

وكانت جنازة الحافظ أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الأزْدى ، الذى توفى تبعًا لأغلب المصادر فى سنة ١٠١٨/٤٠٩ ، مناسبة تظاهر فيها أهل السنة فى الفسطاط خلف قاضى القضاة ابن أبى العَوّام الحنبلى ، الذى أمّ الصلاة على جنازة عبد الغنى بن سعيد ، من أجل نُصْرة الإسلام الحق [٥٧].

حريق الفسطاط الأول

وأدّت هذه المواجهة إلى نَهْب مدينة الفسطاط وحرقها فى سنة ١٠١٩/٤١٠ ، دون شك بناء على تحريض الحاكم ، بعد أن وضع أهلها فى طريقه صورة امرأة عُمِلَت من قراطيس ، وفى يدها جريدة عليها ورقة فيها سَبٌّ للحاكم وأسلافه . فقامت طوائف العبيد بمهاجمة المدينة ونفّذوا فيها عمليات سَلْب وحرق واغتصاب وقتل كبيرة [٥٨].

وقد تصدّى أهالى الفسطاط لهذه المحاولة ، وقاوموا إلى أقصى درجات المقاومة مدافعين عن مدينتهم خِطّة خِطّة . ولم يلبث المغاربة والأتراك أن أخذوا جانب أهالى الفسطاط وحاربوا معهم ضد العبيد لإيقاف الصراع الدائر ، فقد كان أكثرهم مخالطًا لهم ومصاهرًا منهم ، واستسمحوا الحاكم فى إنهاء عمليات السَّلْب والحرق لأن أموالهم وأولادهم وعقاراتهم موجودة فى الفسطاط [٥٩].

---

[٥٦] نفسه ٢٢٣ ، النويرى : نهاية خ – ٢٦ : ٥٩ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١١٣ .

[٥٧] Bianquis, Th., op. cit., p. 132; id., ‘Abd al - Gani b. Sa‘id, un Savant sunnite au service des Fatimides, p. 45.

[٥٨] نفسه ٢٢٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٥٧ ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٠٢ ، أبو المحاسن : نجوم ٤ : ١٨١ (نقلًا عن ابن الجوزى وسبط ابن الجوزى والذهبى) .

[٥٩] أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨١ وراجع كذلك يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٥ – ٢٢٦ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٢ : ١٢٦ – ١٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٥ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٥٧ .

ولكن الحاكم لم يستجب إليهم ، بل بدى عليه الانبهار بمنظر المدينة التى تحترق ، وعمل على إشعال الفِتْنَة بين العبيد وسائر الطوائف بغرض « طَرْح بعضهم على بعض ولينتقم من فريق بفريق » . ولم يُصْدر أوامره بوقف هذه المأساة إلّا بعد أن احْتَرَق من الفسطاط مقدار ثلثها ونُهِب نصفها ، وبعد أن هدَّد المغاربة والأتراك بحرق القاهرة نفسها [٦٠].

. . .

ولَعَلّ محاولة الدعاة الدروز تأليه الحاكم ، التى وَجَدَت دون شك تشجيعًا منه ، لم تلق قبولًا من كبار رجال الدعوة الإسماعيلية ، فالداعى أحمد حميد الدين بن عبدالله بن محمد الكِرْمانى الملقب بحُجَّة العراقين والذى قدم إلى مصر فى سنة ١٠١٧/٤٠٨ ، فى أغلب الظن بناء على استدعاء الحاكم بأمر الله له [٦١] ، يشير فى رسالة « مباسم البشارات » إلى أن الناس واقعون تحت ابتلاء عظيم ، وأن رجال الدعوة رفضوا عقد « مجالس الحكمة » ، وأن « أولياء الدعوة الهادية حَيَّرهم ما يطرأ عليهم من هذه الأحوال » وأن بعضهم بلغ فى الغلو ذراه ، وتزعزعت أركان اعتقادهم [٦٢]. فى هذه الظروف وضع حميد الدين الكرمانى رسالته المعروفة « بالرسالة الواعظة فى الرد على الأخرم الفرغانى » يُدْحِض فيها فكرة تأليه الحاكم ويُفَنّدها ويُثْبت عقيدة الإسماعيلية فى الله الذى لا إله إلّا هو [٦٣].

---

[٦٠] نفسه ٤ : ١٨١ .

[٦١] عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٨١ .

[٦٢] نفسه ٦ : ٢٨٢ .

[٦٣] نشر هذه الرسالة الدكتور محمد كامل حسين بعنوان « الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » ، مجلة كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول ١٤ (مايو ١٩٥٢) ١ – ٢٩ .

الحاكم يُفكِّر فى نَقْل الحج إلى مصر

تبعًا لرواية أوردها الجغرافى الأندلسى أبو عُبَيْد البَكْرى المتوفى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ ، وأيَّدتها مصادر أخرى . فقد شيَّد الحاكم بأمر الله فى المنطقة الواقعة بين الفسطاط والقاهرة ثلاثة مَشاهِد لينقل إليها رُفات النبى ﷺ ورفات أبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، من المدينة . وهى محاولة كُتِب لها الفَشَل [٦٤]. وكان يهدف من هذا المشروع إلى تحوير الجغرافية الروحية والدينية للعالم الإسلامى عن طريق حرمان المدينة من أكثر رموزها تقديسًا بتحويل قوافل الحجّاج إلى العاصمة الفاطمية .

ولم يُحَدِّد لنا البَكْرى تاريخ هذه المحاولة الفاشلة التى ربما تكون قد تمَّت فى العقد الأول للقرن الخامس الهجرى [٦٥]. ورغم أن المصادر الفاطمية والدراسات القائمة عليها لاتشير بأى حال إلى هذه المحاولة ، فإن المؤرِّخ ابن فَهْد المكى المتوفى سنة ١٤٨٠/٨٨٥ والمؤرخ المصرى الجَزيرى بعده بنحو قرن من الزمن ، لايتركا أى شك فى أن هذا المشروع الفاشل قد تم فى سنة ١٠٠٠/٣٩٠ [٦٦]. وتفيدنا هذه الرواية ، التى تقترب من رواية البَكْرى ، بأن أحد الزنادقة ، الذى لم يُذْكَر اسمه [٦٧]، قد أشار على الحاكم بنَبْش قبر النبى ﷺ وصاحبيه وحملهم إلى مصر ، وبذلك يشدّ الناس رحالهم من أقطار

---

[٦٤] البكرى : جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك ٥٧ ، مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ٨٣ .

[٦٥] Ragib, Y., “ un épisode obscur d'histoire fatimide », SI XLXIII (1978), p. 125

[٦٦] ابو فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ٢ : ٤٢٦ ، الجزيرى : الدرر الفرائد المنظمة ١ : ٥٣٢ – ٥٣٣ .

[٦٧] هذا الزنديق لم يكن من أتباع مذهب الدروز ، لأن مذهبهم لم يعرف إلا ابتداء من عام ٤٠٨ . وربما كان هو ياروختكين العَضُدى متولى حرب الرَّمْلة !

الأرض إليها [٦٨]. وبينما يذكر البَكْرى أن الحاكم بذل أموالًا لرجال من شيعته نجحوا فى حَفْر سرداب أسفل الدور المجاورة لمنزل الرسول ﷺ مقابل القبر ، غير أن أهل المدينة لم يلبثوا أن علموا بما فعلوا وبنيتهم فقتلوهم ومَثَّلوا بهم ، ثم رصفوا تلك الحفرة بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص بحيث لا يطمع فى الوصول إليها طامع أبدًا [٦٩]. فإن رواية ابن فَهْد والجزيرى ، التى توجد مع تعديلات طفيفة عند تقى الدين الفاسى والسَّمْهودى ، تفيدنا بأن الحاكم عَهَد إلى أمير مكة أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى بهذه المهمة [٧٠]. فمضى إلى المدينة وأزال عنها إمرة بنى الحسين ، بحجة قَدْحهم فى نَسَب الفاطميين ، وجلس فى مسجد المدينة وحضر إليه جماعة من أهلها بلغهم ماجاء من أجله ، ومعهم قارىء يُعْرف بالرَّكْبانى فقرأ آيات من سورة التَّوْبَة تدعوا إلى مقاتلة أئمة الكفر والناكثين بأيمانهم [٧١]. فثار الحاضرون على أبى الفتوح وكادوا يفتكون به ، ولم يمنعهم من ذلك إلّا خوفهم من العواقب خاصة وأن البلاد كانت للفاطميين .

ولم يكد يمض بقية النهار « حتى أرسل الله ريحًا كادت الأرض تُزَلْزَل منها حتى دحرجت الإبِل بأقتابها والخيل بسروجها وهلك خلقٌ كثيرٌ من الناس » .

---

[٦٨] ابن فهد : اتحاف ٢ : ٤٢٦ ، الجزيرى : درر الفرائد ١ : ٥٣٢ .

[٦٩] البكرى : جغرافية مصر ٥٧ ، مجهول : الاستبصار ٨٣ ، Ragib, Y., op. cit., p. 125-126

[٧٠] فى سنة ٤٠٠/١٠١٠ ثار بنو الجراح فى فلسطين على الحاكم بأمر الله وبايعوا أبا الفتوح خليفة تحت لقب « الراشد بالله » . (الفاسى : العقد الثمين ٤ : ٧٠ - ٧١ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ٣٥٦ ظ ـــ ٣٥٧ و ، ابن فهد : إتحاف الورى ٢ : ٤٣٦ ـــ ٤٤٠) .

[٧١] ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فى دينكم فَقَـٰتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۞ أَلَا تُقَـٰتِلُون قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهم فالله أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ قَـٰتِلُوهُم ﴾ . [سورة التوبة ١٢ - ١٤] .

وقد فَرَّجت هذه الكارثة الكونية ، التى فُسِّرت على أنها علامة غضب إلاهية ، كُرْبَة أبى الفتوح وهَمّه واعتبرها حِجَّة له عند الحاكم لتركه تنفيذ ما أمره به [٧٢].

ولم يُثْنِ فشل هذه المحاولة الحاكم عن أن يعاود من جديد حرمان المدينة من ذخائر مقدَّسَة أخرى . إذ أن فكرة تحويل قوافل الحجاج نحو العاصمة الفاطمية برفعها إلى مصاف المدن المقدَّسَة ، أصبحت جزءًا من سياسة الفاطميين وعلى الأخص فى عصر الحاكم . ففى سنة ١٠١٠/٤٠٠ أرسل الحاكم ياروختكين العَضُدى إلى المدينة ليفتش فى دار جعفر الصّادق ، والتى لم يجرؤ أحدٌ على فتحها بعد وفاته ، عن مابها من ذخائر . وقد جمع ياروختكين ما وجده فى الدار وعلى الأخص مُصْحَف وقَعْبٌ من خشب مطوق بحديد ودَرَقَة خيزران وحَرْبَةَ وسرير . وقد حُمِل جميع ذلك إلى القاهرة وصحبه جماعة من شيوخ العلويين . فلما وصلوا إلى الحاكم أطلق لهم نفقات قليلة ورد عليهم السرير وأخذ الباقى قائلًا لهم إنه أَحَقّ به منهم [٧٣]. ومن بين هذه الذخائر قطعة من حصير كانت تستخدم كسجادة صلاة للخلفاء فى وقت صلاة الفِطْر [٧٤]. ولم تكن هذه الذّخائر الوحيدة التى احتفظ بها الفاطميون فقد كان عندهم أيضًا ذو الفقار سيف على بن أبى طالب ، وسيف الحسين بن على ودَرَقة حمزة بن عبد المطلب وسَيْف جعفر الصّادق [٧٥].

---

[٧٢] الفاسى : العقد الثمين ٤ : ٧٧ ، ابن فهد : إتحاف الورىٰ ٢ : ٤٢٧ ، السمهودى : وفاء الوفا ٢ : ٦٥٣ ، الجزيرى : درر الفرائد ١ : ٥٣٣ .

[٧٣] ابن الجوزى : المنتظم ٧ : ٢٤٦ ، ابن الأثير : تاريخ ٩ : ٢١٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٢٢ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٨٨ ، Wiet, G. CIA Egypte II, p. 163; Ragib, Y., op. cit., p. 129

[٧٤] المقريزى : الخطط ١ : ٤٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٦ .

[٧٥] نفسه ١ : ٤١٧ .

نهاية الحاكم

وكما كانت حياة الحاكم بأمر الله حياة مليئة بالعجائب ، فإن نهايته هى الأخرى كانت نهاية مُلْغِزة ، وربما لن نعرف أبدًا كيف تمَّت .

ففى ليلة ٢٧ شوال سنة ٤١١/١٣ فبراير سنة ١٠٢١ اختفى الحاكم بطريقة يكتنفها الغموض . حيث خرج إلى المقطم (وفى رواية إلى حلوان) وطلب إلى المكاريين اللذين صحباه بانتظاره وابتعد عنهما فى الجبل ، ولم يرياه بعد ذلك أبدًا . ولما عادا فى الصباح إلى القصر أخبرا بما تم ، فأُخِذَ فى البحث عنه ، وبعد خمسة أيام وُجِدَت ثيابه وبها آثار طعنات ، ولكنهم لم يتوصَّلوا أبدًا إلى جثمانه الذى ربما أكلته الحيوانات الضالة [٧٦] .

وقد وصلت إلينا أخبار اختفاء الحاكم أو القضاء عليه ، عن طريق ثلاثة مؤلِّفين : هلال الصابئ [٧٧] والقُضاعى [٧٨] ويحيى بن سعيد [٧٩] . وكلها تشير إلى أن سيِّدة المُلْك ، أخت الحاكم الكبرى ، بالاتفاق مع سيف الدولة الحسين بن دَوّاس الكتامى كانا وراء عملية اغتياله بعد أن اتهمها الحاكم فى شرفها ، ولخوف ابن دَوّاس على نفسه من الحاكم .

---

[٧٦] ابن القلانسى : ذيل ٧٩ ، ابن ظافر : أخبار ٥٨ - ٥٩ ، أبو صالح : تاريخ ٦٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٥ ، ابن حماد : أخبار ٥٨ - ٥٩ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٧ - ٢٩٨ ، ابن سعيد : النجوم ٥٠ - ٥١ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٦٢ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١١٥ - ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨٥ - ١٩٣ ، وانظر كذلك ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٢ : ١٣٧ . اما الداعى عماد الدين إدريس فقد ذكر أن الله رفع الحاكم إليه (عيون ٦ : ٣٠٣) .

[٧٧] أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨٥ - ١٩٠ .

[٧٨] نفسه ٤ : ١٩٠ - ١٩٢ .

[٧٩] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

وحقيقة الأمر أن سيّدة المُلْك كانت إمرأة واسعة الإدراك وكانت ترى فى تصرفات أخيها ، التى تراوحت بين خروج على ما ارتضاه أباؤه وهتك لناموس الشريعة ، بالإضافة إلى ادعائه الألوهية وثورة المسلمين السنة عليه وخشيتها أن يقتلوه وبقية بيته ، رأت فى ذلك ماقد يُخْشى معه على ذهاب البيت الفاطمى وسقوط دولتهم .

وقد ساعدت الطريقة التى اختفى بها الحاكم أنصار الدين الجديد الذى تزعمه حمزة بن محمد الزَّوْزَنى إلى الدعوة إلى مذهبهم والقول باختفاء الحاكم وغيبته وأنه سيعود ليملأ الأرض عَدْلًا بعد أن ملئت جورًا وظلمًا مرددين فى ذلك فكرة المهدية . ولكن مذهبهم وأتباعه لم يجد فى مصر أرضًا خصبة له فخرج به أصحابه إلى بلاد الشام وخاصة فى صيّدا وبيروت وساحل الشام . كما أعطى ذلك أيضًا فرصة لطالبى الشهرة الذين ظهر منهم من يدّعى أنه الحاكم وأنه لم يمت وأنه عاد من جديد [٨٠].

سيّدة المُلْك
تُدبِّر شئون الدَّوْلة

بالرغم من أن تعاقب الأحداث فى هذه الفترة القصيرة والحرجة فى تاريخ الدولة الفاطمية غير واضح ، كما أن بعض أحداثها يشوبه الغموض ، فالشئ الذى لايمكن إنكاره هو الحُنْكَة الواضحة التى أدارت بها سيِّدَة المُلْك الأمور .

فبعد تأكُّدها من قَتْل أخيها ، أرسلت أحد الأمراء الكتاميين إلى دمشق بمُلَطَّفات [٨١] إلى الأمراء والقوّاد هناك بالقبض على ولى العهد عبدالرحيم بن

[٨٠] المسبحى : أخبار مصر ٢٧ — ٢٨ ، ٩٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٤ ، ٢ : ٢٨٩ ، الاتعاظ ٢ : ١٤٠ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٣٢٨ .

[٨١] مُلَطَّف ج . مُلَطَّفات . هى الرسائل الرسمية المختصرة . (Dozy, Suppl. Dict. Ar. II, 532)

إلياس ، فحُمِل إلى مصر وقتل فى القصر [٨٢]، وبذلك قضت نهائيًا على هذا الوضع الشاذ الذى أراده الحاكم بأمر الله . وأعقبت ذلك بقتل حسين بن على ابن دَوّاس الكتامى ، وبكل من كانت تخاف منه ممن عرف بمؤامرتها للقضاء على الحاكم [٨٣]. وكان هدفها الأساسى من ذلك هو تأمين انتقال هادىء للسلطة من الحاكم إلى ابنه وولى عهده الشّرْعى أبى الحسن على الذى كان يعيش مع أمه فى قصر سيِّدة المُلْك منذ عام ١٠١٤/٤٠٤ ، وتولَّى الخلافة باسم « الظاهر لإعزاز دين الله » . وبويع بها يوم عيد الأضحى سنة ٢٤/٤١١ مارس سنة ١٠٢١ .

وهكذا أصبحت سيدة المُلْك منذ نهاية عام ١٠٢١/٤١١ فى الحقيقة هى الحاكمة الفعلية للبلاد . واعتمدت فى أوّل الأمر على رئيس الرؤساء خطير الملك أبى الحسين عمّار بن محمد ، ثم أمرت بقتله فى ذى القعدة سنة ١٠٢١/٤١٢ ، وباشرت تدبير المملكة بنفسها [٨٤]، فكان « لاينفذ أمرٌ جَلَّ أو قَلَّ إلّا بتوقيع يخرج عنها بخط أبى البيان الصَّقْلبى عبدها » [٨٥]، حتى وافتها المنية فى ١١ ذى القعدة سنة ٥/٤١٣ فبراير سنة ١٠٢٢ [٨٦].

---

[٨٢] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٣٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨٩ .

[٨٣] ابن عذارى : البيان المغرب ١ : ٢٧١ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٦٠ – ٦١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٢٩ ، المقفى (مخ . السليمية) ٣٩٥ و ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٩٢ .

[٨٤] ابن الصيرفى : الإشارة ٦٥ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٢٨ .

[٨٥] ابن عذارى : البيان ١ : ٢٧١ .

[٨٦] النويرى : نهاية ٢٦ : ٦١ . وعن دور سيدة الملك فى انتقال السلطة من الحاكم إلى الظاهر راجع ، Lev., Y., " the Fatimid Princess Sitt al-Mulk ", JSS XXXII (1986), pp. 319-328

خلافة الظّاهر لإعزاز دين الله وتوطيد العلاقات مع بيزنطة

للأسف الشديد فإن الجزء الوحيد الذى وَصَل إلينا من « أخبار مصر » للمُسبِّحى ، الذى عاصر هذه الأحداث وشاهدها عن كثب ، يبدأ بحوادث جمادى الآخرة سنة ٤١٤/ سبتمبر ١٠٢٣ . ولو كانت وصلت إلينا الأجزاء السابقة على ذلك لعرفنا من خلالها تفاصيل كثيرة عن هذه الفترة الهامة فى تاريخ الدولة .

وفى الفترة الأولى من خلافة الظّاهر لم يكن منصب الوَساطَة واضحًا تمامًا ، وقد تولّاه لفترة قصيرة الأمير شمس المُلْك أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزّان [٨٧] ، وسُحِبَت صلاحياته منه تدريجيًا [٨٨]، ثم حلّ محله مجلس من ثلاثة تَسَلَّطوا على الظّاهر مكوّن من الشريف أبى طالب العَجَمى والشيخ العميد محسن بن بدوس والشيخ نجيب الدولة أبى القاسم على بن أحمد الجَرْجَرَائى [٨٩]، بالإضافة إلى القائد الأجل عزّ الدولة وسنانها أبى الفوارس مِعْضاد الخادم الأسود [٩٠]. وقد اتّفق الثلاثة فيما بينهم ، فى جمادى الآخرة سنة ٤١٥/أغسطس ١٠٢٤ ، على « أن يكون دخولهم إلى الظّاهر لاغير فى كل يوم خلوة ، وأنهم يكفوه أمر الاهتمام بالدولة ليتوفر على لذّاته وينفردوا بالتدبير » [٩١].

---

[٨٧] ابن الصيرفى : الإشارة ٦٦ – ٦٧ ، ابن سعيد : النجوم ٣٥٦ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٣٠١ ، ٣١٧ ، ابن ظافر : أخبار ٦٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٦٢ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٣٦ .

[٨٨] المسبحى : أخبار ١٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

[٨٩] نفسه ٣١ .

[٩٠] انظر سجل تلقيبه الصادر من صفر سنة ٤١٥/ إبريل ١٠٢٤ عند المسبحى : أخبار ٢٤ – ٢٧ .

[٩١] نفسه ٤٥ – ٤٦ .

فقد كان الخليفة الظّاهر ، على عكس والده ، بعيدًا عن الاشتغال بشئون الدولة بما أنه نشأ محجوبًا فى دار السيدة العمة ، وانشغل بنُزَهه ولهوه حيث أكثر من الخروج للنزهة إلى نواحى عين شمس والقصور ومسجد تِبْر [٩٢] كما كان محبًا لسماع الغناء ، مما جعله ينقض أكثر الإجراءات التى اتَّخذَها والده . فترخَّص فى شرب الخمر والفُقّاع وسماع الغناء ، وسمح بأكل الملوخية وسائر أنواع السمك [٩٣] ، وأذن للنصارى واليهود الذين تظاهروا بالإسلام فى خلافة والده ، بالارتداد إلى دينهم رغم مخالفة ذلك للشريعة الإسلامية [٩٤] .

وألَمَّت بمصر فى عهده أزمة اقتصادية كبيرة فى سنة ١٠٢٤/٤١٥ اشتد فيها الغلاء وفشى فيها المرض فى الناس وكثر فيهم الموت . وأدَّى الوباء إلى نفوق الحيوانات ، وعَزَّ الماء لقصور النيل ، وشاعت الفوضى بسبب ذلك ، فكَبَس العبيد والدُّعّار القاهرة ومصر ونهبوا الأرياف . فكانت أزمة شديدة أتى على تفاصيلها المُسَبِّحى فيما وصل إلينا من تاريخه [٩٥] .

ولم تمنع هذه الأزمة بعواقبها الخليفة الظاهر من الاهتمام بأمر « الدعوة الفاطمية » فاستعادت سابق نشاطها ، وأمر الدعاة فى سنة ١٠٢٥/٤١٦ أن يُحَفِّظوا الناس كتاب « دعائم الإسلام » للقاضى النعمان بن حَيُّون وكتاب « الفِقْه » الذى ألَّفه يعقوب بن كِلِّس ، ورَصَد مكافآت مالية لمن يحفظهما ، فى نفس الوقت الذى أمر فيه بنفى الفقهاء المالكية الذين رتَّبهم والده فى دار الحِكْمَة [٩٦] .

---

[٩٢] المسبحى : أخبار مصر ٩ ، ١٥ ، ١٩ – ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٦١ .

[٩٣] المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٤ والاتعاظ ٢ : ١٢٩ .

[٩٤] ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٢ : ١٣٥ ، أبو صالح : تاريخ ٦٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٥ والاتعاظ ٢ : ١٧٦ ، Atiya, A. S., EI²., art. Kibt V, p. 94

[٩٥] المسبحى : أخبار مصر (امتداد الجزء) ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٤ – ٣٥٥ ، ودرسها فى مقال مطول تيارى بيانكى انظر Bianquis, Th., " Une crise Frumentaire dans l'Egypte fatimide ", JESHO XXIII (1980) . pp. 67 - 101

[٩٦] المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٥ والاتعاظ ٢ : ١٧٥ .

وكان من نتيجة هذه السياسة أن انتشر الدعاة الفاطميون على امتداد الأراضى الشرقية التابعة للعبّاسيين ثم للسّلاجقة ، يتلقون تعليماتهم مباشرة من رئاسة الدعوة المركزية فى القاهرة [٩٧]. فقد كان هدف الفاطميين ، حتى أثناء عصر المستنصر ، هو الإطاحة بالخلافة العبّاسية وتفريقها ليُرْسوا مكانها عقيدتهم وسيطرتهم على العالم الإسلامى . فنجح الدعاة فى إغراء الدَّيالمة عند خروجهم من بغداد سنة ١٠٢٤/٤١٥ بإقامة الدعوة للفاطميين فى البَصْرَة والكوفة والمَوْصِل وأعمال الشرق [٩٨]، وأوصلوا إلى محمود بن سُبُكْتكين ، صاحب غَزْنَة ، خِلَعًا من الخليفة الظاهر ليقيم لهم الدعوة ، إلّا أنه سَلّمها للخليفة القادر بالله العبّاسى الذى أمر بإحراقها [٩٩]، كما أن المؤيد فى الدين الشّيرازى نجح فى إظهار الدعوة الفاطمية فى شيراز وأرض فارس والأهواز [١٠٠].

وهكذا ، ولأكثر من قرن ، كان نشاط الحكومة الفاطمية فى القاهرة ورجال الدَّعْوة فى داخل مصر وخارجها موجهًا لتحقيق هدف واحد هو الإطاحة بالخلافة العبّاسية .

ويذكر لنا المُسَبِّحى فى حوادث سنة ١٠٢٤/٤١٥ ، حرص الفاطميين على استمرار إقامة الدَّعْوَة لهم فى الحرمين الشريفين ، وكيف كان أمراء مكة يساومون الفاطميين على ذلك ويقولون لهم أنهم بُذِلت لهم الرغائب فى إقامتها لغير الفاطميين « فلم يأخذها ولم يُجَب إليها » ، كما أن الوفد الحجازى الذى جاء إلى مصر لم يجد أحدًا يستقبلهم ليحدِّثوه فى هذا الأمر [١٠١].

---

[٩٧] عندما استولى الأتراك على بغداد فى سنة ١٠٣٣/٤٢٥ استغل دعاة الظاهر هذه الفرصة ونشروا الدعوة الفاطمية بين الناس فى بغداد . (المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٥ ، اتعاظ ٢ : ١٨١) .

[٩٨] المسبحى : أخبار ٨٤ — ٨٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٦١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٦٨ .

[٩٩] ابن الجوزى : المنتظم ٨ : ١٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣٥٠ وقارن المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٣٧ — ١٣٩ ، أبا المحاسن : النجوم ٤ : ٢٥١ .

[١٠٠] سيرة المؤيد فى الدين ٥٥ .

[١٠١] المسبحى : أخبار مصر ٧٢ .

وبينما كان الفاطميون يكسبون أرضًا عن طريق الدعوة فى ممتلكات العبّاسيين ، كانوا يخسرون أرضًا حقيقية من ممتلكاتهم فى بلاد الشام . فقد تحالف أمراء الشام المحليين : حَسّان بن جَرّاح ، وسِنان بن البَنا ، وصالح بن مِرْداس ليستقلوا بالشام عن الفاطميين بحيث تكون فَلَسْطين لابن جَرّاح ، ودِمَشْق لابن البَنا ، وحَلَب لابن مِرْداس ، واستعانوا لتحقيق ذلك بإمبراطور بيزنطة فلم يجبهم ، وتصدّى لهم القائد الفاطمى أنُوشْتَكين الدِّزْبرى [١٠٢] ودارت بينهم مواجهات عِدّة انتهت باستقلال المرداسيين بحلب فى سنة ١٠٢٣/٤١٥ [١٠٣].

وعمل الظّاهر على تحسين علاقته مع البيزنطيين ، بعد أن كانت قد ساءَت فى عهد والده الحاكم . فقد كان الفاطميون فى حاجة ماسة إلى تموين القمح الذى يصلهم من القسطنطينية ، وفى حاجة كذلك إلى تأمين جانب البيزنطيين حتى يتفرّغوا لمواجهة العبّاسيين ثم السّلاجِقَة ، فوقّعت هُدْنَة بين الطرفين فى سنة ١٠٢٧/٤١٨ أقيمت بمقتضاها الخطبة للظاهر بجامع القسطنطينية مقابل أن يعيد الظّاهر فتح كنيسة قُمامة وتجديدها ، وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب فى مصر (سوى ماكان منها قد عمل مسجدًا) ، وأن لا يتعرّض الظّاهر لحلب (وقد اعتذر الظّاهر عن قبول هذا الشرط) ، وأن لايساعد صاحب صقلية على محاربة البيزنطيين [١٠٤].

---

[١٠٢] عن هذا القائد ، الذى كان قائد جيوش الفاطميين فى الشام وأول من تلقب بلقب « أمير الجيوش » راجع ، المقريزى : المقفى (خ .السليمية) ٢٢٤ و – ٢٢٥ و ، : Wiet, G., "Un Proconsul Fatimide de Syrie : Anushtakin al - Dizbiri (m. en 433 /1042) ", MUSJ 46 (1970), pp. 383 - 407

[١٠٣] المسبحى : أخبار ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٤ – ٦٥ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٤٤ – ٢٤٦ ، ابن القلانسى : ذيل ٧٣ ، أبن ظافر : أخبار ٦٣ – ٦٤ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣٦٩ ، ٣٩٢ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٦١ ، ابن العديم : زبدة الطلب ١ : ٢٢٣ – ٢٢٧ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٥ ، اتعاظ ٢ : ١٤٧ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٥٢ – ٢٥٣ Canard, M., EI²., art. Djarrahides II, pp. 495 - 497

[١٠٤] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٧٠ – ٢٧١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٧٦ .

وقد وُقّعَت اتفاقية أخرى بين الجانبين فى سنة ١٠٣٦/٤٢٧ لمدة عشر سنوات ثم جُدِّدَت فى سنة ١٠٤٧/٤٣٩ للغرض نفسه [١٠٥].

[١٠٥] ابن الأثير : الكامل ٩ : ٤٦٠ ، ٥٤١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٨٢ ، Hamdani, 'A., "Byzantine - Fatimid Relations before the Battle ob Manzikert", Byz. St. 1, 2 (1974), p. 174 - 174

الفصل الرابع

المواجهة العبّاسيّة الفاطميّة

خلافة المُستنصِر بالله

عندما خلف المستنصر بالله والده الظّاهر لإعزاز دين دين الله سنة ١٠٣٦/٤٢٧ ، وهو طفل لم يتجاوز السبع سنوات ، لم يكن يعلم ما تخبؤه له الأيام . فقد امتد حكمه ستين عامًا (٤٢٧ - ١٠٣٦/٤٨٧ - ١٠٩٤) شهدت أحداثًا جسامًا فى تاريخ الدولة الفاطمية كادت أن تودى بالخلافة نفسها فى أوّل صدام حقيقى بينها وبين الخلافة العبّاسية ، وأفقدت « القاهرة » عاصمة الفاطميين ، مكانتها « كمدينة ملكية » تُعَدّ لحكم العالم الإسلامى ولم يمض على إنشائها مائة عام .

ومع ذلك فقد وصلت الإمبراطورية الفاطمية إلى أقصى اتساع لها فى العشرين عامًا الأولى من حكم المستنصر حيث شملت مصر وجنوب الشام وشمال إفريقية وصِقِلّيّة والشاطىء الإفريقى للبحر الأحمر والحجاز واليمن . كما كسبت ولاء عدد لا يُحْصى من الأتباع فى أراض كانت ماتزال خاضعة لحكام سُنّة فى المَشْرق . ثم هَوَت فى انحدار سريع وتقلّصت عنها ممتلكاتها تدريجيًا .

ظُهور السّلاجِقَة

وبدأ انحلال الدولة الفاطمية فى الظهور فى أعقاب وفاة الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجَرْجَرَائى فى رمضان سنة ٤٣٦/مارس سنة ١٠٤٥ ، وهو الانحلال الذى أوشك أن يقودها إلى زوالها بعد ربع قرن . فقد اجتمعت عِدَّة عوامل لتضع حدًّا لأحلام الفاطميين وطموحاتهم . ففى عهد الخليفة القادر بالله العبّاسى وخلفه الخليفة القائم بأمر الله (٣٨١ – ٤٦٧/٩٩١ – ١٠٧٤) طرأ تغير واضح على سياسة العبّاسيين تجاه الفاطميين وبدأ الصّدام بين القوتين اللتين تجاذبتا السيادة على الشرق الإسلامى . وكان بداية التَحَرُّش بينهما « المَحْضَر » الذى صدر فى بغداد سنة ٤٠٢/١٠١١ مُتَضَمِّنًا القَدْح فى نَسَب الفاطميين ، ووقّع عليه كبار العلماء والفقهاء والقضاة فى بغداد وعلى رأسهم نقيب الطالبيين الشريف المُرْتَضَى وأخوه الشريف الرَّضى [1]. وكان هذا المَحْضَر بداية حرب دعائية بينهما استمرت فترة طويلة ، ففى سنة ٤٤٤/١٠٥٢ كُتِب ببغداد « مَحْضَرٌ » آخر شبيه بالمحضر السابق [2]، وبينما وصلت إلينا صيغة المحضر الأول فإننا لا نعلم أى شىء عن صيغة المحضر الثانى .

وفى الوقت نفسه عمل العبّاسيون على الاستعانة بالسَّلاجِقَة لفرض حصار على الفاطميين ، وتضييق الخناق عليهم تمهيدًا للقضاء على خلافتهم . فحاولوا الاتصال بحاكم إفريقية الزيرى المُعِزّ بن باديس ، الذى يدين بالولاء للفاطميين ،

---

[1] ابن الجوزى : المنتظم ٧ : ٢٥٥ – ٢٥٦ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٢٣٦ ، الذهبى : العبر فى خبر من غبر ٣ : ٧٦ – ٧٧ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٢ : ١٥ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٣١ – ٣٤ ، ٤٧ – ٤٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٢٩ .

[2] نفسه ٨ : ١٥٤ – ١٥٥ ، نفسه ٩ : ٥٩١ ، ابن ميسر : أخبار ١٣ ، الذهبى : العبر ٣ : ٢٠٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٦ ، اتعاظ ٢ : ٢٢٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٥٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٨٢ – ٢٨٣ .

وأرسلوا إليه فى سنة ١٠٤٣/٤٣٥ خِلَعًا وتشاريف عن طريق القسطنطينية ، لإفساد أواصر الود التى بَدَت بين الفاطميين والبيزنطيين [٣] ، إلَّا أن الإمبراطور البيزنطى قبض على الرسول وسَيَّرة إلى القاهرة « مراعاة لحق المستنصر ... ولأن بينهما عهودًا وهُدْنَة قد بقى منها سنتان ولايمكن فسخها » [٤] .

لم تُفْلَح مساعى البيزنطيين فى منع الزِّيريين من الاستقلال عن الفاطميين ، فقد كانوا فى طريقهم إلى نَبْذ سيادة الفاطميين واعتناق المذهب المالكى منذ تولِّى المُعِزّ بن باديس [٥] . ففى شعبان سنة ١٠٥٠/٤٤١ أمر ابن باديس بضَرْب عُمْلة جديدة خاصة به ، وأمر أيضًا بسَبْك ماعنده من الدنانير التى عليها أسماء الفاطميين بعد أن ظلَّتَ تُضْرَب هناك مائة وخمس وأربعين عامًا [٦] . وفى سنة ١٠٥١/٤٤٣ قَطَع المُعِزّ كل صلة له بالفاطميين وأقام الخُطْبَة للعبّاسيين بإفريقية [٧] . ونَجَح السَّلَاجِقَة كذلك فى تحريض الإمبراطور البيزنطى على الخلفاء الفاطميين ، وعقلوا معهم اتفاقًا أنهى بموجبه تموين القمح الذى كان يرسله إلى مصر [٨] ، كما أقيمت الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العبّاسى فى جامع القسطنطينية ، مما أدَّى بالمستنصر إلى التَّحَوُّط على ما فى كنيسة قُمامَة

---

[٣] ابن الأثير : الكامل ٩ : ٥٢١ – ٥٢٢ ، ابن عذارى : البيان : ١ : ٢٧٥ – ٢٧٦ ، النويرى : نهاية (تحقيق حسين نصار) ٢٣ : ٢٢٠ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٩٠ .

[٤] المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢١٤ ، ٢٢٤ .

[٥] ابن عذارى : البيان ١ : ٢٦٧ ، ٢٧٣ – ٢٧٤ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٢٥٧ .

[٦] نفسه ١ : ٢٧٨ – ٢٧٩ .

[٧] السجلات المستنصرية (سجل رقم ٥) ، ابن عذارى : البيان ١ : ٢٨٠ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٥٢١ – ٥٢٢ (وفيه أن ذلك سنة ٤٣٥) ، ابن ميسر : أخبار ١١ – ١٢ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٣٠ ، ابن سعيد : النجوم ٧٩ – ٨٠ ، ٣٥٧ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٦٥ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢١٤ ، المقفى (خ . السليمية) ٣٧٠ ظ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٠ ، ٥٠ ، Idris, H. R., La Berbérie Orientale sous les Zirides, X° - XII° siècles, Paris 1962, pp. 142 - 203.

[٨] ابن ميسر : أخبار ١٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٥ .

سنة ١٠٥٥/٤٤٧ ، وأغلق أبواب كنائس مصر والشام ، وطالب الرهبان بالجِزْيَة لأربع سنين ، وزاد الجِزْيَة على سائر النَّصارى [٩] .

كان ردُّ الفعل المباشر لذلك لدى الفاطميين هو مواجهة العبّاسيين ، وأن يكسروا الحصار الذى فُرِض عليهم ، وأن يجدوا منافذ أخرى لإقامة الدَّعْوة . فبدأوا بتحريض قبائل زُغْبَة ورياح الهلاليتين لغزو إفريقية فى أعقاب الأزمة الاقتصادية التى شهدتها مصر فى سنة ١٠٥٢/٤٤٤ [١٠]، فأحدثوا فِتْنَة شديدة فى ممتلكات ابن باديس استمرت سبع سنوات [١١]، كما حَرَّض الوزير أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمٰن اليازورى (٤٤٢ – ٤٥٠ / ١٠٥٠ – ١٠٥٨) أهل صِقِلِّية على الثورة أيضًا على ابن باديس [١٢] .

ابن ميسر : أخبار ١٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٥ ، الاتعاظ ٢ : ٢٣٠ ، المقفى ٣٧١ و ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/٢ : ١٧٦ – ١٧٧ .

[١٠] المقريزى : إغاثة الأمة ١٨ .

[١١] ابن الصيرفى : الإشارة ٧٧ ، ابن ظافر : أخبار ٦٩ – ٧١ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٥٦٦ – ٥٧٠ ، ابن ميسر : أخبار ١٢ ، ١٧ ، ابن عذارى : البيان ١ : ٢٨٨ – ٢٩٥ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٢ – ٦٣ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢١٤ – ٢١٥ ، المقفى (مخ . السليمية) ٣٧٠ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٤ ، Idris, H. R., op. cit, p. 206; id., EI²., art., Hilāl III, pp. 398 - 99; Daghfous, R., "Aspects de la situation économique de L'Egypte au milieu du V'Siècle: Contribution à l'ètude des conditions de l'emmigration des tribus arabes en Ifiriqiya" CT XXV (1977), pp. 23 - 50 .

الإستراتيجية الشرقية للفاطميين

وفور أن فَقَد الفاطميون كل ممتلكاتهم فى المغرب أخذوا يوجِّهون كل جهودهم نحو الشرق ونحو اليمن ، أوّل مراكز الدعوة الإسماعيلية ، بصفة خاصة حيث وجدوا مريدين أكثر حرصًا على المذهب ودفاعًا عن الدَّعْوَة . فسارع الوزير أبو محمد اليازورى إلى تأييد علىّ بن محمد الصُّلَيْحى الثائر باليمن وساعده على إقامة دعوة سياسية للفاطميين هناك . وقد استعان الفاطميون بالصُّلَيْحيين كذلك على نَشْر الدعوة الإسماعيلية فى مناطق عُمان وغرب الهند وخاصة إقليم كُجَرات [١٣].

وبدأ الفاطميون يُعِدّون العُدَّة لمواجهة الخلافة العبّاسية لأول مرة مواجهة مباشرة مستخدمين فى ذلك أسلحة الدعاية والنشاط التخريبى ، علاوة على الوسائل المألوفة الأخرى العسكرية والسياسية والاقتصادية .

المُنافَسَة التجارية

فقد تبنّى الفاطميون فى سبيل قضائهم على العبّاسيين استراتيجية شرقية رأت ضرورة قيام منافسة بين طريقى التجارة المؤدِّيين إلى الشرق الأقصى (طريق مصر – البحر الأحمر ، وطريق العراق وإيران – الخليج الفارسى) . وهدف الفاطميون من ذلك إلى السيطرة على الشاطئين الإفريقى والعربى للبحر الأحمر ، وعلى المنفذ الجنوبى المؤدّى إلى الهند [١٤].

---

١٤ Lewis, B., "An Interpretation of Fatimid History", CIHC p. 291.

فعلى أثر خروج إفريقية ومعظم بلاد الشام من أيدى الفاطميين ، ركّزوا جهودهم فى نشر الدَّعْوة على طرق التجارة البحرية والبرية المؤدِّية إلى الهند وفى الهند نفسها . وبذلك ازدهرت موانىء مثل عَيْذاب على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر [١٥]، وعَدَن عند المدخل الجنوبى له [١٦]، كما فرض الفاطميون عن طريق الصُّلَيْحيين سيطرتهم على عُمان لضمان وصولهم إلى السِّنْد والهند .

وقد ساعدت الظروف الفاطميين فى تحقيق هدفهم . فقد جعلت الفوضى التى اجتاحت العراق وإيران فى هذا الوقت من الخليج الفارسى طريقًا غير آمن . وسهّلت خِطّة الفاطميين فى نقل التجارة من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر وإعادة الحركة التجارية القديمة بين مصر والشرق . وقد قصد الفاطميون بذلك هدفًا مزدوجًا هو تقوية الخلافة الفاطمية عن طريق الانتعاش الاقتصادى ثم إضعاف الخلافة العبّاسية ، بالإضافة إلى خلق نواة لنشر النفوذ الفاطمى على طول الطرق البديلة التى بدأ حكام العراق فى استخدامها [١٧]. وهذا لايعنى أن الدولة الفاطمية ارتبطت مباشرة بالتجارة أو أن الدعوة نفسها كانت تنظيمًا تجاريًا ، إلّا أن العلاقة بين الدَّعْوَة والتجارة وبين الإيديولوجية والنفوذ التجارى نادرًا مابدت واضحة مثلما كانت فى هذه الدَّعْوَة . حتى أن

---

[١٥] بدأ ذكر عيذاب فى المصادر اعتبارًا من القرن الثالث الهجرى ، ولكن نشاطها التجارى لم يظهر بوضوح إلّا فى أثناء خلافة الفاطميين حيث حلّت محل ميناء القُصير القديم ، ثم أخذ دورها ينحسر حتى فقدت مكانتها فى أوائل القرن التاسع الهجرى . يقول عنها ناصرى خسرو الذى دخلها فى سنة ٤٤٢ « فيها تحصَّل المكوس على مافى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن » (سفرنامة ١١٨) ، ويقول ابن جبير الذى زارها سنة ٥٧٩ أنها « من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدًا إلى مراكب الحجاج » (الرحلة ٤٥) . وراجع أيضًا المقريزى : الخطط ١ : ٢٠٢ – ٢٠٣ ، Gibb, H. A. R., EI²., art. 'Aydhab I, pp. 805 - 806.

[١٦] عن عدن وأهميتها لطرق التجارة الشرقية راجع ، Lofgren, O., EI²., art., 'Adan I, pp. 185 - 187

[١٧] Lewis, B., "the Fatimids and the route to India", Revue de la faculté de Sciences économique de l'Université d'Istanbul XI (1949 - 50), p. 53

كلمة إسماعيلى فى الاصطلاح المحلى الكُجَراتى (بُهُرَة) تعنى التجارة ، وهذا شيء ذو دلالة [١٨].

كان كل ذلك فى ضوء ما هو معروف عن كفاءة الإسماعيليين فى خططهم بمثابة سياسة محكمة مدروسة تهدف إلى القضاء على الخلافة العبّاسية ليحل محلهم الفاطميون كحكّام وحيدين للعالم الإسلامى [١٩].

وعندما ظهرت التجارة الكارمية [٢٠] فى أواخر القرن الخامس / الحادى عشر كانت أكبر مراكزها هى عَدَن وعَيْذاب وقوص والفُسْطاط . وتمدنا أوراق الجنيزة Geniza المتعلّقة بتجارة الهند [٢١] والتى ترجع إلى العصر الفاطمى ببعض التفصيلات عن طبيعة ونشاط التجارة الكارمية فى هذه الفترة [٢٢].

المُواجَهَة الحربية

ومن ناحية أخرى صَعَّد الدعاة المواجهة الحربية مع العبّاسيين ، وقام بالدور الأكبر فيها داعى الدعاة المُؤَيَّد فى الدين هبة الله الشّيرازى ، وسجّل تفصيل ذلك فى سيرته الذاتية [٢٣]. فقد أيَّد ثورة أبى الحارث أرْسلان البَساسِيرى ضد خليفة بغداد مستغلًا الفوضى التى اجتاحت العراق فى أعقاب سقوط البويهيين ، ومستعينًا بالأموال والذّخائر التى أمَدَّه بها الوزير اليازورى من القاهرة [٢٤]. ونَجَح البَساسيرى فى الاستيلاء على بغداد وإقامة الخُطْبَة بها

[١٨] Ibid., p. 53

[١٩] Ibid., p. 54

[٢٠] عن التجارة الكارمية راجع فيما يلى ص ٣٠٨ – ٣١٢ .

[٢١] عن أوراق الجنيزة انظر أعلاه ص ٢٣ – ٢٥ .

[٢٢] انظر فيما يلى ص .

[٢٣] سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة (تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩) ، Poonawala, I., EI²., art. al-Mu'ayyad fil-Din VII, pp. 272 - 73

[٢٤] نفسه ، ابن الصيرفى : الإشارة ٨٠ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان (الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة) ٤ ، ٦ ، ٢٧ ، ابن ميسر : أخبار ١٥ ، ١٧ ، ٢١ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٥ .

للمستنصر الفاطمى لمدة عام سنة ١٠٥٨/٤٥٠ [٢٥]. وكان أوّل من أيّده ودعا لصاحب مصر أهل الكَرْخ [٢٦]، وألْزَم البَساسِيرى الخليفة القائم بأمر الله العبّاسى بكتابة كتاب أشْهَد عليه العدول « بأنه لاحَقَّ لبنى العبّاس ، ولا له من جملتهم ، فى الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء ، عليهم السلام » . وأرسل البَساسِيرى الكتاب إلى المستنصر فى مصر وظلّ محفوظًا لدى الفاطميين إلى أن أعاده صلاح الدين إلى العبّاسيين فور استيلائه على مقاليد الأمور فى مصر بعد ذلك بنحو مائة عام [٢٧].

ولم يكن موقف الفاطميين من تأييد البَساسِيرى واضحًا ، فبينما وعدوه بإرسال ستين ألف دينار سنويًا له ولخواصه [٢٨]، شكّك الوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى فى أهمية العمل الذى قام به البَساسِيرى [٢٩]، ولم يمدوه بأية قوة تَسنْد موقفه وتعزِّزه ، وبدوا كما لو أنهم لم يكونوا ينتظرون هذه الفرصة منذ بدأ عملهم السرّى قبل نحو مائتين وخمسين عامًا .

---

[٢٥] عن حركة البساسيرى راجع سيرة المؤيد فى الدين ١٧٨ – ١٨٠ ، ابن القلانسى : ذيل ٨٧ – ٩٠ ، ابن الجوزى : المنتظم ٨ : ١٩١ – ١٩٧ ، ٢٠١ – ٢١٢ ، الراوندى : راحة الصدور ١٧١ – ١٧٥ ، ابن ظافر : أخبار ٦٧ – ٦٩ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٤٣٩ – ٤٤٥ ، ٦٤٠ – ٦٤٥ ، ابن ميسر : أخبار ١٨ – ٢١ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٤ – ٧٠ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ١٩١ ، ابن العديم : بغية الطلب (القسم الخاص بالسلاجقة) ١ – ١٥ ، ابن سعيد : النجوم ٨٠ ، النويرى : نهاية ٢٣ : ٢٢٣ – ٢٣٢ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٥ : ٢٤٨ – ٢٥٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٦ ، ٤٣٩ ، اتعاظ ٢ : ٢٥٢ – ٢٥٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٤ – ١٢ ، ٦٢ ، مصطفى جواد : « القاهرة تستولى على بغداد » ، مجلة المقتطف ٨١ (١٩٣٢) ٣٣٣ – ٣٤٠ ، فاضل الخالدى : الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق خلال القرن الخامس الهجرى ، بغداد ١٩٦٩ ، ١٠٢ – ١٣٩ ، عبدالجبار ناجى : « ثورة البساسيرى فى بغداد » ، مجلة كلية الآداب – جامعة البصرة ٥ (١٩٧١) ٤٢ – ٧٨ ، Canard, M., EI²., art. al - Basâsiri 1, pp. 1105 - 1107

[٢٦] ابن الجوزى : المنتظم ٨ : ١٩٢ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٣٥ .

[٢٧] المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٩ .

[٢٨] سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٢٧ .

[٢٩] المصدر نفسه ٤٧ ، ٥٥ ، سيرة المؤيد فى الدين ١٨٢ .

وهكذا جاء نجاح الدُّعاة فى تحقيق حُلْم الفاطميين بعد فوات الأوان ، فى وقت ضعفت فيه الخلافة الفاطمية ، وتقلّصت فيه ممتلكاتها ، وأثّرت عليها الأزمات الاقتصادية المتتالية ، وأصبحت غير قادرة على اتخاذ القرار أو حتى حماية نفسها [٣٠]، وبدا فيه التيّار السنى جارفًا فى العالم الإسلامى على يد الأتراك السَّلَاجِقَة – القوى الجديدة فى الإسلام الآخذة فى النماء والقُوَّة – والذين تولُّوا حركة الإحياء السُّنِّى التى تزعَّمها الأَشَاعِرَة ، أصحاب الحركة الفكرية الجديدة التى بدأت تسود فى هذا الوقت وتحلّ محلّ مذهب المُعْتَزِلة العقلى [٣١]. فسرعان ماتمكّن طُغْرُلْبك السُّلجوق من نَجْدَة الخليفة العبّاسى وأحْبَط محاولة الفاطميين ، وأعاد دعوة العبّاسيين فى بغداد بعد أن انقطعت اثنى عشر شهرًا ، وهى أكثر قوة ومَنَعَة ، ومَدَّ السَّلاجقة نفوذهم على ممتلكات الفاطميين فى الشام ، فاستولى أتْسِزبْزا على دمشق سنة ١٠٧٥/٤٦٨ وقَطَع خطبة الفاطميين منها [٣٢]، الذين لم تبق لهم سيادة إلَّا على مصر وجنوب فلسطين والحجاز واليمن . وبفضل السَّلَاجِقَة امتد النفوذ السُّنّى إلى الشام عن طريق خلفائهم الزَّنكيين ثم النوريين وأخيرًا الأيوبيين ، الذين أنْهَوا خلافة الفاطميين فى مصر

---

[٣٠] المصدر نفسه ٢٧ ، ابن ظافر : أخبار ٦٨ .

[٣١] عن الأشعرية راجع ، Montgomery Watt, W., EI², art. al-Ash'ari I, pp. 715 - 716; id., EI², art. Ash'ariyya I, pp. 717 - 718 وجلال محمد موسى : نشأة الأشعرية وتطورها ، بيروت ١٩٧٥ .

[٣٢] ابن القلانسى : ذيل ١٠٨ ، ابن ظافر : أخبار ٦٨ ، ٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٨ ، ٩٩ – ١٠٠ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان (قسم السلاجقة) ١٧٩ ، ١٨٠ ، ابن ميسر : أخبار ٤٣ ، الذهبى : العبر ٣ : ٢٦٦ ، الصفدى : الوافى ٦ : ١٩٥ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٥ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣١٥ والمقفى (خ . السليمية) ٢٠٧ و – ٢٠٨ و ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٨٧ ، ١٠١ – ١٠٢ ، صلاح الدين المنجد : ولاة دمشق فى العهد السلجوق ٤ – ٥ ، ١٧ – ١٨ ، Cahen, Cl., "Première penetration turque en Asie Mineure", Byizantion XVIII (1946 - 48), p., 25; id., EI², art. Atsiz I, p. 443; Bianquis, Th., Damas et la Syrie sous la domination fatimide 359 - 468 969 - 1076, pp. 571 - 76

وقضوا على النفوذ الشيعى فى كل المنطقة عن طريق « المَدَارس » التى بدأها فى عام ١٠٦٦/٤٥٩ الوزير نظام المُلْك السّلجوقى [٣٣].

والواقع فإن نجاح الدَّعْوَة للفاطميين فى بغداد سنة ١٠٥٨/٤٥٠ ليس دليلًا على أية قوة حقيقية كانت للفاطميين ، بقدرِ دلالته على الدسائس والمكائد السياسية فى الخلافة العبّاسية .

سُــؤ الأحْــوال الداخليــة
فى أول عهد المستنصر

لم تكن أحوال مصر الداخلية زمن المستنصر أحسن حالًا من أحوالها الخارجية . فإلى جانب فَشَل الفاطميين فى تحقيق هدفهم ، تعرَّضت القاهرة ، المدينة الملكية حيث قصر الخليفة ، لصراعات دامية بين طوائف الجُنْد المختلفة ، وخاصة الأتراك والسودان . واجتاحت البلاد الأوبئة والأزمات الاقتصادية الواحدة تلو الأخرى فى السنوات ١٠٥٢/٤٤٤ و ١٠٥٥/٤٤٧ و ١٠٦٥/٤٥٧ ، بالإضافة إلى أزمة إدارية حادة أضعفت قوة الدولة ونفوذها .

فبعد عزل الوزير اليازورى – آخر الوزراء الفاطميين أرباب الأقلام الأقوياء – فى سنة ١٠٥٨/٤٥٠ ، بدأ العسكريون يزيدون من قوتهم باضطراد على حساب المدنيين بل وعلى حساب الخليفة نفسه .

---

[٣٣] ابن الجوزى : المنتظم ٨ : ٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٥٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٨٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ١٢٩ ، Makdisi, G., "Muslim Institutions of Learning in Eleventh-Century Baghdad", BSOAS XXIV (1961) p.3 ، أيمن فؤاد سيد : المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى (تحت الطبع) .

حقيقة لقد أشاد ناصر خسرو بالأمْن الذى شاهده فى مصر فى أوائل خلافة المستنصر (٤٣٩ – ١٠٤٧/٤٤١ – ١٠٤٩) وقال : « إنه لم يره فى بلدٍ من قبل »[٣٤]، وأرجع الفضل فى ذلك إلى المذهب الإسماعيلى واعتبره كفيلًا بإنقاذ العالم الإسلامى[٣٥]، وإذا صدَّقنا ناصر خُسْرو – رغم مايبدو على وصفه دائماً من مبالغات ، كان يهدف بها إلى كسب الرأى العام فى إيران لصالح الفاطميين وضد السَّلَاجِقَة السُّنِّيين – فإن هذا الرخاء والأمن لم يستمرا طويلًا .

أم المستنصر تتحكَّم فى الدولة

فبعد وفاة الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجَرْجَرَائى سنة ١٠٤٤/٣٤٦ ، تحكَّمت السيدة والدة المستنصر فى أمور الدولة ، بسبب صِغَر سن الخليفة ، ولعبت دورًا هامًا فى إذكاء الفِتْنَة بين طوائف العسكر المختلفة ، وهى الفِتْنَة التى قادت إلى خراب البلاد على حدّ تعبير المؤرِّخين المصريين[٣٦]. كذلك فقد حافظت الخلافة الفاطمية على سياسة التسامح مع أهل الذِّمَّة ، التى تخلَّى عنها مؤقتًا الخليفة الحاكم ، فلا عجب أن نجد اليهود يحتلّون ثانية أعلى المناصب فى الإدارة والحياة الاقتصادية فى النصف الأول للقرن الخامس / الحادى عشر[٣٧].

يقول المقريزى : إن أخوين يهوديين نبغا فى أيام الحاكم بأمر الله ، كان أحدهما يتصرَّف فى التجارة والآخر فى الصَّرْف وبَيْع ما يحمله التجار من

---

[٣٤] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٦ .

[٣٥] يحيى الخشاب : « وصف مصر من كتاب السفرنامة لناصر خسرو » ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٣١١ .

[٣٦] ابن ميسر : أخبار ٢٤ – ٢٦ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٢٦٦ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٦٥ .

[٣٧] Fischel, W.I., Jewes in the Economic and Political Life ob Mediaeval Islam, N. Y. 1969, p. 68.

العراق . هما : أبو سعد إبراهيم وأبو نَصْر هارون ابنا سَهْل التُستَرى . « واستخدم الخليفة الظّاهر أبا سعد إبراهيم بن سَهْل التُستَرى فى ابتياع مايحتاج إليه من صنوف الأمتعة ، وتقدَّم عنده فباع له جارية سوداء ، فتحظّى بها الظّاهر وأولدها ابنه المستنصر »[٣٨].

وبعد وفاة الجرجرائى عملت السيدة أم المستنصر على تقريب أبى سعد التُستَرى وجعلته متولى ديوانها[٣٩] فانبسطت كلمته « بحيث لم يبق للوزير الفَلاحى معه أمرٌ ولا نَهْى سوى الاسم فقط وبعض التنفيذ »[٤٠]. وعمل أبو سَعْد على استمالة المغاربة والزيادة فى واجباتهم وأنْقَص من أرزاق الأتراك ، مما أدَّى إلى نشوب القتال بين الفريقين أكثر من مرة[٤١]، كذلك أخذ فى تقريب اليهود وإيثارهم بالكثير من المناصب الهامة ، مما قلَّب مشاعر المسلمين عليهم وكَثَّر عداؤهم لهم[٤٢]. فاستغل ذلك الوزير الفَلَاحى ، رغم أنه يهودى تحول إلى الإسلام ، ومال إلى طائفة الأتراك وزاد فى أرزاقهم ، وحرَّضهم على قَتْل التُستَرى ، فقتلوه فى سنة ١٠٤٧/٤٣٩[٤٣]. وبلغ من كُرْه المسلمين لأبى سعد ، أن الخليفة عندما طلب قاتليه أقَرَّت طوائف العسكر أنهم قتلوه جميعًا ، فلم يتمكن الخليفة من معاقبتهم وأغْضى عن ذلك[٤٤].

---

[٣٨] المقريزى : الخطط ١ : ٤٢٤ وراجع ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨٠ – ٨١ ، ابن ميسر : أخبار ٣ – ٤ ، ٢٥ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٦٤ ، ٦٧ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٩٥ ، ٢٦٧ .

[٣٩] راجع مناقشة طبيعة وظيفة أبى سعد عند Fischel, W. I., op. cit., pp. 78 - 84 .

[٤٠] ابن ميسر : أخبار ٤ ، سيرة المؤيد فى الدين ٨١ – ٨٤ .

[٤١] ابن الصيرفى : الإشارة ٧١ – ٧٢ ، ابن ميسر : أخبار ٤ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٦٤ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٩٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٩ وانظر السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٥٦ .

[٤٢] ابن ميسر : أخبار ٥ وماذكر فيه من مصادر .

[٤٣] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٨ ، ١٠٩ ابن ميسر : أخبار ٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨١ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٦٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٥ ، اتعاظ ٢ : ١٩٥ ، Fischel, W. I., op. cit., pp. 84 - 89 .

[٤٤] نفسه ١٠٨ ، نفسه ٤ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٩٥ .

الصّراع بين الأتراك والسودان والأزمة الإدارية

لم ترْض أم الخليفة بما فعله الأتراك ولا بتصرُّف ولدها ، وعملت على التخلُّص من الوزير الفَلاحى ، ولم يهدأ لها بال حتى عزله الخليفة وأمر بقتله فى سنة ١٠٤٨/٤٤٠ [٤٥] ، وشَرَعت فى شراء العبيد السود من أهل جنسها واستكثرت منهم حتى يقال إنهم بلغوا نحوًا من خمسين ألف أسود وجعلتهم طائفة خاصة بها ، وزادت كراهيتها للأُتراك لقتلهم أبى سَعْد [٤٦] وعملت على ضربهم بالعبيد السود ، وأغْرَت الوزراء الواحد تلو الآخر لتحقيق ذلك ، فكانوا يتعلَّلون لها ويخشون عاقبته على الدولة [٤٧] ، حتى نجحت فى إغراء الوزير أبى الفَرَج البابلى بذلك ، واشتعلت الفِتْنَة بين السودان والأتراك [٤٨] فى الوقت الذى خرج فيه عَرَب البحيرة من بنى قُرَّة والطُّلْحيين عن طاعة المستنصر [٤٩] فاختلَّت أحوال مصر ولم تنجح مساعى الوزير أبى الفرج المغربى فى التقريب بين الأتراك والسودان بسبب تَشَدُّد موقف أم الخليفة . وأخيرًا نجح الأتراك يساندهم المَصَامِدَة والكُتاميون فى إيقاع الهزيمة بالسودان فى وَقْعَة كوم شُرَيْك ، فزادت أم المستنصر من إشعال الموقف وأمَدَّت السودان بالسلاح

---

[٤٥] ابن ميسر : أخبار ٨ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٠٣ .

[٤٦] المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٥ – ٣٣٦ ، ٢ : ١٢ ، اتعاظ ٢ : ٢٦٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨ – ١٩ ، وعن تزايد العنصر الأسود فى الجيش الفاطمى راجع ، Beshir, B. I., op. cit., pp. 40 - 41; Lev, Y., Army, Regime and Society ... pp. 340 - 42; Bacharach, I. L., "African Military Slaves in the Medieval Middle age : the cases of Iraq (869 - 955) and Egypt (868 - 1171) ", IJMES 13 (1981), pp. 482 - 87

[٤٧] ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨١ .

[٤٨] نفسه ١٠ : ٨١ ، ابن ميسر : أخبار ٢٥ – ٢٦ ، النويرى : نهاية – ٢٦ . ٢٧ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٦٧ .

[٤٩] ابن ميسر : أخبار ١٢ ، وعن عدد ونوع الجيش المصرى فى هذه الفترة راجع ، ناصر خسرو : سفرنامة ٩٤ – ٩٥ ، Lev, Y., op. cit., pp. 349 - 52 .

والمال ، فلم يرض ذلك الأتراك فتتبّعوا السودان حتى فرّقوهم فى الصّعيد [٥٠].

وهكذا انتهى هذا الصراع بظهور الأتراك وتقوية شوكتهم وأصبح الحكم فى الحقيقة فى أيدى قُوّادهم ، وأساء قائدهم ناصر الدولة ابن حَمْدان معاملة الخليفة وطالبه بزيادة مُقرَّر الأتراك حتى بلغ ٤٠٠,٠٠٠ دينار فى الشهر بعد أن كان ٢٨,٠٠٠ ، فلم تقدر خزانة الدولة على الوفاء به [٥١]، فنَهَب الأتراك القاهرة واستولوا على ذخائر المستنصر وماكان بالقصر والتُّرْبَة المُعِزّية من كنوز ، بين سنتى ٤٥٩ و ١٠٦٦/٤٦٢ و ١٠٦٩ ، قَوّموه على أنفسهم بأبْخَس الأثمان حتى لم يبق للخليفة شئ [٥٢] بل وصل به الأمر أن ابنة أبى الحسن طاهر بن أحمد بن بابْشاذ النحوى كانت تبعث إليه كل يوم برغيفين « على ماهو مشهور ذائع » [٥٣].

وبلغ من استهانة ناصر الدولة بالخليفة المستنصر واستهزائه به أنه بعث فى سنة ١٠٦٩/٤٦٢ إلى ألْب أرسلان ، السلطان السَّلْجوقى ، يستدعيه إلى مصر ، وعمل على إقامة الدَّعْوة العبّاسية فى مصر وإزالة خلافة الفاطميين منها [٥٤]، فلم يتمكن من ذلك وتنبَّه له زعماء الأتراك الآخرون الذين خشوا

---

[٥٠] ابن الصيرف : الإشارة ٧٧ — ٧٨ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨٢ ، ابن ميسر : أخبار ١٢ — ١٣ ، ٢٤ — ٢٥ ، ٣١ — ٣٢ ، ابن القلانسى : ذيل ٩٣ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٦٥ ، ٦٧ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢١٨ ، ٢٦٥ — ٢٦٧ ، الخطط ١ : ٣٣٥ — ٣٣٦ .

[٥١] ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨٢ ، ابن ميسر : أخبار ٣٢ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٦٧ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٧٥ ، الخطط ١ : ٣٣٦ .

[٥٢] راجع تفصيل ما أخرج من القصر عند الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٨١ — ٨٢ ، ٢٤٩ — ٢٦٣ ، ابن ظافر : أخبار ٧٥ ، ابن ميسر : أخبار ٣٦ — ٣٧ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٩٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٧ — ٤١٨ ، ٤٢٠ — ٤٢٣ ، ٤٢٤ (عن كتاب الذخائر والتحف) ، الاتعاظ ٢ : ٢٧٥ — ٢٩٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٦ — ١٧ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ٣٧ — ٦٤ .

[٥٣] ابن ظافر : أخبار ٧٤ ، المقريزى : إغاثة الأمة ٢٥

[٥٤] ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨٧ ، ابن ميسر : أخبار ٣٥ — ٣٦ ، ٣٩ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٧ ، اتعاظ ٢ : ٣٠٦ — ٣٠٧ ، المقفى (خ . السليمية) ٢٠٧ و .

على ضياع نفوذهم معه . فثار عليه إِلْدِكِز وبَلْدَكوش وقتلاه فى منازل العِزّ بالفسطاط فى سنة ١٠٧٢/٤٦٥ [٥٥].

لم يكن حال المستنصر مع إلدكز وبَلْدَكوش خيرًا من حاله مع ناصر الدولة ، فقد عمل بَلْدَكوش على سدّ منافذ القاهرة ومحاصرة الخليفة بها [٥٦] ، مما أدّى إلى انعدام الأمن وكثرة النَّهْب وقَطْع الطرقات .

هكذا دخلت مصر فى أزمات إدارية حادة . فكثر وزراء المستنصر وقضاته بسبب تسلُّط والدته عليهم بالمصادرة والاستبدال ، حتى تولّى فى الفترة بين عَزْل الوزير اليازورى وقتله فى سنة ١٠٥٨/٤٥٠ ومجىء بدر الجمالى إلى السلطة فى سنة ١٠٧٣/٤٦٦ ، أربعة وخمسون وزيرًا واثنان وأربعون قاضيًا [٥٧].

الأزمة الاقتصادية أو الشِّدّة العُظْمىٰ

كأن الأقدار لم تكتف للمستنصر بهذه الأزمات الإدارية والفوضى السياسية ، فجاء النيل – وهو شريان الحياة فى مصر وعصبها – ليضيف إلى مشاكل المستنصر مشكلة جديدة . فبعد أزمة الحنطة التى حدثت فى سنة ٤١٥ / ١٠٢٣ والتى انفرد بذكرها المُسَبِّحى [٥٨] ، عاد منسوب النيل إلى التناقص فى السنوات ١٠٥٢/٤٤٤ و١٠٥٥/٤٤٧ و٤٥٧ – ١٠٦٤/٤٦٤ – ١٠٧١ فشهدت مصر أسوأ أزمة اقتصادية مَرَّتْ بها فى العصور الوسطى حيث نزع

---

[٥٥] نفسه ١٠ : ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٨ ، نفسه ٣٩ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٥ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣٠٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢١ – ٢٣ .

[٥٦] السجلات المستنصرية (سجل رقم ٥٧) .

[٥٧] المقريزى : إغاثة الأمة ٢٢ – ٢٣ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٩ – ٢٠١ .

[٥٨] انظر الدراسة التى قام بها عن هذه الأزمة تيارى بيانكى والمذكورة فى الفصل الثالث هامش ٩٥ .

السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تعطّلت الأراضى من الزراعة ، واستولى الجوع لعدم وجود الأقوات [٥٩] « حتى أبيع رغيف خبز فى النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطُّرَف بخمسة عشر دينارًا ، وأبيع الأردب من القمح بثمانين دينارًا ، وأُكِلت الكلاب والقطط حتى قلّت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير . وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا » [٦٠] وقد فقدت مصر فى هذه الأزمة أكثر من ثُلْث سكانها . وبلغ من شدة الأزمة أن المستنصر اضطر أن يبيع كل مافى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح ، وصار يجلس فى قصره على حصير وتعطّلت دواوينه وذهب وقاره ، بل قيل إن بنات المستنصر وأمه حاولوا الفرار من مصر إلى بغداد بسبب الجوع وضغط الأزمة الاقتصادية [٦١] فيما اصطلح المؤرخون على تسميته « بالشِّدَّة العُظْمَى » أو « الشِّدَّة المستنصرية » [٦٢].

كان السبب الرئيسى لهذه الأزمات التى بدأت فى العقد الخامس هو الاختلاف بين عبيد الدولة وضعف قوة الوزراء ، يقول المقريزى : إنه لما قُتِل الوزير أبو محمد اليازورى سنة ١٠٥٨/٤٥٠ « لم تر الدولة صلاحًا ولا استقام لها أمر .. ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم ... فخربت أعمال الدولة وقلّ ارتفاعها وتغلّب الرجال على

---

[٥٩] المقريزى : إغاثة الأمة ١٨ – ٢٧ ، المقفى (مخ . السليمية) ٣٦٣ ظ ، الخطط ١ : ١٠٧ ، ٤٦٥ وانظر كذلك ابن ميسر : أخبار مصر ٢٤ – ٢٦ . ومقال R. Daghfous المشار إليه أعلاه هـ [١١].

[٦٠] نفسه ٢٤ .

[٦١] ابن ظافر : أخبار ٧٥ ، ابن ميسر : أخبار ٣٨ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٢٨ ، المقريزى : إغاثة ٢٥ ، اتعاظ ٢ : ٣٠٧ وانظر كذلك راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ، ٨٨ – ٩٩ .

ويذكر ابن الأثير أن محمد بن المستنصر خرج أيضا إلى عسقلان فى أيام الشدة والغلاء وأقام بها ينتظر أيام الرخاء وزوال الشدة . (الكامل ١١ : ١٤١ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٢٣٦) .

[٦٢] راجع ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٧ (نقلًا عن الشريف الجوّانى) .

معظمها واستصفوا ارتفاعها حتى انتهى ارتفاع الأرض السفلى إلى مالا نسبة له من ارتفاعها الأول ... وطغى الرجال وتجرءوا حتى خرجوا من طلب الواجبات إلى المصادرة فاستنفذوا أموال الخليفة وأخلوا منها خزانته وأحوجوه إلى بيع أعراضه .. ثم زادوا فى الجرأة حتى صاروا إلى تقويم مايخرج من الأعراض .. وتلاشت الأمور واضمحل الملك ، وعلموا أنه لم يبق مايلتمس إخراجه لهم فتقاسموا الأعمال ودام ذلك بينهم سنوات إلى أن قصر ماء النيل فساعد على زيادة الأزمة لعدم وجود من يزرع ماشمله الرى لاتصال الفِتَن بين العربان واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة »[٦٣].

وكانت آثار هذه الأزمة أكثر وضوحًا فى الأحياء الشمالية للفُسْطاط (العَسْكَر والقطائع) ، فقد خربت القطائع فى أثناء الشِّدَّة العظمى حتى أمر الوزير ببناء حائط يستر الخراب عن نظر الخليفة إذا سار من القاهرة إلى الفسطاط فيما بين العسكر والقطائع وبين الطريق ، كما أمر ببناء حائط آخر عند جامع ابن طولون[٦٤].

يقول المقريزى : عندما دخل أمير الجيوش بدر الجمالى إلى مصر سنة ٤٦٦ كانت « هذه المواضع خاوية على عروشها خالية من سكانها ... وصارت القاهرة أيضًا يبابًا دائرة ، فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ماشاء فى القاهرة مما خلا من دور الفسطاط بموت أهلها ، فأخذ الناس فى هدم المساكن ونحوها بمصر وعمروا بها فى القاهرة »[٦٥].

---

[٦٣] المقريزى : إغاثة الأمة ٢٢ – ٢٣ .
[٦٤] المقريزى : الخطط ١ : ٣٠٥ ، ٢ : ١٠٠ .
[٦٥] نفسه ١ : ٥ .

الفصل الخامس

بدر الجمالى

وبداية النظام العسكرى

بَدْر الجمالى مُنْقِذ الدَّولة

لم يكن إنقاذ البلاد من هذه الأزمات المتتالية ممكنًا دون الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فَرْض النظام واستتباب الأَمْن وحماية الخلافة نفسها ، وإنهاء حالة الفوضى التى استشرت فيها ، حتى فَقَد الخليفة كل سيطرة له عليها وتَقَلَّص نفوذه وانحصر داخل القصر . بينما تقاسمت فرق الجند أقاليم الدولة ، فاستولى اللُّواتيون والمَلْحية على البحيرة والإسكندرية ، واستقر الصَّعيد فى أيدى المغاربة والسودان ، بينما تَحَكَّم الأتراك فى القاهرة والفُسْطاط .

عَقَد الخليفة المستنصر أمله فى تحقيق ذلك على قائد أرمنى ، كان يتولَّى عكّا فى ذلك الوقت ، يُعْرَفُ ببدر الجمالى [1] فكاتبه سِرًّا عن طريق الوزير

---

[1] مملوك أرمنى من أصل مسيحى فى أغلب الظن ، كان مملوكًا لجمال الدولة بن عمار فعرف لذلك ببدر الجمالى ، وبدأ حياته العملية واليا على دمشق سنة ٤٥٥ هـ . ولمعلومات أكثر عن بدر الجمالى راجع ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٤ – ٩٧ ، ابن القلانسى : ذيل ١٢٧ – ١٢٨ ، ابن ظافر : أخبار ٨١ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٣٥ – ٢٣٦ ، ابن ميسر : أخبار ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ – ٥٤ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٨ – ٤٥٠ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٧١ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٩ : ٤٣٩ ، الصفدى : الوافى ١٠ : ٩٥ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ٢٤٢ و – ٢٤٤ و ، الخطط ١ : ٣٨١ – ٣٨٢ ، الاتعاظ ٢ : ٣١١ – ٣٢٩ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٠ – ١٣٧ ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ١٢٠ ، ١٤١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٤ . وراجع كذلك ، السجلات المستنصرية سجل رقم ٢٠ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، المناوى : الوزارة فى العصر الفاطمى ٢٧٠ – ٢٧١ ، Wiet, G., CIA Egypte II, pp. 132 - 158; Becker, C.H., EI²., art. Badr al - Djamâli I, p. 894

أبى الفرج محمد بن جعفر بن المغربى ، وهو يومئذ متولى ديوان الإنشاء ، يطلب إليه القدوم عليه لإصلاح حال البلاد . وقد رَحَّب بدر بهذه الدَّعوة ، التى تحقق له طموحاته ، وكتب إلى المستنصر يشترط عليه أن لا يأتى إلى مصر إلَّا ومعه رجاله ، وأنه لن يبقى على أحد من عساكر مصر ، فوافقه المستنصر على ذلك [٢].

قدم بدر من عَكّا فى مائة مركب [٣] مشحونة بالأَرْمَن ونزل بِتِنّيس — وقيل دِمْياط — وسار منها قاصدًا قليوب ، وبعث منها إلى المستنصر يقول له : « لا أدخل إلى القاهرة مالم يُقْبَض على بَلْدَكوش » قائد الأتراك ، فأمسكه الخليفة وأرسل يستقبل بدرًا لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٤٦٦/ يناير ١٠٧٤ . وأكرم وفادته وأطلق يده فى إصلاح حال البلاد [٤].

بدأ بدر الجمالى إصلاحاته فى مصر بتدبير مؤامرة ، شبيهة بمذبحة القلعة التى دبَّرها محمد على بعد ذلك بنحو سبعمائة عام ليتخلَّص من المماليك ، قضى فيها بدر على رؤوس الفتنة فى مصر [٥] وقتل رجال الدولة وأقام له جندًا وعسكرًا من الأرمن ، يقول المقريزى : « فصار من حينئذ معظم الجيش الأَرْمَن وذهبت كتامة وصاروا من جملة الرعية بعدما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها . » [٦]. حينئذ قلده المستنصر الوزارة ومنحه لقب « السيد الأجل أمير الجيوش » [٧]، وجاء فى سِجِلّه « وقد قلَّدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر

---

[٢] المقريزى : المقفى (مخ . السليمية) ٢٤٢ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠١ .

[٣] كان ذلك فى وقت الشتاء حيث لم تجر العادة بركوب البحر فيه ، يقول المستنصر فى أحد سجلاته أن ذلك كان « فى زمان يمنع البر جانبه ، والبحر راكبه » ، (سجل رقم ٥٦ و ٥٧ ، ابن ميسر : أخبار ٤٠ ، المقريزى : المقفى (مخ . السليمية) ٢٤٢ و ، الخطط ١ : ٣٨٢ ، اتعاظ ٢ : ٣١١ - ٣١٢) .

[٤] نفسه ٢٤٢ ظ ، نفسه ١ : ١٣١ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٥ .

[٥] ابن ميسر : أخبار ٤٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٩ .

[٦] المقريزى : الخطط ٢ : ١٢ .

[٧] السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٥٦ .

فى كل ماوراء سريره ، فباشر ما قلّده أمير المؤمنين من ذلك مدبرًا للبلاد مُصْلحًا للفساد مدمّرًا أهل العناد »[٨]. وخلع عليه كذلك بالعِقْد المنظوم بالجوهر ، وزاد له الحَنَك مع الذُّؤابة وجعل له أيضًا الطَّيْلسان المُقَوَّر[٩]، ليصبح بذلك أول وزراء التفويض فى العصر الفاطمى .

عمل بدر الجمالى على إعادة النظام إلى القاهرة فاستبد بأمور الدولة وحَجَر على المستنصر ، فقد كانت « الأحوال – كما يقول المقريزى – قد فسدت ، والأمور قد تَغَيَّرت ، وطوائف العسكر قد انتشرت ، والوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الأمر والنَّهْى ، والرخاء قد أُيس منه ، والصَّلاح لا يُطْمَع فيه ، ولَواتَة قد ملكت الوجه البحرى كله ، والعبيد فى الصعيد ، والطُّرُقات قد انقطعت برًا وبحرًا إلّا بالخفارة الثقيلة ، والخراب قد شمل مدينة مصر والعَسْكَر »[١٠].

كان أهم مايشغل بدر هو استتباب الأمن فى كل الأراضى المصرية ، فتوجّه أولًا إلى الوجه البحرى والإسكندرية حيث قاتل قبائل لَوَاتَة والمَلْحِيّة واسترد ماكان من الأعمال بأيديهم ، ثم توجّه إلى الصَّعيد حيث قاتل قبائل الجُهَنِيين والقَيْسيين وفلول السودان المستولية عليه . فأعاد للبلاد وحدتها وأمنها وللدولة قوتها[١١]. وفى العام نفسه – ١٠٧٤/٤٦٧ – أعاد خطبة الفاطميين بمكة

---

[٨] المقريزى : المقفى (مخ . السليمية) ٢٤٣ و ، الخطط ١ : ٤٤٠ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢ ، وانظر كذلك السجل رقم ٥٦ ، ٥٧ .

[٩] نفسه ، نفسه ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦ .

[١٠] نفسه ٢٤٣ و وكذلك ابن الصيرفى : الإشارة ٩٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٥ س ٧ – ١١ .

[١١] السجلات المستنصرية ، سجل ٥٦ و ٥٧ ، ابن الصيرفى : الاشارة ٩٦ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٢/٣ : ٢٠٣ – ٢٠٤ ، ابن ظافر : أخبار ٧٦ ، ابن ميسر : أخبار ٤١ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٧٠ – ٧١ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٢ ، ٢ : ٣٣ ، الاتعاظ ٢ : ٣١٤ ، المقفى ٢٤٢ ظ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢١ – ٢٢ .

والمدينة بعد أن قُطِعَت خمس سنوات [١٢]، ولكن اعتبارًا من عام ١٠٨١/٤٧٣ خضعت مكة لنفوذ السَّلاجِقَة وقطعت خطبة الفاطميين منها نهائيًا وأصبحت تقام فقط للخليفة العباسى .

كذلك أطلق بدر الجمالى الخراج للمزارعين ثلاث سنين ، حتى تَرَفَّهَت أحوال الفلّاحين واستغنوا فى أيامه ، كما يقول ابن مُيَسَّر [١٣].

وقد حاول السَّلاجِقة ، بناء على نصيحة بَلْدَكوش الذى كان قد نجح فى الفرار إلى الشام ، أن يستولوا على أعمال الرِّيف سنة ١٠٧٦/٤٦٩ – ١٠٧٧ ، منتهزين فرصة انشغال بدر بمحاربة فلول السودان فى الصَّعيد . فوصل أتْسِزِبُزا إلى مدينة صَهَرَجْت بإقليم الشرقية ، ولكن بدرًا تمكن من جمع قواته ومنازلته ، وقَتَل عددًا كبيرًا من جنوده وأرغمه على العودة إلى الشام [١٤] .

انفراد بدر الجمالى بالسلطة وبداية النظام العسكرى

حفظ الخليفة المستنصر بالله لبدر الجمالى فَضْلَه على الدّولة والخلافة ، فلم يخل سِجِلّ من السِّجِلّات التى أرسلها المستنصر لدعاته فى اليمن والمكتوبة بعد سنة ١٠٧٤/٤٦٧ من التنويه والإشادة بفضله على الدولة . فنجده يصفه فيها

---

[١٢] ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦١ ، ٩٧ – ٩٨ ، ابن الجوزى : المنتظم ٨ : ٢٩٤ ، ابن ميسر : أخبار ٤٢ ، المقريزى : نهاية ٢٦ : ٧٠ ، الفاسى : العقد الثمين ١ : ٤٤٢ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣١٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٨٤ ، ابن فهد : اتحاف الورى ٤٧٧ ، اسيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، وانظر السجلات المستنصرية برقم ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٢ .

[١٣] ابن ميسر : أخبار ٥٣ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٢٧١ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٣ ، الاتعاظ ٢ : ٣٢٩ .

[١٤] ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦ ، ابن القلانسى : ذيل ١٠٩ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة ٢/٣ : ٢١٨ – ٢١٩ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ١٠٣ – ١٠٤ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ١٨٢ – ١٨٤ ، ابن ميسر : أخبار ٤٤ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٧٠ ، الذهبى : العبر ٣ : ٢٩٦ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٥ ، المقريزى : المقفى ٢٠٧ و ، الاتعاظ ٢ : ٣١٧ – ٣١٨ .

بأنه « الذى أعاد إلى الدولة العلوية ريق شبابها »[١٥] و « الذى جدَّد الله تعالى به وعلى يده معالم الدولة الفاطمية بعد دروسها ، وأقام بسيفه أعلامها بعد طموسها »[١٦] وبأنه « الآية التى أطْلَع الله بها لأمير المؤمنين شمس الخلافة فشَرُقَت ، والموهبة التى وَهَبَها لدولته وللإسلام فَظَهرَت وأَشْرَقَت ، والسيف الذى انتضاه على جموع الباطل فزَهَقَت وتمَزَّقَت ... حتى أصبحت المملكة بلُطْف الله وإيالته محفوظة النظام »[١٧]، « وبماضى عَزَماته وغرار سيفه مَشيَّدة البناء قائمة العماد »[١٨] « فلا جَرْم إنه لدى أمير المؤمنين بالمحل الخطير الذى لم يحلله من تَقَدَّم ، والمكان الجليل الذى يتظاهر دون عالى هِمَم ذوى الهِمَم »[١٩]، و « أنه حالّ من أمير المؤمنين محل والده الظّاهر لإعزاز دين الله »[٢٠].

وبتولى بدر الجمالى وزارة التفويض وإمْرَة الجيوش بدأ عصرٌ جديدٌ فى تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر ، عصرٌ تحكّم فيه الوزراء أرباب السيوف وصار وزير السيف هو « سلطان مصر وصاحب الحلّ والعَقْد وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكُتّاب وسائر الرعية ، وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية »[٢١]، وفقدت فيه « الدَّعْوَة » فى الوقت نفسه الكثير من قوتها وأصبح هَمُّ الوزراء أصحاب السيوف هو الحفاظ على بقاء الدولة واستمرارها فيما اصطلح على تسميته بـ « عصر نفوذ الوزراء » .

---

[١٥] سجل رقم ٣١ .

[١٦] سجل رقم ٣٢ .

[١٧] سجل رقم ١٥ .

[١٨] سجل رقم ١٦ .

[١٩] سجل رقم ١٥ .

[٢٠] السجلات رقم ٣٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، وانظر ماجاء على بابى الفتوح والنصر بالقاهرة فى مدح بدر الجمالى بمثل هذه الصفات (Wiet, G., RCEA VII, pp. 217 - 19 n. 2762).

[٢١] المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ .

وطوال الخمسين عامًا التالية (٤٦٧ – ٥١٥) كان بدر الجمالى وولده الأفضل هما اللذين يقودان مصير الدولة الفاطمية .

أدرك داعى الدُّعاة المؤيد فى الدين هبة الله الشّيرازى – الذى يُعَدّ آخر أهم الدعاة الفاطميين – حقيقة هذا الموقف وأشار فى « سيرته الذاتية » – التى كتبها قبل وصول بدر الجمالى بأكثر من عشر سنوات – إلى مدى ضَعْف الخلافة ، وكيف أصبح المستنصر أُلعوبَةً فى أيدى القُوّاد [٢٢]، وتنبَّه كذلك إلى مايمكن أن يصيب الدعوة والعقيدة الفاطمية فى ظل سيادة الوزراء ، فعمل على نَقْل تراث الدعوة من مصر إلى اليمن ، قبل وفاته فى سنة ١٠٧٧/٤٧٠ ، بواسطة رُسُله ودعاته حيث يوجد مؤمنون حقيقيون بالدعوة الفاطمية [٢٣].

وقد صَدَق حَدْس الداعى المؤيد فى الدين الشّيرازى ، فبعد وفاته قلَّد الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالى مهمة الإشراف على القضاء والدَّعْوَة [٢٤] بالإضافة إلى رتبتى الوزارة وإمْرَة الجيوش ، وزاد فى ألقابه « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » [٢٥]. يؤكّد ذلك أن الكتابتين التاريخيتين اللتين تحملان اسم بدر الجمالى ويرجع تاريخهما إلى صفر وربيع الأول سنة

---

[٢٢] المؤيد فى الدين : سيرة ٨٠ ، ٨٤ .

[٢٣] أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن ٤٦ ، تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ١٣٧ .

[٢٤] اعتبارًا من تولية بدر الجمالى صار الوزراء أرباب السيوف هم الذين يولون القضاة والدعاة بحيث كانوا نوابًا عنهم ويذكرون ذلك فى كتب الأنكحة . (ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢ ، ٢٠١ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦) . ثم فصلت الوزارة عن القضاء مؤقتًا عندما تولى بهرام الأرمنى الوزارة وهو نصرانى سنة ٥٢٩ . (ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٥٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، الخطط ١ : ٤٤٠ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٨) .

[٢٥] ابن ميسر : أخبار ٤٥ ، ٥٠ وانظر كذلك ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٧٠ ، المقريزى الخطط ١ : ٣٨٢ ، ٤٤٠ ، المقفى ٣٤٣ ظ ، اتعاظ ٢ : ٣١٣ ، ٣١٩ ، ابن حجر : رفع الاصر ١ : ٢٠١ .

١٠٧٧/٤٧٠ [٢٦]، والسِّجِلّات المدوَّنة قبل ٣٠ ذى القعدة سنة ٤٧٠ / ١٥ يونية ١٠٧٨ [٢٧] لا تشير إلى هذه الألقاب .

وهذا ماتثبته كذلك دراسة الكتابات الأثرية الخاصة ببدر الجمالى و « السِّجِلّات المستنصرية » المرسلة إلى دعاة اليمن بعد هذا التاريخ . ففيما يخص الكتابات توجد مجموعة من النقوش مؤرَّخة فى سنة ١٠٧٧/٤٧٠ ، قبل وفاة داعى الدعاة المؤيد فى الدين الشيرازى فى شوال من هذه السنة ، يُنْعَت فيها « بالسيِّد الأجَلّ أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام » [٢٨]؛ ثم مجموعة أخرى ، يرجع أقدمها إلى سنة ١٠٨٤/٤٧٧ ، تضيف إلى الألقاب السابقة « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » [٢٩].

وقد أوضح ابن مُيَسَّر فى نصٍّ صريح أن قضاء القضاة فُوِّض فى شعبان سنة ٤٧٠ / مارس ١٠٧٨ إلى أمير الجيوش [٣٠]، كما ذكر المستنصر ، فى سجل مؤرَّخ فى شوال سنة ٤٧٢/ إبريل ١٠٨٠ ، أنه أضاف إلى ألقاب بدر لقب « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » ليُقَلِّده أمور الدنيا وأمور الدين [٣١].

هكذا حفظ نظام بدر الجمالى وخلفائه المباشرين ، الأفْضَل والمأمون البطائحى ، الدولة الفاطمية من السقوط ، وأطال بقاءها نحو قرن ، بفضل

---

[٢٦] Wiet, G., RCEA VII, n. 2716

[٢٧] السجلات رقم ٣٢ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

[٢٨] Wiet, G., RCEA VII, n. 2716

[٢٩] السجلات رقم ٣٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، Wiet, G., RCEA VII, n.2716, 19, 28, 45, 52, 69, 76, 90, 91, 94, 95,. VIII, n. 2803, 05, 06, 07, 08, 10

[٣٠] ابن ميسر : أخبار ٤٧ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣٢١ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠١ .

[٣١] السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٥٩ .

إشرافهم التام على نظام الدولة الإدارى والدينى والعسكرى . ومثلما أصبح الخلفاء العبّاسيون فى بغداد لاحول لهم ولا قوة بيد قادتهم العسكريين المتسلّطين ، أصبح الفاطميون كذلك ، منذ هذا التاريخ ، رؤساء رمزيين لسلسلة متوالية من الطغاة العسكريين .

الإصلاحات الإدارية لنظام بدر الجمالى .

لعل أهم إنجازات بدر الجمالى فى فترة حكمه فى مصر ، بالإضافة إلى بنائه سور القاهرة وإعادة تحصينه ، وكذلك بقية منشآته الدينية والمدنية سواء فى القاهرة أو فى الاسكندرية أو فى الصعيد [٣٢]، هو الإصلاحات الإدارية العديدة التى أدخلها على نظام الحكم فى مصر . فقد عيّن عواصم الولايات التى تتحكم فى مصر العليا والسُّفلى لتأمين الطرق المؤدية إلى عاصمة البلاد ، إلى جانب إنشاء العديد من التحصينات المتقدّمة التى تصد مايمكن أن تتعرض له البلاد من أخطار .

فتقسيم مصر إلى أربع ولايات رئيسية : قوص والشّرقية والغربية والإسكندرية بالإضافة إلى القاهرة والفسطاط يرجع إلى إعادة تنظيم الدولة الذى بدأه بدر نحو عام ٤٧٠/١٠٧٨ [٣٣]. وقد حفظ هذا النظام الجديد لحكام هذه الولايات سلطة متزايدة . وكان والى قوص أقوى الولاة الأربعة ويحكم على جميع بلاد الصعيد ، وتلى رتبته رتبة الوزير فى الأهمية [٣٤].

ويُفَسِّر ذلك إلى أى مدى كان اهتمام الفاطميين بطُرُق التجارة الشرقية ،

---

[٣٢] راجع لتفصيل ذلك Fu'ad Sayyid, A., La Capitale de l'Egypte jusqu'à l'épopue fatimide (sous press) ، وفيما يلى ص٣٩٩ – ٤٠٠ .

[٣٣] القلقشندى : صبح ٣ : ٤٩٣ – ٤٩٤ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٣٦ .

[٣٤] Garcin, J. Cl., Un centre musulman de la haute Egypte médieval : Qûs, Le Caire IFAO 1976, pp, 89 - 90

ورغبتهم فى نشر دعوتهم على طول الطرق التجارية المؤدية إلى اليمن وعُمان والهند [٣٥] ، وحرصهم على تأمين ميناء عَيْذاب ، القاعدة البحرية التى أخذت فى النمو منذ أن اتَّبع الفاطميون استراتيجية شرقية . والتى تولّى والى قوص أمر الإشراف على الأسطول المعد بها لحماية « مراكب الكارم » من غارات القراصنة [٣٦] .

أما والى الشَّرْقية فكان يلى والى قوص فى الرُّتْبَة ويحكم على عمل بِلْبِيْس وقليوب وأشموم [٣٧]. وكان عليه مواجهة السَّلاجقة الذين استردوا من الفاطميين أغلب مدن الشام الداخلية اعتبارًا من عام ١٠٧٠/٤٦٢ .

الأفْضَل بن بدر الجمالى يشارك والده السلطة

وفى نهاية عصر المستنصر تفرَّغ بدر الجمالى تمامًا للإشراف على الدعوة ، الأمر الذى لم ينظر إليه بارتياح أتباع الدعوة وخاصة فى اليمن والهند [٣٨]. وفى نَصّ مجمل أوردة ابن مُيَسَّر نعرف أن بدر الجمالى ، بعد أن قاد حملة لتأديب ولده الأوْحَد الذى خرج عليه فى الإسكندرية سنة ١٠٨٤/٤٧٧ ، استناب ولده الأفضل وجعله ولى عهده فى جمادى الأولى من هذه السنة [٣٩]. ويؤكّد

---

[٣٥] لمزيد من التفصيلات انظر Lewis, B., "the Fatimid and the route to India", RFSE-Univ. d'Istanbul XI (1949-50), pp. 50-54; Hamdani, A., "The Fatimid-'Abbasid, conflict in India", IC XLI (1967). pp. 185-191 وأنظر أعلاه ص١٢٩ – ١٣١ .

[٣٦] انظر فيما يلى الفصل الحادى عشر .

[٣٧] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩٤

[٣٨] عماد الدين إدريس : عيون الأخبار (مخ . الهمدانى) ٧ : ٧٥ ظ – ٧٦ و ، أيمن فؤاد : تاريخ المذاهب الدينية ١٤٦ – ١٤٧ . وبعد نجاح هذه الحملة وتخليداً لها أعاد بدر الجمالى بناء جامع العَطّارين من أموال أخذها من الإسكندرانيين وفرغ منه فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧٩ . (ابن ميسر : أخبار ٤٦ – ٤٧ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ١ : ٦٧ ، Wiet, G., RCEA VIII no 2745) .

[٣٩] ابن ميسر : أخبار ٤٧ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣٢١ ، وانظر كذلك ساويرس : تاريخ البطاركة ٢١٧ : ٣/٢ – ٢١٨ .

ماجاء فى هذا النص سِجِلّ مؤرَّخ فى ٧ محرم سنة ٢٥/٤٧٩ إبريل سنة ١٠٨٦ بعث به الخليفة المستنصر إلى دعاته باليمن ، نعرف منه أن الخليفة نَقَل سلطة بدر الجمالى إلى ولده الأفضل فى احتفال ضخم وأمر بأن يُدْعى له من فوق المنابر بعد الفراغ من الدعاء للخليفة ولبدر الجمالى ، وجاء فى آخر السِّجِل الأمر بإبطال ذكر الملقب كان بالأَوْحَد من دعاء فى خطبة أو ندى من الأندية وأن يُمْحى رسمه ويزال حكمه »[٤٠]. ولايترك هذا السِّجِلّ أى مجال للشك فى أن الأفضل قد حَلَّ مَحَلّ أخيه الأَوْحَد فى أعقاب الثورة الفاشلة التى قادها الأَوْحَد فى الإسكندرية . وجاء كذلك فى سِجِلّ بعث به المستنصر إلى الأمير عبد المستنصر بن المكرم أحمد فى اليمن ، أنه أَوْكَل إلى الأفضل بن بدر الجمالى « سياسة الملك وما يختص بظاهر السلطان وأمور الجند وما إلى ذلك ، على أن يتفرَّغ والده بدر الجمالى على درس علوم الأئمة ، والإشراف على الدعوة »[٤١].

وعلى ذلك فليس من الغريب أن نجد اسم الأفضل شاهنشاه بألقابه يظهر إلى جانب والده فى كتابة تاريخية مؤرَّخة فى سنة ١٠٩٨/٤٨٢ ، كانت موجودة فى المَشْهَد النَّفيسى وفُقِدَت اليوم ، ولكن حفظ لنا نصها كل من المقريزى والسَّخاوى[٤٢]. ونجد كذلك ألقاب الأفضل فى كتابة تاريخية أخرى باسم المستنصر ، لم يُحْفَظ تاريخها ، موجودة على محراب فى الجامع الطولونى[٤٣].

وقبل وفاته بعدة شهور أصيب بدر الجمالى بالفالج ولم يصبح قادرًا على مباشرة مهامه ، مما دفع المستنصر إلى إصدار سِجِل يأمر فيه بأن يُدْعى للأفْضَل شاهنشاه مع الخليفة على منابر القاهرة ومصر ويقلّده « أمور المملكة والنظر فى

---

[٤٠] السجلات المستنصرية ، سجل رقم ١٥ .

[٤١] عماد الدين إدريس : عيون الأخبار – خ ٧ : ٧٥ ظ – ٧٦ و .

[٤٢] المقريزى : الخطط ٢ : ٤٤٢ ، السخاوى : تحفة الأحباب ١٣٥ ، وانظر كذلك على مبارك : الخطط التوفيقية ٥ : ١٣٣ – ١٣٤ ، Wiet, G., RCEA VII n. 2776

[٤٣] Wiet, G., RCEA VIII n. 2806

سائر أمور الدولة وقضاياها وشرائعها وأحكامها » ، وقرئ هذا السجل فى الإيوان بالقصر فى العشر الأخر من شهر ربيع الأول سنة ١٠٩٤/٤٨٧ [٤٤].

ديكتاتورية الأفْضَل بن بَدْر الجمالى

عند وفاة بدر الجمالى فى جمادى الأولى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ أُكْرِه الخليفة المستنصر ، تحت ضغط الجيش ، على اتخاذ الأفضل وزيرًا له [٤٥]. حقيقة أن الأفضل شارك والده بدر الجمالى فى أعباء الوزارة منذ عام ١٠٨٧/٤٨٠ تقريبًا ، كما تفيدنا النقوش التاريخية والسِّجِلّات المستنصرية ، إلّا أنه نافسه على ذلك بعض كبار الأمراء ، ومنهم أمين الدولة لاوون الذى خَلَع عليه المستنصر خِلَع الوزارة بالفعل ، لولا ثورة العسكر التى أجبرت المستنصر على إحضار الأفضل وإقامته مكان أبيه [٤٦].

وتَلَقَّب الأفضل بنفس ألقاب أبيه فعرف « بالسَّيِّد الأجَلّ الأفْضَل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » [٤٧]. ولم يلبث الخليفة المستنصر أن توفى بعد ذلك بشهور فى ١٨ ذى

---

[٤٤] السجلات المستنصرية ، سجل رقم ١٥ ، ٢٧ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٣/٢ : ٢٤٣ .

[٤٥] ابن ميسر : أخبار ٥٤ .

[٤٦] نفسه ٥٤ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣٣١ – ٣٣٣ .

[٤٧] السجلات المستنصرية سجل رقم ٣٥ ، ٤٣ ، Wiet, G., REFA VIII, n 2912, 2986
وراجع أخبار الأفضل عند ، ابن الصيرفى : الإشارة ٩٧ – ١٠٣ ، ابن القلانسى : ذيل ٢٠٣ – ٢٠٤ ، ابن المأمون : أخبار ٣ – ٢٠ ، ابن ظافر : أخبار ٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٥٨٩ – ٥٩٠ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ١٠٤ ، ابن ميسر : أخبار ٥٩ – ٨٧ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٨ – ٤٥٢ ، ابن سعيد : النجوم ٢١٦ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٣ – ٨٤ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٤٨٥ – ٤٨٧ ، الذهبى : العبر ٤ : ٣٤ – ٣٥ ، الصفدى : الوافى ١٦ : ٩٢ – ٩٣ ، ابن الفرات : التاريخ – خ ١ : ٥٠ – ٥٤ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٠ ، اتعاظ ٣ : ٦٠ – ٦٢ ، أبى المحاسن : النجوم ٥ : ٢١٨ ، ٢٢٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٤ ، المناوى : الوزارة فى العصر الفاطمى ٥٧ – ٦١ ، Wiet, G., EI²., art. al, Afdal b. Badr al -Djamali, I, pp. 221 -222

الحجة سنة ٢٩/٤٨٧ ديسمبر سنة ١٠٩٤ عن عمر يناهز سبعة وستين عامًا وبعد حكم دام أكثر من ستين عامًا [٤٨].

الإنقسام الأوّل للدعوة الإسماعيلية

لم تمض عملية خلافة المستنصر فى منصبه فى هدؤ بل قادت إلى انشقاق الدعوة الفاطمية وانقسامها على نفسها . وكان لهذه الحادثة وما تبعها آثار جسيمة على الدَّعوة سواء فى مصر أو خارجها . فالعقيدة الإسماعيلية تعتمد انتقال الإمامة فى الأعقاب من الأب إلى الإبن الأكبر ، وتبعًا لهٰذه القاعدة كان نِزار ، الابن الأكبر للمستنصر ، هو صاحب الحق الشرعى فى خلافة أبيه فى منصب الإمامة ، رغم أنه لم يُجْر أى احتفال لتنصيبه ولياً للعهد . ومع ذلك لم يعر الأفضل هذا التقليد أى اعتبار وأبْعَد نِزار ، الذى كان له من العمر آنذاك خمسين عامًا (ولد عام ٤٣٧) [٤٩] ، عن العَرْش ، وأجلس عليه أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد (ولد عام ٤٦٧) [٥٠] وحكم باسم « المُستَعْلى بالله » وذلك لأن المستعلى كان فى نفس الوقت زوج أخته ست الملك ابنة بدر الجمالى [٥١]. وتبعًا لما ذكره ابن مُيَسَّر فإن المستنصر نَعَت ابنه أبا القاسم أحمد ، وقت عقد نكاحه على ابنة بدر الجمالى ، بـ « وَلِىّ عهد المؤمنين » [٥٢].

---

[٤٨] ابن القلانسى : ذيل ١٢٨ ، ابن ظافر : أخبار ٧٧ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٣٧ — ٢٣٨ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٧١ ، الذهبى : العبر ٣ : ٣١٨ ، المقريزى الخطط ١ : ٣٥٦ ، ٤٢٣ ، الاتعاظ ٢ : ٣٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٣ ، وانظر كذلك Gibb, H. A. R. et Kraus, P. EI[1]., art. al-Mustansir bi Llah III, pp. 820-823.

[٤٩] ابن ميسر : أخبار ٦٢ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٥ .

[٥٠] ابن خلكان : وفيات ١ : ١٨٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١١ وانظر أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية ١٥٤ — ١٥٥ .

[٥١] ابن ميسر : أخبار ٧٠ ، ٩٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٨٥ .

[٥٢] الهداية الآمرية فى « مجموعة الوثائق الفاطمية » للشيال ٢١٥ ، ٢١٧ ، ابن ميسر ، أخبار ٩٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٨٤ . ويميز الفاطميون بين ولاية عهد المؤمنين وولاية عهد المسلمين ، إذ أن ولاية عهد المؤمنين تتضمن ولاية عهد المسلمين ، لأن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس . (الهداية الآمرية ٢١٥) .

وقاد الخلاف على صاحب الحق فى خلافة المستنصر إلى نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية . وقد اعتبر B. Lewis و S. Stern إبعاد نزار وتولية المستعلى إنقلابًا سياسيًا coup d'état واضح المعالم قام به الوزير الأفضل شاهنشاه محافظة على السلطان القوى الذى كان يَتَمَتَّع به منفردًا منذ أواخر عهد المستنصر [٥٣] خاصة وقد وقعت بين الأفضل ونِزار خلافات فى أيام المستنصر خشى منها الأفضل إن تولّى نِزار أن يُبْعِده عن الحكم [٥٤] ، وبذلك ظل الأفضل طوال الخمسة والعشرين عامًا التالية هو المُدَبِّر الحقيقى لدولة الفاطميين .

وهكذا نجد أن الوزراء الفاطميين ، أرباب السيوف ، تلاعبوا بالعقيدة الإسماعيلية ولم يبالوا بها ، فكانوا يعيِّنون الإمام الذى يريدونه حتى ولو لم يكن له الحق – حسب العقيدة الإسماعيلية – فى الإمامة .

وقد فرَّ نِزار ، الذى رفض الاعتراف بإمامة أخيه الأصغر [٥٥] ، ومعه محمود ابن مصال اللّكى [٥٦] إلى الإسكندرية ، حيث ظن أنه قادر ، بمعاونة والى المدينة ناصر الدولة أفْتَكين التركى [٥٧] ، على استعادة السلطان الذى سُلِب منه ، وأعلن

---

[٥٣] Stern, S'., "The Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (al-Hidaya al-Amiriyya) its date and its purpose" JRAS (1950), p. 20; Lewis, B., BSOS X (1940-42), p. 256; Gibb, H. A. R., EI[1]., art. al-Musta'li, III, pp. 819-20 ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٤٨ .

[٥٤] ابن ميسر : أخبار ٦٠ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٤٠٧ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٧٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٢٣ ، اتعاظ ٣ : ١٢ .

[٥٥] نفسه ٥٩ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٧٢ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٢/٣ : ٢٤٤ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١١ ، الخطط ١ : ٤٢٣ .

[٥٦] كان نزار قد وعد ابن مصال إن هو أصبح الإمام أن يوليه الوزارة . (ابن ميسر : أخبار ٦٠) .

[٥٧] الأمير ناصر الدولة أفتكين التركى ، أحد غلمان أمير الجيوش بدر الجمالى ترق فى الخدمة إلى أن ولّاه الأسكندرية . (المقريزى : المقفى (مخ . السليمية) ٢٠٨ ظ – ٢٠٩ و ، الخطط ١ : ٤٢٣) .

نفسه خليفة فى الإسكندرية وتلقّب بـ « المصطفى لدين الله » [٥٨]. ولكن محاولة ثورة نزار لم تفلح بسبب تأييد الجيش للأفضل ، الذى نجح ، بعد أن أخفق فى أول الأمر ، فى القبض عليه وعلى أفتكين وقادهما إلى القاهرة وقتلهما بها [٥٩]. وبذلك اعترف بإمامة المستعلى القسم الأكبر من إسماعيلية مصر والشام وكل الطائفة الإسماعيلية فى اليمن والهند ، الذين أسّسوا فرقة جديدة من بين أتباع المستعلى بعد مقتل ولده وخليفته الآمر بأحكام الله سنة ١١٣٠/٥٢٤ [٦٠] . وعرف أتباع المُستَعْلى بـ « المُستَعْلية » . أما إسماعيلية فارس بقيادة الحسن بن صبّاح [٦١] فقد اعترفوا بإمامة نزار وعرفوا لذلك بـ « النِّزارية » .

الإسماعيلية الجديدة .

كان الحسن بن صبّاح قد قدم إلى مصر فى سنة ١٠٧٦/٤٦٩ ، كما تذكر المصادر النزارية [٦٢] ، أو فى سنة ١٠٨٦/٤٧٩ كما تذكر المصادر المصرية [٦٣]. وتشير المصادر عمومًا إلى أنه نجح فى لقاء الإمام المستنصر وأنه سأله عن من يكون الإمام بعده ، وأن المستنصر أجابه بأنه ابنه نزار . وتنفى المصادر النزارية هذا اللقاء وتذكر أن ابن صبّاح لم يحظ بلقاء المستنصر طوال فترة إقامته فى

---

[٥٨] ابن ميسر : أخبار ٦١ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/٢ : ٢٤٤ — ٢٤٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٧٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٣ ، الخطط ١ : ٤٢٣ .

[٥٩] نفسه . وكذلك ابن ظافر : أخبار ٨٣ — ٨٤ ، المقريزى : المقفى ٢٠٨ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٣٨٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٤٤ .

[٦٠] انظر فيما يلى ص١٨٤ — ١٨٦ .

[٦١] عن الحسن بن صبّاح راجع ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٣٧ ، ابن ميسر : أخبار ٤٧ — ٤٩ ، ٦٢ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٧٥ ، القلقشندى : صبح ١٣ : ٢٣٧ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ٣٥٢ ظ — ٣٥٤ و ، اتعاظ الحنفا ٢ : ٣٣٣ — ٣٣٤ ، Hodgson, M. G. S., EI², art. Hasan-i Sabbâh III, pp. 260-261 وانظر الهامش رقم ٦٤ .

[٦٢] عطاء الملك الجوينى : تاريخ جهانكشاى (فى كتاب محمد السعيد جمال الدين : دولة الإسماعيلية فى إيران) ١٨٦ .

[٦٣] ابن ميسر : أخبار مصر ٤٧ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣٣٣ ، المقفى ٣٥٢ ظ .

مصر والتى امتدت نحو أربع سنوات . ولاشك أن الوزير القوى بدر الجمالى قد وجد فى شخص ابن صبّاح خطرًا على كيانه فحال بينه وبين لقاء الخليفة ، بل زَجّ به فى السجن ونفاه إلى بلاد المغرب لولا أن الرياح ألقت بالسفينة التى أقلّته على سواحل الشام ففَرّ منها عائدًا إلى بلاد فارس .

ولاشك أن إقامة الحسن بن صبّاح فى مصر ، رغم عدم لقائه الإمام ، قد أتاحت له التعرُّف على أحوال الدولة الفاطمية وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية فى ظل نفوذ وسيطرة أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد تكفّل ابن صبّاح بإقامة الدعوة للمستنصر فى خُراسان وبلاد العجم ، وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلى صِرْف يخضع كل رجاله لرئيسهم الروحى ويعملون جميعًا على نشر المذهب الإسماعيلى ، الذى عرف بعد وفاة المستنصر بـ « الإسماعيلية الجديدة » [٦٤].

المُستَعْلية .

أحَسَّت السيدة والدة المستعلى بعدم شرعية الطريقة التى اعتلى بها ولدها كرسى الإمامة ، فأرسلت إلى حلفاء الدعوة فى اليمن وعلى رأسهم السيدة الحرة

---

[٦٤] عن الفرقة الإسماعيلية الجديدة أو النزارية تاريخها وعقائدها راجع المصادر المذكورة فى الهامش رقم ٦١ وأضف إليها ، طه أحمد شرف : دولة النزارية أجداد أغاخان كما أسسها الحسن بن صبّاح (القاهرة ١٩٥٠) ، السيد محمد العزاوى : فرقة النزارية – تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية (القاهرة ١٩٧٠) ؛ محمد السعيد جمال الدين : دولة الإسماعيلية فى إيران (القاهرة ١٩٧٥) ، Hodgson, M. G. S., The Order of Assassins, the Struggle of the Early Nizari Isma'ilis against the Islamie World, La Haye 1955 - New York 1980; id., " The Isma'ili stale " in The Cambridge History of Iran, III, pp. 275 - 76; Lewis, B., The Assassins a Radical Sect in Islam, London 1964; نقله إلى العربية سهيل زكار بعنوان « الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) » ، بيروت – دار الفكر ١٩٧١ ، ومحمد العزب موسى بعنوان « الحشاشون – فرقة ثورية فى تاريخ الإسلام » ، القاهرة – مكتبة مدبولى ١٩٨٦ ، Daftary, F., The Ima'ilis their History and Doctrines, Cambridge 1990, pp. 324 - 434.

الصُّلَيْحية سِجِلًّا تُبرِّر فيه وصول ولدها إلى منصب الإمامة ، وبأن والده قد نَصَّ عليه حين نُقْلته [٦٥]، وكذلك فعل المستعلى الشيء نفسه فأرسل سِجِلًّا مماثلًا إلى السيدة الحرة [٦٦].

ويبدو أن الأمر ظل محل مناقشات بين أتباع الدعوة مما دعا ولده وخليفته الآمر بأحكام الله أن يعقد مجلسًا فى القصر عام ١١٢٤/٥١٨ شهدت فيه أخت نزار « بأن أخاها لم تكن له إمامة وأنها بريئة من إمامته جاحدة لها لاعنة لمن يعتقدها » [٦٧] وأن أباها المستنصر نَصَّ على أخيها المستعلى بالإمامة [٦٨]. فلما أتمت شهادتها أمر الوزير المأمون ابن البطائحى بكتابة سجل يقرأ على منابر مصر بهذا المعنى ، أنشأه ابن الصَّيْرَفى كاتب الإنشاء [٦٩]، وهو السِّجِلّ المعروف بـ « الهداية الآمرية فى إبطال الدعوة النزارية » [٧٠] الذى جاء فيه أنه لاسبيل إلى إثبات الإمامة إلَّا بالنصّ والاختيار حتى ولو تم فى وقت نُقْلَة الإمام [٧١].

---

[٦٥] السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٣٥ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار (خ . همدانى) ٧ : ٧٩ ظ – ٨٣ ظ .

[٦٦] نفسه ، سجل رقم ٤٣ .

[٦٧] الهداية الآمرية ٢١٧ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٨٦ .

[٦٨] ابن ميسر : أخبار ٩٩ – ١٠٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٨٤ ، ٨٦ – ٨٧ .

[٦٩] نفسه ١٠١ .

[٧٠] نشر هذا السجل آصف على أصغر فيظى سنة ١٩٣٨ - Fyzee, A. A. A., "al - Hidayatu'l - Amiriyya, an Epistle of the Tenth Fatimid caliph al - Amir bi Ahkamillah " in Islamie Research Association Series n. 7, Oxford 1938; وعلّق عليه لويس وشيترن Lewis, B., BSOS X (1940 - 42), p. 256; Stern, S., " The Epistle of the انظر ، Fatimid Caliph al - Amir (al - Hidaya al - Amiriyya) its date and purpose ", JRAS (1950), pp, 20 - 31 ، ثم أعاد نشرها جمال الدين الشيال فى مجموعة الوثائق الفاطمية ٢٠٥ – ٢٣٠ .

[٧١] نص السجل : « ثم إن الإمامة صُيِّرت إليه بنص صحيح ثابت من إمام حق لا خلاف بين أهل الدعوة فى إمامته ، وذلك النص واقع منه فى دقيقة نقلته بمحضر من خاصته وأولاده وجميع جلته » . (الهداية ٢٢٨) .

العبّاسيون يعاودون مهاجمة الفاطميين

وفى الوقت الذى انشقت فيه الدعوة الإسماعيلية وانقسمت على نفسها ، وفقدت جناحها الشرقى فى فارس ، وانشغل فيه أئمتها بتبرير شرعية خلافتهم للإمام المستنصر ، كان العبّاسيون يستعيدون قوتهم بفضل دَعْم الأتراك السّلاجقَه وتأييدهم لهم ، فأخذوا يهاجمون الفاطميين من جديد فى بلاد الشام وعن طريق التشكيك فى نَسَبِهم ، فكُتِبَ « مَحْضَرٌ » جديد فى بغداد سنة ١٠٩٥/٤٨٨ لم يكتفوا فيه هذه المرة بالقَدْح فى نَسَبِهم ، بل أخرجوهم كُلّية من المِلّة الإسلامية [٧٢].

بداية الغزو الصّليبى

أدّى تَقَدُّم السّلاجقة فى بلاد الشام إلى قَطْع دعوة الفاطميين من أغلب مدنه [٧٣]، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه مقدمات الحروب الصليبية باستيلاء الفِرِنْج على بيت المقدس وبقية مدن الشام الساحلية سنة ١٠٩٩/٤٩٢ [٧٤]. ولم يُدْرك الوزير الأفضل ، وهو صاحب الأمر فى مصر ، الأخطار المحدقة بمصر والأراضى الإسلامية ، ولاحقيقة أهداف الغزو الصليبى [٧٥]، حتى أنه ظنّ أن باستطاعته التحالف مع الصليبيين ضد السّلاجقة ، كما سبق وظن الوزير اليازورى أن بإمكانه التحالف مع البيزنطيين ضد العبّاسيين والسّلاجقة معًا .

---

[٧٢] ابن ميسر : أخبار ٦٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧ .

[٧٣] ابن ميسر : أخبار ٦٩ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨١ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٦ – ٣٥٧ ، اتعاظ ٣ : ٢٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٤٥ ، ١٥٣ .

[٧٤] نفسه ، ابن خلكان : وفيات ١ : ١٧٩ ،

[٧٥] ابن ظافر : أخبار ٨٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٨ – ١٧٩ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٢٧ ، وراجع مقال سعيد عبد الفتاح عاشور : « شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية » ، المجلة التاريخية المصرية ١٦ (١٩٦٩) ١٥ – ٦٦ .

الآمر بأحكام الله يتولّى الخلافة

عندما توفى الخليفة المستعلى سنة ١١٠١/٤٩٥ أقام الوزير الأفضل ابنه أبا على المنصور موضعه فى الخلافة ولَقّبَه بـ « الآمر بأحكام الله » وهو لم يتجاوز الخمس سنوات، فحَجَر عليه واستقل بتدبير أمور الدولة كما كان فى خلافة المستعلى [٧٦].

وقد أظهر ابن مُيَسَّر فهمًا دقيقاً لخلافة الآمر (٤٩٥ – ١١٠١/٥٢٤ – ١١٣٠) عندما قَسَّمَها إلى فترات ثلاث : فترة حجر عليه فيها الوزير الأفضل (٤٩٥ – ٥١٥) ، وفترة شاركه فيها الوزير المأمون ابن البطائحى (٥١٥ – ٥١٩) ، ثم الفترة التى استبد فيها الآمر بالأمر ولم يستوزر فيها أحدًا وحتى وفاته فى سنة ١١٣٠/٥٢٤ [٧٧].

الأفْضَل ينقل مقر الحُكْم إلى الفُسْطاط

ففى العشرين عامًا التى أعقبت وفاة المستعلى كانت السلطة الفعلية فى مصر فى يد الوزير القوى الأفضل بن بدر الجمالى ، فهو الوزير وقائد الجيش والمشرف على شئون القضاء والدعوة ، والخليفة طفل لاحول له ولا قوة معه .

وفى هذه المرحلة أقْدَم الأفضل على خطوة جريئة ليس لها سابقة فى تاريخ الدولة الفاطمية . فلأول مرة يُنْقل مقرّ الحكم ، مؤقتًا ، من القاهرة ، إذ بنى الأفضل لنفسه دارًا على النيل جنوب الفسطاط سمّاها « دار المُلْك » انتقل

---

[٧٦] ابن ميسر : أخبار ٧٠ ، ابن ظافر : أخبار ٨٧ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٨ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٨ ، الصفدى : الوافى ١٦ : ٩٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧ ، Stern, S., EI²., art, al-Amir bi Ahkam Allah 1, p. 1372 وانظر نص سجل توليه الآمر عند ابن ميسر : أخبار ٧٠ – ٧٤ .

[٧٧] ابن ميسر : أخبار ١١١ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٢٩ ، ١٣٢ .

إليها من دار الوزارة بالقاهرة فى سنة ١١٠٦/٥٠١ [٧٨] ونَقَل دواوين الدولة من القصر الفاطمى إلى موضع أَعَدَّه لها قبالة دار المُلْك ، وجعل ديوانى الإنشاء والمكاتبات بجوار القاعة الكبرى بدار المُلْك ، التى اتخذها لمجلسه وسمّاها « مَجْلِس العطايا » [٧٩]. فجرَّد الخليفة نهائيًا من كل سلطاته ، وحتى الأعمال الشرفية التى كان يضطلع بها الخليفة سلبها منه . فأنشأ بالفسطاط دارًا لعمل الفِطْرَة التى تُوَزَّع فى عيد الفِطْر ، ظلَّت الفِطْرَة تعمل بها مدة [٨٠]، ونقل عمل الأَسْمِطَة التى كانت تُمَدّ فى الأعياد والمواسم من القصر الخلافى إلى دار المُلْك [٨١] وحرَّم على الإمام الركوب فى المواسم والأعياد ، وصار يتصرَّف فى الدولة كالملوك والسلاطين .



وفى عام ١١٠٨/٥٠١ قرَّب الأفضل أحد الأستاذين يعرف بمحمد بن فاتك البَطَائحى وسلَّم إليه جميع أموره واعتمد عليه فى تصريف أحواله ونعته بـ « القائد » ، وصار منه مكان الوزير من الخليفة [٨٢] وذلك بعد أن استبعد كاتبه المعروف بتاج المعالى مختار فى هذه السنة [٨٣].

وكثر فى عهد الأفضل استخدام الموظفين النصارى فعندما جدَّد فى عام ١١٠٨/٥٠١ ديوان التحقيق استخدم فيه الشيخ أبا البركات يوحَنّا بن أبى اللَّيْث النَّصْرانى وبقى فيه حتى قتل سنة ١١٣٤/٥٢٨ [٨٤]. كما كان الشيخ أبو

---

[٧٨] نفسه ٧٦ – ٧٧ ، نفسه ٣ : ٣٧ ، ٤٠ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨١ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٨٣ – ٤٨٤ ، ٢ : ٢٩١ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٩٢ .

[٧٩] ابن المأمون : أخبار ١٠١ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٩٧ ، ٤٢٦ ، ٤٨٣ ، ٢ : ٢٩١ .

[٨٠] المقريزى : الخطط ١ : ٤٢٦ .

[٨١] ابن المأمون : أخبار ١٥ ، المقريزى : الخطط ٤٣١ ، ٢ : ٢٩١ ، الاتعاظ ٣ : ١٣٢ .

[٨٢] نفسه . ١٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٦٨ ، الخطط ١ : ٤٢٦ ، المقفى (مخ . ليدن) ٢٠٧ و .

[٨٣] المقريزى : خطط ١ : ٤٦٢ ، الاتعاظ ٣ : ٣٨ ، المقفى (مخ . ليدن) ٢ : ٢٠٦ و .

[٨٤] ابن ميسر : أخبار ٧٧ ، ١٠٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٩ ، ٤٣ ، ٧٥ ، ١٢٦ ، ١٤٨ .

الفضل المعروف بابن الأُسْقُف « كاتب الأفضل والموقع عنه فى الأموال والرجال ومتولى ديوان المجلس والنظر فى جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة »[٨٥]. كذلك فقد كان متولى الديوان بأسفل الأرض نصرانى يعرف بأبى اليمن وزير بن عبد المسيح[٨٦]. وقد أحاط الأَفْضَل نفسه كذلك بجنود من الأرمن ، وشجّع على هجرتهم ، التى بدأت منذ مقدم والده فى أيام المستنصر ، لهذا الغرض[٨٧].

أثارت تصرُّفات الأفضل التى احتاط فيها على الخليفة وعدم معارضته أهل السنة فى اعتقادهم ، وإذنه للناس فى إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها ، أثارت كل هذه التصرفات مشاعر الإسماعيلية النزارية[٨٨]. وقد كثر الخوف والاحتياط منهم فى هذه الفترة حتى أن الأفضل أمر بسد باب مراد – أحد أبواب القصر الغربى – الذى يُتوصَّل منه إلى البستان الكافورى ومنظرة اللؤلؤة ووضع عليه الحراس لحفظه ولم يكن يُفتح إلّا فى يوم كسر الخليج فقط[٨٩]. كما أبطل كذلك فى عام ١١١٩/٥١٣ « دار العِلْم » خوفًا من اجتماع الناس بها ومعارضتهم مذهب الدولة[٩٠].

مَقْتَل الأَفْضَل

لم تمنع الاحتياطات التى اتَّخَذها الأفضل الإسماعيلية النزارية من التسلل إلى مصر ، فتربّصت له مجموعة منهم أثناء عودته من القاهرة إلى دار الملك

---

٨٥ ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٩ .

٨٦ نفسه ٣/٢ : ٢٤٨ ، أبو صالح : تاريخ ٨٥ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٢٧ .

٨٧ : Canard, M., " Uu vizir chrétien à l'époque fatimite : L'Arménien Bahram ", AIEO XII (1954), p. 93

٨٨ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٥٩٠ .

٨٩ المقريزى : الخطط ١ : ٤٦٨ .

٩٠ ابن المأمون : أخبار ٤٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٦٠ .

بالفسطاط وقتلوه عند رأس الجسر ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥/ يناير ١١٢٢ [٩١]. ومع ذلك فإن أصابع الاتهام تشير إلى أن الخليفة الآمر دبّر قتل وزيره الأفضل بالاتفاق مع القائد محمد بن فاتك البطائحى « لتضييقه عليه ومنعه مما تميل نفسه إليه ومنافرته إيّاه فى بعض الأوقات » . ويضيف ابن القلانسى ، الذى أورد هذا الخبر ، أن الآمر سُرَّ بمقتل الأفضل سرورًا غير مستور عن كافة الخاص بمصر والقاهرة [٩٢].

ولاشك أن الأفْضَل يتحمَّل وحده وِزْر سقوط مدن الشام الساحلية التى كانت للفاطميين فى أيدى الفرنج ، فقد اتصف موقفه تجاه ماكان يحدث باللامبالاة المتناهية وأدَّى هذا التهاون إلى استيلاء الفرنج على عَكّا سنة ١١١٧/٤٩٧ وطَرَابْلس وجبيل وعرقة وبانياس سنة ١١٠٨/٥٠٢–١١٠٩ ، وبيروت سنة ١١٠٩/٥٠٣ – ١١١٠ ، وصيّدا سنة ١١١٠/٥٠٤ ، وتبنين سنة ١١١٧/٥١١ وأخيرًا صور سنة ١١٢٤/٥١٨ [٩٣]، بل بلغ الأمر إلى أن وصل بلدوين ملك بيت المقدس على رأس حملة على الأراضى المصرية حتى

---

[٩١] عن مقتل الأفضل راجع ، ابن المأمون : أخبار ١٥ – ٢٠ ، ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٣/١ : ٢٢ – ٢٣ ، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١١٨ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٥٨٩ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ١٠٤ – ١٠٥ ، ابن ميسر : أخبار ٧٩ – ٨٧ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٨٢ – ٨٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٤٨٥ – ٤٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ ٣ : ٥٠ – ٥٤ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٩ – ٢٧٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٦٠ – ٦٩ ، وانظر كذلك . Wiet, G., EI², art. al-Afdal b. Badr al-Djamāli I, pp. 221 - 222.

[٩٢] ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٢٠٤ .

[٩٣] ابن ظافر : أخبار ٨٦ ، ابن ميسر : أخبار ١١١ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٢٩ – ١٣٠ ، الخطط ٢ : ٢٩١ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٠ .

الفَرَما واضطر الأفضل إلى مهادنته لعجزه عن مواجهة قواته [٩٤]، كما هدّدت مراكب الروم والبنادقة ثغر الإسكندرية سنة ١١٢٥/٥١٧ [٩٥].

وعَقْد مقارنة بين منشآت الأفضل ومنشآت أبيه فى القاهرة توضّح لنا مدى التباين بينهما . فبينما حرص بدر الجمالى على تحصين القاهرة بإعادة بناء أسوارها وأبوابها على سبيل المثال ، انحصرت منشآت الأفضل فيما يكفل له وسائل الامتاع والتسلية ، حيث استكثر من إنشاء « المناظر » سواء فى الفسطاط أو فى ضواحى القاهرة .

تِركَـةُ الأفضَـل

يدل حجم التركة التى خَلّفها الأفضل ، والتى أمضى الخليفة الآمر فى حصرها ونقلها « مدة شهرين وأيّامًا » ، على مدى الثراء الذى كان يتمتّع به هذا الوزير القوى الذى كان فى واقع الأمر هو الحاكم الحقيقى للبلاد . وقد وصف لنا كل من ابن مُيَسَّر والأبْشيهى وابن خَلِّكان تفصيل ماوُجِدَ فى دار الأفضل من ذخائر وتحف وأمتعة . فيروى ابن مُيَسّر ، عن متولى الخزانة بالقصر ، أنه وُجد بها « ستة آلاف وأربعمائة ألف دينار ، وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار ، وسبعمائة طبق فِضّة وذهب وما لا يحصى كثرة من الأسطال والصحاف والمشارب والأباريق والقدور والزّبادى ، والقِطَع من الذهب والفضة المختلفة الأحباس ، وكذلك شيء كثير من برانى الصينى الكبار المملوءة بالجوهر التى بعضها منظوم كالسُّبَح وبعضها منثور .

ووجد له من أصناف الدّيباج وما يجرى مجراه من قتّابى وغيره تسعون ألف ثوب ، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديبقى وشَرَب عُمِل بتِنّيس

[٩٤] النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٨٥ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٥٤ ، ٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧١ .

[٩٥] ابن ميسر : أخبار ٩٣ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٨٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦١٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٩٨ .

ودِمْياط على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه . وخزانة للطيب مملوءة بالأسْفاط من العود وغيره مكتوبٌ عليها أوزانها وأجناسها ، بالإضافة إلى برانى المِسْك وبرانى الكافور ، وما لا يحصى من العَنْبَر .

ووجد له من المقاطع والستور والفَرْش والمطارح والمخاد والمساند الدِّيباج والدَّبيقى الحرير والمُذْهَب على اختلاف أجناسها أربع حُجَر كل حجرة مملوءة من هذا الجنس ، وكذلك خزانة بها عدة صناديق تحوى أحقاق ذهب عراقى برسم الاستعمال .

وكان له مجلسٌ يجلس فيه للشرب فيه صور ثمان جوارى متقابلات أربعٌ منهن بيض من كافور ، وأربعٌ من عَنْبَر قيام فى المجلس عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلى وبأيديهن أحسن الجواهر ، فإذا دخل من باب المجلس ووطىء العَتَبَة نَكَّسْن رؤسهن خِدْمَة له ، فإذا جلس فى صدر المجلس استوين قائمات [٩٦] .

وتدلنا هذه الذَّخائر على أن خزائن القصور الفاطمية عاد إليها قسط وافر من عمارها الذى كان قبل الشِّدَّة العُظْمَى وما أخرج من القصر من ذاخائر بين سنتى ٤٥٩/١٠٦٧ و ٤٦١/١٠٦٩ وهى الذَّخائر التى أتى على ذكرها صاحب كتاب « الذَّخائر والتحف » [٩٧] .

---

[٩٦] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨ – ٩ ، ابن ميسر : أخبار ٩٣ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٨٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦١٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٩٨ وقارن ، ابن ظافر : أخبار الدولة المنقطعة ٩١ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٥١ ، الأبشيهى : المستطرف فى كل من مستطرف ، بيروت – دار مكتبة الحياة ١٩٨٧ ، ٢ : ٣٤ – ٣٥ .

[٩٧] انظر فيما يلى الفصل الرابع عشر .

الفصل السادس

نهاية الاستقرار

وزارة المأمون البطائحى

كان قتل الوزير الأفضل مصدر ارتياح للخليفة الآمر ، وكان من الطبيعى أن يخلف ابن فاتك الوزير الأفضل فى منصبه . وقد امتنع ابن فاتك عن قبول هذه الرُّتْبَة فى أول الأمر حيث عُيِّن واسِطَة [1] ، ثم تولّى الوزارة كاملة فى ثانى ذى الحجة سنة ١٢/٥١٥ فبراير سنة ١١١٢ [2]. وقد حفظ الخليفة الآمر للقائد أبى عبد الله محمد بن فاتك حرصه على استدعائه له فى أعقاب مقتل الأفضل ، لتسلم تركته الضخمة التى استمر نقلها من دور الأفضل إلى القصر نحو أربعين يومًا . وكان ذلك سبب تلقيب القائد أبى عبدالله بـ « المأمون » ، فبعد أن شكره الآمر على صنيعه قال له : « والله إنك المأمون حقًّا مالك فى هذا النعت شريك » ، فلما قلّده الوزارة نعته بـ « الأَجَلّ المأمون » فعرف به [3]. وفى سجل توليته الوزارة جاء نعته « الأجل المأمون تاج الخلافة وجيه الملك فخر الصنائع ذُخْر أمير المؤمنين » ثم تجَدَّد له بعد ذلك فى النعوت « الأجل المأمون تاج الخلافة عز الإسلام فخر الأنام نظام الدين والدعاة » ، ثم نُعِت بما كان يُنْعَت به الأفضل وهو « السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » [4].

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ١ : ١٦٦ ظ ، ابن ظافر : أخبار ٨٨ .

[2] ابن ميسر : أخبار ٨٧ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٧٦ ، الخطط ١ : ٤٤٢ ، المقفى (خ . ليدن) ٢ : ٢٠٧ و .

[3] المقريزى : المقفى ٢ : ٢١٢ ظ ، اتعاظ ٣ : ٦٤ – ٦٥ ، ابن القلانسى : ذيل ٢٠٤ .

[4] ابن ميسر : أخبار ٨٨ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٤٨٨ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٢ ، ٤٦٣ ، اتعاظ ٣ : ٧٦ ، المقفى ٢ : ٢٠٦ و ، Wiet, G. RCEA VIII p. 148 n. 3021

وقد قرئ سِجِلّ تولية المأمون على « باب مجلس اللُّعْبَة » وهو ، كما يقول ابن المأمون : أوّل سَجِلّ يُقْرأ هناك ، فقد كانت سِجِلّات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان [٥] ، وأمر الخليفة كذلك بكتابة سَجِلّ آخر بنقل نِسبَة الأمراء والأستاذين المُحَنَّكين من الآمرى إلى المأمونى تمييزًا له ، فلم يكن أحدٌ منهم يُنْسَب قبل ذلك إلى الأفضل أو إلى أبيه بدر الجمالى ، وإنما كانوا يُنْسَبون إلى الخليفة [٦] .

ولاشك أن الحديث الذى دار فى أثناء خُلْوَة المأمون بالخليفة الآمر فى أعقاب انقضاء مراسم تقليده الوزارة يوضح لنا إلى أى مدى أَحَسّ المأمون بحاجة الخليفة إليه . وقد أملى المأمون خلال هذا اللقاء شروطًا مهينة على الخليفة التزم بها كتابة وأقسم له بأن « لايلتفت لحاسدٍ ولا مبغض ، ومهما ذُكِر عنه يُطْلعه عليه ، ولا يأمر فى شئ سِرًّا ولا جهرًا يكون فيه ذهاب نفسه وانحطاط قدره » . واشترط المأمون أن تكون هذه الأيْمان باقية إلى وقت وفاته ، فإذا توفى تكون لأولاده ولمن يخلفه بعده .

وقد حرَّر الخليفة خطَّه بالأيْمان من نسختين ، واحدة فى قصَبَة فضة أنفذ الخليفة فى طلبها عند القبض على المأمون فى سنة ٥١٩/١١٢٥ وأحرقها ؛ أما النسخة الأخرى فقد بقيت عند ابن المأمون (جمال الدين أبو على موسى المؤرخ) ، الذى ذكر لنا تفاصيل هذه المحادثة ، إلى أن عُدِمَت « فى الحركات التى جَرَت » [٧] .

---

[٥] ابن المأمون : أخبار ٢١ ، المقريزى : المقفى ٢ : ٢٠٥ ظ ، الخطط ١ : ٤٤١ ، الاتعاظ ٣ : ٧٥ .

[٦] نفسه ٢١ ، نفسه ٢ : ٢٠٦ ظ ، نفسه ١ : ٤٤١ .

[٧] نفسه ٢٢ — ٢٣ ، نفسه ٢ : ٢٠٧ و ، نفسه ١ : ٤٤٠ ، الاتعاظ ٣ : ٧٥ — ٧٦ .

وعن شخصية المأمون البطائحى راجع ، ابن المأمون : أخبار ٣ هـ٢ م ، ٢٦ — ٨٠ ،
Dunlop, D. M., EI², art. al - Batā'ihi I, p. 1124

وفى مقابل هذه الاشتراطات طلب الخليفة الآمر إلى وزيره استعادة عَظَمَة الأعياد والاحتفالات الرسمية ، وأن « لا تُجْبى الأموال إلّا بالقصر ، ولا تصل الكسوات من الطِّراز والثغور إلّا إليه ، ولا تُفَرَّق إلّا منه ، وتكون أسْمِطَة الأعياد فيه ، ويُوَسَّع فى رواتب القصور من كل صنف، وزيادة رَسْم منديل الكم »[٨] . فتعَهَّد له المأمون بأن تكون الجباية والكسوات والأسْمطَة بالقصر ، وبالعمل على تَوْسِعَة الرواتب وزيادة رسم منديل الكم من ثلاثين دينارًا إلى مائة دينار فى اليوم . وأن الآمر سيشاهد ما يُعْمَل بعد ذلك فى الركوبات وأسْمِطَة الأعياد وغيرها فى سائر الأيام[٩]. وهى الرُّسوم التى كان قد منعها الوزير الأفضل وقَلَّص فيها دور الخليفة[١٠].

إنجازات المأمون البطائحى

لعل أهم إنجازات المأمون البطائحى فى القاهرة هى إنشائه فى سنة ١١٢٢/٥١٦ دار وكالة ودارًا للضَّرْب . فقد أنشأ فى هذه السنة « دار وَكالَة » لمن يصل من العراقيين والشاميين وغيرهما من التجار ولم يُسْبَق إلى ذلك[١١]. ويدل إنشاء هذه الدار على أن القاهرة بدأت منذ مطلع القرن السادس فى مشاركة الفسطاط فى نشاطها الاقتصادى والتجارى .

أما « دَار الضَّرب » التى عرفت باسم « الدار الآمرية » نسبة إلى الخليفة الآمر ، فتعد أوَّل دار للضَّرْب تنشأ بالقاهرة . وقد ذكر ابن المأمون أن المأمون

---

[٨] منديل الكم . هذا المصطلح لم يرد سوى عند ابن المامون وابن الطوير وربما قصد به مايطلق عليه اليوم « مصروف الجيب » والذى كان يمنح لبعض الأفراد ذوى المكانة وكان يوضع فى منديل فى كم الخلعة !

[٩] ابن المأمون : أخبار ٢٢ – ٢٣ ، المقفى ٢ : ٢٠٧ و ، الخطط ١ : ٤٤١ ، الاتعاظ ٣ : ٧٦ – ٧٧ .

[١٠] المقريزى : الاتعاظ ٣ : ٨٣ س ٥ – ٦ .

[١١] ابن المأمون : أخبار ٣٩ ، ابن ميسر : أخبار ٩٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٥١ ، اتعاظ ٣ : ٩٢ .

البطائحى بناها فى القاهرة « لكونها مقر الخلافة وموطن الإمامة .. وصار دينارها أعلى عيارًا من جميع مايضرب بجميع الأمصار » [١٢].وقد أنشأ المأمون البطائحى دار ضرب أخرى فى نفس العام فى قوص عاصمة الوجه القبلى [١٣]. وبذلك أصبحت دور الضرب التى استمرت فى العمل فى نهاية العصر الفاطمى هى دور ضرب القاهرة والفسطاط وقوص والإسكندرية ، وصور وعَسْقَلان (إلى أن خرجتا من أيدى الفاطميين) [١٤].

تجديد الاحتفالات والرسوم

وتُعَدّ فترة خلافة الآمر ووزارة المأمون البطائحى (٥١٥ – ٥١٩/ ١١٢٢ – ١١٢٥) من أزهى فترات التاريخ الفاطمى فى مصر ، فقد كان الآمر مفتونًا بعظَمة الاحتفالات وفخامتها ، ويرجع إليه الفضل ، كما يقول المقريزى ، « فى تجديد رسوم الدولة وإعادة بهجتها إليها » [١٥]. فقد أخذت رسوم الفاطميين شكلها النهائى على يد هذا الخليفة الذى أعاد وطَوَّر الكثير من الاحتفالات الفاطمية التى انقطعت بسبب ما تعرَّضت له البلاد فى أعقاب الشِّدَّة ، وفى أعقاب تَسَلُّط الوزير الأفضل على الدولة . والواقع فإن أكثر مانعرفه عن رسوم الدولة الفاطمية فى مصر وتفاصيل الاحتفالات الموكبية والأَسْمِطَة وأنواع الخِلَع والكُسوات التى كانت هذه الاحتفالات مناسبة لتفريقها على رجال الدولة ، والذى أمدنا به مؤرِّخون من أمثال ابن المأمون وابن الطُّوَيْر ، ندين به إلى هذه الفترة [١٦].

وإذا كان الفاطميون قد عرفوا هذه الرسوم فى أوَّل دولتهم ، فقد وُضِعَت لها فى عهد الآمر قواعد صارمة للبروتوكول حيث تقرَّر أن يجلس الخليفة

---

[١٢] نفسه ٣٨ ، نفسه ٩٢ ، نفسه ١ : ٤٤٥ ، نفسه ٣ : ٩٢ .

[١٣] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٩٣ .

[١٤] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٥ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٩٤ .

[١٥] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩١ .

[١٦] انظر فيما يلى الفصل الثانى عشر .

الجلوس العام فى قاعة الذَّهَب يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع [١٧]، بعدما كان يتم فى أول عصر الدولة كيفما اتَّفق [١٨]. ورتَّب لركوب الخليفة ثلاثة أيّام من كل أسبوع هى أيام الثلاثاء والجمعة والسبت ، فإذا لم يتهيأ له الركوب فى أحد هذه الأيام ركب فى يوم غيره . وكان الوزير يركب فى يومى السبت والثلاثاء بالرَّهَجِيَة إلى القصر ليصطحب الخليفة للنزهة فى بستان البَعْل والتاج والخمسة وجوه وقُبَّة الهواء وغيرها من مناظر ، بينما كان يجلس فى داره على سبيل الراحة يومى الأحد والأربعاء [١٩].

كذلك كان الخليفة الآمر يتحوَّل من قصره فى أيام النيل بحرمه ويسكن فى منظرة اللُّؤْلُؤة على شاطىء الخليج [٢٠]، كما كان وزيره يسكن بدار الذَّهب المجاورة للُّؤْلُؤه على شاطىء الخليج أيضًا [٢١]. حتى « صار الناس فى مُدَّه أيامه التى استبد فيها ، فى لهوٍ وعَيْش رَغْد لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذيه » [٢٢].

إعادة تعمير العاصمة

وأراد الخليفة الآمر أن يعيد إلى العاصمة سابق ازدهارها ، فبعد الإصلاحات والتحصينات التى قام بها بدر الجمالى بين سنتى ١٠٨٧/٤٨٠ و ١٠٩٢/٤٨٥ ، أمر الآمر وزيره المأمون أن يدعو الناس إلى تعمير موضع الخراب الذى تخلَّف عن الشِّدَّة العُظْمى ، والممتد جنوبًا بين باب زُوَيْلَة

---

[١٧] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٥ ، أبو صالح الأرمنى ٢ : ٤ ، ابن الفرات : تاريخ ٣ : ٧٨ ظ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٦ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٩٤ .

[١٨] المسبحى : أخبار ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٩ .

[١٩] ابن المأمون : أخبار ٩٦ — ٩٨ ، ابن ميسر : أخبار ١١١ ، المقريزى : المقفى ٢ : ٢٠٩ ظ ، ٢١٠ و ، الاتعاظ ٣ : ٧٨ ، ١٢٩ ، الخطط ١ : ٤٨١ ، ٢ : ٢٩١ وكذلك ساويرس بن المقفع : تاريخ ١/٣ : ٢٤ .

[٢٠] ابن المأمون : أخبار ٥٦ ، ٧١ ، ٩٨ ، ١٠٠ .

[٢١] نفسه .

[٢٢] المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٢٩ وقارن ابن ميسر : أخبار ١١١.

والمَشْهَد النَّفيسى ، ليعيد إلى القاهرة سابق رونقها وتألُّقها [٢٣] . وأنشأ داخل القاهرة مقابل ركن القصر الشمالى ، المعروف بالرُّكْن المُخَلَّق ، « الجامع الأقْمر » الذى افتُتِح للصلاة فى سنة ٥١٩/١١٢٥ [٢٤]، وهو أوَّل جامع يبنى داخل القاهرة منذ بنى الخليفة الحاكم بأمر الله « الجامع الأنْوَر » ، قبل أكثر من مائة عام ، فى طرف المدينة الشمالى .

المأمون يواجه مؤامرات النزارية

لم يرض الإسماعيليون النزاريون أن يتركوا الخلافة الفاطمية تنعم باستتباب قدر من الأمن بعد فشلها فى تحقيق أهدافها ، وتوالى الفِتَن والأزمات الاقتصادية عليها . فبعد نجاح النزارية فى اغتيال الأفضل بن بدر الجمالى [٢٥]، امتدت آمالهم إلى قتل الخليفة الآمر ووزيره المأمون بن البطائحى معًا [٢٦]. فأرسلوا عددًا من رسلهم إلى أصحابهم المقيمين بمصر ومعهم أموال لتفرقتها عليهم للإعداد لتنفيذ مخططهم . وقد تَنَبَّه الوزير المأمون بن البطائحى إلى ذلك وفَرَض على البلاد نظامًا أمنيًا صارمًا بدأه بتولية والٍ جديد على عَسْقَلان – أول مدينة تقابل القادم إلى مصر من الشام – وطلب إليه أن لا يُبْقى فى الخدمة إلّا من هو معروف من أهل البلاد ، وأن يتعرَّف على أحوال الواصلين من تجار وغيرهم ، وأن لا يثق بما يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم ، ولا يُمَكِّن أحدًا من الدخول إلى البلد إلّا إن كان معروفًا متردِّدًا عليها ، ووَضَع نقاط مراقبة على مراكز الطريق المؤدى من عَسْقَلان إلى

---

[٢٣] المقريزى : الخطط ١ : ٣٠٥ ، ٢ : ٢٠ ، ١٠٠ ، ٢٦٥ . وانظر فيما يلى الفصل الحادى عشر .

[٢٤] ابن ميسر : أخبار ٩١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٠ ، اتعاظ ٣ : ٧٧ ، ابو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٣ ، ٢٢٩ ، Fu'ad Sayyid, A., La capitale de l'Egypte p. 350

[٢٥] تبعًا لرواية ابن ميسر .

[٢٦] نفسه ٩٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٠٨ .

القاهرة . فكان الكُتّاب يسبقون القوافل ومعهم قوائم بأسماء التجار وغلمانهم وأسماء الحمّالين وأنواع البضائع ليقابل عليها فى كل نقطة من نقاط المراقبة حتى لا يتسرَّب أحدٌ من النزارية إلى داخل البلاد [٢٧].

وفى الوقت نفسه أمر المأمون واليَّ القاهرة ومصر أن يُسَقِّعا له البلدين شارعًا شارعًا وحارة حارة وزقاقًا زقاقًا وخُطًّا خُطًّا ، بأسماء من فيها من السكان وأن لا يُمَكِّنا أحدًا من الانتقال من منزل إلى منزل حتى يستأذناه ويخرج أمره بما يُعْتَمد فى ذلك . فلما أتمّا ذلك ورفعا إليه « أوراق التَّسْقيع » ، أرسل المأمون نساءً من قبله – من أهل الخبرة والمعرفة – للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية ومطالعته بجميع مايشاهدونه فيها . فكانت أحوال كافة الناس ، على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكنى مصر والقاهرة ، تعرض عليه ولايكاد يخفى عنه منها شئ [٢٨]. وبذلك امتنع النِّزارية من الدخول إلى البلاد .

عَزْل المأمون وقتله .

لم تستمر علاقة الوُدّ بين المأمون والآمر طويلًا ، إذ بدأ كل منهما يتوحش من الآخر . وقد احتاط المأمون لنفسه بأن ولّى أخاه المؤتَمن جانبًا عظيمًا من ديار مصر وجعل معه عسكرًا لينجده به إذا غَدَر به الخليفة . وقيل للآمر إن المأمون « ادَّعى الخلافة بطريق أنه وَلَدُ نزار من جارية خرجت من القصر وهى حامل به عندما خرج نزار إلى الإسكندرية » ، وأنه أرسل على بن نجيب الدولة رسولًا من قبله إلى اليمن ليحقق نَسَبه هناك ويَدْع الناس إلى بيعته . فانزعج الخليفة لذلك ، وتحايل على استدعائه مع أخيه إلى القصر بحجة إكرامهما بحضور سماط الخليفة الذى يُنْصَب كل ليلة فى رمضان بقاعة الذَّهَب

---

[٢٧] ابن ميسر : أخبار ٩١ – ٩٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٠٨ ، المقفى ٢ : ٢١١ و .

[٢٨] ابن ميسر : أخبار ٩٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٠٨ .

فلما انفرد بهما الخليفة أمر بالقبض عليهما واعتقلهما فى خزانة البنود ، واحتاط على دورهما فى سنة ٥١٩/١٩٢٥ وأرسل فى استدعاء الرسول الذى أُرْسِل إلى اليمن . وأمر ابن أبى أسامة ، كاتب الإنشاء ، بإنشاء سِجِلّ يبرر فيه تصرفه مع المأمون وأخيه ، « فلم ينتطح فيه عنزان بعد قراءته » كما يقول ابن الطُّوَيْر [٢٩] .

وقد ظَلّ المأمون فى الاعتقال إلى أن قتل مع أخيه والرسول الذى قيل إنه أرسله إلى اليمن فى عام ٥٢٢/١١٢٨ [٣٠] .

الآمر يستقل بالأمر

عندما استقل الآمر بالحكم ، بعد عَزْل الوزير المأمون بن البطائحى ، لم يتمكن من سياسة الدولة لأنه ظَلّ بعيدًا عن الحُكْم طوال الخمسة والعشرين عامًا السابقة . فاضطر إلى اتخاذ صاحبى ديوان ، لاستخراج مايجب لله فى أموال الناس من زكاة وما هو مرتب من مكوس ، أحدهما مسلم هو أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط والآخر سامرى اسمه أبو يعقوب إبراهيم الكاتب ، أقام معهما مُستَوْفِ لهاتين المعاملتين راهب يعرف بأبى نجاح بن قَنا [٣١] ، كان قد اتَّصَل بالآمر بعد قتل المأمون البطائحى وبَذَلَ له فى مصادرة قوم من النَّصارى مائة ألف دينار ، ثم تزايد فى أمر المصادرات حتى صادر

---

[٢٩] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٥ – ١٦ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ١ : ٢٠٦ ظ – ٢٠٧ و ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١١٢ – ١١٥ المقفى (خ – السليمية) ٤٢٤ و . وعن ابن نجيب الدولة راجع ، أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية ١٦٠ – ١٦٤ .

[٣٠] ابن ميسر : أخبار ١٠٧ ، المقريزى : المقفى (خ . ليدن) ٢ : ٢١٢ ظ ، اتعاظ ٣ : ١٢٢ .

[٣١] راجع ، أبا صالح : تاريخ ٥٤ وفيه أنه كان متولى الديوان الخاص الآمرى) ، ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠ – ٢٣ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ١٥ و – ١٦ ظ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٦ – ٨٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١١٥ – ١١٦ ، الخطط ٢ : ٢٩١ .

رجالات مصر من المسلمين ، وفيهم القضاة والكُتّاب والشهود . فزاد قربه من الآمر حتى لَقَّبه بـ « الأب القديس الرّوحانى النفيس ، أبى الآباء سيِّد الرُّؤساء ، مُقَدّم دين النصرانية وسَيِّد البطريركية ، ثالث عشر الحواريين »[٣٢] ، الأمر الذى زاد فى سطوته ، فكثرت إساءته للمسلمين ومصادرته للناس .

وفى سنة ١١٢٩/٥٢٣ عمَّ البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكُتّاب والسوقة من الرّاهب ، بحيث لم يبق أحدٌ إلّا وناله منه مكروه ، إما من ضَرْب أو نَهْب أو أَخْذ مال ، وكان يجلس فى قاعة الخطابة من جامع عمرو ، ويستدعى الناس للمصادرة . وقد طلب يومًا أحد عدول مصر المتميزين ، وكان معظمًا عند الناس ، فأهانه وأُخْرَق به . فخرج من عنده ووقف بالجامع فى يوم جمعة وقال : « ياأهل مصر انظروا عَدْل مولانا الآمر فى تمكينه هذا النصرانى من المسلمين » ، فأُرْتِج الناس لكلامه وكادت تكون فِتْنَة خُوِّف الآمر من عاقبتها . فأمر مِقْداد ، والى مصر ، بقتل الراهب بعد مناقشة دارت بينهما حول رأيه فى الإسلام فقتل فى عام ١١٢٩/٥٢٣ بعد أن ضُرِب بالنِّعال وسُمِّر على لوح عند كرسى الجِسْر وطُرِحَ فى النيل حتى خرج إلى البحر المالح[٣٣] .

وعند الاستيلاء على داره وُجِدَ بها الكثير من الأدوات الثمينة ، وتذكر المصادر أنه وجد له فى مقطع ثلاثمائة طرّاحة سامان محشوة جلدًا لم تستعمل ،

---

[٣٢] النابلسى : تجريد سيف الهمة ١٤١ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١١٧ .

[٣٣] راجع تفصيل خبر هذا الراهب وما قام به من مصادرات عند ، النابلسى : تجريد سيف الهمة ١٤١ – ١٤٢ ، ابن ظافر : أخبار ٨٨ – ٨٩ ، ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠ – ٢٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٧ – ١٠٩ (ومصدر ابن ظافر وابن ميسر واحد هو المرتضى بن المُحَنَّك صاحب « تاريخ خلفاء مصر » ونص عليه ابن ظافر فى ص ٨٩) ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٩ – ٣٠٠ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ١٥ و – ١٦ ظ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩١ ، اتعاظ ٣ : ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٥ – ١٢٧ ، القلقشندى : صبح ١٣ : ٣٦٩ – ٣٧٠ . وانظر فيما يلى الفصل الثانى عشر .

ومن الغريب أن كتاب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المنسوب لساويرس بن المقفع لم يشر على الإطلاق إلى الفترة التى تولى فيها الراهب السلطة فى مصر (٥٢٠ – ١١٢٦/٥٢٣ – ١١٢٩) .

وعن ابن المُحَنَّك انظر مقالى : دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين فى مصر ١٥٠ – ١٥١ .

قد رُصَّت إلى قرب السقف ، يقول ابن خَلِّكان : « هذا نوع واحد قليل الاستعمال فكيف ماعداه من الدّيباج وأنواع المتاع الفاخر » [٣٤].

مَقْتَل الآمر

هكذا حاول الخليفة الآمر أن يعيد شباب الدولة الفاطمية عن طريق إحياء رسومها واحتفالاتها ، ولكنه أراد بذلك أن يتقرَّب إلى مجموع الشعب المصرى بمتابعة هذه الاحتفالات والمشاركة فيها . فقد كان الانفصال كبيرًا بين النظام الحاكم وبقية أفراد الشعب ، ولم يكن القصد من هذا الإحياء تعبئة المشاعر فى سبيل تحقيق هدف الدولة الفاطمية فى السيطرة على العالم الإسلامى ، فالواقع أن هذا الهدف قد نُسى تمامًا منذ أن تَحَكَّم الوزراء أرباب السيوف فى الدولة .

حقيقة أن ابن الطُّوَيْر وابن مُيَسَّر ذكرا لنا أن الآمر كانت تُحَدِّثه نفسه بالسَّفر إلى المشرق والغارة على بغداد وأعد سروجًا خاصة للخيل استعدادًا لذلك [٣٥]، إلّا أننا لا يمكننا أن نثق فى هذا الخبر ، فالفاطميون لم يكونوا قادرين على استعادة ممتلكاتهم التى توزّعها السّلاجقة وخلفاؤهم ثم الفِرِنْج فى الشام ، فكيف يتأتى لهم منازلة العباسيين والوصول إلى بغداد ؟ كما أن أنصار دعوتهم فى مشرق العالم الإسلامى انْشَقّوا عليهم واتَّبعوا دعوة جديدة ، أضف إلى ذلك انغماس الخليفة الآمر فى لهوه وملذّاته [٣٦] وعشقه للجوارى البدويات اللائى أقام

---

[٣٤] ابن ظافر : اخبار ٨٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٩ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٣٠٠ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ .

[٣٥] ابن الطوير : نزهة ١٩ ، ابن ميسر : أخبار ١١٢ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ١٥ و ، المقريزى : الخطط ١ : ٤١٨ ، ٢ : ٢٩١ ، الاتعاظ ٣ : ١٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٩٦ .

[٣٦] ابن القلانسى : ذيل ٢٢٨ ، ابن ظافر : أخبار ٩١ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٣٠٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩١ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٣ .

لواحلة منهن بناءً بجزيرة الرَّوْضَة يعرف بـ « الهَوْدَج » كان يزورها فيه [٣٧]، كما أن النِزاريين كانوا يَتَرَبَّصون به فكثر خوفه منهم واتَّخَذ إجراءات أمنية مشددة إضافة إلى ما رَتَّبه الوزير المأمون بن البطائحى [٣٨]. ومع ذلك فقد نجح نفرٌ منهم من الوصول إلى مصر وقتلوا الخليفة الآمر وهو فى طريقه إلى الهَوْدَج يوم الثلاثاء ثانى ذى القعدة سنة ٥٢٤/٧ اكتوبر ١١٣٠ [٣٩]



كانت السنوات التى أعقبت وفاة الخليفة الآمر وما صاحبها من أحداث تجاهلت أُسُس العقيدة الفاطمية ، هى مؤشر التعجيل بسقوط الدولة الفاطمية فى مصر الذى تأجّل نحو القرن بفضل الإصلاحات الإدارية والتنظيمية والدفاعية التى أدخلها نظام بدر الجمالى وخلفائه الأفْضَل والمأمون البطائحى .

انقلاب أبى على الأفْضَل

فور وفاة الخليفة الآمر مقتولًا فى ثانى ذى القِعدة سنة ٥٢٤/٧ اكتوبر سنة ١١٣٠ [٤٠] ، نشأت لأول مرة فى تاريخ الدولة الفاطمية مشكلة البحث عن

---

[٣٧] ابن سعيد : النجوم ٨٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٨٥ – ٤٨٦ ، ٢ : ١٨٠ – ١٨٢ .

[٣٨] المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤ .

[٣٩] عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٢١ ، ابن القلانسى : ذيل ٢٢٨ ، ابن ظافر : أخبار ٩١ ، ابن الطوير : نزهة ٢٤ – ٢٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٤ ، ابن ميسر : أخبار ١١٠ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٩ – ٣٠٠ ، ابن القطان : نظم الجمان ١٨٥ – ١٨٧ ، ٢٠٢ – ٢٠٤ ، ابن سعيد : النجوم ٨٤ – ٨٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩١ ، اتعاظ ٣ : ١٢٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤ – ١٨٥ ، ويمدنا نص ابن الطُّوير وابن القطّان بتفاصيل دقيقة عن مؤامرة قتل الآمر .

[٤٠] انظر الهامش السابق .

وريث للإمامة . فقد مات الخليفة دون وريث ، ولكنه أشار وقت وفاته – تبعًا لبعض المصادر – إلى أنه ترك إحدى جهاتِه حاملًا [٤١]، وكان يجب الانتظار لمعرفة نتيجة هذا الحَمْل ، وإن كان المولود المنتظر ذكرًا أم أنثى . وقد اختلفت المصادر فى تحديد نوع المولود ، فالنُّوَيْرى وأبو المحاسن ذكرا أن الحامل وضعت أنثى [٤٢]، بينما يُقَرِّر ابن خَلِّكان أنه لم يُعْرَف مصير المولود [٤٣].

وانتظارًا لهذا المولود تولَّى منصب الإمامة لأول مرة فى تاريخ الدولة الفاطمية « إمامٌ مُسْتَوْدَع » وفقًا للمصطلح الإسماعيلى [٤٤]، فقد أحضر هزَّار الملوك جَوامَرْد والعادل بَرْغَش – كبار غلمان الآمر [٤٥]– ابن عمه الأمير أبا الميمون عبد المجيد ، أكبر الأقارب سِنًّا ، وبايعوه بولاية العهد وتدبير المملكة « كَفيلًا لَحْملٍ مُنْتَظر فى بطن أمه » [٤٦]. فجعل عبدالمجيد هزَّار الملوك جوامرد وزيرًا له ، فلم ترضى به طوائف الجند وثاروا عليه بعد أيام من توليته [٤٧]، وأخرجوا أبا على أحمد بن الأفضل شاهنشاه المُلَقَّب بكُتَيْفات من

---

[٤١] ابن خلكان : وفيات ٥ : ٣٠٢ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٤ .

[٤٢] النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٤

[٤٣] ابن خلكان : وفيات ٥ : ٣٠٢ .

[٤٤] راجع عن هذه الرتبة Hamdani, A., " Evolution of the Organisational structure of the Fatimid Dawah, the Yemeni and the Persian Contribution ", Arabian Studies III (1976), p. 91; Madelung, W., EI²., art. Imâma III, p. 1196

[٤٥] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٦ – ٢٧ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ١٧ ظ ، المقريزى : المقفى (مخ . السليمية) ٨١ و ، ٣٠٥ ظ – ٣٠٦ و ، الخطط ١ : ٤٠٦ ، ٢ ، ٢٩١ ، الاتعاظ ٣ : ١٣٧ .

[٤٦] عمارة اليمنى : تاريخ ١٢٩ ، ابن ميسر : أخبار ١١٣ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٢٣١ ، المقريزى : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ١٨ و ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ١٧ ، اتعاظ ٣ : ١٣٧ ، ابو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٠ – ٢٤١ .

[٤٧] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٧ – ٢٨ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ١٨ و ، المقريزى : اتعاظ : ٣ : ١٣٧ – ١٣٨ .

السجن – وكان الآمر قد سجنه – وأقاموه وزيرًا فى ١٦ ذى القعدة سنة ٢١/٥٢٤ أكتوبر سنة ١١٣٠ [٤٨].

كان أبو على هذا إمامى المذهب قوى الجانب [٤٩]، فقبض على ولى العهد واعتقله فى خزانة من خزائن القصر [٥٠]، وأُسْقَط اسمه من الخطبة كما أُسْقَط اسم إسماعيل بن جعفر الصّادق – الذى تنتسب إليه الإسماعيلية – وأزال من الأذان « حى على خير العمل ومحمد وعلى خير البشر » ، ودعا للإمام المنتظر الإثنى عشرى ، ونَقَش اسمه على السِّكّة نائبًا عنه [٥١]، واتَّخذ لنفسه ألقابًا يُدْعى له بها هى : « السيد الأجل الأفضل سيد أرباب الممالك والدول والمحامى عن حَوْزة الدين ، وناشر جناح العَدْل على المسلمين الأقربين والأبعدين ، ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره ، والقائم بنُصْرَته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره ، أمين الله على عباده ، وهادى القضاة إلى اتباع شَرْع الحق واعتماده ، ومُرْشِد دُعاة أمير المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده ، مولى النِّعَم ومُفَرِّج الغُمَم ، ورافع الجَوْر عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم ، أبو على أحمد بن السيِّد الأجل الأفضَل شاهنشاه أمير الجيوش » [٥٢].

---

[٤٨] ابن القلانسى : ذيل ٢٢٩ ، ابن ظافر : أخبار ٩٤ ، ابن الطوير : نزهة ٣٠ – ٣٣ ، ابن ميسر : أخبار ١١٣ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ١٩ ظ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ١٧ ، المقفى ٨١ ظ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٤ ، ١٤٠ – ٢٤١ ، Stern, S., EI², art. al-Afdal Kutayfât I, pp. 222-223

[٤٩] ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٦ .

[٥٠] وهى خزانة بجوار الإيوان الكبير بالقصر ، وأصبحت فيما بعد دارًا للضرب . (المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٦) .

[٥١] ابن الطوير : نزهة : ٣٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٢ ، ابن ظافر : أخبار ٩٤ ، ابن ميسر : أخبار ١١٦ ، ابن الفرات ٢ تاريخ – خ ٢ : ١٩ ظ :، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٧٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧١ ، اتعاظ ٣ : ١٤٣ ، المقفى – خ ٨١ ظ .

[٥٢] ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ٤١ – ٤٢ (فهذا الكتاب ألَّفه ابن الصيرفى وأهداه إلى أبى على الأفضل فى السنة التى حكم فيها سنة ٥٢٥) ، ابن ظافر : أخبار ٢٩٤ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٢ ، ابن ميسر : أخبار ١١٦ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٨ ، ابن الفرات : تاريخ – خ =

لم يكتف أبو على الأفْضَل بذلك بل عمل على إضعاف المذهب الإسماعيلى فى مصر . فعَيَّن فى سنة ٥٢٥/١١٣١ أربعة قضاة : اثنين من الشيعة ، أحدهما إمامى والآخر إسماعيلى ، واثنين من السنة أحدهما شافعى والآخر مالكى . وعَلَّق ابن مُيَسَّر على ذلك « بأنه لم يُسْمَع بمثل هذا فى المِلَّة الإسلامية من قبل » [٥٣].

كذلك عمل أبو على الأفضل على تفريق الغلال على الناس على سبيل الإنعام ، ورَدّ على الناس الأموال التى فَضَلَت فى بيت المال من مال المصادرات التى أُخِذَت فى أيام مباشرة الرّاهب . وأعاد أملاكًا كثيرة إلى أربابها ، وأقْطَع الطائفة الحُجَرِيَّة ، التى لعبت دورًا هامًا فى وصوله إلى قمة السلطة ، البلاد ، وأكْرَم بَرْغَش الذى أشار بخروجه من السجن وبالغ فى تعظيمه والإنعام عليه [٥٤].

وقد شهدت الدولة الفاطمية فى الفترة التى تولّى فيها أبو على الأفْضَل الوزارة ، فيما بين شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤ والمحرم سنة ٥٢٦ ، وَضْعًا فريدًا لم يَسْبق له مثيل فى تاريخها ، وإن دَلّ على شىء فإنما على ضعف الخلافة وفقدان الحماس لدعوتها . ففى البداية شارك وَلِيُّ العهد أبا على بن الأفضل فى الحكم فترة قصيرة لم تتعد ، تبعًا لابن مُيَسَّر ، يومًا واحدًا [٥٥]. وحَفَظَت لنا مجموعة

---

٢ : ٢٠ و ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣٢ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٣ – ١٤٤ ، المقفى – خ ٨١ ظ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٥ .

وقد أبدى ابن الأثير تعجبه من هذه الألقاب وعلّق بأنه إذا كان هذا حال وزير المصريين فإن وزراء السلاجقة من أمثال نظام الملك كان يحق لهم أن يدّعوا الربوبية .

[٥٣] ابن ميسر : أخبار ١١٥ وقارن النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ – ٨٨ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٣٤٣ ، اتعاظ ٣ : ١٤٢ ، المقفى – خ ٨١ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٤٧ ، Allouche, A., " The Establishment of Four chief Judgeships in Fatimid Egypt " JAOS 105 (1985), pp. 317, 320

[٥٤] النابلسى : تجريد سيف الهمة ١٤٢ ، المقريزى : المقفى – خ ٨١ ظ .

[٥٥] ابن ميسر : أخبار ١١٣ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٧ .

وثائق دير سانت كاترين سِجِلًّا بالغ الأهمية من حيث تاريخ صدوره والأشخاص المذكورين فيه . فهو صادر فى شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤/أكتوبر ١١٣٠ عن « وَلِيّ عهد المسلمين .... ، وكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبى على أحمد بن السَّيِّد الأَجَلّ الأفضل أمير الجيوش » ، وقد ضاع اسم وَلِيّ العهد مع فاتحة السِّجِلّ وهو دون شك الأمير أبو الميمون عبدالمجيد [٥٦] ، ويكون التاريخ المحدد لصدور هذا السِّجِلّ هو اليوم الذى اشترك فيه عبد المجيد وأبو على فى إدارة الدولة .

هذه هى الإشارة الوحيدة التى تدل على اشتراك ولى العهد والوزير فى تدبير أمور الدولة ، فسرعان ما قبض الوزير أبو على على الأمير عبدالمجيد واستأثر تمامًا بالسلطة وأقام الدعوة للإثنى عشرية وضَرَب دراهم باسم الإمام المنتظر نَقَشَ عليها « الله الصَّمَد – الإمام محمد » [٥٧].

ومن حُسْن الحظ فقد وصلت إلينا بعض آثار هذه الفترة الحَرِجَة فى تاريخ الدولة الفاطمية تدلنا على التحولات المذهبية التى أدخلها أبو على الأفضَل على نظام الدولة . فقد نشر M. Soret فى عام ١٨٥٦ وَصْفًا لعملة فضية (دِرْهَم) ضربت فى مصر فى عام ٥٢٥/١١٣١ تحمل اسم :

(أبو القاسم محمد المنتظر بأمر الله) [٥٨]

---

[٥٦] نشر هذا السجل لأول مرة صمويل شتيرن سنة ١٩٦٠ Stern, S., M., "A Fatimid Decree of the year 524/1130", BSOAS 23 (1960), pp. 439-455; وأعاد Stern, S., Fatimid Decrees, London 1964, pp. 35-45 نشرة سنة ١٩٦٤

[٥٧] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٢ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ١٩ و – ١٩ ظ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٧٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ٣٤ ، الاتعاظ ٣ : ١٤٠ .

[٥٨] Soret, M., "Lettre à M. C. J. Tornberg sur quelques monnaies de dynasties Alides", Revue Archéologique . XIII (1856) pp. 134-135

وفى عام ١٨٧٥ درس كل من Sauvaire و Lane - Poole مدلول اسم الإمام الثانى عشر على العُمْلَة المصريةَ [٥٩]، ثم نشر Lane - Poole بعد ذلك عملتين ذهبيتين (دنانير) من مقتنيات المتحف البريطانى ضُرِبَتَ الأولى فى القاهرة سنة ٥٢٥ باسم :

(أبو القاسم المنتظر لأمر الله أمير المؤمنين) [٦٠]

أما الثانية فضُرِبَت فى مصر فى سنة ٥٢٦ ، لاشك قبل السادس عشر من المحرم تاريخ مقتل أبى على الأفْضَل ، باسم :

(الإمام المهدى القائم بأمر الله حُجَّة الله على العالمين
نائبه وخليفته الأفضل أبو على أحمد) [٦١]

وما جاء على هذا الدينار يتّفق مع ما أورده المؤرخون من أن أبا على الأفْضَل نَقَش اسمه على السّكةّ نائبًا عن الإمام المنتظر [٦٢].

---

[٥٩] Sauvaire & Lane - Poole, S., " the Name of the Twelfh Imam on the Coinage of Egypt ", JRAS N. S VII (1857), pp. 140 - 51

[٦٠] Lane - Poole, S., Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, IV - the Coinage of Egypt ..., London 1879, Introduction p. XII , p. 55 no 228 - 229 . ومن هذا الدينار نسختان أخرتان إحداهما بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٣٩ ضربت بالإسكندرية والأخرى بدار الكتب المصرية برقم ١٢٦٨ .
وقد ظن الدكتور حسن إبراهيم حسن أن هذا الدينار ضرب باسم الإمام أبى القاسم الطيب وأن أتباعه اتخذوا من الإسكندرية مركزًا لحركتهم ومستقرًا لدعوتهم . (تاريخ الدولة الفاطمية ١٧٦) .

[٦١] Lane - Poole, S., op. cit., pp. 56 - 57 n° 230

[٦٢] ابن ظافر : أخبار ٩٤ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٢٣٦ .

ومنذ أربعين عامًا نشر P. Balog أربعة دنانير صادرة عن (المنتظر لأمر (بأمر) الله)، ثلاثة منها ضُرِبَت فى القاهرة والرابع فى مصر فى سنة ٥٢٥ [٦٣]. وأشار فى مقال نشره فى العام نفسه إلى دِرْهم صادر باسم هذا الإمام، وَصَفَه وحَلّ مشكلاته التاريخية سنة ١٨٧٣ E.V.Bergmann[٦٤].

وفى الوقت نفسه نَشَر M. Jungfleish عشرة أشكال زجاجية مُدَوَّرة (صِنَج) Jetons عليها اسم الإمام المنتظر بالصيغتين التاليتين:

(القاسم محمد المنتظر)

(حُجّة الله ومعه ؟ أبى القاسم المنتظر لأمر الله)

وكلها مؤرَّخة فى سنة ٥٢٥ [٦٥].

وأخيرًا وُجِد فى مجموعة الدكتور هنرى أمين عوض بالقاهرة [٦٦] درهم مؤرخ فى سنة ٥٢٦ باسم:

(الإمام محمد المنتظر لأمر الله)

(الله الصَّمَد)

وهو ما يتّفق مع ماذكره ابن الطُّوَيْر وابن خلدون وابن الفرات والمقريزى [٦٧].

---

٦٣ Balog, P., " Quatre Dinars du khalife Fatimide al-Montazar li-Amr-Illah ou bi Amr-Illah (525-526 A. C.), BIE XXIII (1950-51), pp. 375-378

٦٤ Balog, P., " Nouvelles observations sur le thecnique du monnayage (Periode Fatimite et Ayoubite)", BIE XXXIII (1950), p. 16

٦٥ Jungfleish, M., " Jetons (ou Poids ?) en verre de l'Imam el-Montazar " BIE XXXIII (1950-51), pp. 329-374 Miles, G., Fatimid Coins in the Collection of University Museum Philadelphie and the American Numismatic وانظر كذلك the Society, NY 1951, p. 44

٦٦ محمد أبو الفرج العش: «مصر، القاهرة على النقود العربية الإسلامية»، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة، ٩٥١ — ٩٥٢.

٦٧ ابن الطوير: نزهة المقلتين ٣٢، ابن خلدون: تاريخ ٤: ٧٢، ابن الفرات: تاريخ — خ ٢: ٢٠ و، المقريزى: الخطط ١: ٤٠٦، ٢: ٣٤٠، المقفى — ٨١ ظ.

الحافظ يعود إلى الحُكْم

فى ١٦ محرم سنة ٥٢٦/٩ ديسمبر سنة ١١٣١ انتهى هذا الوضع الشاذ ، عندما ثار غلمان الآمر وعلى رأسهم ناصر الجيوش يانِس [٦٨]، وتمكنوا من قتل أبى على الأفضل وهو يلعب الكرة فى الميدان الكبير خارج باب الفتوح ، ثم أخرجوا الأمير عبدالمجيد من الموضع المعتقل فيه بالقصر ، وبايعوه على أنه « وَلِىّ عَهْد كفيل لمَنْ يُذْكر اسمه » [٦٩]، فاتخذ عبد المجيد هذا اليوم عيدًا سمّاه « عيد النَّصْر » [٧٠]ظل يُحْتَفَل به حتى نهاية الدولة . ووصل إلينا دينار فريد ضُرِبَ فى الإسكندرية سنة ٥٢٦ ، لاشك فى الفترة بين خروج عبدالمجيد من الاعتقال (١٦ محرم) ومبايعته بالإمامة (٣ ربيع الآخر) باسم :

(أبو الميمون عبدالمجيد وَلِىّ عَهْد المسلمين) [٧١].

الدَّعْــوَة الطَّيِّبِيَّــة

كانت الفترة بين وفاة الخليفة الآمر فى ذى القعدة سنة ٥٢٤ / أكتوبر ١١٣٠ ، وخروج الأمير عبد المجيد من معتقله فى المحرم سنة ٥٢٦ / ديسمبر ١١٣١ ، وهى أربعة عشر شهرًا ، كافية للتأكد من نتيجة الحمل الذى أشار

---

[٦٨] المقريزى : الخطط ٢ : ١٧ .

[٦٩] ابن ظافر : أخبار ٩٥ ، ابن الطوير : نزهة ٣٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٥ ، ٦٧٢ – ٦٧٣ ، ابن ميسر : أخبار ١١٥ – ١١٦ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ١٤٦ – ١٤٧ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ٤١ ظ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٣ ، المقفى – خ ٨٢ و ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٧ – ٢٤٨ .

[٧٠] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٤ – ٣٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٤٩٠ – ٤٩١ .

[٧١] Rogers Bey E. T., " Notices sur quelques pièces rares et inedites ", BIE 20 série n.[3] (1882), pp. 32 -33 ; Lane - Poole, S., Catalogue of the khedival Library, p. 195 n. 1269 - 70

إليه الآمر قبل وفاته ، وتبعًا لما ذكره الشريف محمد بن أسعد الجَوَّانى ، ونقله المقريزى ، فإن امراءة الآمر وضعت مولودًا ذكرًا ، وأن هذا المولود هُرِّب من القصر فى قُفّة على وجهها سَلْق وكُرَّات إلى القَرافَة وكُتِم أمره ، فعُرِف لذلك بقُفَيْفَة [٧٢].

وفى حقيقة الأمر فإننا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام انقلاب سياسى آخر فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية . فقد وصل إلينا نصٌّ كبير الأهمية أورده ابن مُيَسَّر فى تاريخه [٧٣] يفيدنا أنه وُلِدَ للآمر ولدٌ ذكر قبل وفاته بثمانية أشهر فى شهر ربيع الأول سنة ٥٢٤/ مارس سنة ١١٣٠ سمَّاه أبا القاسم الطيِّب ، ولكن ابن مُيَسَّر لم يتعرَّض لذكر هذا الطفل أو مصيره مرة أخرى فى تاريخه ، وأشار فقط إلى أن الأمير عبد المجيد كَتَم أمر هذا الطفل بعد وفاة الآمر [٧٤].

ويؤيد هذا النَّص ويؤكد الوجود التاريخى للإمام الطيِّب بن الآمر سِجِلٌّ أرسله الخليفة الآمر إلى السيِّدة الحُرَّة فى اليمن يُبَشِّرها فيه بميلاد ابنه الطيِّب فى الليلة المصبحة ليوم الأحد الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٥٢٤/ ١٩ مارس سنة ١١٣٠ وحَفِظ نَصَّ السِّجِلّ عمارة اليمنى والداعى عماد الدين إدريس [٧٥].

---

[٧٢] المقريزى : المقفى (مخ . السليمية) ٣٨٦ ظ ، اتعاظ ٣ : ١٤٦ ، الخطط ٢ : ٤٤٨ ، وقارن ، ابن ميسر : أخبار ١٢٠ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٩٤ .

[٧٣] ابن ميسر : أخبار ١٠٩ – ١١٠ وقارن ، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٢١ – ١٢٢ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ١٧ (نقلا عن ابن أبى طى) . المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٢٨ ، المقفى (مخ . ليدن) ٣ : ١٩١ .

[٧٤] نفسه ١١٣ .

[٧٥] عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ١٢٧ – ١٢٩ ، عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٧ : ٩٧ و – ٩٧ ظ ، ويُلاحظ وجود اختلاف بين تاريخ هذا السجل والتاريخ الذى ذكره ابن ميسر !

ولم يَكُن هذا الإمام معروفًا البتَّة للبحث التاريخى قبل أن يَنْشر كاى فى سنة ١٨٩٢ كتاب « تاريخ اليمن » لعمارة اليمنى Kay, H.C., Yaman its early Mediaeval History, London 1892, p. 101 ولكن إشارة عمارة هذه لم تَكُن كافية فيما يبدو لجَذْب الانتباه إلى وجود هذا الإمام =

وبناء على هذا السِّجلّ لم يصبح لدى أتباع الدعوة المستعلية أى شك فى مولد الإمام الطَّيِّب ، الذى أخرجه الدعاة وكبار المؤمنين – كما تذكر الرواية اليمنية – من مصر وهرَّبوه إلى اليمن بعد قيام أبى على الأفضل بانقلابه [٧٦] غير أن هذه الرواية لم تُشر إلى مصير هذا الطفل الذى أصبح رأس دعوة إسماعيلية جديدة اعترف بها إسماعيلية اليمن والهند .

*
* *

= إلى أن نَشَر ماسيه فى سنة ١٩١٩ كتاب « أخبار مصر » لابن ميسر (ص ٧٢) حيث أشار تفصيلا إلى ميلاد هذا الإمام والاحتفالات التى عَمَّت البلاد بهذه المناسبة ، وقد أشار فييت إلى أهمية هذا النص فى تعليقه على نشرة ماسيه (Wiet, G., JA., XVIII (1921) p. 112) ثم أَلْقَت اكتشافات حسين همدانى عن التراث الإسماعيلى فى الهند كثيرًا من الأضواء على وجود هذا الإمام فى رسالته التى تقدَّم بها الجامعة لندن فى سنة ١٩٣١ بعنوان « تاريخ وعقائد الدعوة الإسماعيلية الطيبية فى اليمن » Hamdani, H., Doctrines and History of the Isma'ili Tayyibi Da'wa of al-Yaman, Ph. D. Thesis, University of London 1931 (Unpublished) ولم أتمكن من الاطلاع عليها . ثم نشر كلود كاهن فى سنة ١٩٣٨ قسمًا من كتاب « البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان » لعماد الدين الأصفهانى (؟) يبدأ بحوادث سنة ٥٠١ هـ وأشار مؤلفه إلى ميلاد هذا الإمام واعتقاد بعض المصريين فيه Cahen, Cl., "Une Chronipue Syrienne du VI/XII siecle » BEO VIII (1937-38), p. 121 ثم اتَّضَحَت لنا الصورة بوضوح بالمقال الجَلِىّ الذى نشره صمويل شتيرن سنة ١٩٥١ عن خلفاء الإمام الآمر والدعوة الطيبية Stern, S., "The Succession of the Fatimid Imam al-Amir", Oriens IV (1951) pp. 193-243 ثم دَرَسَ حسين همدانى فى كتابه « الصُّلَيْحِيُّون والحركة الفاطمية فى اليمن » ، القاهرة ١٩٥٥ ، ١٨٢ – ١٩٢ الدعوة الطيبية وأنصارها فى اليمن . وفى سنة ١٩٥٨ نَاقَشَ المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال الوجود التاريخى للإمام الطيب معتمدًا فى الأساس على مخطوطة كتاب « اتعاظ الحنفا » للمقريزى التى لم تكن قد نُشِرَت بعد (الشيَّال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١ : ٧٤ – ٨٦) وإن أشار شتيرن بعد ذلك إلى أن المادة الموجودة عند الشيال وذكر أنها جديدة ليست جديدة تمامًا وأنه أخذَهَا من مقاله سالف الذكر Stern, S., Fatimid Decrees (London 1964), pp. 43-45 n. 1. ثم درس كاتب هذه السطور الدعوة الطيبية وأدبها فى كتابه « تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى » ، القاهرة – الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٨ ، ١٧١ – ٢٠٦ .

[٧٦] عماد الدين إدريس : نزهة الأفكار (مخ . همدانى) ٣٨ و . وراجع عن نظام الإمامة عن الإسماعيلية الطيبية ، أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ١٩٠ – ١٩٤ ، Madelung, EI²., art. Imama III, p. 1192

وفى القاهرة قرى سِجِلٌّ فى ٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٦ / ٢٣ فبراير سنة ١١٣٢ بمبايعة الأمير عبدالمجيد إمامًا وتلقيبه بـ « الحافظ لدين الله » [٧٧]، وأصبح بذلك أوَّل خليفة فى تاريخ الدولة الفاطمية لم يكن أبوه إمامًا ويدور هذا السِّجِلّ ، الذى حفظه لنا القلقشندى [٧٨] ، حول فكرة أن الآمر – الإمام المنتقل – أوصى بالإمامة إلى ابن عمه عبد المجيد ، تمامًا مثلما عَقد النبى ، ﷺ الولاية لابن عمه على بن أبى طالب فى غدير خُمّ . ويشير السِّجِلّ كذلك إلى تسمية الحاكم بأمر الله لابن عمه عبدالرحيم بن إلياس ولىّ عهد المسلمين . وتقصد هذه الوثيقة الهامة إلى التدليل على شرعية إمامة الحافظ لدين الله على أساس « نَصّ » مزعوم قال به الآمر ولتصبح بذلك دليلًا على شرعية إمامة الخلفاء الفاطميين المتأخّرين .

والواقع أن الاعتراف بإمامة الحافظ يعد خروجًا على أُسُس نظام الإمامة عند الإسماعيلية ، الذى يشترط أن تكون الإمامة دائمًا فى الأعقاب ، لذلك فقد عمد بعض الدعاة إلى تبرير صِحَّة إمامة الحافظ فى أكثر من مناسبة ، فينقل المقريزى على لسان داعى الدعاة إسماعيل بن سلامة الأنصارى قوله : « لولا أن مولانا الآمر نَصَّ على مولانا الحافظ وأودعه سِرّ الخلافة لما ثَبَتَت فيه ولا استجاب له الناس » [٧٩]!

---

[٧٧] عن فترة إمامة الحافظ راجع ، ابن ظافر : أخبار ٩٤ – ١٠١ ، ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٦ – ٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٥ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٢٣٥ – ٢٣٦ ، ابن ميسر : أخبار ١١٣ – ١٤١ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٨٧ – ٩١ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٠٦ – ٥٥٤ ، الصفدى : الوافى – خ ١٩ : ٧٢ ظ ، ابن الفرات ، تاريخ – خ ٢ : ١٧ – ١٨ ، ٤٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٧ ، اتعاظ ٣ : ١٣٧ – ١٩٢ ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ٢٣٧ – ٢٤٥ ، Magued, A. M., EI^{2}., art. al -Hafiz III, p. 56 -57 .

[٧٨] القلقشندى : صبح ٩ : ٢٩١ – ٢٩٧ وراجع الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٧١ – ١٠٢ ، ٢٤٩ – ٢٦٠ .

[٧٩] المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٩ .

وبذلك انقسمت الدعوة الإسماعيلية فى مصر على نفسها مرة ثانية فى أقل من خمسين عامًا إلى : « طَيِّبِيَّة » نسبة إلى الإمام الطَّيِّب بن الآمر الذى اعترف بإمامته كل الطائفة الإسماعيلية فى اليمن والهند استمرارًا للدعوة المستعلية ، و « حافظية » أو « مجيدية » نسبة إلى الحافظ عبد المجيد تمتَّعت بتأييد مؤسَّسة الدعوة فى مصر وقَبِلَها أغلب الإسماعيلية المستعلية فى مصر والشام . وبقيت مع ذلك بعض جماعات من مستعلية مصر والشام تبنَّت حقوق الإمام الطَّيِّب وعرفوا « بالآمرية » .

وبعد هذا الانقسام أصبحت هناك ثلاث دعوات إسماعيلية فى العالم الإسلامى ، قُدِّر لاثنتين منها الاستمرار والقيام بنشاط سِرِّى أنتج الكثير من أدب الدعوة : الدعوة الطَّيِّبية المستعلية فى اليمن وغرب الهند ، والدعوة النزارية الحشيشية فى الشام وإيران وشمال الهند . أما الدعوة الحافظية فقد قضى عليها بسقوط الخلافة الفاطمية فى مصر وعودة مصر مرة أخرى إلى أحضان العالم الإسلامى السُّنِّى [٨٠].

[٨٠] عن تاريخ الحركة الإسماعيلية بعد سقوط الفاطميين (الإسماعيلية الطيبية والإسماعيلية النزارية) راجع ، Daftary, F., op. cit., pp. 256 - 534 ، ودراسة عارف تامر ، التى يغلب عليها الطابع الدعائى ، : تاريخ الإسماعيلية ، ١ – ٤ ، لندن – رياض الريس للكتب والنشر ١٩٩١ ، ٤ : ٦٧ – ١٣٩ .

الفصل السابع

بداية التدهور

شهدت السنوات الأربعون الأخيرة فى عمر الدولة الفاطمية فى مصر تطورات خطيرة متتالية قادت إلى تدهورها وعجَّلت بسقوطها . فقد انحصر نفوذ الخلافة نهائيًا داخل حدود مصر وانفصل عنها بقية أتباعها الذين لم يعترفوا بأحقية الحافظ وخلفائه فى الإمامة . وبذلك حَكَم الخلفاء الأربعة الأواخر فى القاهرة كأسرة حاكمة مصرية محلية بلا سُلْطَة أو نفوذ أو أمل . ولم تجر أية محاولة لمد نفوذ الفاطميين خارج الحدود المصرية ، إذا استثنينا محاولة الخليفة الحافظ نشر دعوته لدى الزُّرَيْعيين [1]- حُكّام عَدَن - الذين أجابوه إليها ، وكان هدفه من وراء ذلك ضمان السيطرة على طرق التجارة المؤدية إلى الهند .

الحافظ وأولاده

أصبح الوزراء منذ بدر الجمالى هم السادة الحقيقيون للدولة الفاطمية . ولكن الحافظ ، الخليفة الوحيد بين الفاطميين المتأخِّرين الذى كان رجلًا راشدًا وقت اعتلائه العَرْش ، تنبَّه إلى ذلك وحرص على تقليص نشاط وزرائه .

---

[1] الزُّريعيون . أسرة يمنية محلية يرجع أصلها الى قبيلة هَمْدان ، كان لجدهم الأعلى العبّاس بن الكرم (المكرم) سابقة محمودة فى قيام الدعوة الفاطمية مع الداعى على بن محمد الصليحى . وقد ولى المكرم أحمد الصليحى عباسًا ومسعودًا ابنى المكرم حكم عدن من قبل الصليحيين . وقد بدأ الاستقلال الفعلى لهذه الأسرة عن سلطة الصليحيين فى وقت سبأ بن أبى السعود ، ولما استمالهم الحافظ للدعوة له أطلق على سبأ لقب الداعى حتى توفى سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ . ثم وصل إليهم القاضى الرشيد أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير الأسوانى سنة ٥٣٩ / ١١٤٤ لإقامة الدعوة باسم الحافظ . (راجع ، أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ١٨٧ - ١٩٠) .

فبعد أن تخلَّص ، فى نهاية عام ٥٢٦ / ١١٣٢ ، من وزيره أمير الجيوش سيف الإسلام أبى الفتح يانس الأرمنى [٢]– الذى قام بدور كبير فى القضاء على أبى على الأفْضَل ومبايعة الحافظ بالإمامة – بعد أن أمضى فى الوزارة أقل من عام [٣]، لم يتَّخذ الحافظ بعده وزراء لفترة تجاوزت العام .

وفى عام ٥٢٨ / ١١٣٣ عَقَد الحافظ ولاية عهده إلى ابنه الأكبر أبى الربيع سليمان وأقامه مقام وزير « ليستريح من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقاتهم إيّاه فى أوامره ونواهيه » [٤]. ولكن سليمان توفى بعد ذلك بشهرين ، فترشَّح لولاية العهد ابنه التالى حسن ، إلَّا أن الحافظ عدل عنه إلى ابنه الأصغر أبى تراب حَيْدَرَة . وحفظ لنا القلقشندى سِجِلّ مبايعة الحافظ لولده حَيْدَرَة بولاية عهده والذى أمره فيه أن يتخيَّر من رجال دولته ووجوه أجناده وشيعته طائفة تنتمى إليه تسمى بـ « الطائفة العهدية » تظل موقوفة على خدمة ولى العهد حَيْدَرَة ، وهى أوَّل مرة يقابلنا فيها إنشاء طائفة مماثلة فى العصر الفاطمى [٥]. وكان الحافظ قد عَدَل بولاية عهده عن ابنه الثانى الحسن إلى ابنه الأصغر حَيْدَرَة ، لأنه لم يستصلحه لذلك بسبب عقوقه لوالده ، فشَقّ

---

[٢] أحد غلمان الأفضل شاهنشاه ، تقدَّم فى الرُّتب حتى أصبح « صاحب الباب » ، وهى ثانى رتبة الوزارة حينئذ ، وكان يقال لها « الوزارة الصغرى » . وتنسب إليه إحدى طوائف الجند المعروفة « بالطائفة اليانسية » . (ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣٥ – ٣٦ ، ١٢٢ ، ابن ظافر : أخبار ٩٨ ، ابن ميسر : أخبار ١١٧ – ١١٨ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٣ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٨ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٠٩ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٢٨ ، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٤٢ ظ – ٤٣ و ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٦ – ١٧ ، الاتعاظ ٣ : ١٤٤ – ١٤٥ ، المقفى (مخ . السليمية) ٢٤١ و ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٠) .

[٣] اعتقل فى ٢ ذى القعدة وتوفى فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٥٢٦ .

[٤] ابن ميسر : أخبار ١٢١ ، ابن الطوير : نزهة ٣٧ ، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٥٧ ظ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٩ ، المقفى (مخ . السليمية) ٣٦٩ و .

ويوجد فى سوهاج بصعيد مصر نقش مؤرخ فى المحرم سنة ٥٢٩ ا باسم « ولى عهد المؤمنين ... سليمان بن الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين » (Wiet, G., RCEA VIII, p. 193 n. 3071).

[٥] القلقشندى : صبح ٩ : ٣٧٧ – ٣٧٩ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٢٦٣ – ٢٦٥ ، الدراسة التحليلية ١٠٣ – ١٠٧ .

ذلك على حسن لأنه كان يتطلّع إلى هذا المنصب « لكثرة أمواله وبلاده وحواشيه وموكبه بحيث كان له ديوان مفرد »[٦].

وفى سبيل تحقيق ذلك قام حسن بثورة خطيرة بدأت يوم الأربعاء ١٥ رمضان سنة ٥٢٨ / ٩ يولية ١١٣٤ ، افترق فيها الجند فريقين ، فالفرقة الرَّيْحانية تساند حَيْدَرة صاحب الحق ، والفرقة الجيوشية تساند حسن المتطَلِّع إلى المنصب . ولم يجد الحافظ وسيلة لإيقاف هذه الثورة إلّا مُدارَة ابنه الحسن ، فكتب له سِجِلّا بولاية عهده أرسله إليه وقرئ على المنابر يوم ٢٦ رمضان سنة ٥٢٨/ ٢٠ يولية ١١٣٤[٧] « فتمكَّن حسن من الدولة وتصرَّف فيها حتى لم يبق لأبيه معه حكم البَتَّة » كما يقول ابن مُيَسَّر[٨]. وأمر الحسن أن يُدعى له على المنابر بالدعاء التالى : « اللَّهم شَيِّد ببقاء ولى عهد المسلمين أركان خلافته وقَلِّده سيوف الاقتدار فى نصره وكفايته ، وأعِنْه على مصالح بلاده ورعيته ، واجمع شمله به وبكافة السادة إخوته الذين أطلعتهم فى سماء مملكته بدورًا لايغيرها المحاق ، وقمعت ببأسهم كل مُرْتَدّ من أهل الشقاق والنِّفاق ، وشَدَدْت بهم أزر الإمامة ، وجعلت الخلافة فى عقبهم إلى يوم القيامة برحمتك يا أرحم الراحمين »[٩].

يقول ابن ظافر إن حسن كان يرى رأى السنة ، ولما قوى أمره أراد قتل أمراء الدولة وسجن أبيه والتضييق عليه . فلما علم أمراء الدولة بذلك حضروا إلى بين القصرين وعزموا على خَلْع الحافظ وولده . فراسلهم الحافظ وعرَّفهم مكانتهم عنده وأنه قد غُلِب على أمره . فأرادوا قتل الحسن ، ولكن أباه أمهلهم

---

[٦] ابن الطوير : نزهة ٣٧ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ٥٧ ظ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٩ ، المقفى ٣٦٩ و .

[٧] المقريزى : المقفى ٣٦٩ و .

[٨] ابن ميسر : أخبار ١٢٠ .

[٩] ابن ظافر : أخبار ٩٦ .

وأحضره إليه فى القصر واحتاط عليه ، غير أن الأمراء لم يرضوا بديلًا عن قتله وأنذروا الحافظ بأنه إن لم يُنَفِّذ طلبهم خلعوه وولوا غيره . فاضطر الحافظ إلى سَمّ ولده عن طريق سُقْيَة وصفها له ابن قِرْقَة اليهودى الطبيب . وأرسل الأمراء مندوبين عنهم إلى القصر لمشاهدته ، ولم يتأكدوا من وفاته إلّا بعد أن طعنه أحدهم فى مواضع من جسده تَحَقَّق بعدها من وفاته [١٠]. وبذلك انتهت هذه الفِتْنَة التى قُتل فيها نحو عشرة آلاف نفس وكانت ، كما يقول المقريزى : « أوَّل مصيبة نزلت بالدولة من فَقْد رجالها ونَقْص عدد عساكرها » [١١].

وزارة بَهْرام الأرْمَنى

كان الأمير حسن أثناء الأزمة قد راسل بَهْرام الأرمنى النصرانى – والى الغربية – ليصل إليه بالأرْمَن ليعزِّز موقفه بهم [١٢]. فلما قرب بَهْرام من القاهرة كان الأمير حسن قد قُتِل ، فتمسَّكت طائفة الأجناد ، الذين حملوا الحافظ على قتل ابنه ، ببَهْرام وأدخلوه على الحافظ وألزموه أن يوليه الوزارة [١٣] فلم يجد بدًا من إجابتهم خوفًا من أن تثور الفِتَن مرة أخرى . فخَلَع عليه خِلَع الوزارة يوم الجمعة ١٦ جمادى الآخر سنة ٥٢٩ / مارس سنة ١١٣٥ ونعته بـ « سيف

[١٠] راجع ، ابن ظافر : أخبار ٩٦ – ٩٧ ، ابن الطوير : نزهة ٣٧ – ٤١ ، ابن القلانسى : ذيل ٢٤٢ ، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٢٣ ، أبو صالح : تاريخ ٢٦ ، ٥٤ و ، ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٢٨ – ٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٣ ، ١١ : ٢٢ – ٢٣ ، ابن ميسر : أخبار ١١٩ – ١٢٢ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥١٤ – ٥١٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٨ – ٨٩ ، الصفدى : الوافى ١٢ : ٩٤ ، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٤٣ ظ – ٤٤ و ، ٧٨ و – ٦٠ و ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٧ – ١٨ ، اتعاظ ٣ : ١٤٩ – ١٥٥ ، المقفى ٣٦٩ و – ٣٦٩ ظ ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤١ – ٢٤٢ .

[١١] المقريزى : المقفى ٣٦٩ و ، اتعاظ ٣: ١٤٩ .

[١٢] ابن الطوير : نزهة ٣٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٢١ ، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٥٨ ظ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٣ وقارن المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٥٤ .

[١٣] ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٢٩ ، المقريزى ٢٦٩ ظ .

الإسلام تاج الخلافة (الدولة) » وهو باق على دين النصرانية ، فأصبح بذلك أوّل نصرانى يتولى وزارة تفويض للفاطميين [١٤]. وقد أشار كبراء رجال دولة الحافظ عليه بأن لا يولّيه الوزارة لأنه نصرانى ، وأن من شرْط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر فى الأعياد ، كما أن القضاة هو نُوّاب الوزراء من زمن أمير الجيوش ، فلم يأخذ بنصيحتهم وجعل القاضى ينوب عنه فى صعود المنبر ، ولم يُرْدّ إليه شيئًا من الأمور الشرعية [١٥].

ومعلوماتنا عن بَهْرام مصدرها ابن الطُّوَيْر وابن مُيَسَّر وتفيدنا أنه وصل إلى مصر من جملة الأَرْمَن الذين جاؤا مع بدر الجمالى ، وأن أصله من قلعة الروم وتل باشر . وقد بدأت هجرة الأرمن بعد أن وضع البيزنطيون أيديهم على أرمينية فى أواسط القرن الخامس / الحادى عشر . ومنذ وصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة بدأ توافد الأَرْمَن فى أعداد كبيرة إلى مصر . وقد شجّع التسامح الدينى المعروف عن الفاطميين ، والخمسين عاماً التى أمضاها بدر الجمالى وولده الأفضل فى الحكم ، هجرة الأَرْمَن التى أخذت فى التزايد إلى القاهرة [١٦]، وقد أقام الأَرْمَن فى القاهرة فى حى الحُسَيْنِيَّة خارج باب الفتوح [١٧].

وفى فترة وزارة بدر الجمالى وصل إلى مصر البطرك الأرمنى أغريغوريوس نحو سنة ٤٧٢ / ١٠٧٩ حيث أحسن بدر الجمالى والخليفة المستنصر استقباله . وقد أقطع بدر الجمالى للأَرْمَن ، فى أوّل الأمر ، طُرا جنوب الفسطاط فجدّدوا فيها

---

[١٤] ابن الطوير : نزهة ٤٤ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٢ ، المقريزى : المقفى ٢٦٩ ظ ، ابن ظافر : اخبار ٩٧ ، المقريزى : نهاية ٢٦ : ٨٩ .

[١٥] ابن الطوير : نزهة ٤٤ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٢٨٩ ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٦٠ و ، المقريزى : المقفى ٢٦٩ و ، اتعاظ ٣ : ١٥٦ .

[١٦] Canard, M., " Notes sur les Armeniens en Egypte à l'époque fatimide ", AIEO XIII (1955), p. 145

[١٧] ابن الطوير : نزهة ٤٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٥ .

كنيسة مارى جرجس [١٨] ثم بنوا كنيسة أخرى بأرض الزُّهْرى (بالقرب من السيدة زينب الحالية) نهبها العامة عندما ثاروا على الأَرْمَن عام ٥٣١ / ١١٣٣ [١٩]. وهذا البَطْرك هو دون شك أخو بَهْرام بما أن قبره قد نبشته العامة وقت ثورتهم ضد الأَرْمَن [٢٠]. وعلى ذلك فيُفْتَرضَ أن عمر بَهْرام كان عند قدومه إلى مصر نحو ثمانية عشر عامًا ، وأنه تولى الوزارة وله من العمر ثمانين عامًا وتوفى عام ٥٣٥ / ١١٤٠ عن خمسة وثمانين عامًا [٢١].

ولا شك أن الوزراء ذوى الأصل الأرمنى الذين تولّوا منذ بدر الجمالى قد أحاطو أنفسهم بجنود من الأَرْمَن ، وشجَّعوا هجرة الأَرْمَن لهذا الغرض ، ومن المحتمل أن تكون الطائفة الجيوشية (نسبة إلى أمير الجيوش بدر) تتألّف فى أغلبها من الأَرْمَن [٢٢]. كذلك فإن أبا الفتح يانس ، آخر وزير أرمنى قبل بَهْرام ، كانت تنسب إليه الطائفة اليانسية التى كانت مكونة فى أغلب الظن أيضًا من الأَرْمَن [٢٣]. وربما انتمى بَهْرام إلى إحدى هاتين الطائفتين قبل أن يصبح « مُقَدَّم الأَرْمَن » [٢٤].

وقد أخذ بَهْرام يتقدَّم فى الخِدَم طوال خمسين عامًا حتى استقر واليًا على الغربية ، وقاعدتها يومئذ المحلة ، التى سار منها إلى القاهرة حيث استوزره الحافظ [٢٥]. وبعد أن استقر بَهْرام فى السلطة لم يتردَّد فى تبنى سياسة شخصية

---

[١٨] أبو صالح : تاريخ ٦١ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٢٩ .

[١٩] ابن الطوير : نزهة ٤٦ ، ساويرس : تاريخ ١/٣ : ٣١ .

[٢٠] نفسه ٤٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٥ .

[٢١] Canard, M., op. cit., p. 144

[٢٢] رغم أن أبا صالح الأرمنى يذكر ان الجيوشية كانت طائفة من الرجال السودان ! (تاريخ ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٤ .) .

[٢٣] Canard, M., " Un vizir chrétien à lépopue fatimide : l'armenien Bahram ", AIFO XII (1954), p. 93

[٢٤] ابن القلانسى : ذيل ٢٦٢ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٢٩

[٢٥] ابن ميسر : أخبار ١٢٣ .

أرمنية مسيحية أدَّت إلى سقوطه فى نهاية الأمر . فقد سأل الخليفة الحافظ فى السماح له بإحضار إخوته وأهله من تَلّ باشر وبلاد الأَرْمَن ، فأذن له فى ذلك ، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان استطالوا على المسلمين وأصابهم منهم جَوْر عظيم . كذلك بُنى فى أيامه العديد من الكنائس والأديرة حتى صار كل رئيس من الأَرْمَن يبنى له كنيسة « وخاف أهل مصر منهم أن يُغَيِّروا مِلَّة الإسلام »[٢٦].

وفى إطار هذه السياسة أصبح أغلب ولاة الدواوين من النَّصارى[٢٧]، كذلك وَلَّى بهرام أخاه المعروف بالباساك ولاية قوص ، وهى يومئذ أعظم ولايات مصر ، فاستقوى بأخيه وتمادى فى ظلم المسلمين ومصادرة أموالهم[٢٨].

الاستنجاد برضوان بن وَلَخْشى ونهاية بَهْرام

لم يرض أهل مصر وأمراؤها بهذا الوضع الشاذ فكتبوا إلى رضوان ابن وَلَخْشى ، وإلى الغربية ، يستنهضونه للقدوم عليهم وإنقاذهم من سيطرة النَّصارى . وفور أن وصلت إليه كتب الأمراء صعد المنبر وخطب فى الناس خُطْبَة بليغة حَثَّهم فيها على « الجِهاد » ، وأخذ فى حشد العربان حتى اجتمع له نحو ثلاثين ألف فارس سار بهم تجاه القاهرة[٢٩] . وعندما خرج بَهْرام لملاقاته

---

[٢٦] ابن ميسر : أخبار ١٢٤ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٩ - ٩٠ ، المقريزى : المقفى ٢٦٩ و ، اتعاظ ٣ : ١٥٩ .

[٢٧] أهم من تولى الدواوين من النصارى فى زمن بهرام ، صنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم بن أبى زكريا النصرانى . (ابن الطوير : نزهة المقلتين ٧٩ - ٨٠ ابن ميسر : أخبار ١٢٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ ، ١٨٤) .

[٢٨] نفسه ١٢٥ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .

[٢٩] ابن الطوير : نزهة ٤٤ - ٤٧ ، ابن ظافر : أخبار ٩٨ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٤ - ١٢٥ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٣٠ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٩ ، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٦١ و ، المقريزى : المقفى (مخ . السليمية) ٢٦٦ و ، الخطط ١ : ٢٠٥ ، اتعاظ ٣ : ١٦١ .

رفع جنود رضوان المصاحف على أسِنَّة الرماح فما هى إلّا برهة حتى ترك المسلمون جيش بَهْرام والتجاؤا بأجمعهم إلى جيش رضوان ، بناء على اتفاق بين الأمراء ورضوان . وعندما رأى بَهْرام ذلك بعث إلى الخليفة يُعَرِّفه بما جرى ، فخاف من عاقبة هذه المواجهة وأشار عليه بالتوجُّه إلى قوص والاحتماء بأخيه الباساك هناك [٣٠].

كان خبر قدوم رضوان وإعلانه الجهاد ضد النصارى قد سبق بَهْرام إلى قوص ، فالتف أهلها على الباساك وقتلوه وطرحوه فى النهر ، فاضطر بَهْرام أن يسير مع أصحابه من الأرْمَن إلى أسوان ليتقوّى بأهل النوبة ، وهم نصارى ، ضد رضوان [٣١]. وقد بعث رضوان ، الذى تولّى الوزارة فور دخوله القاهرة ، جيشًا على رأسه أخيه ناصر الدين الأوحد إبراهيم لمطاردة بَهْرام [٣٢]. ولكن اتفاقًا وُدِّيًا بين الخليفة وبَهْرام أمَّنه فيه على نفسه وأقاربه ، أوقف هذه الحملة ، وأقَرّه فيه على الإقامة فى الأديرة البيض بالقرب من إخميم [٣٣] حيث بقى بها إلى سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ ، بينما خُيِّر أهله فى الإقامة فى مصر أو الخروج منها إلى بلدهم تل باشر [٣٤].

---

[٣٠] نفسه .

[٣١] نفسه وكذلك : Garcin, J. Cl., Un centre musulman de la Haute - Egypte médiéval : Qus, p. 85 - 86

[٣٢] ابن ميسر : أخبار ١٢٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦١ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٩٠ .

[٣٣] أبو صالح : تاريخ ١٠٦ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٨ . وانظر نص الأمان الذى كتبه الحافظ لبهرام وأقاربه عند ، القلقشندى : صبح ١٣ : ٣٢٥ – ٣٢٦ . كذلك شرح الحافظ موقفه من بهرام فى رسالة بعث بها إلى روجر الثانى ملك صقلية أوردها القلقشندى : صبح ٦ : ٤٥٨ – ٤٦٣ ، ودراسة كانار Canard, M., " Une lettre du calife Fatimide al - Hafiz à Roger II " dans Atti del Convergno Internazionale di Studi Ruggeriani, Palerm 1955, pp. 126 - 146

[٣٤] ابن ميسر : أخبار ١٢٦

وبما أن الخليفة كان مستاءً من رضوان وتصرفه ، فقد أرسل فى سنة ١١٣٩/٥٣٣ ، فى إحضار بَهْرام وأسكنه معه فى القصر يشاوره فى تدبير الدولة ، مما أغضب رضوان واضطره إلى الهرب [٣٥].

وقد توفى بَهْرام فى القصر فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ٥٣٥ / ٧ ديسمبر ١١٤٠ ، فحزن عليه الحافظ حزنًا شديدًا وأمر بإغلاق الدواوين ثلاثة أيام حدادًا عليه ، وأحضر بطرك الملكية بمصر وأمره بتجهيزه ، وسار الحافظ فى مقدمة مشيعيه وحوله أعيان الدولة حتى دُفِن فى دير الخَنْدَق ظاهر القاهرة [٣٦]

وبوفاة بَهْرام انتهت مرحلة هامة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، مرحلة سيطر فيها العنصر الأرْمنى على مقاليد الأمور فى مصر ، وهى المرحلة التى بدأت مع بدر الجمالى واستمرت مع خلفائه الأفضل شاهنشاه ، وأبى على الأفضل كتيفات ، وأبى الفتح يانس وانتهت بوفاة بهرام .

وقد لعب الأرْمَن دورًا سياسيًا وعسكريًا وحضاريًا كبيرًا فى مصر ، فهم الذين حافظوا على استمرار الدولة ، وتمثّل عمارة أبواب القاهرة وأسوارها التى أُنجِزَت فى عصر بدر الجمالى تأثير العمارة الأرمنية على هذه المنشآت الدفاعية بوضوح [٣٧].

---

[٣٥] نفسه ١٣٠ – ١٣١ ، ابن القلانى : ذيل ٢٧٠ ، ابن ظافر : أخبار ٩٩ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٩٠

[٣٦] نفسه ١٣٣ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٩١ ، المقريزى : المقفى ٢٦٦ ظ الاتعاظ ٣ : ١٧٥ ، وذكر ساويرس : تاريخ ٣ / ١ : ٣٣ ان تابوته اخرج من باب الساباط بالقصر إلى كنيسة الزُّهرى .

[٣٧] انظر فيما يلى الفصل الرابع عشر .

رضوان بن وَلَخْشى وبداية الإصلاح السنى

فور أن فرَّ بَهْرام من القاهرة دخل إليها رضوان بن وَلَخْشى ووصل إلى بين القصرين ، واضطر الخليفة الحافظ إلى الرضوخ لضغط الأمراء وأشار بنزول رضوان فى دار الوزارة وخَلَع عليه خِلَع الوزارة فى ١١ جمادى الأول سنة ٥٣١ / فبراير ١١٣٧ ، ونعته فى سجل توليته بـ « السيِّد الأجل الأفْضَل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الفتح رضوان الحافظى » [٣٨].

كان رضوان بن ولخشى أوَّل وزير سُنِّى يتولَّى الوزارة للفاطميين ، وكان أصله من « صبيان الرِّكاب » وكان يتَّصف بالشجاعة حتى لُقِّب بـ « فَحْل الأمراء » ، وشارك فى القبض على أبى على الأفضل كتيفات سنة ٥٢٦ / ١١٣١ [٣٩] ، وترقى فى الخِدَم حيث تولى ولاية قوص وإخميم سنة ٥٢٨ / ١١٣٤ [٤٠]. وكان بَهْرام الأرمنى يخشاه فأخرجه من مصر سنة ٥٢٩ / ١١٣٥ وولَّاه ولاية عَسْقَلان فمنع كثيرًا من الأرمن من التوجُّه منها

---

[٣٨] ذكر ابن الأثير ونقل عنه أبو الفدا والمقريزى أن رضوان بن ولخشى هو أول من لُقِّب « بالملك » مضافًا إلى بقية الألقاب من وزراء الفاطميين . (ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٨ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٣ : ١٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ ، اتعاظ ٣ : ٦١) . ويبدو أن الصواب غير ذلك فسجل تولية رضوان الذى أورده القلقشندى : صبح ٨ : ٣٤٢ – ٣٤٦ لم يرد فيه ذكر للقب الملك . وذكر المقريزى فى ترجمة الصالح طلائع بن رزيك أنه « أنشئ له سجل عظيم نعت فيه بالملك الصالح ، ولم يلقب أحد من الوزراء قبله بالملك وذلك يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٩ . (اتعاظ ٣ : ٢١٨ وقارن ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٤٠ – ١٤٣ وانظر كذلك ابن ظافر : أخبار ٩٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٦ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٠ وفيما يلى الفصل العاشر) .

[٣٩] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٠٣ ، اتعاظ ٣ : ١٥٧ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٣٠ س ٤ .

[٤٠] ابن ميسر : أخبار ١٣٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٨٤ .

إلى مصر ، مما أثار غضب بَهْرام فاستدعاه منها وولّاه الغربية . وقد حمد له المصريون تصرفه مع الأرْمَن ولجئوا إليه عندما ثاروا عليهم .

وقد جاء فى سِجِلّ تقليده الوزارة ، الذى أنشأه ابن الصَّيْرَفى ، « لأنك أذْهَبْت عن الدولة عارها ، وأمَطْت من طرق الهداية أوعارها ، واستعدت ملابس سيادة كان قد دنَّسها من استعارها »[41]. وبدأ رضوان إصلاحاته باستخدام المسلمين فى المناصب التى كانت بأيدى النَّصارى[42] وعمل على تقدُّم أرباب المعارف سيْفًا وقلمًا ، فأحسن إليهم وزاد فى أرزاقهم[43] وشدَّد على النّصارى أصحاب بَهْرام وصادرهم وقتلهم بالسيف وأباد أكثرهم[44] وأبعد صنيعة الخلافة أبا الكرم الأَخْرَم النصرانى عن ديوان النَّظر ، وهو النصرانى الوحيد الذى تولى هذا الديوان وتوصل إليه بالضّمان ، واستخدم عوضًا عنه كاتبًا مسلمًا بلا ضمان هو القاضى المرتضى بن المُحَنَّك[45].

وبعد ذلك طلب رضوان إلى ديوان الإنشاء بإنشاء سِجِلّ فى الوضع من النَّصارى واليهود ، أنشأه ابن الصَّيْرَفى ، مُنِعوا فيه من « إرخاء الذّوائب ، وركوب البغلات ، وأن لا يلبس أحدٌ منهم طَيْلَسان ، وأمرهم بشَدّ الزّنانير المخالفة لألوان ثيابهم ، وألّا يجوزوا على معابد المسلمين ركباناً – فما رؤى فى أيامه يهودى ولا نصرانى يجوز على الجامع راكباً ، وإذا اضطر إلى الجواز نزل وقاد دابته – وأمر أن لا تُسلَّم الجِزْيَة منهم إلّا على مساطب وهم أسفلها ،

---

[41] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٤٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٨٤ .
[42] نفسه ٥٠ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٨ – ١٢٩ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٢ : ٦٢ ظ .
[43] نفسه ٤٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .
[44] ابن ميسر : أخبار ١٢٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .
[45] ابن الطوير : نزهة ٢٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ . وانظر عن الضمان فيما يلى الفصل الثانى عشر .

ومنعهم من التكنى بأبى الحسن وأبى الحسين وأبى الطاهر ، وأن لا يبيّضوا قبورهم » [٤٦].

وقد ضاعف رضوان الجزْية على اليهود والنصارى وجعلها ثلاث درجات : الأغنياء ويدفعون أربعة دنانير وسدس ، والأوسطين ويدفعون دينارين وقيراطين ، ثم بقية عامتهم ويدفعون دينارًا واحدًا وثلث وربع ، وألزمهم أن يشدّوا زنانيرهم فى أوساطهم [٤٧].

ولاشك أن رضوان بن وَلَخْشى لم يكن يعترف بشرعية خلافة الحافظ بما أنه سنى المذهب ، فعمل على خَلْع الحافظ بحجة أنه ليس خليفة أو إمام وإنما هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يصح ، واستفتى العلماء فى ذلك فامتنعوا ، وبلغ ذلك الحافظ فأضمره له [٤٨].

الإصْلاح السُّنّى

كان وصول رضوان إلى منصب الوزارة ، كأوّل وزير سنى للفاطميين ، بداية تحول سنى بطىء قاد إلى انتصار السنة النهائى فى مصر بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا . ولما كانت الإسكندرية من أهم مراكز المقاومة السنية فى مصر وملجأً كل الخارجين على الدولة الفاطمية ، فقد بنى بها الوزير ابن وَلَخْشى أول مدرسة فى مصر لتدريس المذهب المالكى فى سنة ٥٣٢/ ١١٣٨ [٤٩]. فقد كان المذهب الشائع بين أهل الإسكندرية هو المذهب المالكى بسبب علاقتها الواسعة مع شمال إفريقيا والأندلس . وكان الفقيه المالكى أبو بكر محمد بن الوليد

---

[٤٦] نفسه ٤٩ — ٥٠ ، ابن الفرات : تاريخ — خ ٢ : ٦٢ ظ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٥ .

[٤٧] ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٣١ ، وانظر فيما يلى الفصل الثانى عشر .

[٤٨] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥١ — ٥٢ .

[٤٩] ابن ميسر : أخبار ١٣٠ ، (النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٢٩٠ القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٥٨ — ٤٥٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٧ . وانظر فيما يلى الفصل الرابع عشر .

الطُّرطوشى ، الذى استقر فى الإسكندرية سنة ٤٩٠ / ١٠٩٧ ، قد قام ، كما تذكر المصادر ، بتدريس المذهب المالكى فى مدرسة أنشأها فى بيته [٥٠]. لذلك كان من الطبيعى أن يبنى ابن وَلَخْشى مدرسته فى الإسكندرية لأن القاهرة كانت فى هذا الوقت عاصمة الفاطميين ومركز النشاط الشيعى فى العالم الإسلامى ، والمدرسة ابتكار سنى وظاهرة جديدة فى مصر . ولاشك أن إقامة مؤسسة سنية هامة كالمدرسة فى العاصمة الشيعية كان من شأنه قلب التوازن بين الخليفة ووزيره . وبما أن الإسكندرية مدينة كل سكانها من أهل السنة ، كان طبيعيًا أن يبنى رضوان مدرسته بها ليقاوم بها مذهب الدولة وليُعْلى كلمة الإسلام السنى فى مواجهة اتساع نفوذ أهل الذِّمَّة الذى تزايد فى العقود الأولى للقرن السادس [٥١]. ومع ذلك استصدر رضوان سِجِلًّا من الخليفة نُسِبَت فيه المدرسة إلى الخليفة وعرفت « بالمدرسة الحافظية » ولم تنسب فيه إلى الوزير الذى بناها ، لأن الخليفة وليس الوزير هو الذى كان يصدر الأمر بتعيين مدرسها بناء على اقتراح من الوزير . وتولى تدريس هذه المدرسة الفقيه المالكى أبو الطاهر بن عَوْف [٥٢]، وعرفت لذلك فى المصادر بـ « المدرسة العَوْفية » وقد حفظ لنا القلقشندى نص السِّجِلّ الخاص بإنشاء هذه المدرسة [٥٣].

وبعد أربعة عشر عامًا من إنشاء المدرسة الحافظية ، أنشأ وزيرًا سنيًا آخرًا هو العادل بن السَّلار مدرسة ثانية فى الإسكندرية لتدريس المذهب الشافعى ، وقرَّر فى تدريسها الحافظ الشهير أبا الطاهر السِّلَفى [٥٤] . ويذكر السُّبْكى أن

---

[٥٠] الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ الأندلس ١٢٧ .

[٥١] راجع أيمن فؤاد سيد : المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى (تحت الطبع) .

[٥٢] راجع ابن فرحون : الديباج المذهب ١ : ٢٩٢ – ٢٩٥ ، أبا المحاسن : النجوم ٦ : ١٠٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٤٥٢ – ٤٥٣ .

[٥٣] القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٥٨ – ٤٥٩ ، الشيال : « أول أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية » مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية « (١٩٥٧) ٣ – ٢٩ .

[٥٤] أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٢٧ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ١٠٥ ، ٣ : ٤١٧ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٣٧ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٧ : ٣٥٤ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٨ .

ابن السّلار بني هذه المدرسة وهو واليًا على الإسكندرية قبل أن يلي الوزارة [٥٥]، بينما حدّد ابن خلّكان تاريخ بنائها فى سنة ٥٤٦ / ١١٥٠ [٥٦]، أى فى الوقت الذى تولّى فيه ابن السّلار الوزارة ، إلّا أنه عاد فى موضع آخر ليؤكد أن ابن السّلار بناها وهو مازال واليًا على الإسكندرية [٥٧] متابعًا فى ذلك نص السّبكى .

رضوان يواجه الفِرنج (الصّليبيين)

كان استيلاء الفِرنج (الصليبيين) على بيت المقدس فى سنة ٤٩٢ / ١٠٩٩ حافزًا للفاطميين على حفظ ماتبقى لهم من ممتلكات فى جنوب فلسطين ، فاهتموا بإيجاد حامية قوية فى عَسْقَلان تجرّد إليها العساكر والأساطيل فى شكل أبدال تتوالى على حمايتها كل ستة أشهر [٥٨].

وعندما تولّى رضوان الوزارة للحافظ سنة ٥٣١ / ١١٣٧ استجد « ديوان الجهاد » واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عَسْقَلان بالعُدَد والآلات ، وهَيء الناس للخروج إلى الشام وغزو الفرنج [٥٩]. ولكن الخليفة الحافظ منعه من ذلك إذ أرسل يستدعى بهرلم (الوزير الذى حَلّ محله رضوان) وأسكنه معه فى القصر يستشيره فى أموره ، كما حَثّ الجند على التحرُّش برضوان حتى ثاروا عليه وضعفت قدرته على مواجهتهم واضطر إلى الفرار من مصر فى ١٥ شوال سنة ٥٣٣ / ١٥ يونية ١١٣٩ وقصد الاحتماء بأمين الدولة كَمُشْتَكين الأتابكى صاحب صرْخَد الذى أحسن استقباله وأكرم ضيافته كما يذكر أسامة بن منقذ وابن القلانسى [٦٠]

---

[٥٥] السبكى : طبقات الشافعية ٦ : ٣٧ .

[٥٦] ابن خلكان : وفيات ١ : ١٠٥ .

[٥٧] نفسه ٣ : ٤١٧ .

[٥٨] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٣ ، ٤١ .

[٥٩] ابن ميسر : أخبار ١٢٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٣ – ١٦٤ .

[٦٠] نفسه ١٣٠ – ١٣١ ، نفسه ٣ : ١٦٩ – ١٧٢ ، ابن القلانسى : ذيل ٢٧٠ ، ابن ظافر : =

ففى سنة ٥٢٩ / ١١٣٥ كان رضوان والياً على عَسْقَلان وقام بجهد كبير فى محاولة منع توافد الأرمن على مصر [٦١]. ولاشك أنه تمكن خلال هذه الفترة من عقد صلات ودية مع أمراء الشام . وتوضّح لنا رسالة بعث بها كمشتكين إلى رضوان أثناء توليه الوزارة ، أوردها القلقشندى ، أنه كانت تربطهما علاقة ودية قبل أن يتولّى رضوان الوزارة [٦٢].

وقد اتصل رضوان ، أثناء وجوده فى صرّخد ، بعماد الدين زنكى وهو يحاصر بعلبك وطلب إليه أن يمده بمعونة عسكرية تساعده على دخول القاهرة كقائد منتصر . ولكن الخطر الذى كان من الممكن أن يمثله تحالف رضوان مع عماد الدين زنكى على البوريين [٦٣] حكام دمشق ، جعل أسامة ابن منقذ ، الذى كان فى دمشق اعتبارًا من عام ٥٣٢ / ١١٣٨ ويتمتع بمكانة عالية لدى أميرها وكذلك لدى معين الدين أُنُر ، يقترح على رضوان الحضور إلى دمشق . ولكن بدلًا من أن يحضر إليها فورًا طلب إليه أن ينتظر رسالة تدعوه إلى الحضور . غير أن كَمُشْتَكين كان يتعجّل عودة رضوان إلى مصر « لما قد وعده به وأطمعه فيه » [٦٤]. فلا شك أن رضوان قد وعد كمشتكين ، إن هو نجح فى استعادة مكانته فى القاهرة ، أن يُقَلّده منصباً أعلا من ولاية مدينة صغيرة فى إقليم حوران فى الشام [٦٥]. وبذلك جمع كَمُشْتَكين لرضوان جمعًا من الأتراك سيّرهم معه ، إلّا أنهم غدروا به بعد دخوله حدود مصر مما ألجأه إلى طلب الأمان من

= أخبار ٩٩ ، أسامة بن منقذ : الاعتبار ٥٢ – ٥٦ ، القريزى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٠ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٣٢ .

[٦١] نفسه ١٢٤ ، نفسه ٣ : ١٥٦ .

[٦٢] القلقشندى : صبح ٧ : ١٠٧ – ١٠٩ ، Canard, M., "Fatimides et Burides a l'époque du calife al Hāfiz li - Dīn Illāh " REI XXXV (1967), pp - 122 - 117

[٦٣] البوريون . أسرة تركية حكمت دمشق فى الفترة من سنة ٤٩٧ / ١١٠٤ وحتى سنة ٥٤٩ / ١١٥٤ . أسّسها طغدكين أتابك الملك شمس الملوك دقّاق بن السلطان تُتُش السلجوق . (le Tourneau, R., EI^2 ., art. Burides I, pp. 1372 - 1373

[٦٤] أسامة : الاعتبار ٥٤ .

[٦٥] Canard, M., op. cit. p. 144

الحافظ الذى اعتقله بالقصر فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٥٣٤ / أول ديسمبر سنة ١١٣٩ [٦٦].

اعتقال رضوان .

ظل رضوان معتقلًا فى القصر ثمانى سنوات حتى نجح فى الهروب منه من نقب نقبه فى الموضع الذى كان معتقلًا فيه فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٥٤٢ / ١٥ إبريل سنة ١١٤٨ ، واجتمع إليه جماعة ممن كان يكاتبهم وخرج معهم إلى الجيزة حيث استنجد بجماعة من العربان وتمكن من هزيمة العسكر الذى سيره إليه الحافظ عند جامع ابن طولون ، ودخل فى إثرهم إلى القاهرة ونزل بالجامع الأقمر وحاول الاتصال برؤساء الدواوين لاستعادة مكانته ، غير أن الخليفة الحافظ أمر مقدمى السودان بالهجوم عليه فقتلوه غدرًا وحملوا رأسه إلى الحافظ الذى أرسلها بدوره إلى زوجة رضوان [٦٧]، وبذلك قضى على واحد من الذين حاولوا التصدى للأخطار الحقيقية التى كانت تهدِّد العالم الإسلامى فى هذا الوقت .

الحافظ يمتنع عن اتخاذ وزراء

وقد أدرك الحافظ خطر الوزراء على سلطته وتطلعاتهم فلذلك لم يستوزر أحدًا منذ فرار رضوان فى سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ ، وإنما اتُّخذ كُتّابًا على سنة الوزراء أرباب العمائم ولم يسنم أحدًا منهم وزيرًا مثل : أبو عبدالله محمد بن

---

[٦٦] أسامة : الاعتبار ٥٤ – ٥٥ ، ابن القلانسى : ذيل ٢٧٢ ، – ٢٧٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٣٢ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧٣ .

[٦٧] أسامة : الاعتبار ٥٥ (وجعل هذه الحادثة فى غير موضعها) ابن القلانسى : ذيل ٢٩٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٣٧ – ١٣٨ ، ابن ظافر : أخبار ٩٩ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٩ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٠ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٣ : ٦٠ ظ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٨٤ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٢٤٢ ابو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٨١ .

الأنصارى ، والقاضى الموفق محمد بن معصوم التّنّيسى : وصنيعة الخلافة أبى الكرم الأخْرَم النصرانى [٦٨].

لم تمر السنوات الأخيرة لخلافة الحافظ دون مشاكل أو أزمات فقد شهدت السنوات من ٥٣٦ وحتى ٥٣٨ أزمة اقتصادية طاحنة غلت فيها الأسعار وكثر فيها الوباء حتى هلك فيها من المصريين عالم لايحصى [٦٩].

كذلك فقد كثر المطالبون بمنصب الوزارة ، وكان من بينهم أبو الحسين ابن الخليفة المستنصر وعمّ الحافظ الذى اعتقله الحافظ ، وكذلك أحد أمراء المماليك المقيمين بالصعيد ويدعى بختيار ، وقد أمر الحافظ بقتله وصلبه [٧٠].

---

[٦٨] ابن ميسر : أخبار ١٤٠ ، ابن ظافر : أخبار ٩٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٨٩ .

[٦٩] نفسه ١٣٤ ، ابن القلانسى : ذيل ٢٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٩٢ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧٦ .

[٧٠] نفسه ١٣٦ ، ١٣٧ ، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٢٦ ، ١٢٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧٩ .

الفصل الثامن

الاضمحلال

الصّراع على منصب الوزارة

بنهاية عهد الخليفة الحافظ لم يبق للخلفاء أى سلطان على الدولة ، ودارت الصراعات مرة أخرى بين طوائف الجند وخاصة الطائفتين الرَّيْحانية والجُيوشية [1]. وتطلّع ولاة الأقاليم إلى منصب الوزارة وتنافسوا عليه ، يقول ابن الأثير : « إن الوزارة فى مصر كانت لمن غلب .... والوزراء كالمتملّكين ، وقلّ أن وليها أحدٌ بعد الأفضل بن بدر الجمالى إلّا بحرب وقتل وما شاكل ذلك » [2].

بويع أبو المنصور إسماعيل ، الابن الأصغر للخليفة الحافظ ، بالإمامة فى نفس يوم انتقال والده ، وهو يوم الأحد ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ / ١٣ سبتمبر سنة ١١٤٩ وتلقّب بـ « الظّافر بالله » أو « الظّافر بأعداء الله » . ونظرًا لأن الحافظ لم يُصدر أى سِجلّ بتعيين ولى عهد له بعد السِّجلّات الثلاثة التى أصدرها فى سنتى ٥٢٨ و ٥٢٩ وعهد فيها لأبنائه سليمان ثم حَيْدَرَة ثم حسن على التوالى ، بسبب ما لقيه من عَنَت وعقوق من ابنه حسن . فقد

---

[1] أسامة بن منقذ : الاعتبار ٢٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٠ ، ١٤٢ .

[2] ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٥ وقارن عمارة اليمنى : النكت العصرية ١١٣ ، عماد الدين الأصبهانى : البستان الجامع ١٣٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٧ – ١٣٨ .

اضطر إسماعيل إلى إصدار هذا السِّجل ينص فيه على أن الخليفة الراحل كان قد أوصى له بولاية العهد، ويُعْلِن فيه فى الوقت نفسه تولِّيه الخلافة [٣].

وزارة ابن مصال

وفور مبايعته بالخلافة اتخذ الظّافر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم (سليمان) بن محمد بن مصال اللُّكى وزيرًا وخَلَع عليه خِلَع الوزارة بوصية من أبيه ولَقَّبَه بـ « الأفضل أمير الجيوش سعد الملك لَيْث الدولة » [٤]، وهو بذلك آخر وزير فاطمى يعيَّن بهذه الطريقة. وكان ابن مَصَال فى آخر عهد الحافظ ناظرًا للأموز أو المصالح اعتبارًا من سنة ٤٣٩/ ١١٤٤ من غير أن يُطْلَق عليه اسم الوزارة [٥]، وكان فى الوقت نفسه عالمًا بأصول الدين [٦]. وقد نجح ابن مصال فى إعادة النظام بعد محاربته لطائفتى الريحانية والسودان قرب البهنساوية بصعيد مصر [٧].

وزارة العادل بن السَّلار

لم يرض على بن السَّلار، والى الإسكندرية والبحيرة، أن يلى الوزارة شيخًا مثل ابن مصال، فاتفق مع ابن زوجته الأمير عبّاس الصِّنْهاجى – والى الغربية – على التوجه إلى القاهرة وإجبار الخليفة أن يوليه الوزارة. وعندئذ

---

[٣] القلقشندى : صبح الأعشى ٩ : ٢٨٦ – ٢٩١ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٠٨ – ١١٣ ، ٢٦٩ – ٢٧٤ .

[٤] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥٥ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٢ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٤٢ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٣ : ٢١ و ، بينما ذكر ابن ميسر : أخبار ١٤١ ، والنويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٢ أن لقبه كان « المفضل » وانظر كذلك Canard, M., EI²., art. Ibn Masâl III, p. 892

[٥] ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٢١ ، ٥٤٠ .

[٦] ابن الطوير : نزهة ٥٤ .

[٧] ابن ميسر : أخبار ١٤٢ .

طلب الخليفة إلى ابن مصال أن يتجه إلى الحَوْف ليجمع العربان لملاقاة ابن السَّلار، إلّا أن ابن السَّلار تمكّن من دخول القاهرة وإجبار الخليفة على أن يخلع عليه خِلَع الوزارة ويلقّبه بـ « العادل سيف الدين ناصر الحق » . ورغم تمكن ابن مصال من جمع جيش قوامه من بربر لَواتة ومن السودان والعربان ، ونجاحه فى تحقيق نصر مبدئى واستيلائه على الوجه القبلى ، فقد سيَّر إليه ابن السَّلار جيشًا على رأسه الأمير عبّاس الصّنهاجى تمكن من تعقبه وقتله عند مدينة دِلاص قرب البَهْنَسا فى ١٩ شوال سنة ٥٤٤ / ١٩ فبراير سنة ١١٥٠ وحملت رأسه إلى القاهرة وطيف بها هناك [٨].

كان ابن السَّلار أحد الصِّبيان الحُجَرِيّة [٩] سنى على المذهب الشافعى ووجد الظّافر نفسه مجبرًا على توليته الوزارة بعد محاصرته للقصر الفاطمى . وقد حاول الظّافر لذلك أكثر من مرة التآمر على وزيره الذى احترز من الخليفة وانتدب رجالًا لحراسته عرفوا « بصبيان الزَّرْد » [١٠].

وقد عمل ابن السَّلار على تقوية الجيش واهتم بتحصين عَسْقلان وتجريد الأبدال إليها [١١]. ويعتبر ابن السَّلار أوّل من حاول عقد اتفاق مع نور الدين

---

[٨] ابن القلانسى : ذيل ٣١١ ، أسامة بن منقذ : الاعتبار ٣١ ، ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥٥ – ٥٩ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٤٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ١٩٥ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٢ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٢ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤١٦ ، ابن الفرات : تاريخ ٣ : ٢١ و – ٢١ ظ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٦ – ١٩٧ .

[٩] صبيان الحجر : جماعة من الشباب كانوا يربون فى أيام الفاطميين فى حجر بجوار باب النصر ، مثل الطباق السلطانية فى عصر المماليك ، ويتلقون تدريبات عسكرية مثلهم مثل الداوية والاسبتارية . (ابن الطوير : نزهة ٥٧ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤١٨ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٤) .

[١٠] ابن الطوير : نزهة ٥٩ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٣ : ٢٣ و ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٧ – ١٩٨ وراجع عن العادل Wiet, EI²., art. al - Adil b. al - Salâr I , p. 204

[١١] كانت العادة أن يجرد خليفة مصر كل ستة شهور الأبدال إلى عسقلان حسب تواجد الفرنج فى الشام . وكان عددهم يتراوح فى القلة بين ثلاثمائة إلى أربعمائة فارس وفى الكثرة من خمسمائة إلى ستمائة (ابن الطوير : نزهة ٤١ – ٤٢)

أمير حلب لعمل جبهة موحدة فى مواجهة الفرنج الصليبيين [١٢]. وقد كان ذلك دون شك سابقًا لأوانه ، فقد كان نور الدين يتطلّع إلى الاستيلاء على دمشق التى كان الفرنج قد حاصروها قبل ذلك بسنوات [١٣] ولو كان نور الدين متنبهًا له لتمكنا من تطويق الفرنج فى مدن الشام الساحلية . ولإثبات حسن نيته أرسل ابن السّلار فى سنة ٥٤٦ / ١١٥١ قطعًا من الأسطول المصرى إلى يافا تمكنت من أسْر عدد من مراكب الفرنج وأحرقت ما عجزت عن أخذه ، وقَتَل جنوده خلقًا كثيرًا من أهل يافا ، ثم اتجهوا إلى عكا وصَيْدا وبيروت وطرابلس حيث أبلوا بها بلاءً حسنًا وقتلوا جماعة من حجاج الفرنج وكانت هذه الحملة فى نفس الوقت تمثل ثأرًا من الفرنج الذين أغاروا على الفَرَما وأخربوها فى العام السابق [١٤].

المُؤامَرات وضَعْف الخِلافَة

أدّى التنافس على الوزارة إلى إشاعة الفوضى فى البلاد ، كما أن الفساد بلغ القصر الفاطمى نفسه الذى حيكت فيه المؤامرات وكثرت المفاسد الأخلاقية بين سكانه . وتبعًا لابن ظافر وابن الأثير فقد لعب أمير شَيْزَر أسامة بن مُنْقِذ ، الذى قدم إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ / ١١٤٤ [١٥]، دورًا كبيرًا فى حَبْك هذه المؤامرات وإذكاء هذه الفِتَن ، فقد اتصل أسامة بالوزير ابن السّلار الذى أكرم مقدمه ، واختص بصحبة ابن زوجته الأمير عبّاس الصنّهاجى [١٦].

---

[١٢] أسامة بن منقذ : الاعتبار ٣٣ – ٤١ ، ابن القلانسى : ذيل ٣١٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٠٣ .

[١٣] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٠٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٣٧ .

[١٤] ابن القلانسى : ذيل ٣١٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٠٢ ، ابن ميسر : اخبار ١٤٤ ، ١٤٥ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٩٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، الخطط ١ : ٢١٢ .

[١٥] أسامة بن منقذ : الاعتبار ٢٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٣٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧٩ .

[١٦] ابن ظافر : أخبار ١٠٢ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٤ ، ١٩١ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٠٩ ، ٣١٥ ، المقريزى : المقفى (مخ . السليمية) ١٧٢ ظ ، (مخ . باريس) ٢١ و .

وقد تأكَّد لابن السَّلار أن الفِرنْج فى طريقهم إلى الاستيلاء على عَسْقَلان فى أعقاب محاولته مهاجمة مدن الشام الساحلية فى عام ٥٤٦ / ١١٥١ . وكانت العادة جارية كل ستة أشهر بتجريد عسكر من مصر لحفظ عَسْقَلان [١٧] وجاء الدور فى هذه النوبة على عبّاس الصِّنهاجى ، فخرج ومعه نفر من الأمراء فيهم مُلْهم وضرغام وأسامة بن مُنْقِذ [١٨]. وقد نزل عبّاس ومن معه فى بِلْبِيس فى انتظار قدوم العساكر ، فما كان من أسامة إلّا أن حرَّض عبّاس على العادل بن السَّلار بعد أن شكا له اختياره لهذه المهمة وإبعاده عن مصر « بطيبها وحسنها ولَذَّه المقام بها » . وقال له إنه لو أراد لكان سلطان مصر وطلب إليه أن يستغل المودة القائمة بين ولده نصر والخليفة الظافر ، وينقل إليه رغبته فى أن يحل محل ابن السَّلار ، وأن الظّافر سيجيبه إلى طلبه لكرهه لابن السَّلار ، ومتى أجابه إلى ذلك قتل عمه . وقد نجح نصر فى إتمام هذه المهمة بنجاح وقتل الوزير ابن السَّلار فى ٦ محرم سنة ٥٤٨ / ٣ إبريل سنة ١١٥٣ [١٩].

لم تمض مؤامرة قتل ابن السَّلار دون مقاومة ، فقد تجمّع أصحاب ابن السَّلار وغلمانه وشغبوا على الظّافر وخرجوا إلى ظاهر القاهرة ، وقد حاول الخليفة تسكيتهم ولكنهم استوحشوا مما حدث ولم يثقوا فى وعود الخليفة بمنحهم عفوًا عامًا ، وخرجوا ليلًا قاصدين الشام . كما أن أهل السنة بمصر لم

---

[١٧] ابن الطوير : نزهة ٤١ ، ٤٢ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٦ .

[١٨] أسامة : الاعتبار ٤١ – ٤٢ ، ابن الطوير : نزهة ٦١ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٦ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٣ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٥٥ – ٥٦ ، اتعاظ ٣ : ٢٠٤ – ٢٠٥ ، المقفى (خ . السليمية) ١٧٢ ظ .

[١٩] أسامة : الاعتبار ٤١ – ٤٢ ، ابن القلانسى : ذيل ٣١٩ – ٣٢٠ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٣ ، ابن الطوير : نزهة ٦٢ – ٦٦ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٤ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢١٤ – ٢١٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٢٦ – ٢٢٧ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤١٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٦ – ١٤٧ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٥٣ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٥٥ – ٥٦ ، اتعاظ ٣ : ٢٠٤ – ٢٠٥ ، المقفى (خ . السليمية) ١٧٢ ظ .

يرضوا عن مقتل ابن السَّلار ولكنهم لم يتمكنوا من إعلان عدم رضاهم خوفًا من بطش الخليفة وعبّاس الصّنهاجى وولده نصر [٢٠].

وقد نَكَّل الظّافر بجثة ابن السَّلار حيث حملت رأسه إلى القصر وأشرف عليها الخليفة من باب الذّهب ، ثم رفعت ليراها الناس ثم أمر بإيداعها بخزانة الرؤوس ببيت المال [٢١].

كان رد الفعل المباشر لقتل الوزير ابن السَّلار هو استيلاء الفرنج على مدينة عَسْقَلان التى وقعت فى أيديهم فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ٥٤٨ / ٢٠ أغسطس سنة ١١٥٣ . وبذلك فقد الفاطميون آخر ممتلكاتهم فى الشام [٢٢].

وزارة عبّاس الصّنهاجى وفَقْد هَيْبَة الخلافة

كان من الطبيعى أن يُقَلِّد الظّافر الوزارة لعبّاس الصّنهاجى ولقبه بـ « السيد الأجَلّ الأفْضَل أمير الجيوش .. أبو الفضل العباس الظّافرى » [٢٣]. وقد ازداد عبّاس فى تقريب أسامة بن مُنْقِذ وإكرامه اعترافًا منه بفضله عليه . كذلك عمل على التقُّرب إلى الأمراء وإكرامهم وأحسن إلى الجنود لينسيهم العادل بن السَّلار .

أما ولده نصر فقد استمر على مخالطة الخليفة الظّافر ، وكان الخليفة يخرج من قصره لزيارة نصر بداره التى بالسُّيوفيين قريبًا من القصر بحيث لا يعلم عبّاس بأخبار هذه اللقاءات .

---

[٢٠] ابن الطوير : نزهة ٦٤ – ٦٥ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٧ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٠٥ .

[٢١] ابن ميسر : أخبار ١٤٧ .

[٢٢] ابن القلانسى : ذيل ٣٢٠ – ٣٢٢ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٨ – ١٨٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٢٣ – ٢٥٥ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٠٩ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية ١٣٩ ، ١٤٤ .

[٢٣] ابن الطوير : نزهة ٦٦ ، القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٢٢ ، Siern, S., Fatimid Decrees pp. 65-69; id., EI², art . Abbâs b. abil-Futûh 1, pp. 9-10 .

وقد استوحش الأمراء من أسامة بن مُنْقِذ والدور الذى قام به فى قتل ابن السَّلار وهمّوا بقتله . فلما بلغه ذلك أخذ فى إثارة عباس على ولده نصر متهماً له بأن الخليفة يفعل به مايفعل مع النساء . ففاتح عبّاس ابنه فى ذلك وانزعاجه مما يتناقله الناس . فما كان من نَصْر إلّا أن قتل الخليفة فى أحد زياراته له بتحريض من والده ومن أسامة بن مُنْقِذ فقتله فى داره بالسيوفيين فى آخر المحرم سنة ٥٤٩ / ١٦ إبريل ١١٥٤ [٢٤].

وقد بَرّء أسامة بن منقذ نفسه فى هذه التهم فى سيرته الذاتية [٢٥].

لم تسر الأمور على الوجه الذى أراده لها الوزير عبّاس ، فبعد أن أوهم أهل القصر فى مشهد درامى أن إخوة الخليفة هم الذين قتلوه وأنه قتلهم به . أحضر طفلًا صغيرًا للظافر يدعى عيسى وأقامه فى منصب الخلافة ولقّبه بـ « الفائز بنصر الله » وهو لم يبلغ الخمس سنوات ، فكاد الطفل يموت رَوْعًا من هول ماشاهده من منظر الدماء والقتلى فى القصر ، وظل طول خلافته القصيرة مصابًا بالصَّرَع [٢٦].

---

[٢٤] أسامة : الاعتبار ٤٣ – ٤٤ ، ابن القلانسى : ذيل ٣٢٩ – ٣٣٠ ، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٠ ، ابن الطوير : نزهة ٦٧ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩١ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٥ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٤٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٣ – ٢٤٥ ، ابن خلكان : وفيات ١ : ٢٣٧ ، ٣ : ٤١٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٧ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٤ ، ابن أيبك : كنز ٦ : ٥٥٧ ، ٥٦٣ ، الصفدى : الوافى ٩ : ١٥١ – ١٥٢ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٠٨ ، المقفى (خ . السليمية) ١٧٢ ظ ، ١٨٩ ظ ، الخطط ٢ : ٣٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٨٩ .

[٢٥] أسامة : الاعتبار ٤٤ .

[٢٦] أسامة : الاعتبار ٤٤ ، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣١ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٨ – ١٠٩ ، ابن الطوير : نزهة ٦٩ – ٧٠ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٨ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٤٥ – ٤٦ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٤ ، ابن الفرات : تاريخ – خ ٣ : ٨٠ ظ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢١٣ – ٢١٤ ، ٢٣٩ ، المقفى (خ . باريس) ٢١ ظ . وانظر توقيع هذا الخليفة فى المجلة التاريخية المصرية ٥ (١٩٥٦) ١٠٨ .

طلائع بن رُزِّيك
آخر وزراء الفاطميين الأقوياء

أدّت هذه الأحداث إلى قلق واضطراب القصر وجماهير الشعب على السواء . فسارع نساء القصر بالكتابة إلى والى الأشمونين والبَهْنَسا طلائع بن رُزّيك ، وأرسلن إليه شعورهن فى طَىّ الكتب – وهو أقصى مايمكن فى التوسُّل عند المرأة المسلمة – يستنجدن به لإنقاذ الخلافة وليقوم بدور المنقذ الذى لاغنى عنه [٢٧].

قدم طلائع بن رُزّيك بقواته حتى وصل إلى المَقْس فى ١٥ ربيع الأول سنة ٥٤٩ / أول يونية سنة ١١٥٤ ، ودَخل إلى القاهرة مؤيدًا من كافة الأطراف بعد ذلك بأربعة أيام [٢٨] بعد أن تَحقّق عبّاس ونصر وأسامة بن مُنْقِذ من معاداة الناس ورفضهم لهم وهربوا بما خف من المال والتحف إلى أيْلة قاصدين الشام ، ونهب العامة مابقى فى دورهم [٢٩].

وقد دخل طلائع إلى القاهرة مع قواته لابسًا ثيابًا سوداء ورافعًا أعلامًا وبنودًا سوداء وكذلك شعور نساء القصر على الرماح حزنًا على الظّافر . ونزل بدار نصر بن عبّاس وعلم المكان الذى دفن فيه الظّافر فأخرجه وغَسّله وكفَّنَه ، وحمله الأستاذون والأمراء فى تابوت إلى القصر ، وطلائع خلفهم

---

[٢٧] أسامة : الاعتبار ٤٥ : ابن ميسر : أخبار ١٤٩ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٩٢ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢١٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٢٧٠ .

[٢٨] أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٣ .

[٢٩] أسامة : الاعتبار ٤٨ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٨ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩٣ ، ابن يسر : أخبار ١٤٩ – ١٥٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٦ ، ٣ : ٤٩٢ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٥ ، الصفدى : الوافى ٩ : ١٥٢ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢١٥ – ٢١٧ ، الخطط ٢ : ٢٩٣ ، ٤١٠ .

حاف قد شق ثيابه ومعه الناس ، حيث صلى عليه ابنه الخليفة الفائز وأعيد دفنه مع آبائه فى تربة القصر المعروفة بتربة الزَّعْفران [٣٠].

وفور انتهاء هذه الرسوم ، خلع الخليفة الفائز على طلائع بن رُزِّيك خِلَع الوزارة وأمر بإنشاء سِجِلّ نُعت فيه بـ « الملك الصّالح » ليصبح بذلك أوّل من تلقب « بالملك » من وزراء الفاطميين ، وذلك يوم الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٩/٥٤٩ يونيه ١١٥٥ ، وهذا السِّجِلّ من إنشاء المُوَفّق ابن الخلّال [٣١].

وقد أَرْسَلَت أخت الخليفة الظّافر إلى الفرنج بعَسْقَلان تطلب تسليم عبّاس ونصر وتخبرهم بما اقترفوه فى حق ابن السّلار والخليفة الظّافر وعرضت عليهم مالًا جزيلًا إذا أوقعوا به ، فتمكنوا منه وقتلوه قرب المُوَيْلح فى ٢٣ ربيع الآخر سنة ٧/٥٤٩ مايو ١١٥٤ ، وتمكن أسامة من الفرار إلى الشام [٣٢]، أما نصر فقد تسلمته جماعة الدّاوية فى فلسطين مقابل ثلاثين ألف دينار وأرسلته فى قفص من حديد إلى نساء القصر بالقاهرة اللائى عَذّبنه وأرسلنه مقعدًا فاقد البصر لكى يعرض فى شوارع القاهرة ثم يُصْلَب حيًّا على باب زُوَيْلَة [٣٣]، وذلك

---

[٣٠] ابن ظافر : أخبار ١٠٨ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٩ — ١٥٠ ، سلويرس : تاريخ البطاركة ٤٦/١/٣ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٦ ، ٣ : ٤٩٢ ، ابن سعيد : النجوم ٩١ ، ٢٢١ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٩٥ ، الصفدى : الوافى ٩ : ١٥٢ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٢٧٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢١٥ — ٢١٧ ، الخطط ٢ : ٢٩٣ ، ٤١٠ .

[٣١] ابن ميسر : أخبار ١٥٠ ، ١٥١ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / : ٤٦ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٩٥ ، ٩٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢١٨ ، ٢١٩ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٦ ، ٣ : ٤٩٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٥٠ ، ٥ : ٣١١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢١٤ — ٢١٥ ، الشيال مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥١ — ١٥٣ وانظر ألقابه كذلك عند Wiet, G., RCEA VIII, no 3189., IX, no 3231; Stern, S., Fatimid Decrees pp. 70 - 79.

[٣٢] أسامة : الاعتبار ٥٠ ، ابن ظافر : أخبار ١٠٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٥٠ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٩٢ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٦٧ — ٥٦٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٢٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣١٠ .

[٣٣] ابن ظافر : أخبار ١٠٩ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٩٣ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : =

فى ربيع الأول سنة ٥٥٠ / يولية ١١٥٤ . وتحتفظ مخطوطة بالمتحف البريطانى بنَصّ السِّجِلّ الذى يعلن وصوله إلى القاهرة [٣٤].

يعد الصّالح طلائع بن رُزّيك خاتمة الوزرَاء الفاطميين الأقوياء ، وآخر دعامة فى الدولة المتداعية ، إلّا أنه كان إمامى المذهب شديد التعصب له مبغضًا للنصارى [٣٥]. واعتبر عمارة اليمنى أن زوال دولة الفاطميين من مصر قد تم مع نهاية حكم طلائع بن رُزّيك وولده [٣٦].

وفور أن تولى الصّالح طلائع الوزارة استولى على مقاليد الأمور لصِغَر سن الخليفة ، مثلما فعل الوزير الأفضل من قبل مع الخليفة الآمر ، وأخذ فى تَتَبُّع كبار رجال الدولة وأعيانها وصادر أموالهم خوفًا منهم ، حتى اضطر بعضهم إلى مغادرة مصر [٣٧].

واستن الصّالح طلائع سُنَّة جديدة إذ أخذ يبيع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقرَّرة تعرف بـ « البراطيل » . وجعل لكل ولاية سعرًا ، وحدَّد مدة كل متول بستة أشهر فقط ، خوفًا منه أن يثوروا عليه وينازعوه الوزارة . ومن ناحية أخرى احتكر الغلّات الزراعية حتى غلت أسعارها مما أضعف اقتصاد الدولة [٣٨].

ولاشك أن الصّالح طلائع كان آخر وزراء ، الفاطميين الذين حاولوا التصدّى للفرنج فى الشام . فابتداء من عام ٥٥٠ / ١١٥٥ أخذ فى إرسال

= ٤٦ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٦٧ – ٥٦٨ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ، ١٧ ظ ، (خ . باريس) ٢١ ظ ، Stern , S., EI²., art. 'Abbâs b. abil'l - Futûh I, p. 9

٣٤ Br. Mus. Suppl. 1140 .

٣٥ ابن الأثير : الكامل ١١ : ٢٧٥ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٤٦ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٤ ، اتعاظ ٣ : ٢٢٢ ، ٢٤٩ .

٣٦ عمارة اليمنى : النكت العصرية ٦٨ .

٣٧ ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩٤ ، ابن ظافر : أخبار ١١١ .

٣٨ ابن ظافر : أخبار ١١١ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ١١٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٢٢ ، ٢٤٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٣٩ .

الأسطول والجيش لمحاربة الفرنج فى صور وتمكن من إحراقها وأسر حجاجًا من النصارى وظفر كذلك بغنائم كثيرة [٣٩].

وفى عام ٥٥٢ / ١١٥٧ فُسِخَت الهدنة التى عقدها مع الفرنج فى العام السابق ، فأخذ فى إعداد العساكر وتجهيزهم للإغارة مرة أخرى على الفرنج حيث تمكنت جيوشه من مهاجمة غَزَّة وعَسْقَلان والشَّريعة وبيروت والشَّوْبَك وعَكّا [٤٠]. وكرَّر المحاولة فى عام ٥٥٣ / ١١٥٨ حيث وصلت قواته إلى بيت المقدس مما اضطر الفرنج إلى طلب الصلح . وقد بلغ جملة ما أنفقه الصّالح طلائع على العساكر فى هذه الحملات أكثر من مائة ألف دينار [٤١].

وقد أدرك الصّالح أن مصر لا تستطيع بمفردها مواجهة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس ، فاستعاد التقليد الذى بدأه قبله العادل ابن السّلار فأرسل إلى نور الدين ، صاحب دمشق ، يطلب إليه توحيد جهودهما . وكان رسول الصّالح طلائع فى هذه المهمة الأمير أسامة بن مُنْقِذ الذى تبادل معه مجموعة من القصائد قصد بها تيسير مهمته لدى نور الدين لخلق نوع من التحالف بين مصر الشيعية والشام السنية ضد الفرنج فى الشام [٤٢]. وتأكيدًا لنيته أرسل الصّالح سفارة إلى نور الدين ومعها هدية « من الأسلحة وغيرها قيمتها ثلاثون ألف دينار ، وسبعون ألف دينار عَيْنًا عونًا له على قتال الفرنج » [٤٣].

---

[٣٩] ابن القلانسى : ذيل ٣٣٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٥٢ – ٢٥٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٥٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٢٤ .

[٤٠] نفسه ٣٣١ ، ابن ميسر : أخبار ١٥٥ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٣٠ .

[٤١] أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٨٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٥٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٣٤ .

[٤٢] أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٨٨ : ٢٩٩ .

[٤٣] ابن القلانسى : ذيل ٣٥٣ ، ابن ميسر : أخبار ١٥٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٣٤ .

وقد تنبّه الفرنج إلى خطورة مثل هذا التحالف عليهم ، فأرسلوا فى سنة ٥٥٤ / ١١٥٩ رسولًا إلى القاهرة ومعه هدية لطلب الهُدْنَة [٤٤]، ولكن الصّالح رفض ذلك واستمر على مساندته لنور الدين .

كان من الطبيعى أن تتآلف المملكتان الإسلاميتان فى دمشق والقاهرة فى مواجهة الفرنج ، ولكن اختلاف المذاهب الدينية وقف حجر عثرة فى سبيل هذا الائتلاف .

كانت هذه آخر محاولة للملك الصّالح إذ أن هموم السياسة والمشاكل الداخلية لم تترك له متسعًا من الوقت لاستعادة مهاجمة الفرنج . ومع ذلك فقد كان يحترز من الفرنج ويخشى انتقامهم فبنى فى سنة ٥٥٤ / ١١٥٩ حصنًا من لبن على بلبيس حفظ له خلفاؤه من الوزراء امتنانًا كبيرًا عليه [٤٥].

وإذا كانت هذه هى آخر محاولات وزراء الفاطميين فى مهاجمة الفرنج ، فإن الفرنج أخذوا بعد هذا التاريخ يهتمون بأمر مصر وصراعاتها الداخلية كما سنرى بعد ذلك . ولسبب مجهول فقد التزم الملك الصّالح بأن يدفع للفرنج جزية سنوية مقدارها ٣٣ ألف دينار امتنع شاور السعدى بعد أن تولى الوزارة عن دفعها لهم [٤٦].

وإلى الصالح طلائع يرجع فضل بناء آخر المعالم العمرانية للفاطميين فى القاهرة ، وهو الجامع الذى مازال قائمًا إلى الآن خارج باب زُوَيْلة والذى يعود تاريخ بنائه إلى سنة ٥٥٥ / ١١٦٠ [٤٧].

---

[٤٤] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٣٦ .

[٤٥] نفسه ٣ : ٢٣٦ .

[٤٦] أورد خبر هذه الجزية غليوم أسقف صور (Cahen, Cl., Un récit inédit du vizirat de Dirgham " an Isl, VIII (1969), pp. 29 - 30, 40, 42.

[٤٧] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٣ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٩٧ .

أطماع الصّالح طلائع

كان الملك الصّالح يطمع فى أن يجعل أمر الخلافة الفاطمية فى عقبه ، فعندما توفى الخليفة الفائز فى ١٧ رجب سنة ٥٥٥ / ٢٣ يولية سنة ١١٦٠ دون وريث ، أقام مكانه فى الخلافة الأمير عبدالله حفيد الحافظ ، وهو أصغر الأقارب [٤٨]، ونعته بـ « العاضد لدين الله » وزوّجه من ابنته عسى أن ترزق منه ولدًا « فيجتمع لبنى رُزّيك الخلافة مع الملك » [٤٩].

وقد استبد الصالح بجميع أمور الدولة ولم يكن للعاضد معه أمرٌ ولا نهى ، حتى أنه نقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة .

ضاق الخليفة العاضد بتسلُّط طلائع عليه ، كما أن نساء القصر لم يقبلن بسهولة زواج ابنته من الخليفة فدبَّرت السيدة العمة ست القصور ، أخت الظّافر الصغرى ، لقتله حيث تربّص له بعض الخدام فى دهليز القصر وأردوه قتيلًا فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ / ١١ سبتمبر سنة ١١٦١ [٥٠].

---

[٤٨] يلاحظ أن الصّالح أقام العاضد خليفة مباشرة وليس « إمامًا مستودعًا » كما تقضى بذلك العقيدة الإسماعيلية . كما أنه اختار أصغر أقارب الخليفة المتوفى وليس أكبر الأقارب سنًا . فقد أشار عليه أصحابه باختيار أصغر الأقارب كما فعل الوزير عباس مع إخوة الظافر ، وراجع Wiet, G., EI², art. al-Adid li-Dini llâh I, pp. 202 - 203

[٤٩] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٤٦ ، وقارن عمارة اليمنى : النكت العصرية ٥٣ ، ٦١ ، ٦٢ ، ابن ظافر : أخبار ١١٢ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، الصفدى : الوافى ١٦ : ٥٠٣ ، أبا المحاسن : النجوم ٥ : ٣١٨ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٩٦ .

[٥٠] عمارة اليمنى : النكت ٤٨ ، ١٠٠ ، ١٤٥ (وفيه أنه لما قتل الصالح هاجت القاهرة وماجت) ، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٣ ، ابن ظافر : أخبار ١١٢ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ : ١ : ٤٧ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٢٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣١١ - ٣١٣ ، ٤١٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٨ ، النويرى : نهاية - خ ٢٦ : ٩٦ - ٩٧ ابن الفرات : تاريخ - خ ٥ : ٧٩ ظ ، الصفدى : الوافى ١٧ : ٦٨٦ ، ابن سعيد : النجوم ٢٢٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٤ ، اتعاظ ٣ : ٢٤٦ - ٢٤٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٤٥ ، ٣٥٩ - ٣٦٠ .

كانت آخر كلمات الصّالح عند وفاته أسفه على أنه لم يعمل على غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفرنج . وعلى بنائه جامعه على باب زُوَيْلة لأنه مضرة على القاهرة ، وتحذيره لابنه لكى يحترس من شاور حاكم الصعيد وأن لا يتعرض له بإساءة لأنه لن يأمن عصيانه [٥١].

وزارة العادل رُزّيك

خلف الصّالح طلائع فى منصب الوزارة ولده رُزّيك وتلقب بـ « الملك العادل » وعمل على إصلاح سياسة والده حيث سامح الناس بما عليهم من البواقى الثابتة فى الدواوين ، وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة ، وأدّى عن الحُجّاج ما يلزمهم إلى أمير الحرمين [٥٢].

حاول المقرّبون من العادل رُزّيك أن يُحَسّنوا إليه صرف شاور عن ولاية قوص ليتم له الأمر بلا منافسة ، فأقصاه – بالرغم من وصية والده – سنة ٥٥٧ / ١١٦٢ وعيّن محله الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرِّفْعَة واليًا على قوص [٥٣]. وقد اضطر شاور بعد محاولة للسير صوب القاهرة أوقفها رُزّيك فى مصر الوسطى أن يقبل مؤقتًا هذا الإقصاء حيث توجه بقواته إلى الواحات ومنها إلى أقاليم غرب الدلتا وتمكن من الاستيلاء على القاهرة من جهة الشمال فى سنة ٥٥٨ / ١١٦٣ [٥٤].

---

[٥١] ابن الأثير : الكامل ١١ : ٢٩٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٣٩ – ٤٤٠ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٧ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٧ : ١٩ ، المقريزى اتعاظ ٣ : ٢٥٤ : الخطط ٢ : ٢٩٣ .

[٥٢] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٥٣ .

[٥٣] نفسه ٣ : ٢٥٤

[٥٤] نفسه .

الفصل السابع

النهاية

وانقلاب صلاح الدين

كانت السنوات الأخيرة فى عمر الدولة الفاطمية سلسلة من الصراعات والحروب بين ولاة الأقاليم المتنافسين على منصب الوزارة والقوى الخارجية التى استعانوا بها لتثبيت مكانتهم .

الصّراع بين شاورَ وضِرْغام

ففى سنة ٥٥٨ / ١١٦٣ تغلّب شاور بن مجير السَّعْدى ، والى قوص ، على الملك العادل رُزّيك بن الصّالح طلائع واعتقله ، ثم قتله طَىّ بن شاور فى ٢١ رمضان سنة ٥٥٨ / ٢٣ أغسطس سنة ١١٦٣ [1].

كان شاور قد تولّى الوزارة فى ٢٢ محرم سنة ٥٥٨ / يناير سنة ١١٦٣ ، ولم تكد تمضى على تولّيه الوزارة تسعة أشهر حتى نافسه عليها أبو الأشبال ضِرْغام بن عامر بن سوار المنذرى ، مُقَدّم الأمراء البرقية وصاحب الباب (وهى رتبة تلى الوزارة مباشرة) [2]، الذى تمكن من الظهور عليه بعد قتال

---

[1] عمارة اليمنى : النكت ٦٦ — ٦٧ ، مؤلّف مجهول : أخبار الدولة المصرية ٤٠ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣ / ١ : ٥٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤١٦ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٤٦ ، اتعاظ ٣ : ٢٥٧ — ٢٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٤٦ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية ١٦٣ .

[2] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٢٢ . وعن ضرغام راجع ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٩ ، ٢ : ١٢ — ١٣ ، اتعاظ ٣ : ٢٦ ، Canard, M., EI², art . Dirghām II, pp . 327-28

انتهى بمقتل الأمير طىّ بن شاور ، فخَلَع عليه العاضد خِلَع الوزارة ولَقّبه بـ « الملك المنصور » [٣].

اضطر شاور إلى الفرار من مصر قاصدًا الشام فى آخر رمضان سنة ٥٥٨ / أغسطس سنة ١١٦٣ مستنجدًا بالسلطان العادل نور الدين محمود ، صاحب دمشق ، فوصل إليها فى ٦ ربيع الأول سنة ٥٥٩ / ٥ فبراير سنة ١١٦٤ وتعهَّد له إن هو ساعده فى إعادته إلى منصبه والقضاء على منافسه ضِرْغام أن يدفع له ثُلْث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر ، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه فى مصر ، وأن يتصرف هو بأوامر نور الدين واختياره [٤].

كانت محاولة شاور الاستعانة بأمراء الدول المجاورة هى مُؤَشِّر نهاية الدولة الفاطمية ، فقد دلَّت أمراء الشام ثم ملوك الفرنج بعد ذلك على مواطن ضعف الدولة وأغرتهم بالطمع فيها والاستيلاء عليها .

وكان نداء شاور لنور الدين نقطة تحول هامة فى مستقبل سياسة نور الدين ، فقد وجَّه أنظار الأمير الشامى صوب مصر ، وكانت الظروف مواتية

---

[٣] عمارة : النكت ٦٨ – ٦٩ ، ٨١ ، مؤلف مجهول : أخبار الدولة المصرية ٤٠ – ٤١ ، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٤ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٢٠ ، الكامل ١١ : ٢٩١ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤١٧ ، ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٤٥ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٩ ، الصفدى : الوافى ١٦ : ٥٠٧ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٨ ، ٢ : ١٢ ، اتعاظ ٣ : ٢٦٠ ، ٢٦١ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٣٨ ، ٣٤٦ .

[٤] ابن ظافر : أخبار ١١٤ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٢٠ ، الكامل ١١ : ٢٩٨ : ابن شداد : النوادر السلطانية ٣٦ ، البندارى : سنا البرق الشامى ١٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣١ – ٣٣٣ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٧ – ١٣٨ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٧ : ١٤٥ – ١٥١ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٩ ، السبكى : طبقات الشافعية ٧ : ٣٤١ ، الصفدى : الوافى : ١٦ : ٩٤ ، ٣٦٥ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٦٤ ، الخطط ١ : ٣٣٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٨٧ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٦٤ .

للتدخل فقد كانت الدولة الفاطمية تحتضر ولم تكن تحتاج سوى قليل من الوقت لتلقي حتفها ، ومن ناحية أخرى فإن أى استقرار لعناصر شامية فى مصر أو فرض رقابة على حكومة الفاطميين كان سيتيح محاصرة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس التى كان عليها مواجهة جبهتين واحدة فى الشمال والأخرى فى الجنوب ، كما أن الأسطول المصرى كان مايزال قادرًا على إزعاج حركة سفن الفرنج فى البحر [٥].

وفى نفس الوقت الذى استُقبل فيه شاور فى البلاط النورى ، أرسل منافسه ضِرْغام إلى نور الدين رسالة يطلب فيها دعمه وتأييده فى منصبه الجديد . ولكن طلبه لم يعره نور الدين أى اهتمام وخاب ظنه فى مسعاه . وبعد رفض نور الدين مساعدة ضِرْغام حاول ضِرْغام أن يكسب تأييد عمورى Amaury ملك بيت المقدس ليدافع عنه ضد أى هجوم يقوم به شاور ، وعرض عليه دفع مبلغ كبير من المال ، ولكن عمورى تباطء فى الرد عليه [٦].

حملة شيركوه الأولى على مصر .

أجاب نور الدين شاور إلى مطلبه بعد تردد خوفًا منه من الفرنج ، فأرسل معه فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩ / إبريل سنة ١١٦٤ جيشًا على رأسه أسد الدين شيركوه ، الذى كان له دور أساسى فى اتخاذ نور الدين لقراره ، ليعيد شاور إلى منصبه .

لم يكن ضِرْغام يجهل أن جيش نور الدين جاء لعيد منافسه شاور إلى الوزارة ، وأن العهود التى قطعها شاور لنور الدين ستمكنه من الاستيلاء على مصر واستغلالها لصالحه . وقد أدرك ضرغام أنه ضائع لا محالة . وبما أنه لم

---

[٥] Elisséeff, N., Nūr al - Din , un grand prince musulman de syrie au temps des Croisades, II, p. 585

[٦] أبو شامة : الروضتين ١ : ٤١٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٦٣ ، ٢٧٦ .

تكن له ثقة فى قواته فقد وجّه نداءً جديدًا إلى الفرنج ، وعرض على عمورى – إذا استطاع أن يقطع الطريق على شيركوه – عقد تحالف معه يجعل مصر ، فى حالة انتصار الفرنج ، مقطعة لمملكة بيت المقدس بدلًا من أن تكون تابعة للسوريين . وقد قبل عمورى هذا العرض واستعد للتدخل ، ولكنه لم يكن يملك قواتًا كافية فقد نجح نور الدين فى تحويل أنظار الفرنج إلى ناحية بانياس ليحمى تقدُّم قوات شيركوه ، وجعلهم مضطرين إلى استبقاء بعض القوات هناك [٧].

وقد انتهى تدخل الجيوش الشامية بقتل ضِيرْغام فى رجب سنة ٥٥٩ / يونية ١١٦٤ عند المشهد النفيسى جنوب القاهرة ، بعد أن تفرّق عنه أنصاره وتخلّى عنه الخليفة العاضد [٨].

شاور يعود إلى الوزارة

وفور القضاء على ضِيرْغام أصدر الخليفة العاضد سجلًا بتولية شاور الوزارة للمرة الثانية فى الرابع من رجب سنة ٥٥٩ / ٢٦ يونية سنة ١١٦٤ [٩]، يقول

---

[٧] Elisséeff, N., op. cit., II, pp. 582 - 84

[٨] عمارة : النكت ٧٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣٢ – ٣٣٣ ، ٤٢٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٩ ، النويرى : نهاية – ح ٢٦ : ١٠٠ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٢ ، ٧ : ١٤٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٧٠ ، الخطط ٢ : ١٢ – ١٣ . وتجد تفصيل الحرب التى دارت بين شاور وضرغام وحديث عن أبواب القاهرة واستحكاماتها فى نص مجهول المؤلف نقله ابن الفرات فى تاريخه واعتمد عليه المقريزى فى الخطط والاتعاظ ونشره كلود كاهن سنة ١٩٦٩ Cahen, Cl., "Un récit inedit du vizarat de Dirgham", An. Isl. VIII (1969), pp. 27 - 61.

[٩] انظر نص سجل تولية شاور الوزارة للمرة الثانية عند القلقشندى : صبح ١٠ : ٣١٠ – ٣١٨ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥٥ ، ٣٦٩ – ٣٧٩ ، وهو من إنشاء الموفق بن الخلال . وكتب فى نفس الوقت سجل آخر بتوليه الكامل بن شاور « نيابة الوزارة » (صبح ١٠ : ٣١٨ – ٣٢٥) وهى أول مرة يقابلنا فيها هذا المنصب .

أبو شامة : « ولم يُغْلَب وزيرٌ لهم وعاد سوى شاور »[١٠]. وبالطبع لم يف شاور بتعهداته التى قطعها لنور الدين ، بل طلب إلى شيركوه أن يغادر مصر ويعود على الفور مع قواته إلى الشام . ولكن شيركوه سارع بإرسال قواته فاستولت على بلبيس وحكم على البلاد الشرقية [١١].

لم يجد شاور أمامه هذه المرة سوى اللجوء إلى الفرنج يطلب نجدتهم ومساعدتهم على إخراج جيوش نور الدين ويُخَوِّفهم منه إن هو ملك مصر . وإذا كان لجوُ شاور لطلب نجدة نور الدين يعد خيانة لأنه قصد أميرًا سنيًا موال لبغداد ومخالف لعقيدة الدولة التى يمثلها ، فإن لجوءه فى هذه المرة إلى عمورى الأول Amaury I ملك مملكة بيت المقدس ، يعد خيانة كاملة الأركان إذ أنه لم يطلب فى هذه المرة مساعدة حاكم مسلم بل لجأ إلى أعداء المسلمين يطلعهم على نقاط ضعف بلاده ويطمعهم فيها .

وقد رحّب الفرنج ، الذين وعدهم شاور بدفع ألف دينار يوميًا ، بهذا العرض على أمل أن يتمكنوا من الاستيلاء على مصر لحسابهم ، وبعد أن حاصروا قوات شيركوه فى بلبيس لمدة ثلاثة أشهر ، قَبِل شيركوه عرضًا بالعودة إلى الشام بعد أن اضطر الفرنج إلى فض حصارهم ومغادرة مصر بعد أن علموا بهزيمة قواتهم فى حارم وبتقدُّم جيوش نور الدين صوب بانياس [١٢].

---

[١٠] أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣٤ .

[١١] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٢١ – ١٢٢ ، الكامل ١١ : ٢٩٩ – ٣٠٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٩ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١٠٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٧٤ – ٢٧٨ ، الصفدى : الوافى ١٦ : ٢١٤ – ٢١٥ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٦٥ .

[١٢] نفسه ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، نفسه ١١ : ٣٠٠ – ٣٠٤ ، نفسه ١ : ٣٣٦ ، ٤٢٣ ، نفسه ١ : ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، نفسه – خ ٢٦ : ١٠٠ ، نفسه ٣ : ٢٧٧ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٦٦ .

يذكر أبو صالح الأرمنى أن الغز الأكراد قاموا ومعهم عوام أهل مصر بهدم وإحراق العديد من البيع والكنائس فى أثناء حملة شيركوه الأولى سنة ٥٥٩ ، عندما علموا باستنجاد شاور بملك بيت المقدس لينصره عليهم . (تاريخ ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٠) .

كان شاور هو الفائز الحقيقى فى هذا الصراع ، فبعد أن أعادته جيوش شيركوه إلى منصب الوزارة ، نجح بفضل تدخل نور الدين ضد جيوش عمورى فى فلسطين فى التخلص من جيوش السوريين وجيوش الفرنج على السواء ، وأصبح طوال العامين التاليين ابتداء من المحرم سنة ٥٦٠ / نوفمبر سنة ١١٦٤ هو صاحب الأمر والنهى والمتحكم فى مقادير مصر وتخلَّص من أنصار ضِرْغام وفرض على الخليفة وصايته الكاملة .

حملة شيركوه الثانية على مصر

ظَلَّ شيركوه منذ أن اضطر إلى الخروج من مصر يفكر فى كيفية العودة إليها مرة أخرى للاستيلاء على السلطة بالقاهرة ، فقد داعبته فكرة الاستقلال بها والخروج على سيطرة نور الدين وإقامة سلطة قوية مستقلة فى مصر

وهكذا جاءت حملة شيركوه الثانية على مصر فى سنة ٥٦٢ / ١١٦٧ ، والتى اصطحب فيها ابن أخيه صلاح الدين [١٣]. وقد أيقن شاور من استقراء الأحداث أن شيركوه إذا قدم إلى مصر فى هذه المرة فسيكون بنيَّة البقاء فيها وعدم مغادرتها . لذلك فإنه لم يتوان عن التفاوض مع الفرنج موضحًا لهم الخطر الذى يمثله نور الدين على بيت المقدس لو نجح فى الاستيلاء على مصر ، وقد رحَّب الفرنج للمرة الثانية بدعوة شاور طمعًا فى تملُّك مصر ، وخوفًا من أن يستولى عليها نور الدين وجيوشه وبذلك يتمكن من تطويق مملكتهم التى ستصبح فى وسط ممتلكات نور الدين [١٤]. وقد وعدهم شاور بدفع ٤٠٠ ألف دينار منهم مائتى ألف معجَّلة . وكان مفاوض الفرنج فى هذه الصفقة Hugues de Césarée ومعه Geoffroy Foucher ممثلًا للاسبتارية ولمزيد من

---

[١٣] ابن شداد : النوادر السلطانية ٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٣ ؛ ابن واصل : مفرج ١ : ١٤٩ .

[١٤] ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٤٩ .

التأكيد أرادا الحصول على ضمانات كافية من الخليفة فى حالة تغيير متولى الوزارة . وقد شرح شاور للخليفة أهمية هذا التحالف وتم توقيع اتفاق بهذا المعنى [١٥]. ورغم أن المصادر العربية لم يرد بها ذكر لهذا اللقاء الذى تم بين مبعوثى الملك عمورى والخليفة العاضد ، فإن غليوم أسقف صور Guillaume de Tyr حَفَظ لنا بتفاصيل غنية رسوم هذا الاحتفال الذى تم فى القصر الفاطمى بحضور الوزير شاور [١٦].

وحتى يتفادى شيركوه مواجهة مبكرة مع الفرنج عَبَر النيل عند إطفيح ونزل بالجيزة وأقام بها نيفًا وخمسين يومًا متصرفًا فيها [١٧] . وبعد سلسلة من المناوشات تعرّضت لها بالتفصيل كتب الحوليات ، تقابل الجيشان السورى والفرنجى فى مصر العليا حيث نجح شيركوه فى تحقيق انتصار على الفرنج فى ٢٥ جمادى الثانى سنة ٥٦٢ / ١٨ إبريل سنة ١١٦٧ فى معركة « البابَين » قرب الأشمونين [١٨]. ولكن هذه المعركة لم تحسم الموقف ، فبدلًا من أن يتوجّه شيركوه إلى القاهرة خلف جيش شاور والفرنج قصد الإسكندرية وجبى ما فى طريقه من القرى ، وقد وجد شيركوه فى الإسكندرية قوة دعم له ، فالإسكندرية معقل من معاقل السنة بمصر ، وقد أرسل إليه رؤساؤها يعرضون عليه تسليمها إليه ويعرفونه أنه سيجد فيهم أنصارًا مخلصين . فاستناب بها صلاح الدين وعاد هو إلى الصعيد حيث ملكه وجبا أمواله [١٩].

---

١٥ Elisséeff, N. op. cit., II, p. 604

١٦ Schlumberger, G., Compagnes du Roi Amaury I de Jérusalem en Egypte au XII siècle, Paris 1906, pp. 118 - 121.

١٧ ابن الاثير : التاريخ الباهر ١٣٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٢٤ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٤٩ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٦٩ .

١٨ نفسه ١٣٢ ، نفسه ١ : ٣٦٥ ، نفسه ١ : ١٥١ ، المقريزى : الاتعاظ ٣ : ٢٨٤ ، Ehernkreutz, A. S., Saladin pp. 41 - 44.

١٩ عمارة : النكت ٨٠ ، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٦ – ١٣٧ ، ابن ظافر : أخبار ١١٥ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٣ ، الكامل ١١ : ٣٢٤ – ٣٢٦ ، سبط ابن=

كان تقسيم جيش نور الدين إلى قسمين قسم فى الإسكندرية بقيادة صلاح الدين وآخر فى الصعيد بقيادة شيركوه فى غير صالح القوات السورية . فقد نجح شاور والفرنج فى إعادة تنظيم قواتهم وتوجها لمحاصرة الإسكندرية ، وانتهى الأمر بعقد صُلْح بين الفرنج والمصريين من جهة والجيش السورى من جهة أخرى حيث بذل الفرنج والمصريون لشيركوه خمسين ألف دينار مقابل مغادرته مصر ، فوافق على ذلك بشرط عدم إقامة الفرنج فى البلاد وأن لا يتملّكوا منها قرية واحدة وأن يعود الجيشان فى وقت واحد إلى الشام وفلسطين [٢٠].

ومع ذلك فقد جاء اتفاق المصريين مع الفرنج باهظًا ومكلّفًا للمصريين الذين كان عليهم قبول تواجد « شِحْنَة » للفرنج بالقاهرة ، وأن تكون أبواب المدينة بأيدى فرسانهم حتى يمتنع نور الدين عن إرسال عسكر إليها وأن يكون لهم كذلك من دَخْل مصر كل سنة مائة ألف دينار [٢١].

فرسان الفرنج يدعون عمورى لغزو مصر

كان الغرض من ذلك هو محاولة منع جيوش نور الدين من العودة إلى مصر وحماية الجباة الذين كانوا يَحصّلون الجزية المفروضة حيث نجحوا فى جمع مائة

= الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٦٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٥ – ٣٦٦ ، ٤٢٤ ، ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٤٧ – ١٤٨ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥١ ، النويرى . نهاية ٢٦ : ١٠١ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٧٤ ، ٣٣٨ ، اتعاظ ٣ : ٢٨٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٨٧ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧١ – ١٧٢ .

[٢٠] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٦ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥١ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٢ .

[٢١] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤ ، الكامل ١١ : ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٥ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٦ ، ابن الفرات : تاريخ ٤ / ١ : ١٩ – ٢٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٤٩ ء ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٢ .

وكان الصالح طلائع يحمل إلى الفرنج كل سنة ٣٣ ألف دينار لا نعلم سببها . (مؤلف مجهول : أخبار الدولة المصرية ٤٠ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٥٩) .

ألف دينار قيمة الجزية السنوية المتفق عليها . وقد نبّه هؤلاء الفرسان الفرنج فى بيت المقدس إلى ضعف وعدم استقرار الحكومة الفاطمية فى مصر ، وأوضحوا لهم أن البلاد لايوجد بها من يدافع عنها ، وهوّنوا عليهم عملية غزو مصر ، وأيّدهم فى ذلك جماعة من أعيان مصر كراهة منهم لشاور وحكمه [٢٢]. ومن ناحية أخرى فإن الرأى العام فى مصر لم يكن ينظر بارتياح إلى وجود « شِحْنَة » للفرنج فى القاهرة ، كما أن كثيرًا من المصريين لم يقبلوا بتصرف شاور المهين ، فقد أرسل الكامل شجاع ابن الوزير شاور يعرض على نور الدين الدخول فى طاعته ويضمن له أن يجمع كلمة المصريين وراءه ، وقد وافقه نور الدين على ذلك [٢٣].

لاشك أن الكامل بن شاور لم يكاتب نور الدين إلّا بعد أن عيّنه الخليفة العاضد نائبًا لأبيه . فقد أورد القلقشندى سِجِلًا هامًا بتولية ابن شاور نيابة الوزارة عن أبيه ، وهى المرة الأولى التى عُيّن فيه لأحد وزراء الفاطميين نائبًا أثناء وجوده ومباشرته الحكم ، ويدل صدور هذا السِّجِلّ على أن شاور قد ضعف شأنه وضعفت ثقة الخليفة فيه فى أواخر أيامه ، يدل كذلك على أن الكامل ابن شاور كان مدركًا لخطر الفرنج ومبلغ أطماعهم فآثر أن يربط سياسته وسياسة مصر بالاتفاق مع نور الدين ، فانتقال مصر إلى يد أمير مسلم أهون من انتقالها إلى أيدى الفرنج [٢٤].

لم يستجب عمورى بسهولة إلى إلحاح الفرسان على ضرورة الإسراع بغزو مصر ، فقد كان يرى أنه لا داعى الآن لمهاجمة مصر بما أنها تحمل إليهم جزية

---

[٢٢] ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٨٩ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٥ – ١٥٦ ، ابن الفرات : تاريخ ٤ / ١ : ٢١ .

[٢٣] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤ ، الكامل ١١ : ٣٢٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٦ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٢ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٨٤ .

[٢٤] القلقشندى : صبح الأعشى ١٠ : ٣١٨ – ٣٢٥ ، جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥٧ – ١٧٠ ، ٣٥٧ – ٣٦٦ .

سنوية يتقوون بها على مواجهة نور الدين فى الشام ، كما أن أهالى مصر وعساكرها سيدافعون عنها بالقطع أمام الفرنج ، وسيحملهم الخوف منهم على تسليم البلاد إلى نور الدين [٢٥].

وأمام إلحاح الفرسان اضطر عمورى إلى إجابتهم على كره منه ، وسارت قوات الفرنج من عَسْقَلان فى النصف من المحرم سنة ٥٦٤ / ٢٠ أكتوبر سنة ١١٦٨ حيث وصلوا إلى بلبيس فى أول صفر وتمكنوا من حصارها وتملكها وسَبَوا أهلها وأقاموا بها مدة خمسة أيام توجهوا بعدها إلى القاهرة حيث أناخوا عليها وحاصروها فى عاشر صفر / ١٣ نوفمبر . وقد دفع خوف أهالى القاهرة من أن يفعل بهم الفرنج مثلما فعلوا بأهالى بلبيس إلى الدفاع عن المدينة والقتال دونها [٢٦] ، يقول ابن الأثير : « ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة بسرعة » [٢٧].

حريق الفُسْطاط الثانى .

وعندما علم شاور بما فعله الفرنج فى بلبيس أمر فى تاسع صفر — أى قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم واحد — بإحراق الفسطاط وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة وأمر الجنود بنهب الفسطاط ، فهجِرَت ونُهِبَت وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يومًا [٢٨].

---

[٢٥] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٠ .

[٢٦] أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٠ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٩٦ ، Ehrenkreutz, S., op. cit., pp. 48 - 50 .

[٢٧] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨ ، الكامل ١١ : ٣٣٦ .

[٢٨] عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٨ ، ابن ظافر : أخبار ١١٦ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨ ، الكامل ١١ : ٣٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩١ ، ٤٣٢ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٧ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٧ : ٣٠ ، ابن الفرات : تاريخ ٤/ ١ : ٢٤ — ٢٥ ، المقريزى الخطط ١ : ٢٨٦ ، ٣٣٨ — ٣٣٩ ، اتعاظ ٣ : ٢٩٦ — ٢٩٧ ، أبو المحاسن : النجوم =

أحَس شاور بحرج موقفه وعجزه عن مقاومة الفرنج ، فلجأ مرة أخرى إلى مراسلة عمورى مُذَكِّرًا له بما بينهما من مودَّة ، ومُخَوِّفًا له فى نفس الوقت من نور الدين ، وأن المسلمين لن يوافقوه على تسليم البلاد ، ويطلب إليه عقد اتفاقية صُلْح حتى لا سُلِّم البلاد إلى نور الدين يدفع له بمقتضاها ألف ألف دينار يُعَجِّل له منها مائة ألف فأجابه عمورى إلى ذلك بشرط موافقة الخليفة العاضد فلم يكن الفرنج يثقون فى شاور [٢٩]. واستمرارًا فى سياسته فى ضرب قوة الفرنج بقوة نور الدين طلب شاور إلى الخليفة العاضد أن يكتب إلى نور الدين طالبًا معونته خوفًا من سقوط مصر فى أيدى الفرنج فأُرْسِلَتْ « الكتب إلى نور الدين مُسَوَّدَة وفى طيِّها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة » ويقول له فيها « إن لم تبادر ذهبت البلاد » [٣٠].

حملة شيركوه الثالثة

كانت استجابة نور الدين وشيركوه سريعة لمطلب المصريين ، وأَمَدَّ نور الدين شيركوه ، فى هذه المرة ، بمائتى ألف دينار بالإضافة إلى الأسلحة والثياب والدواب ، وأذن له فى أن يختار من العسكر ألفى فارس ومنح كلاً منهم عشرين دينارًا غير محسوبة من جامكيتهم ، فسار إلى مصر ومعه ستة آلاف

= ٥ : ٣٥٠ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٥ – ١٧٦ ، وانظر كذلك Kubiak, W., "the Burning of Misr al-Fustat in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence », Africana Bulletin XXV (1976), pp. 51 - 64.

[٢٩] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩١ – ٣٩٢ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٧ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٩٨ ، ابن الفرات : تاريخ ٤ / ١ : ٢٥ .

[٣٠] نفسه ١٣٨ ، الكامل ١١ : ٣٣٧ ، ابو شامة : الروضتين ١ : ٣٩١ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٨ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١٠٢ ، ابن الفرات : تاريخ ٤ / ١ : ٢٢ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٩٣ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٦ .

فارس . ومجموعة من مقدمى الأمراء [٣١]، كذلك ندب نور الدين صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن أخى شيركوه ليمضى معه إلى مصر ، فخرج معه على كره منه [٣٢]، لا يعلم ما ينتظره من مجد فى مصر .

وبينما الفرنج يستحثون أهل القاهرة على حمل المال المتفق عليه ، وصلت مقدمة جيش شيركوه وصلاح الدين إلى مصر لنصرة المصريين فى ٧ ربيع الأول سنة ٥٦٤ / ٨ يناير سنة ١١٦٩ ، فاضطر عمورى إلى مغادرتها مصطحبًا معه إثنى عشر ألف أسير ما بين رجل وصبى وامراءة [٣٣].

كان ظاهر مجيء شيركوه فى هذه المرة هو مساندة شاور والخليفة العاضد ضد الفرنج ، إلّا أنه كان يُبْطِن الاستيلاء على مصر ووجد أنه لاسبيل إلى تحقيق ذلك مع بقاء شاور ، فدبّر لقتله بموافقة الخليفة العاضد فى أواخر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ / يناير ١١٦٩ ، بعد أن كان شاور قد عقد العزم على الخلاص من شيركوه لولا تحذير المقرَّبين إليه من مغبَّة ذلك وأنه قد يؤدى إلى عودة الفرنج إلى مصر مرة ثانية [٣٤].

---

[٣١] ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٨ ، التاريخ الباهر ١٣٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٤ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٧ ، ابن واصل . مفرج ١ : ١٥٨ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ ، ٢٦ المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٩٤ .

[٣٢] أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٤ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٧ .

[٣٣] ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٩٩ .

[٣٤] عمارة : النكت ٨١ ، عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٨ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٩ – ٣٤٠ ، التاريخ الباهر ١٤٠ ، سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٧٦ – ٢٧٨ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٦ ، ٤٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب : ١٦١ – ١٦٢ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٢٤٤ ، ٧ : ١٤٩ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١٠٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٧ : ٣٤ – ٣٥ ، الصفدى : الوافى ١٦ : ٩٥ – ٩٦ ، ٢١٤ – ٢١٥ ، ابن الفرات ١/٤ : ٢٩ – ٣٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٩٩ – ٣٠٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٥١ ، ٣٨٨ ، Ehrenkreutz; A. S.; op. cit. pp. 54 - 56 .

ويلاحظ أن شاور والداعى ابن عبد الحقيق قد فكرا جديًا فى التبرع بالدعوة الفاطمية لابنى =

شيركوه وزيرًا للفاطميين

فور التخلص من شاور خَلَع الخليفة العاضد على شيركوه تبعًا للتقاليد المصرية خِلَع الوزارة وفوَّض إليه الحكم والتقدمة على الجيوش ، ولقَّبه بـ « الملك المنصور سلطان [أمير] الجيوش » فنزل فى دار الوزارة واستقرت له الأمور دون منازع [٣٥] . وأمر الخليفة بكتابة سجل بذلك من إنشاء القاضى الفاضل [٣٦] وَقَّع العاضد على طُرَّة السِّجل بخطه « هذا عَمْدٌ لا عَهْد لوزير بمثله وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلًا لحمله .. » [٣٧] .

وفور أن استقرت الأمور لشيركوه « أقطعَ البلاد للعساكر التى قدمت معه » وأبقى للمصريين ما بأيديهم و « لم يغير على أحدٍ شيئًا ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم » . غير أن شيركوه لم يلبث أن توفى فجأة بعد عدة أسابيع يوم السبت ٢٢ جمادى الأخرة سنة ٥٦٤/ مارس سنة ١١٦٩ [٣٨].

= صاحب عَدَن الزُّرَيعى بعد وفاته لولا أن عمارة اليمنى حذَّرهما من ذلك وقال لهما : إنما أهل اليمن يبعثون اليكم النجاوى والفطرة من أجل الدعوة ، فإذا تنازلتم عنها فقد هوّنتم حرمتها . (عمارة اليمنى : النكت العصرية ٩٢)

[٣٥] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤٠ ، الكامل ١١ : ٣٤٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٠٢ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٣ – ١٦٤ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١٠٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٠٢ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٨ – ١٧٩ .

[٣٦] انظر نص السجل عند ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ٣٤ – ٤٤ ، القلقشندى : صبح ١٠ : ٩١ – ٩٢ وفقرات منه عند أبى شامة : الروضتين ١ : ٤٠٢ – ٤٠٣ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٤ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٧١ – ١٧٣ ، ٣٨٣ – ٣٩٧ .

[٣٧] القلقشندى : صبح ٩ : ٤٠٦ – ٤٠٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٠٢ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٥ ، ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٤٩ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١٠٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٠٢ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٥٣ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٧٤ ، ٤٠١ .

[٣٨] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤١ ، الكامل ١١ : ٣٤١ – ٣٤٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٠٢ – ٤٠٥ ، ٤٣٨ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٥ ، ١٦٨ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١٠٧ – ١٠٨ ، الصفدى : الوافى ١٦ : ٢١٥ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٠٤ – ٣٠٥ .

صلاح الدين على رأس السُلْطة فى مصر

صلاح الدين وزيرًا رغمًا عنه

أيقظت خلافة شيركوه فى منصبه الكثير من الطموحات ، فقد طمع الكثيرون من القادة الذين كانوا على رأس جيش نور الدين فى منصب الوزارة . ولكن شهاب الدين محمود الحارمى ، خال صلاح الدين وأحد هؤلاء القادة ، قام بدور هام فى تولية صلاح الدين الوزارة . فهو الذى أشار على العاضد أن يوليها له ، ووافق العاضد على ذلك ظنًّا منه أنه قادرٌ على السيطرة عليه وأنه لن يستطيع مخالفته ، لأنه لم يكن له عسكر ولا رجال [٣٩]. وستثبت الأحداث قصر نظر العاضد وأنه لم يُقَدِّر صلاح الدين حق قدره .

خَلَع العاضد على صلاح الدين خِلَع الوزارة [٤٠] وأمر القاضى الفاضل بإنشاء سجل بتوليته الوزارة ولقّبه بـ « الملك الناصر » فى ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤/ ٢٦ مارس سنة ١١٦٩ ، وكتب على طُرَّته بخطه : « هذا عَهْدُ أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله تعالى عليك ، فأوف بعهدك ويمينك ... » [٤١].

---

[٣٩] ابن الأثير : التاريخ الباه ١٤١ – ١٤٢ ، الكامل ١١ : ٣٤٣ – ٣٤٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٠٦ – ٤٠٧ ، ٤٣٨ – ٤٣٩ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٨ – ١٦٩ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١٠٨ ، الصفدى : الوافى ١٨ : ٣٤٠ ، ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ٥٦ – ٥٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٠٨ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٨٠ ، Ellisséeff ; N . op .cit . pp . 638 -39 .

[٤٠] وصف لنا بن أبى طَىّ خلعة الوزارة التى خلعت على صلاح الدين ، ونقله عنه أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٣٩ والمقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٠٩ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٩ .

[٤١] نفسه وانظر كذلك ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ٥٧ – ٦٣ ، القلقشندى : صبح ١٠ : ٩١ – ٩٨ ، ٤٠٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٠٩ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٧٩ – ١٨٠ .

وبتولّى صلاح الدين منصب الوزارة ، كآخر وزير فى الدولة الفاطمية ، وَصَلَ الَمدّ السنى الذى بدأه السّلاجقة قبل نحو مائة عام وأكمله ورثتهم الزنكيون والنوريون إلى مصر .

مؤامرة مؤتمن الخلافة

أدرك بعض خُدَّام القصر من السودان مصير الدولة الفاطمية على يدى صلاح الدين فعملوا على مكاتبة الفرنج سنة ١١٦٨/٥٦٤ ليصلوا إلى البلاد حتى إذا خرج صلاح الدين للقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة ، وانضموا إلى الفرنج فى محاربته فيظهروا عليه ويقتسموا البلاد بينهم وبين الفرنج ، لولا أن وقع كتابهم فى يد صلاح الدين . وقتل صلاح الدين رئيسهم مؤتمن الخلافة فى ذى القعدة من نفس العام ، مما أدّى إلى ثورة عبيد القصر من السودان وكانوا يزيدون على خمسين ألف ، فتمكن صلاح الدين من القضاء عليهم وأحرق الحارة المنصورية المختصة بهم على باب زويلة وخَرَّبها وأصبح أمر السودان كأن لم يكن . وتتبع صلاح الدين فلولهم فى الصعيد حتى قضى على نقوذهم تماماً [٤٢].

وقد فوّض صلاح الدين أمر القصر إلى أحد خواصه هو الخصى بهاء الدين قراقوش الذى تولى فيما بعد بناء القلعة وسور القاهرة [٤٣].

---

[٤٢] ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٤٥ – ٣٤٧ ، أبو شامة :.الروضتين ١ : ٤٥٠ – ٤٥٢ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٧٤ – ١٧٧ ، ٢٠٢ ، ابن خلكان : وفيات ٤ : ٩١ ، ٧ : ١٥٧ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١٠٨ – ١٠٩ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٧ : ٤٤ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٦٧ – ٧١ ، ١٣١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢ – ٣ ، ١٩ ، اتعاظ ٣ : ٣١١ – ٣١٣ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٥٤ ، ٦ : ٢٠ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٨٣ – ١٨٥ .

[٤٣] راجع ، ابن خلكان : وفيات ٤ : ٩١ – ٩٢ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٣١ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٩٩ ، Sobernheim , M . Ei . art . Karakūsh IV , p . 638 .

مهاجمة الفرنج لدمياط

أدرك عمورى ، منذ أن استولى أسد الدين شيركوه على السلطة فى مصر ، أن نور الدين لا يُحْكم سيطرته على مصر . فعمل على توجيه نداءات لطلب العون من كل مسيحى العالم . وقد وَجَد طلب عمورى استجابة حيث جُهّز أسطول ضخم بالتعاون بين أوربا والدولة البيزنطية وصل إلى دمياط فى ٣ صفر سنة ٥٦٥ / ٢٧ أكتوبر سنة ١١٦٩ . وقد اختار الفرنج النزول بدمياط لأنهم كانوا يأملون أن يقيموا فى هذا الميناء قاعدة عسكرية يستطيعون دعمها عن طريق البر وطريق البحر ، حيث أملوا إذا سيطروا على الدلتا المصرية أن يتمكنوا من توجيه عملياتهم صوب القاهرة [٤٤].

وقد أرسل صلاح الدين الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه وخاله شهاب الدين الحارمى للسيطرة على دمياط . ونظرًا لأن صلاح الدين لم يكن يثق فى عساكر المصريين وخاف إن تقدم لملاقاة الفرنج استولى المصريون على القاهرة ويحصرونه بينهم وبين الفرنج ، كتب إلى نور الدين فى دمشق يشكو إليه ما هو فيه من المخاوف ويطلب نجدته ، فجهز إليه نور الدين طوائفًا صارت إليه طائفة وراء طائفة . وفى نفس الوقت أغار نور الدين على بلاد الفرنج فى الشام ونهبها حتى تتحرك قواتهم لحفظ البلاد الشامية ويخفف الحصار عن دمياط . وقد اضطر الفرنج أمام تتابع الإمدادات إلى دمياط من القاهرة ومن الشام ، وأمام دخول نور الدين بلادهم ونهبها وإحراقها إلى الرحيل عن دمياط بعد أن حاصروها خمسين يوماً [٤٥]

[٤٤] Elisséeff, N., op. cit., pp. 645, 647.

[٤٥] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤٣ – ١٤٤ ، الكامل ١١ : ٣٥١ – ٣٥٢ ، ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٥٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٥٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٧٩ – ١٨٣ ، ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ٨٢ – ٨٧ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣ : ٣١٥ – ٣١٦ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٨٥ – ١٨٧ .

إنقلاب صلاح الدين وإصلاحاته السنية

عندما تولّى صلاح الدين الوزارة كانت المؤسَّسة الفاطمية فى مصر تسيطر على موارد البلاد وتمتلك نسبياً قوة عسكرية قوية وتشرف على النظام القضائى وعلى ديوان الإنشاء . وكان يشارك فى تسيير هذه المؤسَّسة أفرادٌ ينتسبون إلى ديانات وطوائف مختلفة (الإسماعيليون والمسلمون السنة والأقباط) وإلى مجموعات عرقية متنوعة (العرب والأرمن والسودان) . ولم تتم عملية تصفية الدولة الفاطمية والقضاء عليها إلّا بفضل خِطّة محكمة نفّذها صلاح الدين ومؤيدوه ضد النظام الفاطمى . ففى البداية حرص صلاح الدين على تقوية مكانته فاستقدم والده وإخوته ليلحقوا به فى مصر ، وأدخل تغييرات كبيرة على نظام الجيش فى أعقاب فشل مؤامرة مؤتمن الخلافة ، حيث تخلّص من القادة المصريين واستبدل عوضهم رجالاً من أنصاره كما ضمن السيطرة على موارد الدولة بتوليته والده « أمر الخزائن كلها » فى ٢٥ رجب سنة ١٦/٥٦٥ إبريل سنة ١١٧٠ [٤٦].

وفى أواخر عام ١١٧٠/٥٦٥ بدأ صلاح الدين فى اتخاذ خطوات حاسمة ضد المؤسَّسة الفاطمية لإضعاف المذهب الإسماعيلى وتقوية المذهب السنى فى مصر . ففى العاشر من ذى الحجة سنة ٢٥/٥٦٥ أغسطس سنة ١١٧٠ أبْطَل من الأذان « حىّ على خير العمل » [٤٧] وأمر أن يذكر فى خطبة الجمعة الخلفاء

---

[٤٦] Ehrenkrutz, A. S., "Saladin's coup d'état in Egypt", Medival and Middle Eastern Studies in Honor of Aziz Suryal Atiya, ed. by Sami A. Hanna, Leiden 1972, pp. 145, 147 . وانظر أبا شامة : الروضتين ١ : ٤٦٥ .

[٤٧] أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٨٨ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١٠٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧١ ، اتعاظ ٣ : ٣٠٧ .

الراشدون [٤٨] ونزع المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين [٤٩].

وفى الأيام الأولى من شهر المحرم سنة ٥٦٦/سبتمبر سنة ١١٧٠ أمر صلاح الدين بهدم دار المعونة المجاورة للجامع العتيق بمصر وبنائها مدرسة للشافعية . وفى منتصف هذا الشهر عَمَّر دار الغَزْل المجاورة لباب الجامع العتيق مدرسة للمالكية عرفت بالمدرسة القمحية . وفى منتصف شعبان من هذه السنة اشترى تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه — ابن أخى صلاح الدين — منازل العِزّ بالفُسْطاط وجعلها مدرسة للشافعية عرفت بالمدرسة التقوية [٥٠] ، كما حوَّل صلاح الدين دار سعيد السُّعَداء الواقعة شمال القصر الفاطمى الشرقى ، خانقاه للصوفية وهى بذلك تعد أوَّل خانقاه للصوفية تنشأ بمصر [٥١] . وفى العام نفسه أبطل صلاح الدين « مجالس الدَّعْوَة » من القصر والجامع الأزهر [٥٢] ، وعَزَل جميع القضاة الإسماعيليين وفَوَّض قضاء مصر فى ٢٢ جمادى الآخر/٢ مارس سنة ١١٧١ إلى القاضى صدر الدين أبى القاسم عبد الملك بن عيسى بن دِرْباس المارانى الشافعى [٥٣] ، حيث اشتهر من حينئذ المذهب الشافعى فى مصر . كذلك جعل

---

[٤٨] المقريزى : السلوك ١ : ٤٥ .

[٤٩] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣١٧ .

[٥٠] ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٦٦ ، البندارى : سنا البرق ٥٧ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٨٣ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٨٦ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٥٦ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٩٧ — ١٩٨ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ — ١٠٩ ، السبكى : طبقات الشافعية ٧ : ٣٥٦ ، ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ١٢٤ — ١٢٥ ، ١٢٨ ، القلقشندى : ٣ : ٣٤٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٤٨٥ ، ٢ : ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، الاتعاظ ٣ : ٣٢٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٨٥ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٩٤ ، وانظر كذلك . Lapidus ,I. M . " Ayyubid Religious Policy and the Development of The Schools of Law In . Cairo ", CIHC . PP . 279 - 286

[٥١] عن خانقاه سعيد السعداء والخانقاوات بصفة عامة انظر ، ابن ميسر : أخبار ١٤٤ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٤ — ٣٦٥ ، المقريزى : الخطط ٢ ; ٤١٥ — ٤١٦ ، اتعاظ ٣ : ٢٠٠ .

[٥٢] النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ١٠٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٢٠ .

[٥٣] ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٦ ، سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٨٣ ، أبو شامة : =

صلاح الدين القاضى الفاضل رئيسًا لديوان الإنشاء [٥٤] فضمن بذلك سيطرته على النواحى الدينية ومراسلات الدولة .

وكان من أشهر مظاهر تحوّل مصر إلى المذهب السنى نشر المذهب الأشعَرى ، فقد كان صلاح الدين وجميع ورثة السَّلاجِقَة يتعصَّبون لمذهب الأشعَرى فى الأصول ، وهو المذهب الذى تولَّاه السَّلاجِقَة من قبل فى مواجهة مذهب المعتزلة العقلى وأنشأوا له « المدارس » ليحاربوا من خلالها مذاهب الفاطميين [٥٥] .

وهكذا ، ومع نهاية عام ٥٦٦/١١٧١ أتم صلاح الدين عددًا من الإجراءات الضرورية فى مواجهة المؤسَّسة الفاطمية عجَّلت بالخطوة الحاسمة وهى القضاء على الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للعبّاسيين من على منابر مصر .

الخطبة للعباسيين وسقوط الفاطميين

وفى سنة ٥٦٧/١١٧١ جاءت الخطوة الحاسمة فى القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر ، عندما أسْقَط صلاح الدين خطبة الفاطميين وأمر الخطباء بالدعوة للخليفة العباسى المستضىء بأمر الله وذلك فى السابع من المحرم / العاشر من سبتمبر وأعاد السواد شعار العباسيين [٥٦] . وأصبح يخطب باسم صلاح الدين

= الروضتين ١ : ٤٨٦ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٣٤٢ – ٤٣ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٩٨ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١١٠ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٧ : ٤٧ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٢٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٣٤٣ ، الاتعاظ ٣ : ٣١٩ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ ٣٦٨ ، أبو المحاسن: النجوم ٥ : ٣٨٥ – ٣٨٦ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٩٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٥ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٣٣ .

[٥٤] الصفدى : الوافى بالوفيات ١٨ : ٣٤٠ – ٣٤١ .

[٥٥] أنظر اعلاه ص .

[٥٦] عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٩ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٥٦ ، الكامل ١١ : ٣٦٨ – ٣٧١ ، سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٨٥ ، البندارى : سنا البرق ٥٨ : أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٩٢ – ٩٣ ، ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٥٧ ، ابن واصل : مفرج ١ : =

على منابر مصر بعد الخليفة العبّاسى والملك العادل نور الدين . وقد تم هذا التحّول الخطير فى هدؤ تام « فلم ينتطح فيه عنزان » كما ذكر المؤرخون [٥٧]. ذلك الهدؤ الذى أعلن به من قبل القائد جوهر قيام الخلافة الفاطمية فى مصر قبل قرنين ، واستقبل المصريون هذا التحَوّل بنفس السلبية واللامبالة التى استقبلوا بها المذهب الفاطمى من قبل .

وفى الحقيقة فإن غالبية الشعب المصرى لم تعتنق إطلاقًا المذهب الإسماعيلى ، ولم يعتنقه فقط سوى العناصر التى تعاونت مع الخلافة الفاطمية ممثلة فى الأقليات الأجنبية التى جاءت صحبة الفاطميين أو استعانوا بها طوال فترة حكمهم من أجل تحقيق سياستهم ، وهؤلاء فقط هم الذين نستطيع القول أنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلى فى مصر .

نور الدين وموقفه من مصر

كان السلطان نور الدين محمود يطمع فى الاستيلاء على مصر ، ويظن أن صلاح الدين « نائبًا عنه فى مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه » ولكن صلاح الدين كانت له طموحات أخرى ، وكان ذلك سبب تأخره فى الإنصياع لطلب نور الدين فى قطع خطبة الفاطميين قبل ذلك ، لأنه خشى إن هو فعل ذلك أن يسير نور الدين إلى مصر وينزعها منه [٥٨].

---

٢٠ – ٢٠٢ ، النويرى : نهاية ٢٣ : ٣٠٢ ، ٢٦ : ١٠٣ ، ١١٠ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٧ : ٤٨ ، السبكى : طبقات الشافعية ٧ : ٣٤١ ، ٣٥٦ ، الصفدى : الوافى ١٧ : ٦٨٩ ، ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ١٦١ ، ١٦٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٢٥ – ٣٢٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٥٥ – ٥٦ ، ٦ : ٦٣ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٩٥ – ١٩٧ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٤٥ – ٤٤٧ . Ehrenkreutz . A. S., Saladin, p. 89.

[٥٧] ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٦٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٩٣ ، ابن الفرات : التاريخ ٤/١ : ١٦٣ .

[٥٨] المقريزى : ٣ : ٣٢٥ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ١٨١ .

ولم تكد تمض أيام على قطع خطبة الفاطميين إلّا وقد توفى الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ليلة عاشوراء سنة ٥٦٧/ ١٢ سبتمبر ١١٧١ . فأمر صلاح الدين بإنشاء الكتب إلى البلاد بوفاة العاضد وإقامة الخطبة رسميًا للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي [٥٩].

نهاية الفاطميين

وبذلك وضع صلاح الدين نهاية للدولة الفاطمية فى مصر لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخها عادت فيها إلى قلب العالم الإسلامى السنى ولتؤدى تحت قيادة الأيوبيين ومؤسس دولتهم صلاح الدين دورًا هامًا فى توحيد الجبهة الإسلامية ومواجهة خطر الفرنج ، الذى ادّى ضعف وتخاذل السلطة الحاكمة فى مصر فى آخر عهد الفاطميين إلى زيادة نفوذهم وسطوتهم وتهديدهم لوحدة العالم الإسلامى .

وفور وفاة العاضد طلب صلاح الدين من بهاء الدين قراقوش ، متولى زمام القصر ، التحوُّط على كل ما فيه . ولم يجد فيه كثير من المال وإنما وجد فيه العديد من التحف والذخائر التى لا تقدر بثمن والتى جمعها الفاطميون طوال فترة حكمهم ونجت من الأزمات المتتالية ، بالإضافة إلى مكتبتهم النفيسة التى بلغ عدد كتبها ألف ألف وستمائة كتاب ، منها مائة ألف بخطوط منسوبة .

أما أهل البيت الفاطمى نفسه فقد وجد منهم فى القصر مائة وثلاثين نفسًا وخمسة وسبعين طفلًا نقلهم إلى دار المُظَفَّر بحارة بَرْجوان وفَرَّق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا .

وأقطع صلاح الدين قصور الفاطميين لخواصه وباع بعضها . فكان القصر

---

[٥٩] نفسه ٣ : ٣٢٧ - ٣٢٨ .

الشرق الكبير من نصيب أمرائه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب فى قصر (منظرة) اللؤلؤة على الخليج ، وتفرق الأمراء بقية القصور والرِّباع [٥٧] .

محاولة إعادة الدولة الفاطمية

لا شك أن الخطوة التى أقدم عليها صلاح الدين لم ترق لكثير من أتباع الدولة الفاطمية والذين كانوا فى الأغلب من الأجانب غير المصريين ، فلم يكد يمضى عامان على سقوط الخلافة الفاطمية حتى قام جماعة من بقايا أتباع الفاطميين بينهم داعى الدعاة ابن عبد القوى والشاعر نجم الدين عمارة اليمنى [٦١] ، واتفقوا فيما بينهم على إقامة خليفة ووزير وكاتبوا الفرنج فى بيت المقدس ليعينوهم على تحقيق انقلابهم . ولكن صلاح الدين تمكن من كشف مؤامرتهم بوشاية واحد منهم ، واعترفوا بمؤامرتهم ، وأحضر صلاح الدين العلماء واستفتاهم فى أمرهم ، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ، فقتلهم جميعًا وصلبهم فى آخر عام ١١٧٣/٥٦٩ [٦٢] .

وهكذا قضى على آخر أمل لأتباع الدعوة الفاطمية فى مصر ، وانتهى دور الدولة الفاطمية السياسى فى التاريخ .

---

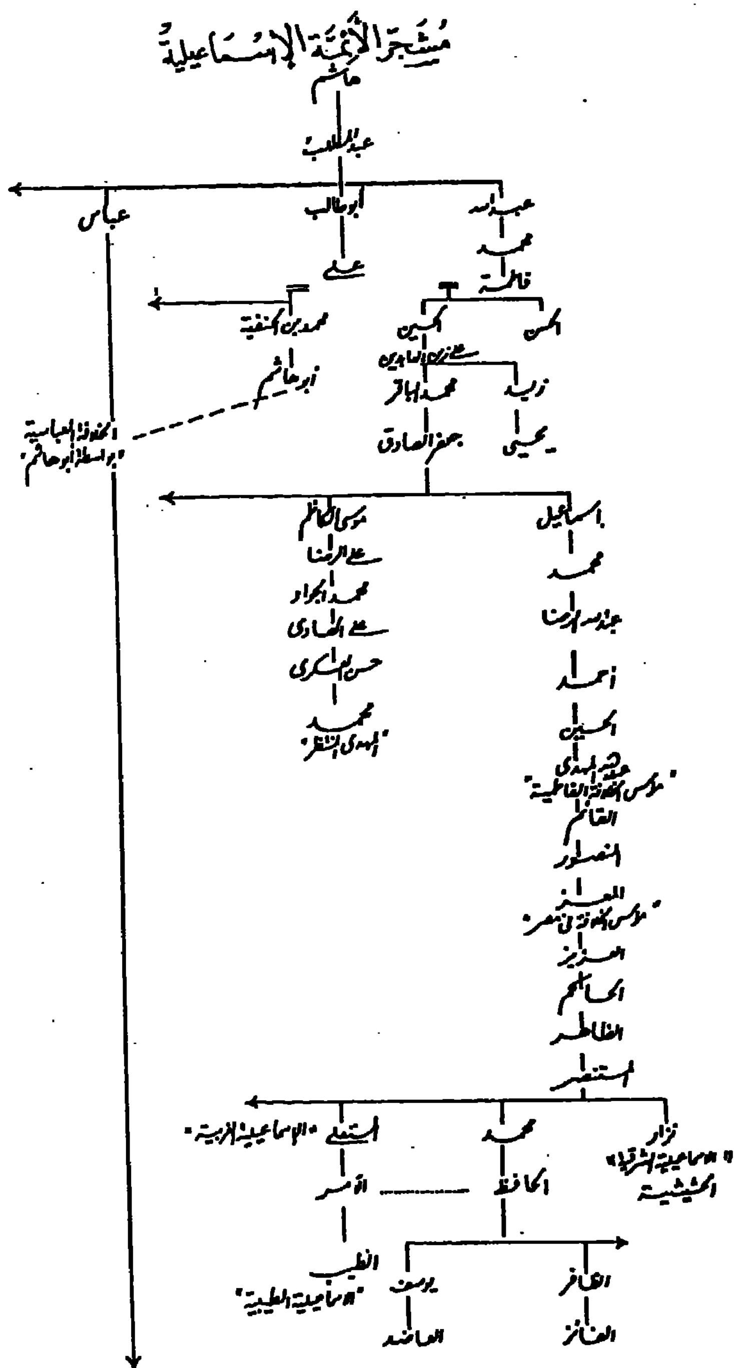
[٦٠] ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٥٦ – ١٥٧ ، الكامل ١١ : ٣٦٨ – ٣٧٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٩٢ – ٤٩٥ ، ابن واصل : مفرج ١ : ٢٠٢ – ٢٠٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٩٦ – ٤٩٨ ، اتعاظ ٣ : ٣٣٠ – ٣٣١ ، ٣٤٧ – ٣٤٨ .

[٦١] رثى عمارة اليمنى الفاطميين بقصيدة تعد من أحسن ما قيل فى رثاء الدول مطلعها :

رَمَيْت يادَهْرُ كفَّ المَجْد بالشَّلل وجيدَه بعد حُسْن الحَلْى بالعَطَل

(ديوان عمارة ٦١٢ – ٦١٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٥٧ – ٥٧١ ، ابن واصل مفرج ١ : ٢١٢ – ٢١٦ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٥٢٦ – ٥٢٨ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٩٥ – ٤٩٦)

[٦٢] العماد الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر (قسم الشام) ٣ : ١٠٣ ، ١٤٠ – ١٤١ ، العماد الأصفهانى : البستان الجامع ١٣٩ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٩٨ – ٤٠١ ، البندارى : سنا البرق ٢٩ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٩٩ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٥٦٠ – ٥٦٢ ، ابن خلكان : وفيات ٣: ٤٣٥ ، ابن واصل : مفرج ١ : ٢٤٣ – ٢٤٧ ، ٢ : ٤٧٦ – ٤٧٩ ، النويرى : نهاية – ٢٦ : ١١١ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٨٠ – ٨١ ، المقريزى : السلوك ١ : ٥٣ – ٥٤ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٦ : ٧٠ – ٧١ ، ابن قاضى شهبة : الكواكب ٢٢٤ – ٢٢٦ .


مشجر الأئمة الإسماعيلية
هاشم
عبد المطلب
عباس
أبو طالب
عبد الله
محمد
علي
فاطمة
محمد بن الحنفية
الحسين
الحسن
أبو هاشم
علي زين العابدين
محمد الباقر
زيد
الخلافة العباسية "بواسطة أبو هاشم"
جعفر الصادق
يحيى
موسى الكاظم
إسماعيل
علي الرضا
محمد
محمد الجواد
عبد الله الرضا
علي الهادي
أحمد
حسن العسكري
الحسين
محمد "المهدي المنتظر"
عبيد الله المهدي "مؤسس الخلافة الفاطمية"
القائم
المنصور
المعز "مؤسس الخلافة في مصر"
العزيز
الحاكم
الظاهر
المستنصر
المستعلي "الإسماعيلية الغربية"
محمد
نزار "الإسماعيلية الشرقية" الحشيشية
الآمر
الحافظ
الطيب "الإسماعيلية الطيبية"
يوسف
الظافر
العاضد
الفائز

الخلفاء الفاطميون فى إفريقية وفى مصر

أ – فى إفريقية

١ – عبد الله المَهْدى (٢٩٧ – ٩٠٩/٣٢٢ – ٩٣٤) .

٢ – القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (٣٢٢ – ٩٣٤/٣٣٤ – ٩٤٦) .

٣ – المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل (٣٣٤ – ٩٤٦/٣٤١ – ٩٥٣) .

٤ – المُعزّ لدين الله أبو تميم مَعَدّ (٣٤١ – ٩٥٣/٣٦٢ – ٩٧٢) .

ب – فى مصر

المُعِزّ لدين الله أبو تميم مَعَدّ (٣٦٢ – ٩٧٢/٣٦٥ – ٩٧٥) .

٥ – العزيز بالله أبو منصور نِزار (٣٦٥ – ٩٧٥/٣٨٦ – ٩٩٦) .

٦ – الحكم بأمر الله أبو على المنصور (٣٨٦ – ٩٩٦/٤١١ – ١٠٢١) .

٧ – الظّاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على (٤١١ – ١٠٢١/٤٢٧ – ١٠٣٦) .

٨ – المستنصر بالله أبو تميم مَعَدّ (٤٢٧ – ١٠٣٦/٤٨٧ – ١٠٩٤) .

٩ – المُستَعْلى بالله أبو القاسم أحمد (٤٨٧ – ١٠٩٤/٤٩٥ – ١١٠١) .

١٠ – الآمر بأحكام الله أبو على منصور (٤٩٥ – ١١٠١/٥٢٤ – ١١٣٠) .

انقلاب أبى على الأفْضَل كُتَيْفات (١٦ ذى القعدة ٢١/٥٢٤ أكتوبر ١١٣٠ – ١٦ محرم ٦/٥٢٦ديسمبر ١١٣١) .

١١ – الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد (٥٢٦ – ١١٣٢/٥٤٤ – ١١٤٩) .

١٢ – الظّافر بأعداء الله أبو منصور إسماعيل (٥٤٤ – ١١٤٩/٥٤٩ – ١١٥٤) .

١٣ – الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى (٥٤٩ – ١١٥٤/٥٥٥ – ١١٦٠) .

١٤ – العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله (٥٥٥ – ١١٦٠/٥٦٧ – ١١٧١) .

الكتاب الثاني

النظم والحضارة

الفصل العاشر

نظم الحكم والإدارة

بدأ الخليفة المُعِزّ حكمه فى مصر بإعفاء القائد جَوْهَر من جميع مناصبه ، بعد أن تولّى أمر مصر نيابة عن المُعِزّ مدة أربع سنوات . وقد اعتبر المُعِزّ أن دور جَوْهَر قد انتهى عند هذا الحد ، ولكنه اعترف له بفضله ودوره فى إقامة الخلافة الفاطمية وإعلانها فى الشرق . « فخلع عليه خِلْعَة مذهبة وعمامة حمراء ، وقلّده سيفًا ، وقاد بين يديه عشرين فرسًا مسرجة ملجمة ، وحمل بين يديه خمسين ألف درهم وثمانين تختًا من ثياب »[1]. ثم عَهَدَ إلى يعقوب بن كِلّس بإعادة تنظيم إدارات الدولة الفاطمية فى مصر ، لمعرفته الجيدة بأمورها ، وعلى الأخص ما يُدِرُّه كل إقليم فيها[2]. وعيَّن المُعِزّ عُسْلوج بن الحسن لمعاونة ابن كِلّس فى الإشراف على الشئون المالية[3].

وقد وضع ابن كِلّس فى مصر أساس نظام مركزى هرمى يأتى على رأسه « الإمام » ، الذى اعتبره الشيعة الإسماعيليون مُمَثّل الله على الأرض ومنه تنبثق كل سلطة[4]. وتقاسمت إدارة هذا النظام سلطات ثلاث : إدارية وقضائية ودعائية ؛ أما الجيش فكان يأتمر بأوامر الإمام (الخليفة) مباشرة . ولم يستمر

---

[1] المقريزى : اتعاظ ١ : ١٣٩ .

[2] ابن الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ٤٧ – ٥٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٥ ، Lev,Y., "The Fatimid vizier Ya'qub ibn Killis and the Beginning of the Fatimid Administration in Egypt", Der Islam 58 (1981). pp. 237 - 249.

[3] ابن ميسر : أخبار ١٦٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٢ : ٥ – ٦ ، ٢٦٩ ؛ اتعاظ الحنفا ١ : ١٤٤ – ١٤٥ ، ٢٢٣ ؛ المقفى ٣٨٤ .

[4] السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٣٥ .

هذا النظام طويلًا ، فقد كان لما لحق بالدولة الفاطمية من أحداث متلاحقة ، وما أصابها من ضعف ، دورٌ فى تبديل وتغيير هذه الأنظمة ، وخاصة مع بداية ازدياد نفوذ الوزراء أرباب السيوف ، ولكنها احتفظت بالخطوط العريضة لهيكل هذا النظام . وكان الوزير – ابتداء من عام ٩٧٩/٣٦٨ – هو الذى يتولّى الإشراف على السلطة الإدارية ، وقاضى القضاة هو المشرف على الشئون الدينية والتشريعية ، وداعى الدُّعاة هو المشرف على الدعاية الفاطمية التى كانت بمثابة السلاح الإيديولوجى للنظام ، وأحيانًا كانت هاتان السلطتان تجمعان لشخص واحد .

وبوصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة ، فى أواسط القرن الخامس/الحادى عشر ، وبداية عصر الوزراء العسكريين (أرباب السيوف) ، أصبح الوزير هو قائد الجيش وقاضى القضاة وداعى الدعاة فى فى الوقت نفسه . ولكن هذا لا يعنى أن الوزير صاحب السيف كان يقوم بنفسه بعمل القاضى والدّاعى ، وإنما جعل القاضى والداعى نائبين عنه ويذكران ذلك فى الكتب الحكمية وكتب الأنكحة ، ومجالس الدعوة [°].

النّظام السّياسى

الإمام (الخليفة)

يأتى على رأس النظام الفاطمى شخصية الإمام أو الخليفة ، وإذا كان تولى الخليفة لدى أهل السنة يأتى نتيجة انتخاب أو تعيين من الخليفة السابق تؤكده مبايعة عامة ، فإن الإمام الفاطمى هو خليفة من سبقه بموجب الحق الإلهى ويُخْتار ليكون وصيًا للنبى ﷺ ولعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وتنتقل الإمامة من الأب إلى الإبن الأكبر أى يجب أن تكون فى الأعقاب . والشرط

[°] ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٨٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ ، الاتعاظ ٣: ١٥٦ ، المقفى (خ . السليمية) ٢٢٦ و .

الوحيد اللازم توافره فى شخص الإمام هو « الوَصيّة » أى « النّص » عليه من الإمام السابق [٦]، وبالتالى فلا يتطلّب الفاطميون توافر شروط خاصة فى الإمام (أو الخليفة) مثل الشروط التى يتطلّبها أهل السنة فى شخص الخليفة أو الزَّيْدية فى شخص الإمام الزَّيْدى . وكان من الممكن للإمام أن يُخْفى وصيته عن مجموع المؤمنين ولا يُعْلم بها إلّا بعض الثقات لا غير الذين عليهم أن يكشفوا عنها فقط فى الوقت المناسب [٧].

وقد أدّى هذا النظام إلى وصول عدد كبير من الأطفال والمراهقين إلى منصب الإمامة مما مكّن لرجال القصر ونسائه وللوزراء وقادة الجيش السيطرة التامة على الدولة وأن تكون بأيديهم السلطة الحقيقية .

ظَلّ توارث الإمامة يسير دون اعتراضات ذات شأن [٨] إلى حين وفاة المستنصر بالله سنة ١٠٩٤/٤٨٧ ، حيث تدخّل الوزير القوى الأفضل شاهنشاه لعزل نِزار – الإبن الأكبر للمستنصر وصاحب الحق الشرعى فى الإمامة – وتولية المُستَعْلى الإبن الأصغر مما أدّى إلى نشوء أول انقسام فى الدعوة الإسلامية [٩]. كذلك فبعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ١١٣٠/٥٢٤ دون وريث (وإن كان أشار إلى أنه ترك إحدى جهاته حاملًا) تَوَلّى الأمر بعده ابن عمه عبدالمجيد – أكبر الأقارب سنًا – كإمام مُسْتَوْدَع وِفْقًا للمصطلح الإسماعيلى إلى أن عزله الوزير أبو على الأفضل كُتَيْفات واستولى على السلطة لمدة أربعة عشر شهرًا باسم « الإمام المُنْتَظَر » ، إلى أن قُتِل أبو على وأعيد عبدالمجيد فى المحرم سنة ٥٢٦/نوفمبر ١١٣١ « وليًا لعهد المسلمين » ، ثم عَيَّن نفسه إمامًا باسم « الحافظ لدين الله » فى ربيع الآخر سنة

---

[٦] ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ١ : ٥١ – ٧٧ .
[٧] الجوزى : سيرة الأستاذ جوذر ١٣٩ .
[٨] انظر أعلاه ص .
[٩] انظر أعلاه .

٥٢٦/فبراير سنة ١١٣٢ [١٠]. كما أن الخليفة العاضد ، آخر خلفائهم ، لم يكن أبوه إمامًا كما يتطلّب المذهب الإسماعيلي [١١].

وكان يُنْظَر للإمام فى الدولة الفاطمية دون أى التباس على أنه ممثل الله على الأرض . وبأنه المُفَسِّر الأوَّل للشرع ومصدر كل العلم . وحرص كبار رجال الدعوة على تأكيد هذا المعنى والإشارة إلى أن الإمام هو « وَلِيّ الله » الشافع لهم جميعًا [١٢]، واشتَطَّ الحاكم بأمر الله من بينهم وذهب فى سنة ١٠١٧/٤٠٨ إلى حد اعتبار شخصه تجسيدًا للألوهية أو على الأقل إدِّعاء الألوهية [١٣].

وتلقّب الفاطميون فى سِجِلّاتهم وعلى نقودهم بـ « الإمام » و بـ « أمير المؤمنين » ولم يتلقّبوا فى الوثائق الرسمية بالخليفة حرصًا منهم على إظهار صفتهم الروحية وسلطتهم الدينية [١٤]. وقد تدهورت سلطة الإمام (الخليفة) قرب نهاية القرن الخامس وأصبح الوزراء الأقوياء أرباب السيوف هم أصحاب السلطة الفعلية بعد انقسام الدعوة الإسماعيلية أكثر من مرة وإتيان الوزراء بالإمام الذى يريدونه دون اعتبار لشروط الإمامة عند الإسماعيلية .

الوزارة

انقسمت الوزارة فى عصر الفاطميين ، كبقية العالم الإسلامى ، إلى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض . ولم يعرف الفاطميون فى المرحلة الإفريقية منصب

---

[١٠] انظر أعلاه ص .

[١١] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٢٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٣٧ .

[١٢] السجلات المستنصرية (سجل رقم ٣٥) ، Sourdel , D . EI²., art . " Khalifa " IV , p. 977

[١٣] انظر أعلاه ص .

[١٤] راجع السجلات المستنصرية والوثائق التى جمعها جمال الدين الشيال ونشرها فى « مجموعة الوثائق الفاطمية » ، القاهرة ١٩٥٨ ، وكذلك الوثائق التى نشرها صمويل شيترن Stern , S. " Fatimid Decrees " London 1964 وأيضًا ما سجلوه على نقودهم عند Miles , G., " Fatimid Coins " NY 1952 .

الوزير [١٥]. أما فى مصر فقد كان الغالب على وزراء العصر الفاطمى الأول وزراء التنفيذ ، بينما كان كل وزراء العصر الفاطمى الثانى ابتداء من بدر الجمالى وزراء تفويض .

فعند وصول الخليفة المُعِزّ إلى مصر فَضَّل أن لا يُفَوِّض سلطاته إلى أحد وأن « يباشر التدبير بنفسه ولا يُعَوِّل فيه على غيره » [١٦]، ولكنه أوجد ما أطلق عليه « الوَساطَة » ، لأن صاحبها كان يتوسَّط بين الخليفة والرعية . ولم يظهر لقب الوزير فى مصر الفاطمية إلّا فى رمضان سنة ٣٦٨/ إبريل سنة ٩٧٩ عندما مَنَح الخليفة الفاطمى الثانى العزيز بالله ليعقوب بن كِلِّس لقب « الوزير الأجَلّ » وأصبح بذلك أول وزراء الدولة الفاطمية [١٧]، ولم يَثْبُت هذا اللقب رسميًا إلّا فى زمن الخليفة الفاطمى الرابع الظّاهر لإعزاز دين الله (٤١١ – ٤٢٧) بتولّى الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجَرْجَرائى وزارة التنفيذ فى سنة ١٠٢٨/٤١٨ حيث أصبحت الوزارة منذ هذا التاريخ منصبًا وتكليفًا ويطلق عليها « رُتْبَة » [١٨].

وكان وزير التنفيذ لا يزيد عن كونه وزيرًا معينًا ذو سلطات محدودة حيث كان للخليفة كل السلطة على الوزير ويراجع جميع أفعاله . وكان الوزير الحسن ابن على اليازورى (٤٤٢ – ١٠٥٠/٤٥٠ – ١٠٥٨) آخر وزراء التنفيذ

[١٥] عرفت هذه الرتبة فى مصر منذ زمن الطولونيين (السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٢٠١ ، Hassan , Z . M . , “ Les Tulunides ” , Paris 1933 , p . 194 ونحن نعرف أن جعفر بن الفرات كان وزيرًا للإخشيديين ، ولكن عند قدوم الفاطميين توقّف جوهر عن مخاطبته بالوزير إلّا بعد مراجعة لأنه ، كما قال ، لم يكن وزير خليفة . (المقريزى : اتعاظ ١ : ١٠٧ ، ١١٨ ، الخطط ١ : ٤٣٩ ، المقفى ٣٨٣) .

[١٦] ابن الصيرفى : الإشارة ٤٧ .

[١٧] ابن زولاق – ابن ميسر : أخبار مصر ١٦٣ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٤٩ ، ابن ظافر : أخبار ٣٨ ، المقريزى : المقفى ٣٨٤ ، الخطط ١ : ٨٢ ، ٢ : ٥ – ٦ ، ٢٦٩ ، اتعاظ الحنفا ١ : ١٤٤ – ١٤٥ .

[١٨] ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٨١ الذى أورد سجل تولية الوزارة للوزير الجَرْجَرائى وهو مؤرّخ فى ذى الحجة سنة ٤١٨/ يناير سنة ١٠٢٨ .

الأقوياء [١٩] حيث دخلت مصر بعد عزله فى سنة ١٠٥٨/٤٥٠ وبعد فشل الفاطميين أمام السلاجقة فى أزمة إدارية حادة أُبعد فيها أربعة وخمسون وزيرًا واثنان وأربعون قاضيًا ، حتى استنجد الخليفة المستنصر بوالى عكّا بدر الجمالى لإنقاذ عرشه من طغيان الأتراك الذين تسلّطوا على الدولة [٢٠].

فور أن انتهى بدر الجمالى من إعادة النظام إلى الدولة والقضاء على المعارضين فوّضه الخليفة المستنصر فى جميع سلطاته ومنحه إشرافًا عامًا على شئون الدولة . وهكذا أصبح بدر الجمالى أول قائد عسكرى يوليه الفاطميون الوزارة التى أصبحت منذ هذا التاريخ ١٠٧٤/٤٦٧ تقوم مقام السَّلْطَنَة . يقول المقريزى : « فصارت الوزارة من حينئذ وزارة تفويض ويقال لمتوليها « أمير الجيوش » وبطل اسم الوزارة » [٢١]. وقد أضفى بدر الجمالى شهرة على هذا اللَّقَب حتى أنه حلّ محل اسمه الشخصى للتدليل عليه . فرغم أن خلفاءه تلقّبوا كذلك بلقب « أمير الجيوش » بما أنهم كانوا « وزراء سيوف » أى قادة للجيش فى نفس الوقت ، فإن بدر الجمالى احتفظ وحده لدى المؤرّخين المتأخّرين بميزة أنهم كانوا يكتفون فقط لتعريفه بذكر لقبه « أمير الجيوش » [٢٢].

واعتبارًا من بدر الجمالى حمل جميع وزراء التفويض ألقابًا خاصة بهم لتأكيد قوة منصبهم ، فقد جمعوا إلى جانب قيادة الجيش جميع الإدارات المدنية

---

[١٩] كان الوزير اليازوى يشغل مناصب القضاء والدعوة والنظر فى ديوان أم المستنصر بالإضافة إلى منصب الوزارة وكان يُنْعَت « بالناصر للدين غيّاث المسلمين الوزير الأجلّ المُكَرّم سيّد الرؤساء تاج الأصفياء قاضى القضاة وداعى الدعاة » . (ابن ميسر : أخبار ١١ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٧٣ ، ابن ظافر : أخبار ٧٨ ، المقريزى : ١٩٧ ، المقفى (مخ . السليمة) ٣٥٩ ظ – ٣٦٨ ظ ، ابن حجر : رفع الإصر ١٩٠ – ١٩٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٢) .

[٢٠] عن وزارة التنفيذ راجع ، ابن الصيرفى : الإشارة ٦٨ – ٩٧ ، ابن ميسر : أخبار ٥٥ – ٥٦ ، ٥٨ .

[٢١] المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ ، وانظر أعلاه ص .

[٢٢] Wiet, GIA Egypte II, pp. 147 - 148; Fuàd Sayyid, A. " La Capitale de l'Egypte " (sous press)

والقضائية وحتى الدينية . وهكذا فإن جميع شئون الدولة ، دون استثناء ، خضعت لسلطتهم ولم يبق للخليفة معهم أية سلطة [٢٣]. واستقر ترتيب ألقاب وزراء السيوف الفاطميين ابتداء من بدر الجمالى وحتى ظهور لقب « الملك » بين ألقاب الوزير كالآتى : « السيد الأجل [النعت الشخصى للوزير الذى أصبح ابتداء من الصّالح طلائع لقب « ملك »] أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين (ثم اسم وكنية ولقب الوزير الشخصى) » [٢٤].

وعادة ما يتبع لقب السيّد الأجَلّ مباشرة النعت الشخصى للوزير . وكان هذا النعت هو « أمير الجيوش » بالنسبة لبدر الجمالى و « الأفضل » بالنسبة لابنه شاهنشاه وحفيده أبى على كُتَيْفات وكذلك رضوان بن وَلَخْشى و « المأمون » لمحمد بن فاتك البطائحى ، و « المُفَضَّل » لسليم بن مصال ، و « العادل » لعلى بن السّلار . أما الوزير عبّاس الصّنْهاجى فقد ورد لقبه أحيانًا « الأفضل » وأحيانًا أخرى « العادل » . والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة الوزير يانس الرومى والوزير بَهْرام الأرمنى ، فقد لُقّب الأول بـ « أمير الجيوش » فقط ولُقّب الثانى بـ « سيف الإسلام تاج الملوك » .

وذكر ابن الأثير وأبو الفدا أن رضوان بن وَلَخْشى « هو أول من لُقّب من وزراء الفاطميين بـ « الملك » مضافًا إلى بقية الألقاب » [٢٥]، وأكد المقريزى ذلك فى اتعاظ الحنفا [٢٦]. ولكن ما ذكره المقريزى يناقض نصًا آخر للمقريزى فى الاتعاظ حيث يذكر فى ترجمة الوزير طلائع بن رُزّيك أنه نُعِت فى سجل

---

[٢٣] القلقشندى : صبح ١٠ : ٣١٠ ، ماجد : نظم الفاطميين ١ : ٨٣ — ٨٤ .

[٢٤] Wiet, G., CIA Egypte II, pp. 173 - 174; Fu'ad Sayyid, A., op. cit., (Sous press) ، ومقدمة نزهة المقلتين لابن الطوير ٤٩ — ٥٣ .

[٢٥] الكامل ١١ : ٤٨ ، المختصر فى أخبار البشر ٣ : ١٢ .

[٢٦] اتعاظ الحنفا ٣ : ١٦١ .

توليته بـ « الملكِ الصّالح » وأنه « لم يُلَقَّب أحد من الوزراء قبله بالملك وذلك فى يوم الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٥٤٩ » [٢٧]. يؤكد ذلك ما ورد عند ابن مُيَسَّر وكذلك سجل تقليد رضوان الوزارة والذى لم يرد فيه لفظ الملك [٢٨].

ولعل أهم ما يُمَيِّز منصب الوزارة فى العصر الفاطمى هو أن الكثير من وزراء الفاطميين ، سواء الذين منحوا لقب الوزارة أو لقب الوساطة كانوا من النّصارى مثل عيسى بن نَسْطورس وزير العزيز وكذلك زُرْعة بن نَسْطورس الشافى الذى خلف وزيرًا نصرانيًا آخر هو منصور بن عبدون الكافى ، كلاهما فى أيام الحاكم [٢٩]. ويعد بَهْرام الأرمنى الذى تولى وزارة التفويض للخليفة الحافظ أوضح مثل لذلك فقد ظل هذا الوزير على نصرانيته رغم كونه وزير سيف ولُقِّب بـ « سيف الإسلام » [٣٠]. وفى المقابل فإن اليهود رغم شغلهم مناصب هامة فى زمن الفاطميين ، فيبدو أنه كان عليهم ان يتحوّلوا إلى الإسلام ليتولوا منصب الوزارة مثلما فعل ابن كِلِّس وأبو سعد التُستَرى وصَدَقَة بن يوسف الفَلاحى [٣١].

ولم تكن لوزير القلم (وزير التنفيذ) قبل بدر الجمالى ، سلطة كاملة على بقية موظفى الإدارة الذين كان يُعَيِّنهم الخليفة ، فقد كان للخليفة كل السلطة على الوزير ويراجع جميع أفعاله . أما وزير السَّيف (وزير التفويض) فقد كان « هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية » [٣٢].

---

[٢٧] نفسه ٣ : ٢١٨ ، ٢٥١ وانظر أعلاه ص .

[٢٨] ابن ميسر : أخبار ١٢٦ ، القلقشندى : صبح ٨ : ٣٤٢ – ٣٤٦ .

[٢٩] القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٦ .

[٣٠] ابن ميسر : أخبار ١٢٢ .

[٣١] نفسه ٣ – ٥ ، ٢٥ ، ٥٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٢٤ ؛ Fischel, W., op.cit, p. 80; Goitein, S.D., A Med. Soc. II, p. 377.

[٣٢] المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ . وعن نظام الوزارة عمومًا راجع ، عطية مصطفى مشرفة : نظم =

النُّظام الإدارى

مرَّ تطوُّر « الدواوين المصرية » بثلاث مراحل متميِّزة رغم أن استمرارية النُّظُم الإدارية فى مصر تميل إلى أن تكون أقوى من تغيير الحكومات والأنْظِمَة الحاكمة . فلا يوجد فى الواقع فاصلٌ واضحٌ بينها . وهذه المراحل هى : عصرُ الوُلاة والدُّول المُستَقِلة (١٩ - ٦٣٩/٣٥٨ - ٩٦٩) [٣٣] وعصرُ الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٩٦٩/٥٦٧ - ١١٧١) [٣٤] والعصرُ الأيوبى المملوكى (٥٦٧ - ١١٧١/٩٢٣ - ١٥١٧) [٣٥]. فقد استحدث الفاطميون أمورًا كثيرة فى نظام الحُكْم لم تكن قبلهم ، كما أن الأيوبيين استمدُّوا نظام دولتهم من نظام الأتابكة والسَّلاجِقَة [٣٦]، وكانوا أصلَ الدولة التركية [٣٧] بحيث أن المماليك لم يُدخِلوا تغييرًا كبيرًا على أسلوب الحُكْم وجهاز الإدارة الأيوبى .

= الحكم بمصر فى عصر الفاطميين (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ ، ٩٦٨ - ١١٧١ م) ، القاهرة ١٩٤٨ ، ٩٦ - ١٢٠ ، ماجد ، المصدر السابق ١ : ٧٨ - ٩٣ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٢٧ - ١٧٨ ، محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٧٠ ، al - 'Imâd, L.S., " The Fatimid Vizirate 969 - 1172 ", Ph. D. Univ, NY 1986.

[٣٣] القلقشندى : صبح ٣ : ٤٦٧ وانظر سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الولاة ، القاهرة ١٩٨٨ ، ٢٥ - ٦٦ ومصر فى عصر الإخشيديين ، القاهرة ١٩٧٠ ، ١٦٥ - ١١٢ ، Hassan , Z . M . , Les Tulunides , Paris 1933 , pp . 163 - 231.

[٣٤] نفسه ٣ : ٤٦٨ - ٥٢٦ ، عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ .

[٣٥] نفسه ٤ : ٥ - ٧٢ ، ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (مصر والشام والحجاز واليمن) ، القاهرة ١٩٨٥ ، Rabie , H . , The Financial System of Egypt A .H . 564 - 741 / A . D . 1169 - 1341 , London 1972 ، على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ ، ١٨١ - ٢٩٥ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ ، Gottschalk , H . L . , EI²., art . Diwân , II , PP . 336 - 341.

[٣٦] القلقشندى : صبح ٣ : ٥ .

[٣٧] نفسه ٧ : ١١٩ .

وقد لقيت دواوين الدولة تغييرات وتعديلات كبيرة طوال الفترة الفاطمية التى استمرت أكثر من قرنين من الزمان . ولم يعرف الفاطميون أغلب هذه الدّواوين خلال الستين عامًا التى أمضوها فى شمال إفريقيا ، كما أن قسمًا كبيرًا منها لم تعرفه النُّظُم المصرية السابقة على الفاطميين ، بل استحدثه الفاطميون بعد انتقالهم إلى مصر . فالتنظيم الصارم الذى أدخله يعقوب بن كِلِّس وعُسْلُوج بن الحسن على الإدارة والنُّظُم المالية كان أساس النِّظام المُعَقَّد للمُؤَسَّسَات العامة التى نَمَت وتبدَّلت أو استُجِدَّت تدريجيًا طوال العصر الفاطمى .

ومصادر معلوماتنا الرئيسية عن دواوين الدولة الفاطمية فى مصر نستمدها من كتابين هما : « صُبْح الأعْشَى » للقَلْقَشَنْدى و« خِطَط » المَقْريزى . وبالنسبة للفاطميين المتأخِّرين وبداية العصر الأيوبى يُمَثِّل كتاب « المِنْهاج فى أحكام صنَعْة الخراج » للمَخْزُومى وكتاب « قوانين الدَّواوين » لابن ممَّاتى بالإضافة إلى كتابَىّ « لُمَع القوانين المُضِيَّة » و « تاريخ الفيوم وبلاده » للنابُلْسى أهمية خاصة . أما « ديوان الإنشاء » أو « الرَّسَائِل » فنحن نملك عنه كتابين مستقلّيْن أحدهما عن الفترة الفاطمية الأولى هو « مَوَادُ البَيَان » لعلى بن خَلَف ، والآخر عن الفترة الفاطمية الثانية هو « قانون ديوان الرسائل » لعلى بن مُنْجِب ابن الصَّيْرَفى بالإضافة إلى صُوَر السِّجِلَّات والمناشير التى أوردها القلقشندى فى « صُبْح الأعْشَى » .

وقد اعتمد عَرْضُ القلقشندى والمقريزى لدواوين الدولة الفاطمية فى الأساس على ما أورده ابن الطُّوَيْر فى كتاب « نُزْهة المُقْلَتَيْن » الذى أَلَّفه فى عصر صلاح الدين بعد سقوط دولة الفاطميين بفترة قصيرة .

وتُقَدِّم لنا الوثائق الرسمية القليلة التى وصلت إلينا من العصر الفاطمى أسماء عدد من الدّواوين لم يرد لها ذكْرٌ فى القائمة التى أوردها القلقشندى والمقريزى . فقد كانت العادة أن يُسَجِّل الكاتب فى نهاية كل سِجِلّ أو مَنْشور أسماء الدواوين التى يجب أن يُثْبَت أو يُخَلَّد بها السِّجِلّ أو المنشور .

الدواوين الفاطمية

عَرَف الفاطميون فى بداية حكمهم فى مصر عددًا من الدَّواوين ، ذكر أغلبها المُسَبِّحِي فى تاريخه ، استمر بعضها يعمل إلى نهاية دولتهم وزال أغلبه أو تبدَّل أو تغيَّرت أهميته فى النصف الثانى من تاريخ الدولة . ولا تعيننا المعلومات المتوافرة لنا على دراسة تطوُّر الدَّواوين الفاطمية فى النصف الأول من تاريخ حكمهم فى مصر . فتاريخ المُسَبِّحى – وهو أقدم مصدر فاطمى وصل إلينا إذا استثنينا تاريخ ابن زولاق – لا يذكر لنا سوى أسماء سبعة دواوين فقط استمر عددٌ قليلٌ منها وتغيَّر أكثرها وتبدَّل بعد ذلك هى : ديوان الأحْباس وديوان البريد وديوان الترتيب وديوان الخَرَاج وديوان الشَّام وديوان العَرَائف وديوان الكُتَاميين [٣٨]، أضاف إليها ابن مُيَسَّر والمقريزى : الديوان المُفْرَد والديوان الخاص وديوان النَّفَقَات وديوان دِمَشْق وديوان أم الخليفة المستنصر [٣٩]؛ بالإضافة إلى ديوان الزِّمام وديوان الأولياء الكبار وديوان الطحاوية (أو الظاهرية) والديوان الفَرَجِى ، وهى الدواوين التى وردت فى إسجالات « السِّجل المنشور » الصادر عن الخليفة الظاهر فى المحرم سنة ٤١٥/مارس سنة ١٠٢٤ [٤٠]. ويجب أن نضيف إلى هذه الدَّواوين دون شك « ديوان الإنْشَاء والمكاتبات » أو « ديوان الرَّسائل » و « ديوان الجَيْش » . وواضح أن بعض هذه الدواوين نشأ لخدمة أغراض معيَّنة ثم زال بزوال الغرض الذى أنشئ من أجله .

---

[٣٨] المسبحى : أخبار ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٩ ، أبو صالح : تاريخ ٥١ (٤٠ ب) .

[٣٩] ابن ميسر : أخبار ٥ ، ٢٤ ، ٩٠ ، ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٠٨ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٤٨ ، ٩٠ ، ١٠٨ .

[٤٠] Stern, S. M., Fatimid Decrees pp. 17 - 18.

وقد قَسَّم على بن خَلَف فى كتابه « مَوَاد البيان » ، الذى أَلَّفه نحو سنة ١٠٤٥/٤٣٧ ، مراتب الوظائف الديوانية أو المتعلّقة بصناعة الكتابة إلى خمس عشرة مَرْتَبَة هى : الوَزَارة ، والتَّوْقيع والرَّسائل ، والخَرَاج ، والضِّياع ، وبيت المال والخَزَائن ، والنَّفَقَات ، والجَيْش ، والزِّمام ، والبَرِيد والقَصّ ، والمَظَالم ، وكتابة القضاء ، وكتابة القُوَّاد والأمراء ، وكتابة المَعَاون [٤١].

ولا يتَّفق هذا الترتيب كذلك مع ما أورده المُسَبِّحى وابن مُيَسَّر ، كما أنه لا يفيدنا كثيرًا فى التعرُّف على طبيعة الوظيفة الموكلة إلى هذه الدواوين أو إلى هذه الوظائف الديوانية .

وأغلب هذه الدَّواوين لا يرد ذكره فى توصيف دواوين الإدارة الفاطميةفى العصر الفاطمى المتأخِّر الذى ترجع إليه هذه الأوصاف ، ولكن دراستها تدلنا على أن بعضها قد زال فى النصف الثانى من تاريخ الدولة الفاطمية وبعضها الآخر تغيَّر اسمه والدور الذى يقوم به .

فديوان الشَّام وديوان دِمَشْق وديوان الكُتَاميين وديوان أم الخليفة المستنصر والديوان الفَرَحى زالت بزوال سبب وجودها . فدور الكُتاميين تلاشى فى أوائل القرن الخامس ، وديوان أم الخليفة تغيَّر دوره بتغير دور نساء القصر ونفوذهن ، كما أن ديوان الشام وديوان دمشق زال دوره بخروج دمشق والشام عن السيطرة الفاطمية فى سنة ١٠٧٥/٤٦٧ .

أما أهم دواوين العصر الفاطمى الأوَّل التى استمرت فى العصر الفاطمى الثانى ، مع تبدُّل أسمائها وتوسيع دورها ، فيأتى على رأسها « ديوان التَّرْتيب » أو « الرَّتيب » ، وقد تولَّاه المؤرِّخ المُسَبِّحى أكثر من مرة فى زمن الحاكم بأمر الله [٤٢]، كما تولَّاه أبو سَعْد محمد بن أحمد العَمِيدى الكاتب وعُزِل عنه سنة

---

[٤١] على بن خلف : مواد البيان ٧٠ – ٨٨ .

[٤٢] المسبحى : أخبار ١٠٩ ، ابن خلكان : وفيات ٤ : ٣٧٧ ، الصفدى : الوافى ٤ : ٨ .

١٠٢٢/٤١٣ قبل أن يتولّى ديوان الإنشاء [٤٣]، كما ذكره ابن الصيرفى فى زمن أبى على الأفضل كُتَيْفات [٤٤]. وقد جدّد أبا عبد الله الأنصارى فى عهد الخليفة الحافظ ديوانًا سماه « ديوان الترتيب » تعادل وظيفته « ديوان البريد » [٤٥]. أما عمل « ديوان الترتيب » فى العصر الفاطمى الأول فهو أشبه بالتنسيق بين دواوين الدولة وهو الدور الذى سيقوم به فى العصر الفاطمى الثانى « ديوان التحقيق » .

الدّيوان الثانى هو « الدّيوان المُفْرَد » وهو ديوان أحدثه الخليفة الحاكم سنة ١٠٠٩/٤٠٠ برسم مَنْ يُقْبَض ماله من المقتولين أو من يَسْخَط عليه الخليفة [٤٦]، وربما كان هذا الديوان هو الدّيوان الذى عُرِف فى نهاية العصر الفاطمى « بديوان المُرْتَجَع » وقد جاء فى السِّجل الخاص بولاية متولّى هذا الدّيوان ، والذى أورده القلقشندى ، أنه الدّيوان الخاص بالمُرتَجَع عن الوزير بَهْرَام وغيره وأنه من أجَلّ الدواوين وأوفاها [٤٧].

أما « ديوان الزّمام » الذى جاء ذكره فى السِّجل المنشور الصادر عن الخليفة الظّاهر سنة ١٠٢٤/٤١٥ [٤٨] فيبدو أنه الدّيوان الذى تحوّل فى أواسط القرن الخامس إلى ديوان المَجْلِس . فالمقريزى ينقل عن « جامع سيرة الوزير الناصر

---

[٤٣] نفسه ١٣ ، ياقوت : معجم الأدباء ١٧ : ٢١٢ ، القفطى : إنباه الرواه ٣ : ٤٧ ، الصفدى : الوافى ٢ : ٧٦ ، السيوطى : بغية الوعاة ١ : ٤٧ . وانظر كذلك ساويرس : تاريخ ٣/٢ : ١٧٨ س ١٧ .

[٤٤] ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ٣٥ .

[٤٥] المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٤ — ١٩٥ .

[٤٦] نفسه ٢ : ٨١ ، ٨٢ ، والخطط ٢ : ١٥ س ٢٦ — ٢٧ و ٢٨٧ س ١٤ — ١٥ .

[٤٧] القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٥٧ — ٣٥٩ . ربما كان هو الديوان الذى ذكر فى وثائق ديرسانت كاترين باسم « ديوان الاستيفاء على الاقطاعات المرتجعة ... » . Stern S . M ., op . cit ., p . 37 .

[٤٨] Stern , S . M ., op . cit ., p . 17 .

للدين الحسن بن على اليازورى » أن يوان المَجْلس هو زمام الدواوين ، بما يعنى أن ديوان المَجْلس هو اسم جديد لديوان الزمام [٤٩].

ولا ندرى إن كان « ديوان الخاص » ، الذى كان يتولّاه عيسى بن نسطورس فى زمن الحاكم [٥٠]، هو نفسه « الديوان الخاص » الذى كان يتولّاه أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط فى زمن الآمر بأحكام الله [٥١]! والذى يبدو أنه الديوان المختص بنفقات الإمام والقصور .

ديوانُ المَجْلِس وديوانُ النَّظَر

لا شك أن الديوان الرئيسى بين الدَّواوين الإدارية الأربعة عشرللدولة الفاطمية والذى يقابلنا اسمه فى المصادر مع أواخر القرن الخامس ، هو « ديوان المَجْلِس » . وهذا الديوان ، كما يقول ابن الطُّوَيْر ، هو أصل الدواوين وفيه علوم الدولة بأجمعها ويقال لمتوَليه « صاحب ديوان المَجْلِس » ، ويشرف على إدارته المختلفة عددٌ من الكُتّاب لكل واحد منهم مجلس مفرد ويعاونه معين أو معينان ، وصاحب هذا الديوان هو المتحدِّث فى الإقطاعات . وأهم كُتّاب هذا الديوان هو « صاحب دَفْتَر المَجْلِس » ويكون عادة من الأستاذين المُحَنَّكين [٥٢]. وتتولّى إدارات هذا الديوان المختلفة الإشراف على الإنعامات والأُعْطِيَة ، ومَنْح الكُسْوات ، وتسجيل ما يرد من التُّحف والهدايا من الملوك والأمراء ، وضَبْط ما يُنْفق فى الدولة من المهام لمعرفة ما بين كل سنة من التفاوت ، ويتم تنزيل كل ذلك فى « دَفْتَر المجلس » [٥٣].

---

[٤٩] المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ آخر سطر .
[٥٠] ابن ميسر : أخبار ١٧٩ ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٩٦ س ٢٦ .
[٥١] أبو صالح : تاريخ ٥٤ (٤٢ ب) .
[٥٢] من بين من تولوا دفتر المجلس : أبو الفضائل ابن أبى اللَّيْث أخو الشيخ أبو البركات يُحَنّا بن أبى اللَّيْث . (أبو صالح : تاريخ ٦٤ (٥٠ ب) ، المقريزى : المقفى (خ . ليدن) ٢ : ٢٠٦ ظ) .
[٥٣] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٧٥ .

ويتّسم الدور الفعّال لديوان المَجْلِس بالمرونة حيث يشتمل على كل ما يتّصل بالخليفة وتنظيم البلاط وتنظيم الأعياد والاحتفالات والنفقات الزائدة وتوزيع الإقطاعات ، والسياسة العامة ...إلخ .

ومن أهم مَهَام « ديوان المَجْلِس » عمل « الاسْتيمار » فى نهاية ذى الحجة من كل عام . فقد كان كتّاب ديوان الرّواتب (الذى أصبح فى فترة نجهلها فرعًا لديوان المَجْلِس بعد أن كان فرعًا لديوان الجيش) [٥٤] يجتمعون فى هذا الوقت عند صاحب ديوان المَجْلِس ويحرّرون قائمة بأسماء المرتزقين والمبالغ المؤداة لهم عَيْنًا ووَرِقًا . وقد تولّى المؤرخ ابن الطُّوَيْر بنفسه ديوان المَجْلِس ، وذكر أن الاستيمار انعقد وقت تولّيه هذا الدّيوان على ما مبلغه نيف ومائة ألف دينار أو قريب من مائتى ألف دينار [٥٥].

أما « ديوان النَّظَر » فقد كان صاحبه يرأس دواوين الأموال [٥٦]، وكان له العَزْل والولاية ، وهو الذى يتولّى عرض الأوراق فى أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير ، وله الاعتقال بكل مكان يتعلّق بنوّاب الدولة ، وهو الذى يندب المترسلين لطلب الحساب والحَثّ على طلب الأموال ، ولا يُعْتَرَض فيما يقصده من أحد من الدولة . ولم يكن يتولّى هذا الديوان سوى المسلمين فيما عدا الأَخْرَم (الأَكْرَم) النَّصْرانى الذى توصّل إلى ولايته بالضّمان فى سنة ١١٣٦/٥٣٠ [٥٧].

وقد أمدّنا ابن مُيَسَّر بأسماء من تولّوا نَظَر الدّواوين فى آخر عصر الدولة الفاطمية ، أقدمهم الشريف معتمد الدولة بن جعفر بن غَسّان المعروف بابن

---

[٥٤] المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن ، القاهرة ١٩٨٦ ، ٦٨ ، ٩٨ .

[٥٥] Stern , S . M ., op . cit., p . 17 ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ .

[٥٦] ربما كان الديوان الذى يسمّيه المخزومى « ديوان المال » (المنهاج ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢) .

[٥٧] ابن الطوير : نزهة ٧٩ – ٨٠ . وعن تولى الدواوين بالضّمان انظر ابن مماتى : قوانين ٢٩٨ – ٣٠٠ .

أبى العَسَّاف الذى تولَّى نَظَر الدواوين بعد عَزْل وَلّي الدولة أبى البركات يُحَنَّا ابن أبى اللَّيْث عن ديوان التحقيق والمَجْلِس سنة ١١٣٣/٥٢٧ [٥٨]. وفى سنة ٥٢٩/٣٤ – ١٠٣٥ ولّى الخليفة الحافظ صنيعة الخلافة أبا الكرم الأَخْرَم ابن أبى زكريا النَّصْرانى نَظَر الدَّواوين ، وهو النصرانى الوحيد الذى تولَّى هذا الديوان ، إلى أن عزله الوزير ابن وَلَخْشِى سنة ١١٣٧/٥٣٢ واستخدم عِوَضًا عنه القاضى المرتضى المُحَنَّك الطَّرَابُلسى [٥٩]، ولكنه لم يلبث أن صرفه الخليفة الحافظ وأعاد الأَخْرَم النصرانى إلى ضَمَان الدولة بعد عَزْل رضوان بن وَلَخْشِى [٦٠]. وفى سنة ١١٤٥/٥٤٠ أوكل نَظَر الدَّواوين إلى القاضى الموفَّق أبى الكرم محمد بن معصوم التِّنِّيسى ثم صُرِف عنه فى سنة ١١٤٧/٥٤٢ وأعيد إليه القاضى المرتضى المُحَنَّك [٦١]. وممن تولَّى هذا الديوان أبو الحسن على بن سليم البوَّاب الذى قتله الوزير الصَّالِح طَلَائع مع آخرين فى سنة ١١٥٥/٥٥٠ [٦٢]، ومحمد بن محمد بن محمد بن بنان الأَنْبَارى الذى ذكر الصَّفَدى أنه « تولَّى ديوان النَّظَر فى الدولة المصرية وتقلَّب فى الخِدَم فى الأيام الصَّلاحية بِتِنِّيس والإسكندرية » [٦٣].

وعلى العكس من « ديوان النَّظَر » فلم يكن يتولَّى « ديوان المَجْلس » عادة سوى النَّصَارى إلى أن استخدم الوزير ابن وَلَخْشى المسلمين فى المناصب التى كانت بأيدى النصارى سنة ١١٣٧/٥٣١ . ورغم أن هذا الديوان قد عُرِف منذ وزارة الوزير اليازورى [٦٤]، فإن أوَّل اسم يقابلنا فى المصادر لمتولّى هذا

[٥٨] ابن ميسر : أخبار ١١٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢٤٨ .
[٥٩] نفسه ١٤٠ ، نفسه ٣ : ١٦٥ ، وانظر ابن ظافر : أخبار ٩٩ .
[٦٠] المقريزى : اتعاظ : ٣ : ١٨٤ .
[٦١] ابن ميسر : أخبار ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ .
[٦٢] نفسه ١٥٣ ، نفسه ٣ : ٢٢١
[٦٣] الصفدى : الوافى ١ : ٢٨٢ ، ابن شاكر : فوات ٣ : ٢٦٠ .
[٦٤] المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ آخر سطر .

الديوان هو أبو الطَّيِّب سَهْلون بن كيل المتوفى سنة ١٠٨٧/٤٨٠ . وفى أيام الوزير الأَفْضَل شاهنشاه كان الشيخ أبو الفَضْل المعروف بابن الأُسْقُف هو « كاتب الأفضل والمُوَقِّع عنه فى الأموال والرجال ومتولى ديوان المَجْلِس والنَّظَر فى جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة »[٦٦]. كذلك فقد تولى هذا الديوان أكثر من مرة فى زمن الفاطميين والأيوبيين أبو الحسن على بن عثمان المَخْزومى صاحب كتاب « المنهاج فى علم خراج مصر »[٦٧].

ديوان التَّحْقِيق

فى سنة ١١٠٧/٥٠١ استجدَّ الوزير الأَفْضَل ديوانًا سمَّاه « ديوان التحقيق » مقتضاه المقابلة على الدواوين ، كان لا يتولَّاه إلَّا كاتب خبير ويُلْحق بمتولى النَّظَر[٦٨]. كان أوَّل من تولَّاه الشيخ وَلِيّ الدولة أبو البركات يُحَنَّا بن أبى اللَّيْث[٦٩] وأطلق عليه ابن مُيَسَّر اسم « ديوان المملكة »[٧٠]، وبعد وفاة الشيخ أبو الفضل بن الأُسْقُف ، متولى ديوان المَجْلِس ، فى مطلع القرن السادس جُمِع لابن أبى اللَّيْث « ديوان المَجْلِس » إلى « ديوان التَّحْقيق » وظلّ يليهما إلى أن صَرَفَه الخليفة الحافظ فى سنة ١١٣٣/٥٢٧ « لأشياء نقمها عليه » وسَلَّم أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة على بن جعفر بن غَسَّان المعروف بابن العَسَّاف[٧١]، ولكن لم يكد يمضى عامان حتى استخدم الخليفة الحافظ الشيخ صنيعة الخلافة

---

[٦٥] ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٣/٢ : ٢٢٣ .
[٦٦] نفسه ٣/١ : ٣ والمقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٩ .
[٦٧] المخزومى : المنهاج — خ ٤٦ و .
[٦٨] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨١ .
[٦٩] ابن المأمون : أخبار ٥٣ ، ٦٥ ، أبو صالح : تاريخ ٦٤ ، ابن ميسر : أخبار ٧٧ ، ١٠٨ ، ساويرس : تاريخ ٣/١ : ٢٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٩٩ ، الاتعاظ ٣ : ١٢٦ .
[٧٠] ابن ميسر : أخبار ٩٠ .
[٧١] ابن ميسر : أخبار ١١٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٨ .

أبو ذكرى بن يحيى بن بولس الكاتب النَّصْرانى فى ديوان التحقيق فى أيام وزارة بَهْرام الأرمنى سنة ١١٣٦/٥٣٠ [٧٢].

وعندما تولّى رِضْوان بن وَلَخْشى الوزارة فى سنة ١١٣٦/٥٣١ ، بعد عَزْل بَهْرَام الأرمنى ، « أمر بعدم استخدم النَّصَارى فى الدَّواوين الكبار ولا نُظَّارًا ولا مُشَارفين » [٧٣]، فعيَّن القاضى الخطير أبا الحسن على بن سليم بن البَوَّاب والقاضى المرتضى المُحَنَّك بن الطَّرابُلْسى على ديوانى التحقيق والمَجْلِس وديوان النَّظَر عِوَضًا عن ابن بولُس وعن الأَخْرَم النَّصْرانى [٧٤].

وفى أول الأمر كان ديوانى التحقيق والمَجْلِس يُجْمعان لشخص واحد كما حَدَث مع الشيخ ولىّ الدَّولة أبى البركات يُحَنَّا بن أبى اللَّيْث ويؤكد ذلك أن المَنْشُور الذى أصدره الخليفة الآمر بأحكام الله فى أعقاب وفاة الوزير الأفضَل ابن بدر الجمالى فى شوَّال سنة ١١٢١/٥١٥ « بإمضاء ما كان الوزير قد قرَّره وخرجت به توقيعاته قبل قتله وعدم تغيير شئ منه » أمر باعتماده فى ديوانى التحقيق والمَجْلِس وأن يُخَلَّد بهما [٧٥].

ويبدو أن « ديوان المَجْلِس » قد أُلْغى بعد فترة قصيرة من بداية الدولة الأيوبية ، فيذكر النَّابُلْسى عند حديثه عن « ترتيب الدَّواوين بالديار المصرية » : « أن أحوال الدَّواوين بالديار المصرية كان على أنحاء مختلفة من زمن المصريين [أى الفاطميين] فكان لهم ديوانٌ يُعرف « بديوان المَجْلِس » وهو النظر فى أموال الزَّكاة والجَوَالى بالديار المصرية جميعها مع ما يضاف إليه من دواوين الباب ، وكان أجلّ رُتْبَة عندهم وكان هو الذى يوقِّع بإطلاق جامَكيَّات المستوفين ويكتب على مستحقات المستحقين من أرباب الجامكيات والرَّواتب فيه ، ليس لأحد مع ناظر هذا الديوان حديث ، وهو الذى يتولّى إرسال التذاكر إلى

---

[٧٢] ساوسرس : تاريخ ٣١/٣ .
[٧٣] نفسه ٣/ : ٣١ وانظر ابن ميسر : أخبار ١٢٨ – ١٢٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٣ .
[٧٤] نفسه ١/٣ : ٣١ والاتعاظ ٣ : ١٦٥ .
[٧٥] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٦٩ .

الأعمال بطلب ديوان الزَّكاة والجَوَالى وحسباناتهما ويستخدم فيهما ويصرف ، وكذلك ديوان الخَرَاج وديوان المَوَاريث والنَّطْرون والثُّغور وغير ذلك من الدَّواوين . « ثم تَغيَّر ذلك على أنحاء مختلفة إلى أن انتهى الحال إلى أن يؤمر المستوفون بعمل أوراق بالأشغال والدَّواوين » [٧٦].

أما « ديوان التحقيق » فيذكر ابن مُيَسَّر صراحةً أنه زال بسقوط الفاطميين إلى أن أعاده الملك الكامل محمد فى سنة ١٢٢٧/٦٢٤ واستخدم فيه ابن كَوْجَك اليهودى ثم أبطله نهائيًا فى سنة ١٢٢٩/٦٢٦ ، ويضيف ابن مُيَسَّر أنه فى أيَّام المُعِزّ أَيْبَك التُرْكمانى استُخْدِم صفِّى الدِّين عبد الله بن على المغربى مستوفيًا على مقابلة الدَّواوين ، الذى يُعَدّ نوعًا من ديوان التحقيق [٧٧].

وقد استعاض الأيوبيون عن هذين الديوانين بما أُطْلِق عليه « مجلس أصحاب الدَّواوين » الذى كان يجتمع بحضرة السلطان لتسمية ناظر الدَّواوين . وقد عُقِد مَرَّة فى العاشر من صفر سنة ٥٨٠/ ٢٣ مايو سنة ١١٨٤ للمفاضلة بين شخص يُدْعى ابن شُكْر وآخر يُدْعى ابن عُثْمان . ووقع اختيار المجلس أولًا على ابن عُثْمان ثم صُرِف بابن شُكْر الذى سُمِّىَ فى خامس عشر ربيع الأول من السنة نفسها بـ « ناظر الدَّواوين » . وعُقِد المجلس كذلك فى رابع المحرم سنة ٥٩٠/ ٣٠ ديسمبر سنة ١١٩٣ بحضرة السلطان العزيز عثمان [٧٨].

الديوانُ الخَّاص

وإلى جانب ديوانى المَجْلِس والتحقيق كان هناك ديوان آخر يُعْرف بـ « ديوان الخاص » يشرف على نفقات الخليفة والقصر وكان يُجْمَع دائمًا إلى ديوان المَجْلِس فيقال « ديوانى المَجْلِس والخاص السعيدين » [٧٩] أو « ديوان

---

[٧٦] النابلسى : لمع القوانين المضية ٣٦ .

[٧٧] ابن ميسر : أخبار ٧٧ – ٧٨ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨١ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٩ .

[٧٨] المقريزى : السلوك ١ : ٨٨ ، ١٢٠ . Rabie , H ., op . cit ., p . 146 .

[٧٩] Stern , S . M ., op . cit ., p . 36 - .

الخاص والمَجْلِس » [٨٠] وعادة ما كانت هذه الدَّواوين تُنْسَب إلى الخليفة الحاضر كأن يقال « الديوان الخاص الآمرى » [٨٢] أو « ديوان المَجْلِس الفائزى » [٨٣].

دِيوَانُ الرَّسَائل أو دِيوَانُ الإنْشَاء والمُكَاتَبَات

وإلى جانب الدَّواوين المالية استمر يؤدى وظيفته طوال العصر الفاطمى دون تغيير يُذْكر « ديوانُ الرَّسائل » ، وهى التسمية التى كانت تُطْلَق على هذا الديوان حتى حَلَّ محلها نهائيًا ابتداءً من القرن الرابع مصطلح « الإنشاء » [٨٤]. وهو ديوان مشترك فى جميع الأقاليم الإسلامية طوال العصور الوسطى . ورغم أن ابن الصَّيْرَفى المتوفى سنة ١١٤٧/٥٤٢ ، ألَّف كتابًا اهتم فيه بذكر الشروط التى يجب أن تتوافر فى موظفى هذا الديوان وتوضيح تنظيمه الداخلى وسمَّاه « قانون ديوان الرَّسائل » ، فقد أطلق عليه فى مؤلَّف آخر هو « الإشَارَة إلى مَنْ نال الوَزَارَة » : « ديوان الإنْشَاء » [٨٥]. وتُطْلِق جميع مصادر العصر الفاطمى التى وصلت إلينا على هذا الديون : « ديوان الإنْشَاء » وأحيانًا « ديوان المكاتبات » [٨٦]. وكان يرأس هذا الديوان كاتبٌ من أجَلّ كُتَّاب البلاغة يقال له « رئيس » [٨٧] أو « متولِّى الديوان » ، أو « صاحب الديوان » وكان يُخَاطَب « بالشيخ الأجَلّ » ويُلَقب « بكاتب الدَّسْت الشَّريف » [٨٨].



---

[٨٠] ابن المأمون : أخبار ٦٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٩٩ .
[٨١] نفسه ٣٠ ، ٣١ ، نفسه ١ : ٨٤ .
[٨٢] أبو صالح : تاريخ ٥٤ (٤٢ ب) .
[٨٣] Stern, S. M., op. cit., p. 72.
[٨٤] القلقشندى : صبح ١ : ١٠٣ .
[٨٥] ابن الصيرفى : الإشارة ٨٥ .
[٨٦] على بن خلف : مواد البيان ٧٥ – ٧٦ ، ابن المأمون : أخبار ٢٧ ، ٥٢ ، ١٠٣ ، ابن ميسر : أخبار ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٩٠ ، القلقشندى : صبح ١ : ٨٩ – ٩٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٤ .
[٨٧] ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ٧ .
[٨٨] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٤ ، ابن ميسر : أخبار ١١٢ ، القلقشندى : صبح ١ : ١٠٢ ،=

وبالإضافة إلى هذه الدواوين فهناك عددٌ آخر من الدواوين ورد ذكره فى المصادر الأدبية وعلى الإسجالات المثبتة على السجلات والمناشير المحفوظة فى دير سانت كاترين . فبالإضافة إلى « ديوان الجيش » و « ديوان الجهاد » (الذين سنتحدث عنهما عند حديثنا عن النظام الحربى) نعرف دواوين مثل : « ديوان الإقطاع » ، و « ديوان الاستيفاء على الصعيدين الأعلى والأدنى وما جمع إليه » [٨٩] أو « ديوان الاستيفا على الأعمال القبلية وما جمع إليه» [٩٠]، و « ديوان الاستيفاء على الثغور المحروسة والطور الشريف وما جمع إليه » [٩١]، و « ديوان أسفل الأرض » ، وكذلك « ديوان الاستيفاء على الأعمال الشرقية » [٩٢]، و« ديوان الاقطاعات المرتجعة والرِّباع والأجنة (؟) السلطانية وما جمع إليه » [٩٣]الذى يبدو أنه هو نفسه « الديوان المُرْتَجَع » الذى ذكره القلقشندى [٩٤] .

النِّظام القَضَائى

كانت السُّلْطَة القضائية واحدة من السُّلْطات الثلاث التى اشتمل عليها النظام الفاطمى فى مصر . فبوصول الفاطميين إلى مصر أضحت القَاهِرَة ، مثلها مثل بَغْدَاد وقُرْطُبَة ، مركز خلافة بعد أن كانت مصر مجرد ولاية تابعة للخلافة العبّاسية بها قاضٍ يُعَيِّنه الخليفة العبّاسى السنى ، وهكذا عَرَفَت مصر فى العصر الفاطمى منصب « قاضى القضاة » [٩٥] .

= ١٠٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٢ ، ٢ : ٨٦ س ٣٥ — ٣٦ .

[٨٩] Stern , S , M ., op . cit . pp . 37 .

[٩٠] القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٦٤ .

[٩١] Stern , S , M ., op . cit ., pp . 54 , 66 .

[٩٢] Ibid., p . 54 .

[٩٣] Ibid., p. 37 .

[٩٤] القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٥٧ .

[٩٥] ماجد : نظم الفاطمين ورسومهم فى مصر ١ : ١٤٠ .

وحرصًا من القائد الفاتح جَوْهَر الصَّقَلّبى على عدم خلخلة النظام الإدارى فى مصر ، وهو من أعقد أنظمة البلاد الإسلامية ، احتفظ بالموظفين الإخشديين فى مناصبهم ومن بينهم القاضى أبو الطّاهر محمد بن أحمد الذُّهْلى الذى كان قد عَيَّنه الخليفة العباسى فى سنة ٩٥٩/٣٤٨ . ورغم مكانة القاضى النُّعْمان بن حَيُّون الكبيرة لدى الخلفاء الفاطميين ودوره فى التعبير عن المعتقدات الفاطمية وتسجيل تاريخ أئمتهم ، فإنه لم يُكَلَّف رسميًا بالقضاء فى مصر وإنما شارك القاضى أبا الطّاهر فى نظر بعض القضايا إلى أن توفى سنة ٩٧٣/٣٦٣ [٩٦]. وبعد ذلك استمر القاضى أبو الطّاهر على حاله وجَعَل له الخليفة المُعِزّ عليًّا بن النعمان معاونًا له وكان يحكم بالجامع العتيق [٩٧]. ولما تولّى العزيز بن المعز الخلافة سنة ٩٧٥/٣٦٥ ردّ أمر دار الضَّرب والجامع لعلى بن النعمان ، فشارك بذلك أبا الطّاهر الذُّهْلى وجرى التنافس بينهما إلى أن أصابت أبا الطّاهر رطوبة عطَّلَت شِقَّه وأعجزته عن الحركة ، ففوَّض الخليفة الحُكْم إلى على بن النُّعْمان لليلتين خلتا من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة [٩٨]. وهو أوَّل من خوطب بـ « قاضى القضاة » بالديار المصرية ، كما يقول ابن حَجر ، لأنه جاء فى سِجِلّه ، الذى قرىء بالجامع الأزهر وبالجامع العتيق ، أن جميع الأعمال داخلة فى ولايته [٩٩]. أما أوَّل من كُتِب فى سجله « قاضى القضاة » فابنه الحسين بن على بن النعمان [١٠٠].

وقد توارث ستة من أسرة بنى النعمان منصب القضاء فى مصر أكثر من ستين عامًا تخلّلها بعض الانقطاع [١٠١].

---

[٩٦] Gottheil , R ., " A Distinguished Family of Fatimid Cadis (al - Nu'man) in the Thenth Century ", JAOS 27 (1906), p. 239 .المقريزى اتعاظ ١ : ٢١٥ .

[٩٧] المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٢٥ .

[٩٨] . Gottheil , R . op . cit , p . 240

[٩٩] . Ibid , p . 243

[١٠٠] ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢١٠ .

[١٠١] انظر مقال Gottheie المذكور أعلاه فى هامش [٩٦] .

وجرت العادة أن يُقْرأ سِجِلّ تولية قاضى القضاة فى الجامع بالقاهرة ومصر وهو قائمٌ على قدميه وكلّما مرَّ ذكر الخليفة أو أحد من أهله أومأ بالسجود [١٠٢].

وكان قاضى القضاة ، فى العصر الفاطمى الأول ، هو الذى يُعَيِّن سائر قضاة الأنحاء . ففى ربيع الآخر سنة ٣٨٢/ يونية سنة ٩٩٢ خلع القاضى محمد ابن النعمان على مالك بن سعيد الفارقى وقلّدة قضاء القاهرة [١٠٣]، فلما خَلَفَ القاضى الحسين بن النعمان عمَّه محمدًا أقرَّه على ذلك واستخلف الحسين بن محمد بن طاهر على الحكم بمصر [١٠٤].

ولم يتول أحدٌ من أسرة بنى النُّعْمان أمر الدَّعْوَة الفاطمية قبل الحسين بن على ابن النعمان الذى كان « أوّل من أضيفت إليه الدَّعْوَة من قضاة العبيديين » [١٠٥] كما فُوِّض إليه كذلك الحكم بجميع المملكة وكذلك الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة والنَّظر عليها وعلى غيرها من المساجد ، وولى أيضًا مُشَارَفَة دار الضَّرْب وقراءة المجالس بالقصر وكتابتها وذلك فى سنة ٩٩٨/٣٨٩ [١٠٦].

والحسين بن على بن النعمان هو كذلك أوّل من أفرد لمَوْدِع الحُكْم مكانًا معيّنًا فى زُقاق القَنَاديل بمصر الفُسْطاط ، فقد كانت الأموال قبل ذلك تودع عند القضاة أو أمنائهم [١٠٧].

---

[١٠٢] Gottheil , R ., op . cit., p . 241 .

[١٠٣] المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٧٥ .

[١٠٤] ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠٨ .

[١٠٥] نفسه ١ : ٢٠٩ .

[١٠٦] نفسه .

[١٠٧] نفسه ١ : ٢٠٩ وقارن ابن ميسر : أخبار ٨٣ ــ ٨٤ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٧٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٥١ .

ووظيفة قاضى القضاة من المناصب العليا فى الدولة الفاطمية كان يتقدَّم على داعى الدُّعاة ويتزيًا بزيِّه وهو من طبقة أرباب العمائم [١٠٨]. وكان من عادته الجلوس بالقصر فى يومى الاثنين والخميس أوَّل النهار عند باب البحر للسلام على الخليفة [١٠٩]، ويبدو أن هذا التقليد اتبع بانتظام ابتداء من عصر الخليفة الآمر .

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يَحُول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير الحق ، فأمر أن يُضَعَّف للحسين بن على بن النعمان رزقه وصلاته وإقطاعاته ، وشَرَطَ عليه ألَّا يتعرَّض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه [١١٠]. وكان دَخْل القاضى عبد الحكم بن سعيد الفارقى عشرين ألف دينار فى السنة [١١١]. ويذكر ناصر خسرو أن مرتب قاضى القضاه بمصر ، نحو سنة ١٠٤٨/٤٤٠ ، بلغ ألفى دينار « حتى لا يطمع القضاة فى أموال الناس أو يظلمونهم » [١١٢]، بينما يذكر ابن الطُّوَيْر أن المستقر لقاضى القضاة ولداعى الدُّعاة مائة دينار فى الشهر من واقع ما سُجِّل فى ديوان الرَّواتب [١١٣]. أما ابن مُيَسَّر فيذكر أن جارى الحكم كان أربعين دينارًا فى الشهر [١١٤]وذلك ، فى أغلب الظن ، لقضاة النواحى .

ويعد الوزير الحسن بن على الياوزرى أول من تولى الوزارة مضافًا إلى قضاء القضاة والتقدمة على الدُّعاة فى سنة ١٠٥٠/٤٤٢ « ولم يُجْمع ذلك لأحد قبله » [١١٥]ونُعِت بـ « الناصر للدين غيَّاث المسلمين الوزير الأَجَلّ المكرم سيِّد

---

[١٠٨] ابن الطوير : نزهة ١١٠ .

[١٠٩] نفسه ٢٠٥ ، المقريزى : المقفى (مخ . السليمة) ٣٥٩ ظ ، الاتعاظ ٢ : ١٩٨ .

[١١٠] ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠٨ – ٢٠٩ .

[١١١] نفسه ١ : ٢٠٨ .

[١١٢] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٩ .

[١١٣] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٤ .

[١١٤] المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٧٤ .

[١١٥] ابن ميسر : أخبار ٥٥ .

الرؤساء تاج الأصفياء قاضى القضاة وداعى الدعاة » إلى أن قضى عليه فى المحرم سنة ٤٥٠/مارس ١٠٥٨ [١١٦] .

وبعد عَزْل الوزير اليازورى فى أول سنة ١٠٥٨/٤٥٠ دخلت مصر فى أزمة إدارية حادة ، فخلال السبعة عشر عامًا التى أعقبت وفاته أبْعد أربعة وخمسون وزيرًا واثنان وأربعون قاضيًا إلى أن وصل إلى مصر أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ١٠٧٣/٤٦٦ .

وابتداء من هذا التاريخ طرأ تغير كبير على وظيفة قاضى القضاة . فقد نُعِتَ بدر الجمال فى أول الأمر بـ « السيِّد الاجَلّ أمير الجيوش » ثم أضيف إلى ألقابه نحو سنة ١٠٧٧/٤٧٠ « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » [١١٧] وجعل القاضى والداعى نائبين عنه . وهكذا أصبح القضاة نوّاب الوزراء ويذْكرون النيابة عنهم فى الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنْكِحَة [١١٨] .

وكان قاضى القضاة طوال العصر الفاطمى يُخْتار من بين الفقهاء الإسماعيليين ويُشتَرط عليه أن لا يحكم إلّا بمذهب الدّولة ؛ فعندما استخلف على بن النعمان أخاه محمدًا والحسن بن خليل الفقيه الشافعى « شرَط عليه أن يحكم بمذهب الإسماعيلية لا بمذهب الشافعى » [١١٩]. وبعد وفاة القاضى أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى عقيل سنة ١١٣٨/٥٣٣ « قام الناس بلا قاضى ثلاثة أشهر » ، ثم اختير الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله بن الحُطَيْئَة المالكى اللّخْمى « فاشترط أن لا يقضى بمذهب الدّوْلة فلم يُمكّن من ذلك » ، فعهد الوزير بن وَلَخْشى إلى

---

[١١٦] نفسه ١١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢١٢ ، المقفى (خ . السليمية) ٣٦١ و ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٤ .

[١١٧] ابن ميسر : أخبار ٤٥ ، ٥٠ .

[١١٨] ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٩ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٠ ، الاتعاظ ٣ : ١٥٦ والمقفى (خ . السليمية) ٢٦٦ و.

[١١٩] Gottheil, R., op. cit., p. 242 -

الفقيه أبى محمد عبد المولى اللُّبْنى بعقد الأَنْكِحَة فأجاب وبقى الحكم شاغرًا [١٢٠].

والاستثناء الوحيد لذلك حَدَث فى الفترة التى تولَّى فيها الوزارة أبو على الأفضل كُتَيْفات ، عندما سَجَن الخليفة الحافظ ودعا للإمام المُنْتَظَر (ذو القعدة ٥٢٤ – المحرم ٥٢٦) . فقد رتَّب فى الحكم فى سنة ١١٣١/٥٢٥ أربعة قضاة يحكم كل قاض بمذهبه ويورِّث بمذهبه : قاضى للشافعية وقاضى للمالكية وقاضى للإسماعيلية وقاضى للإمامية ، وعلَّق ابن مُيَسَّر على ذلك بأنه « لم يُسْمع بهذا قط فيما سلف » [١٢١].

لذلك فقد كان يُعْهد أحيانًا إلى القاضى بتدريس دار العِلْم بالقاهرة مثلما حَدَث مع القاضى هبة الله عبد الله بن الحسين المعروف بابن الأزرق فى ١٧ جمادى الآخر سنة ١٣/٥٣٤ فبراير سنة ١١٤٠ [١٢٢].

وكان مجلس القاضى دائمًا يومى الثلاثاء والسبت بالزيادة البحرية والشرقية لجامع عمرو بالفسطاط ، فإذا أقبل العصر عاد القاضى إلى القاهرة [١٢٣]. وله فى مجلسه طُرَّاحة ومَسْنَد حرير ، وقد استُجِدّ هذا الرسم بعد أن تولَّى القاضى أحمد بن عبد الرحمن بن أبى عقيل فى المحرم سنة ٥٣١/أكتوبر سنة ١١٣٦ ، فإنه لما دخل مجلس القضاء « ووجد المرتبة أمر برفعها وجلس على طُرَّاحات السَّامان

---

[١٢٠] ابن ميسر : أخبار ١٣١ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٥٢٨ ، المقريزى : المقفى (خ . السليمية) ١٠٥ ظ ، الاتعاظ ٣ : ١٧٢ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٨٠ .

[١٢١] نفسه ١١٤ ، النويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧ – ٨٨ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٤٢ ، الخطط ٢ : ٣٤٣ ، المقفى (خ . السلمية) ٨١ ظ ، ابن حجر : الإصر ١ : ٢٤٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٦٥ ، Allouche, A., "The Establishment of Four Chief Judgeships in Fatimid Egypt", JAOS 105 (1985), pp. 317 - 320.

[١٢٢] نفسه ١٣٢ ، الاتعاظ ٣ : ١٧٣ .

[١٢٣] ابن الطوير : نزهة ١٠٧ ، ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٥٣ والاتعاظ ٢ : ٢٢٤ .

فاستمر هذا الرسم »[١٢٤]. ويجلس الشهود حواليه يَمْنَة ويَسْرَة بحسب تاريخ عدالتهم ، وقد بلغ عِدَّة الشهود فى أيام القاضى محمد بن هبة الله بن مُيَسَّر (نحو سنة ٥٢٤ هـ) مائة وعشرين شاهدًا ، وكانوا قبل ذلك دون الثلاثين [١٢٥]. وكان يجلس بين يديه فى المجلس خمسة من الحُجَّاب : اثنان بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد يُنْفذ الخصوم إليه ، كما كان له كذلك أربعة من المُوَقِّعين بين يديه إثنان يقابلان اثنين وله كرسى اللّوة ، وهى داوة محلّاة بالفضة تُحْمَل إليه من خزائن القصور ، ولها حاملٌ بجامكية فى الشهر على الدولة [١٢٦].

وكان للقاضى برسم ركوبه على الدوام بَغْلَةٌ شَهْباء تخرج له من الاصطبلات الخَليفية ، وهو مخصوص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة . وكانت تأتيه فى المواسم الأَطْواق ويُخْلع عليه الخِلَع المذهبة بلا طَبْل ولا بوق ، إلَّا إذا جُمِعَ له الحكم والدَّعوة ، فإن من بين رسوم الدَّعوة فى الخِلَع الطبل والبنود . إما إذا خُلِع عليه للحُكْم خاصة فيكون حواليه القُرَّاء رجَّالة والمُؤَذِّنون يعْلنون بذكر الخليفة أو الخليفة والوزير ، إن كان الوزير صاحب سيف [١٢٧].

وإذا حضر قاضى القضاة فى مجلس لا يتقدَّم عليه أحدٌ من أرباب السيوف أو الأقلام ، ولا يحضر عقود الأَنْكِحَة أو الجَنَائز إلَّا بإذن ، ولا سبيل إلى قيامه لأحد وهو فى مجلس الحُكْم ، ولا يعدِّل شاهدٌ إلَّا بأمره [١٢٨].

وابتداء من وزارة أمير الجيوش بدر الجمالى لم يعد يخاطب من يتولَّى الحكم بـ « قاضى القضاة » لأنه أصبح من نعوت الوزير صاحب السَّيْف . وكان من أهم أعباء منصبه النظر فى عِيَار دار الضَّرْب لضبط ما يُضْرَب من الدنانير [١٢٩].

---

[١٢٤] ابن الطوير : نزهة ١٠٧ .

[١٢٥] ابن ميسر : أخبار ١٠٧ ، المقريزى : الاتعاظ ٣ : ١٢١ .

[١٢٦] ابن الطوير : نزهة ١٠٨ .

[١٢٧] ابن الطوير : نزهة ١٠٨ .

[١٢٨] نفسه .

[١٢٩] نفسه ١٠٨ والمقريزى : الخطط ١ : ١١٠ .

وكان القاضى لا يُصْرف إذا وُلّى إلّا بُجنْحة .

وكان للقاضى مكان متميز فى المواكب والاحتفالات فمن ذلك « ركوب عيد الفِطْر » و« ركوب عيد النَّحْر » . فبعد فراغ الخليفة من الصلاة كان يصعد المنبر للخطبة العيدية وكان القاضى من بين من يَشْرُفون بالوقوف مع الخليفة ويَرْقى معه المنبر ليُزرِّر عليه المزرَّة الحاجزة بينه وبين الناس [١٣٠]، ويقرأ مدرجًا يكون قد أُحْضِر إليه من ديوان الإنشاء يتضمَّن ثبتًا بمن شَرُف بصعود المنبر الشريف مع الإمام يوم العيد [١٣١]. كما أنه يرقى المنبر مع الإمام فى صلاة الجمعة فى رمضان « وفى يده مدخنة لطيفة خيزران يُحْضِرها إليه صاحب بيت المال فيها جمرات ، ويجعل فيها ندّ مثلث لا يُشَمّ مثله إلّا هناك ، فيَبَخِّر ، الذروة التى عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ويكرِّر ذلك ثلاث دفعات » ثم يصحب الإمام ومعه الوزير إلى المنبر حتى يستوى الإمام جالسًا فيزرِّر عليه المزرَّة ويقف صاحب الباب ضابطًا للمنبر إلى أن يخطب الخليفة خطبة الجمعة [١٣٢].

والقاضى هو الذى يمسك الحَرْبَة للخليفة لينحر بها الأُضاحى يوم عيد النَّحْر فى « المَنْحَر » فتكون بيد الخليفة الحربة من رأسها الذى لا سنان فيه ويد القاضى فى أصل سنانها ، فيجعله القاضى فى نحر النحيرة فيطعن به الخليفة [١٣٣].

وفى عيد غدير خُمّ كان من الرسم أن يجلس القاضى والشهود تحت كرسى الدَّعْوة الذى كان يُنْصب فى الإيوان الكبير وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب

---

[١٣٠] ابن ميسر : أخبار١٢٣ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٥٦ .
[١٣١] ابن المأمون : أخبار ٨٧ ، ٨٨ .
[١٣٢] ابن الطوير : نزهة ١٧٤ .
[١٣٣] نفسه ١٨٤ .

فى هذا العيد ، فإذا فرغ الخطيب ونزل صَلّى قاضى القضاة بالناس ركعتين [١٣٤].

وفى شهر رمضان يُعْقَد كل ليلة بقاعة الذَّهَب سماطٌ إلى آخر السادس والعشرين منه ، ولم يكن يُستدعى له قاضى القضاة إلّا فى ليالى الجمع فقط توقيرًا له [١٣٥].

وفى الاحتفال بالموالد الستة كان لقاضى القضاة دورٌ أساسى فهو أوّل أرباب الرُّسُوم فى تفريق الحَلْوَاء التى تُعْمل بدار الفِطْرة احتفالًا بالمولد . وهو الذى يجلس بالجامع الأزهر بعد صلاة ظهر هذا اليوم مقدار قراءة الختمة الكريمة ، ثم يركب ومعه الشهود وداعى الدُّعاة بالنقباء إلى بين القصرين والركن المُخَلَّق لنظر الخليفة فى المنظرة المعدَّة لذلك ويرد عليه الخليفة السلام بواسطة أحد الأُستاذين المُحَنَّكين [١٣٦].

والقاضى كذلك هو الذى كان يقود موكب الاحتفال بليالى الوقود الأربعة بعد صلاة العصر إلى حيث رَحْبَة باب العيد أمام باب الزُّمُرُّد من القصر ، ويخطب الخطباء ويُسَلِّم عليه الخليفة مثلما حدث فى الاحتفال بالمولد ، وبعد زيارة قصيرة للوزير يشق القاضى والجماعة القاهرة وينزل على باب كل جامع بها ويُصَلِّى ركعتين ، ثم يخرج من باب زُوَيْلَة طالبًا الفُسْطاط وفى خدمته والى القاهرة ، فيدخل فى طريقه جامع ابن طولون للصلاة ويدخل المَشَاهد فى طريقه أيضًا ، ثم يجد والى الفسطاط فى خدمته بعد خروجه من جامع ابن طولون ويستمر فى اختراق الشارع الأعْظَم حتى يصل إلى باب الجامع من جهة الزيادة التى يحكم فيها ويُوقَد له التنور الفضة الذى كان معلقًا بها [١٣٧].

---

[١٣٤] نفسه ١٨٨ .
[١٣٥] نفسه ٢١٢ .
[١٣٦] نفسه ٢١٨ .
[١٣٧] نفسه ٢٢٠ – ٢٢١ .

وكانت عملية الإشراف على الأحْباس وصيانتها موكولة كذلك إلى القضاة فيذكر محمد بن أسعد الجَوَّانى أنّ القضاة بمصر ، كانوا إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام ، طافوا يومًا على المساجد والمَشَاهِد بمصر والقاهرة يبدؤن بجامع المَقْس ثم القاهرة ثم المَشَاهد ثم القرافة ثم جامع مصر ثم مشهد الرأس لنظر حُصْر ذلك وقناديله وعمارته وما تَشَعَّث منه وظل الأمر على ذلك حتى زوال الدولة الفاطمية [١٣٨] .

النِّظـــام الدِّينـــى

لما كانت الدَّوْلة الفاطمية قد قامت على أساسٍ تشابكت فيه السياسة مع الدين إلى حد أن كل تنظيم سياسى فى هذه الدولة كان انعكاسًا لروح العقيدة الفاطمية نفسها ، حتى أصبحت أصْدَق مثال للدولة الدينية العقائدية (الثيوقراطية) فى الإسلام . فإن « الدَّعْوَة » كانت عماد هذه الدولة وأهم ما مَيَّزها عن الأنظمة الإسلامية الأخرى . وكانت وظيفة داعى الدُّعاة ، كما يقول المقريزى ، من مفردات الدولة الفاطمية [١٣٩] .

ولا تمدنا المصادر بمعلومات كافية عن حقيقة دور « داعى الدُّعَاة » فى مصر الفاطمية . ونحن نعرف ، تبعًا للعقيدة الإسماعيلية ، أن داعى الدُّعاة هو أحد دعائم هذه العقيدة وأن مرتبته تلى مباشرة مرتبة الإمام [١٤٠] . ولكن كل مصادرنا التى تحدَّثنا عن داعى الدُّعاة فى مصر تعتمد على النص الوحيد المنقول عن ابن الطُّوَيْر وفيه أن داعى الدعاة « يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيَّا بزيِّه فى اللِّباس

---

[١٣٨] المقريزى : الخطط ١ : ٤٩١ ، ٢ : ٢٩٥ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٢٢ .

[١٣٩] المقريزى : الخطط ١ : ٣٩١ ، وراجع : Ivanow , W ., " The Organization of the Fatimid Propaganda ", JBBRAS XV (1939), pp . 1 - 35 .

[١٤٠] Hamdani , A ., " Evolution of the Organisational Structure of the Fatimid Dawa " In Arabian Studies III (1976), pp . 85 - 114 .

وغيره » [١٤١]. وهذا التعريف ، الذى أورده ابن الطُّوَيْر ، يبدو مُحَيِّرًا إذ أن داعى الدُّعاة هو الذى يعقد « مجالس الحِكَم » سواء فى « المُحَوّل » بالقصر أو فى « الجامع الأزهر » أو فى « دار الحِكْمَة » ثم فى فترة متأخِّرة فى « دار العِلْم » [١٤٢]، وهو كذلك الذى يأخذ العَهْد وينشر الدَّعْوة بين المستجيبين وهو الذى كان يكتب ما يُلْقى فى « مجالس الحِكَم » بعد أن يأخذ عليه علامة الخليفة ويقرؤه على أتباع الدَّعْوَة على أنه صادر من الخليفة نفسه فى كل يوم اثنين وخميس ، للرجال على كرسى الدَّعْوة بالإيوان الكبير وللنساء بمجلس الداعى ! وكان داعى الدُّعاة يقوم كذلك « بأخذ النَّجْوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالها لاسيما الصَّعيد ، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث فيجتمع من ذلك شيء كثير يحمله إلى الخليفة بيده بينه وبينه وأمانته فى ذلك مع الله تعالى » . ويضيف ابن الطُّوَيْر أن من بين الإسماعيلية المموِّلين من يحمل ثلاثة وثلاثين دينارًا وثلثى دينار على حكم النَّجْويّ وبصحبتها رقعة مكتوبة باسمه فيتميَّز فى المُحَوَّل وتعود إليه وعليها خط الخليفة « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » فيَدَّخر ذلك ويتفاخر به [١٤٣].

وقد حَفَظ لنا المقريزى وثيقة هامة ومطوَّلة عن وظيفة داعى الدُّعاة وَوَصْف الدَّعْوة وترتيبها [١٤٤].

وعلى ذلك فإنه يبدو غريباً أن يقدِّم الفاطميون فى رُسُومهم قاضى القضاة على داعى الدُّعاة . وقد حدث كثيرًا أن جمع قاضى القضاة بين وظيفته ووظيفة داعى الدُّعاة ، بينما لم يحدث العكس إطلاقًا . وابتداء من وصول بدر الجمالى

---

[١٤١] ابن الطوير : نزهة ١١٠ .

[١٤٢] القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٣٧ . وانظر Stern, S., " Cairo as the Center of the Isma'ili Movement ", CIHC, p. 438 - 441.

[١٤٣] ابن الطوير : نزهة ١١١ .

[١٤٤] المقريزى : الخطط ١ : ٣٩١ – ٣٩٧ ، Casanova, P., " La Doctrine secrète des Fatimides d' Egypte ", BIFAO XVIII (1920), pp. 121 - 165.

إلى الحكم جَمَعَ الوزراء بين الوزارة والقضاء والدَّعْوة وقيادة الجيش ، وإن كان القاضى والدَّاعى نائبين عن الوزير . وقرب نهاية عصر الدولة الفاطمية أصبح لقب « هادى دعاة المؤمنين » لقبًا شرفيًا بما أنه كان من بين ألقاب أسد الدين شيركوه رغم أنه سنى المذهب .

ورغم أن مرتبة داعى الدُّعاة تلى الإمام فى تسلسل مراتب الدَّعوة الفاطمية ، فإنه يبدو لى أن ذلك كان فى وقت استتار الإمام أو الجُزُر (جـ . جزيرة حيث قسَّم الفاطميون العالم إلى اثنتى عشرة جزيرة) التى تشرف عليها رئاسة الدَّعْوة الفاطمية . فبظهور الإمام لم تعد الحاجة ماسة إلى وجود داع للدُّعاة فى وجود الإمام حتى إن أكبر فقهاء الدَّعْوة الإسماعيلية القاضى النعمان ابن حيُّون يُعْرف فى المصادر باسم القاضى وليس الدَّاعى ، كما أن أبناءه الذين عاونوا الدولة الفاطمية فى مصر تولَّوا جميعًا القضاء فيما عدا الحسين بن على ابن النعمان الذى جَمَع بين الدَّعْوة والقضاء فى سنة ١٠٠٣/٣٩٣ [١٤٥]. كذلك فإن شُهْرَة داعى الدُّعاة المؤيد فى الدين الشِّيرازى ترجع إلى الدور الذى لعبه فى فارس ومعاونته لأبى الحارث أرسلان البَسَاسيرى لإقامة الدَّعوة الإسماعيلية فى بغداد أكثر من دوره كداع للدعاة ومتولٍ لدار العِلْم فى مصر الفاطمية .

وأوَّل الوزراء الذين جُمع لهم الوزارة والقضاء والدَّعْوة (قبل عصر الوزارء العظام) هو الوزير أبو الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى وذلك فى سنة ١٠٥٠/٤٤٢ [١٤٦]، والذى يعد بحق أهم وزراء الدولة الفاطمية فى عصرها الأول بعد يعقوب بن كِلِّس .

---

[١٤٥] المقريزى : اتعاظ ٢ : ٤٩ — ٥٠ ، ابن حجر : رفع الإصرار ١ : ٢٠٩ وحفظ القلقشندى سجل توليته فى صبح ١٠ : ٣٨٤ — ٣٨٨ .

[١٤٦] ابن الصيرفى : الإشارة ٧٦ ، ابن ميسر : أخبار ١١ ، للقريزى : اتعاظ ٢ : ١٦٧ ، ٢١٢ ، المقفى (خ . السليمية) ٣٦١ و ، ابن حجر : رفع الإصرار ١ : ١٩٣ ، ١٩٤ .

وقد تولّى أمر الدّعوة بعد المؤيد فى الدين أُسَرًا بأعيانها توارثت المنصب أهمها بنو عبد الحقيق كان أولهم ولى الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق المتوفى سنة ١١٢٣/٥١٧ ، وبنو عبد القوى الذين كان آخرهم الجليس بن عبدالقوى الذى أدركه أسد الدين شيركوه .

ومهما كان الأمر فبفضل « تنظيم الدّعوة » تمكّن الفاطميون من بَسْط نفوذهم وسيادتهم على أماكن مترامية من الأراضى الإسلامية : فى السِّند والهند وعُمَان واليمن . وقام الدُّعاة بدور ملحوظ فى فرض السيطرة الفاطمية على طرق التجارة البحرية المؤدِّية إلى الهند ، وفى العمل على إثارة القلاقل فى أراضى الخلافة العبّاسية نفسها . وقد ظَلّ أتباع الدعوة ، فى أغلب هذه المناطق ، محتفظين بحماسهم لها ولم يتهاونوا فى ذلك أبدًا – كما حدث فى مصر مركز الخلافة الفاطمية – فحفظوا لنا بذلك جزءًا كبيرًا من التراث الإسماعيلى بدأ يرى النور منذ وقت غير بعيد .

النّظــــام الحَــــرْبى

الجَيْش

كان جيش الفاطميين الذى فتح مصر يتكون من الرُّوم والصَّقالبة والزُّوَيْليين والبَرْقية والباطلية والعبيد والسود ، وكان الكتاميون يمثلون الجزء الأكبر من جيش جوهر . ولا شك أن التركيب الاجتماعى العرقى للجيش الفاطمى ذو أهمية خاصة . فقد زالت الكافورية والإخشيدية – بقايا الجيش المصرى فى زمن الإخشيديين – فور دخول جوهر ولم يلق الجيش الفاتح أية مقاومة تذكر . ولكن عندما واجه الجيش الفاطمى جيوشًا عسكرية أكثر تفوقًا عندما خرج إلى الشام ذات نظام وتقاليد مثل الجيش البويهى العبّاسى والجيش البيزنطى ، كان على الفاطميين أن يعيدوا التفكير فى تركيبة الجيش الفاطمى .

وبعد المواجهة التى تمّت بين الجيش الفاطمى وجيش القائد ألبتكين فى دمشق قرّر الخليفة العزيز ووزيره ابن كِلّس إصلاح الجيش الفاطمى . وكان أهم ما ميّز هذا الإصلاح إدخال عنصر الأتراك والدّيالمة فى الجيش الفاطمى الذين اصطنعهم العزيز . ونتج عن ذلك نشوء جنسيات وتخصّصات عسكرية جديدة ولكن بدون ترابط شامل أو تماثل مع طبيعة الدولة [١٤٧].

ونحو سنة ٩٨١/٣٧١ انضم إلى الجيش الفاطمى قوات من الحَمْدانية والبَكْجورية الذين تركوا خدمة الحمدانيين وبَكْجور التركى [١٤٧]. وعندما أنشأ العزيز بالله القصر الغربى الصغير وخَصّه لسكن ابنته سيدة الملك جعل لها طائفة برسمها كانت تسمى « القَصْرية » [١٤٩].

وأدّى التنوع والتباين فى قوات الجيش الفاطمى إلى نشوء صراع دائم بين مختلف طوائفه ظهر فى أول الأمر بين المغاربة والمشارقة ، فقد خشى المغاربة على فقد مكانتهم فى الدولة وثارت فتنة بينهم وبين المشارقة انتهت بإقصاء زعيمهم أمين الدولة بن عمّار سنة ٩٩٧/٣٨٧ وإحلال بَرْجَوان محله . وعندما قُتِل بَرْجَوان سنة ١٠٠٠/٣٩٠ اعتبر الأتراك ما حدث ضربة لهم من بَرْبَر كُتامة [١٥٠].

وتفيدنا الأمانات التى أصدرها الحاكم بأمر الله فى التعرف على طوائف الجيش فى هذه الفترة فقد كان بينهم الدّيْلم والغِلْمان الشّرابية والغِلمان المرتاحية والغِلْمان البشارية والرُّوم المرتزقة بالإضافه إلى الزُّوَيْليين والبنّادين والبطّالين

---

[١٤٧] Lev , Y ., " Army , Regime And Society in Fatimid Egypt , 358 - 487/968 - 1094 ", IJMES. 19 (1987), p , 337.

[١٤٨] ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٣١ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٦ ، ٢ : ٢٩. Lee , Y ., op . cit ., p . 343.

[١٤٩] المقريزى : الخطط ١ : ٤٥٧ .

[١٥٠] انظر أعلاه ص ٩٧ – ٩٨ .

والبرقيين والعُطوفية والجَوّانية والجُودَرية والمُظَفّرية والصِّنهاجيين وعبيد الشراء والميمونية والفَرْحية [١٥١].

وقد أظهر المُسَبِّحى فى حوادث سنة ١٠٢٥/٤١٥ الوضع الصعب الذى آل إليه أمر الكُتاميين فى خلافة الظّاهر الذى كان ميله إلى الأتراك والمشارقة [١٥٢].

كانت هذه الطوائف التى صحبت جيش جوهر والتى قدمت مع المُعِزّ هم سكان القاهرة عند اختطاطها ، فقد كانت القاهرة مدينة مُحَصَّنة يسكنها الخليفة وجنوده فقط ، وكان لكل طائفة حارة (جـ . حارات) اختطتها وسكنتها طوال العصر الفاطمى ، وقد حدثنا المقريزى فى الخطط بالتفصيل عن هذه الحارات وحدد مواقعها [١٥٣].

وعند تولى المستنصر بالله كانت أمه صاحبة السلطة فى أول الأمر ، فقد كان عمره وقت اعتلائه العرش سبع سنين ، وكانت جارية سوداء فاستكثرت من العبيد حتى بلغوا نحوًا من خمسين ألف أسود ، واستكثر هو من الأتراك وزاد التنافس بينهم مما أدى إلى نشوب القتال الذى قاد إلى الفوضى السياسية فى منتصف القرن الخامس [١٥٤]. ولما وصل بدر الجمالى إلى مصر سنة ١٠٧٤/٤٦٦ اصطحب معه جنوده وقتل رجال الدولة وأقام له جندًا وعسكرًا من الأَرْمَن « فصار من حينئذ معظم الجيش الأَرْمَن » . وبلغ عدد جنود الجيش الفاطمى فى عرض ديوان الجيش فى آخر أيام الدولة أربعين ألف فارس ونيفًا وثلاثين ألف راجل [١٥٥].

---

[١٥١] المسبحى : نصوص ضائعة ٢١ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٥٦ ، الخطط ٢ : ٢٠ – ٢١ .

[١٥٢] المسبحى : أخبار مصر ٦٠ – ٦١ ، ٨٦ .

[١٥٣] المقريزى الخطط ٢ : ٢ – ٢٠ .

[١٥٤] انظر أعلاه ص١٣٥ – ١٣٨ .

[١٥٥] المقريزى : الخطط ٢ : ١٢ ، ١ : ٨٦ .

وكان هذا الجيش يأتمر فى أوّل عصر الدولة الفاطمية بأمر الإمام ولكن بعد بدر الجمالى ووصول العسكريين إلى السلطة أصبح « أمير الجيوش » هو قائد الجيش الفاطمى .

ولا نجد أية إشارة فيما بين أيدينا من مصادر إلى تنظيم هذا الجيش ، وكل ما نجده هو مصطلحات مثل قائد (جـ . قواد) ، عريف (جـ . عرفاء) ، أمير (جـ . أمراء) . والمعلومات التى يمكننا أن نخرج بها ضئيلة وذات طابع عام ، فنحن نعرف مثلًا أن الكتاميين كانوا يتكونون من عرافات (جـ . عَرافَة) على رأس كل منها عريف [١٥٦] .

ديوانُ الجَيْش .

عُهِدَ بإدارة الجيش الفاطمى إلى ديوان عرف بـ « ديوان الجَيْش » [١٥٧] . وكان هذا الديوان ينقسم إلى قسمين : « ديوان الجَيْش » وفيه مستوف أصيل لا يكون إلّا مسلمًا ويكون فى خدمته نقباء الأمراء الذين يُنْهون إليه أخبار الجند من حياة وموت وصحة ومرض [١٥٨] . و « ديوان الرَّواتب » ويشتمل على أسماء كل مرتزق فى الدولة ، وفيه كاتب أصيل ونحو عشرة من المُعينَين والمُبيِّضين وفيه ثمانية عروض تحوى جميع أرباب الدولة [١٥٩] .

ولا نجد عند ابن الطُّوَيْر ، مصدر هذه المعلومات ، تفاصيل عن طبيعة العمل داخل ديوان الجيش ، ولكن معاصره المَخْزومى يمدنا ببعض التفاصيل

---

[١٥٦] المسبحى : أخبار ٨٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٧٨ .

[١٥٧] المخزومى : المنهاج ٦٤ – ٧٢ ، ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٢ – ٨٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٩٤ ، ٤٠١ .

[١٥٨] ابن الطوير : نزهة ٨٢ .

[١٥٩] نفسه ٨٣ – ٨٥ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٤٣ – ١٤٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٩١ ، ٥٢١ – ٥٢٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠١ – ٤٠٢ ، الاتعاظ ٣ : ٣٣٩ – ٣٤٢ .

التى لا نستطيع للوهلة الأولى أن نُحَدِّد إن كانت تتعلّق بالنِّظام الفاطمى المنقضى أم بالنظام الأيوبى الجديد [١٦٠]. فهو يذكر صراحة « أن كتابة الجيش التي كان كُتّاب المصريين يعتمدون عليها ... فيها من الرسوم والتقسيمات والأحكام والإقطاعات ما قد دَرَسَ رسمه وذهب حكمه إلّا يسير ... » [١٦١]. وبعد ذلك يذكر المَخْزومى أن رسوم ديوان الجيش بالديار المصرية تجتمع فى أربع جهات ، ولا شك أن حديثه يربط بين النظام القديم والنظام الأيوبى الجديد ، فمن المؤكد أن مصطلحات مثل الصِّبيان الحُجَرِيَّة والرَّهَجِيَّة وديوان المَجْلس الوارد ذكرها فى نص المَخْزومى تتعلّق بالعصر الفاطمى ، كما أن الإقطاع الجيشى يتعلّق دون جدال بالعصر الأيوبى .

ويتّسم نص المَخْزومى فى العموم بالصعوبة فى الفهم لأنه موجه فى الأساس إلى طبقة المشتغلين بالأعمال الديوانية ، فهو يستخدم مصطلحات خاصة وتعابير مركزة وفى غاية الاختصار ، أرهقت كل الذين تعاملوا مع نصه من قبل ولم يستطيعوا ، رغم كل الجهد المبذول ، أن يقدموا لنا نتائج واضحة [١٦٢].

وتنحصر الطرق الأربع التى ذكر المَخْزومى أنها تجمع رسوم ديوان الجيش بالديار المصرية فى : الإنفاق الواجب ، وإيجاب المُشاهَرَة ، والإقطاع الجَيْشى ، وإقطاع الاعْتِداد [١٦٣].

يكون « الإنفاق الواجب » للحُجَرِيَّة المرسومين بالحُجَر – وهم جماعة من الغلمان المختصين بالخلفاء الفاطميين كانوا يختارونهم ويربّونهم فى حُجَر خاصة

---

[١٦٠] عن المخزومى وتاريخ تأليف كتابه انظر فيما يلى ص .

[١٦١] المخزومى : المنهاج ٦٤ .

[١٦٢] Cahen, Cl., Makhzūmiyyāt - Etudes Sur l'histoire économique et Financière de l'Egypte médiéval, Leiden - Brill, 1977, p. 156 no. 2. ، صلاح البحيرى : « ديوان الجيش فى الدولة الأيوبية » ، الموسم الثقافى – الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٨ ، ١٧٦ الذى اعتبر حديث المخزومى عن الإنفاق الواجب وإيجاب المشاهرة متعلق مباشرة بالعصر الأيوبى !

[١٦٣] المخزومى : المنهاج ٦٨ .

قريبة من باب النصر [١٦٤] – ويقتضى هذا الإنفاق خصم أو اقتطاع من رواتبهم يتم بطرق ثلاث : الأول من الوزن وهذا النوع لا نقص فيه ولعل المقصود به أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم وزنًا وليس عَدًا . والثانى إقتطاع من « العدد النقيل (أو الثقيل) » – وهو مصطلح غير واضح ولم يشرحه المَخْزومى – وهذا الاقتطاع بنسبة ٥٪ على حساب قيراط [١٦٥] وخُمْس عن كل دينار ، وعادة ما يجبر كُتَّاب الجيش الكَسْر فى هذا الحساب . والثالث اقتطاع شبيه بالنوع الثانى ولكن مع تطبيق قاعدة حسابية أخرى ، فالنسبة المقتطعة هنا هى ستة دنانير وثلثان من المائة ٦ ٢/٣ ٪ من حساب قيراط وثلاثة أخماس قيراط من كل دينار . ويذكر المَخْزومى أن هذا النوع من الإقتطاع كان يطبق على الطائفة المعروفة بـ « الرَّهَجيَّة » ومن يجرى مجراهم ، وهم جماعة كانت تخدم أمام الخليفة فى المواكب الاحتفالية ، وأحيانًا كانت تخدم أمام الوزير فى بعض الاحتفالات ، كما كانت تقوم بنفس العمل إذا ركب الخليفة عُشارى فى النيل ، كما يتولون حراسة القصر الفاطمى ومنظرة اللؤلؤة عندما يتواجد بها الخليفة [١٦٦] . وكان لهم زمام يعرف دائمًا بسنان الدولة بن الكَرْكَنْدى كان يتلقى الخِلَع فى المناسبات عن زَمّ الرَّهَجِيّة والمبيت على أبواب القصور [١٦٧] .

وأحيانًا ما كان أرباب الإنفاق يحصلون على رواتب عينية سمّاها المَخزومى « الجِرايَة » و « والقَضيم » . ويمكن أن تكون « الجراية » خبزًا أو قمحًا . وفى حالة دفعها خبزًا لم تكن متساوية لجميع أرباب الإنفاق فقد كان هناك جماعة لها الحق فى « وظيفتين » – أى حِصتّين – وجماعة لها الحق فى « وظيفة واحدة

---

[١٦٤] ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤١٨ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٣ -- ٤٤٤ وقد شبههم ابن خلكان بالداوية والاسبتارية .

[١٦٥] ينقسم الدينار إلى ٢٤ قيراطا ، والقيراط عملة حسابية نظرية لمعرفة القيمة الحقيقية لمختلف السلع تساوى حبتى شعير مقلومة الأطراف ، والحبة تساوى ثلاث دانق . (صلاح ابحيرى : المرجع السابق ١٨٩) .

[١٦٦] ابن المأمون : أخبار مصر ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ٩٩ .

[١٦٧] نفسه ٥٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤١٢ ، ٤٦٢ ، ٢ : ٢٨ ، ٣٨ .

ونصف » ومنهم من له « وظيفة واحدة » ويطلق على ذلك فى الديوان « قَدْر الجراية » . أما من تطلق جرايته قمحًا فتكون فى الشهر التام ثُلْث أردب ، أما فى الشهر الناقص فتكون رُبْع ونصف ثمن أردب . أما « القضيم » (الشعير) فكان يوزع كل يوم على شكل أنصبة يبلغ كل منها نصف وَيْبة [١٦٨] .

أما « أرباب الإيجاب » فهم ، كما ذكر المَخْزومى ، « أرباب الخِدَم التى لا تستقر على حال لما يتخلّل ذلك من التولية والصَّرْف والزيادة والنقص » ، أى أنهم جنود مؤقتون كانوا يؤدون بعض الخدمات لفترات محدَّدة ، فكان يوجب لهم فى كل شهر استحقاقهم بقدر المباشرة ، مثلهم فى ذلك مثل أرباب الرَّواتب . كانت هذه المعاملة تجرى أساسًا فى ديوان الجيش ، ثم انتقلت إلى ديوان خُصّص لذلك هو ديوان الرَّواتب الذى أصبح فرعًا لديوان الجيش ثم انتقل ، فى تاريخ نجهله ، إلى أن أصبح فرعًا لديوان المجلس الذى كانت تجرى فيه معاملات الأموال [١٦٩] . وكل ذلك دون شك فى العصر الفاطمى .

وكان ديوان الجيش يدفع راتبًا شهريًا للأجناد المستخدمين فى المراكز والمعروفين بـ « المركزية » [١٧٠]، وقد ذكر ابن المأمون هؤلاء المركزية فى حوادث عام ٥٠٩/١١١٥ ، وكان يتولى أمرهم والى الشرقية ، وذلك لمواجهة بُلْدوين ملك الفرنج الذى وصل إلى الفَرَما فى هذه السنة [١٧١] . كما كان هناك كذلك جنود من المركزية فى القُلْزُم [١٧٢]، أما أُسْوان فقد رابط فيها رجال من العسكر مستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان ، ذكر المقريزى أن ذلك أُهْمِل بعد زوال الدولة الفاطمية [١٧٣] . ويضيف المَخْزومى

---

[١٦٨] المخزومى : المنهاج ٦٨ ، صلاح البحيرى : المرجع السابق ١٧٧ – ١٨٠ .
[١٦٩] نفسه ٦٨ – ٦٩ .
[١٧٠] نفسه ٦٩ .
[١٧١] ابن المأمون : أخبار مصر ١٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢١٢ .
[١٧٢] المقريزى : الخطط ١ : ٢١٣ س ٨ .
[١٧٣] المقريزى : الخطط ١ : ١٩٨ .

أنه كان بكل مركز نائب عن « ديوان العَرْض » – الذى ربما كان فرعًا لديوان الجيش – كانت مهمته إثبات صلاحية هؤلاء الأجناد المستخدمين أمام مجلس الحرب واستمرار خدمتهم وذلك فى سجل مفرد يثبت فى آخره عدد المستمرين منهم يعتمده متولى الحرب ويرفع بعد ذلك إلى متولى ديوان المال لصرف استحقاقه . أما الأجناد المركزية الذين كانت تجب لهم رواتب عينية فى شكل « جراية » فكان لهم « خَرْجُ مفرد » إلى جانب « خرج الإيجاب » يشتمل ما يجب اقتطاعه منسوبًا إلى ستة (؟) . أما الأجناد الذين كانوا يجردون إلى الثغور الشامية – وذلك فى العقود الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية – فكان يطبق عليهم نفس نظام الاقتطاع السابق ولكن يستعيضون عن ذلك ببدل قيمته عشرة دنانير عدد مقابل إقامتهم فى هذه الثغور [١٧٤] .

أما « الإقْطاع الجَيْشى » فيذكر المَخْزومى أن له حكمين : حكم هلالى وحكم خراجى . وواضح أن نص المَخْزومى يرتبط بالعصر الأيوبى ، فالإقطاع الجَيْشى عرف فى مصر مع وصول الجيش التركى الكُرْدى المصاحب لشيركوه وصلاح الدين . فمصر فى العصر الأيوبى كان لها وضعٌ خاص يختلف عما كان سائدًا فى الشرق فى هذه الفترة [١٧٥]، ويشير المقريزى فى نص واضح إلى أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية ولا فى الدول السابقة عليها فى مصر إقطاعات بمعنى ما عليه الحال فى وقته فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تُضَمَّن بقَبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه [١٧٦]. وسأناقش نظام القَبالَة والإقطاع الفاطمى عند حديثى عن النظام الضرائبى للفاطميين [١٧٧]. ولكن يجب أن نشير إلى أنه كان بين الدواوين المصرية فى العصر الفاطمى « ديوان للإقطاع » مختص بما يُقْطَع للأجناد عن طريق الضَّمان [١٧٨]،

---

[١٧٤] المخزومى : المنهاج ٦٩ ، صلاح البحيرى : المرجع السابق ١٨٢ – ١٨٥ .

[١٧٥] Cahen , Cl ., op . cit ., pp . 163 , 167 .

[١٧٦] المقريزى : الخطط ١ : ٨٥ .

[١٧٧] انظر فيما يلى ص٣٢٨ – ٣٣٣ .

[١٧٨] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٦ .

وهو نظام مالى عمل به الفاطميون لتسهيل جباية الخراج وسائر أنواع الضرائب [١٧٩].

والجهة الأخيرة من رسوم ديوان الجيش التى ذكرها المَخْزومى هى «إقطاع الاعتداد [١٨٠]» الذى يذكر ابن الطُّوَيْر أنه مختص بالعُرْبان وكان يقع عادة فى أطراف البلاد ، وهو مائة دينار على كل ألف دينار مقبوضة [١٨١]، وهو فى الوقت نفسه إقطاعًا جماعيًا ويعنى طريقة فى دفع الرواتب لمجموعة من العربان بواسطة زعيم لهم [١٨٢].

الأسطول

إذا كان الجيش الفاطمى ، مشاة وفرسانًا ، لم يُخْتَبَر خارج حدود مصر ، فقد لعب الأسطول الفاطمى دورًا كبيرًا فى البحر المتوسط منذ أن كان الفاطميون فى إفريقية . فكانت دار صناعة المَهْدية وإعادة بناء أسطول سُوسَة خطوة أساسية لدعم سيطرة الفاطميين على الحوض الغربى للبحر المتوسط [١٨٣].

وعندما انتقل الفاطميون إلى مصر أنشأوا دارًا للصناعة بالمَقْس [١٨٤](موضع ميدان رمسيس الآن) ، وأخرى فى الجزيرة (جزيرة الرَّوْضَة) نُقِلَت بعد ذلك إلى ساحل مصر الفُسْطاط [١٨٥]. كان يصنع بها الأسطول والمراكب الحاملة

---

[١٧٩] انظر فيما يلى ص٣٢٤ – ٣٢٦ .

[١٨٠] المخزومى : المنهاج ٦٩ .

[١٨١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٦ ، ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ١٤٧ – ١٤٨ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٩ .

[١٨٢] Cahen, Cl., op. cit., pp. 165, 170.

[١٨٣] عن دور الفاطمين فى البحر المتوسط راجع ، صابر محمد دياب : سياسة الدولة الفاطمية فى حوض البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٧٣ ، ٩٣ – ١٦٦ ، السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ ، ٦٣ – ٨٤ .

[١٨٤] المقريزى : الخطط ٢ : ١٩٥ ، اتعاظ ١ : ١٣٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ .

[١٨٥] ابن المأمون : أخبار ١٠٠ – ١٠١ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٨٢ ، ٢ : ١٩٧ .

للغلّات السلطانية ، وكان عددها فى أيام المُعِزّ لدين الله يزيد على ستمائة قطعة [١٨٦]. كما بلغ عدد المراكب المُخصَّصة للخليفة خمسون عُشاريًا [١٨٧] وعشرون ديماسًا ، وكان لكل عُشارى رئيس ونواتى . أما المراكب الحربية المعروفة بالشَّوانى [١٨٨] والشَّلَنْديات [١٨٩] والمُسطَّحات [١٩٠] فكانت تنشأ بالفُسْطاط والإسكندرية ودِمْياط ، وكانت تصل إلى مدن الشام الساحلية مثل صور وعَكّا وعَسْقلان عندما كانت ما تزال بأيدى الفاطميين [١٩١].

ويقدم لنا ابن الطُّوَيْر وصفًا لتجهيز الأسطول ولكيفية النفقة فيه ووداعه نعرف من خلاله أنه متى تَجَهَّز الأسطول الفاطمى للغزو يتولى النفقة فيه

---

[١٨٦] ابن الطوير : نزهة ٩٤ .

[١٨٧] عُشارى جـ . عشاريات . اسم معرب ، وهو نوع من المراكب كان يستعمل فى البحرين المتوسط والأحمر وكذلك فى النيل . وهو نوع من القوارب الصغيرة التى تلحق بالأسطول أو بالمراكب الكبيرة . وتفيض المصادر الفاطمية فى ذكر هذا النوع من المراكب كأحد القطع النهرية التى تعددت أغراض استعمالاتها فى العصر الفاطمى . ومع ذلك فيمكننا القول أنه كاد أن يكون موقوفاً فى استعماله على الخلفاء والوزراء وولاة الأعمال . فكان الخلفاء يستخدمونه فى النزه النيلية (المسبحى : أخبار مصر ١٠ – ١١ ، ٢٣ ، ٤٢ ، ٩٥ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ٢٨٢ ، الخطط ٢ : ١٥٤ – ١٥٥) كما كان الخليفة يستخدم نوعًا خاصًا من العشاريات فى الاحتفال بوفاء النيل أتى على وصفه ابن الطُّوير : نزهة المقلتين ١٩٢ – ١٩٤ ، وكذلك ابن المأمون : أخبار مصر ٧١ – ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ١٠١ (وراجع ، درويش النخيلى : السفن الإسلامية على حروف المعجم ٩٥ – ١٠١)

[١٨٨] شينى جـ . شوانى (ويقال أيضًا شانى أو شينية أو شونة) . السفينة الحربية الكبيرة ، وكانت تطلق عليها أحيانًا أسماء مثل « الغراب » الذى ذكر ابن مماتى أنه كان يجدف بمائة وأربعين مجدافًا . (ابن الطوير : نزهة المقلتين ٩٥ ، درويش النخيلى : المراجع السابق ٨٣ – ٨٥) .

[١٨٩] الشَّلَنْدى جـ . شلنديات . مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره والمجدفون يجدفون تحتهم . وقد عرف المسلمون هذا النوع من المراكب الحربية ونقلوه عن البيزنطيين . (ابن الطوير : نزهة ٩٥ ، درويش النخيلى : المرجع السابق ٧٨ – ٨١) .

[١٩٠] مُسطَّح جـ . مسطحات . نوع من السفن الحربية الكبيرة يشبه بالشلندى كان يسع نحو خمسمائة راكب ، استخدمه المسلمون والفرنج على السواء فى العصور الوسطى . (ابن الطوير : نزهة ٩٥ ، درويش النخيلى : المرجع السابق ١٤١ – ١٤٣) .

[١٩١] ابن الطوير : نزهة ٩٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٨٣ ، ٢ : ١٩٣ ، القلقشندى : صبح ٣ : ١٥٩ .

الخليفة بنفسه ومعه الوزير ، فيدفع لرجاله وهم عشرون نقيبًا رواتب شهرية وجرايات مستقرة مدة أيام السفر ، ويحضر هذه الرسوم صاحبا ديوان الجيش وهما :« المُستَوْفى » الذى يجب أن يكون من عدول المسلمين ، و« الكاتب » الذى يكون غالبًا من اليهود ! [١٩٢].

وإذا اكتملت النفقة فى الأسطول وتجهّزت المراكب للغزو ، ركب الخليفة والوزير إلى المنظرة بساحل المَقْس لوداع الأسطول ، فيأتى القواد بالمراكب مزينة بأسلحتها ولبوسها وتستعرض فى النيل أمام الخليفة . ثم يستدعى الخليفة « المُقَدَّم » و« الرئيس » فيوصيهما ويدعو للأسطول بالسلامة والنصر ، ويعطى المُقَدّم مائة دينار والرئيس عشرين دينارًا ، ثم ينحدر الأسطول فى النيل إلى دمياط ويخرج منها إلى البحر المالح . ويُحْتَفَل باستقبال الأسطول عند عودته كذلك بمنظرة المَقْس [١٩٣]. وقد وصف لنا ابن المأمون كيفية وداع الخليفة الآمر بأحكام الله للأسطول فى منظرة المَقْس عندما خرج للقاء الفرنجة سنة ١١٢٣/٥١٧ بناء على طلب صاحبى دمشق وحلب [١٩٤].

ديوانُ الجِهاد

كان الإشراف على الأسطول يتولّاه « ديوان الجِهَاد » الذى يعرف أيضًا « بديوان العَمائر » وكان محله بدار الصِّناعة بالفُسْطاط . وكانت جريدة قواد الأسطول فى آخر عهد الدولة ، كما يذكر ابن الطُّوَيْر ، تزيد على خمسة آلاف مُدَوَّنة ، منهم عشرة أعيان يقال لهم « القُوّاد » (واحدهم قائد) تتراوح جامكيتهم بين عشرين دينارًا وديناربن . ولهم إقطاعات تعرف بـ « أبواب الغُزاة » . ويختار من يقع عليه الإجماع من القُوّاد العشرة لرئاسة الأسطول

---

[١٩٢] نفسه ٩٧ ، نفسه ١ : ٤٨٣ ، ٢ : ٣٩١ .

[١٩٣] ابن الطوير : نزهة ٩٧ – ٩٨ ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٩٣ .

[١٩٤] ابن المأمون : أخبار مصر ٦٠ – ٦٢ ، ٦٨ – ٦٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٨٣ ، ٤٨١ – ٤٨٢ .

المتجه للغزو فيكون معه المقدم والفانوس فتهتدى به بقية المراكب تُقْلع بإقلاعه وترسو بإرسائه . كما يُقَدَّم على الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء ويعرف الاثنين « بالمقدم » و« الرئيس »[١٩٥] .

وذكر ابن المأمون أن الباقى من استيمار سنة ١١٢٣/٥١٧ والذى حمل إلى الصناديق الخاصة برسم المُهِمّات لما يتجدَّد من تسفير العساكر وما يُحْمَل إلى الثغور عند نفاذ ما بها ثمانية وتسعين ألف ومائة وسبعين دينارًا (١٩٧ و٩٨) وربعًا وسدسًا[١٩٦] .

وإلى جانب أسطول الفاطميين بالبحر المتوسط كان لهم أسطولٌ بعَيْذاب على البحر الأحمر كان يُتَلَقّى به الكارم خوفًا على مراكب الكارم من القراصنة الذين كانوا يعترضونها ، وكان يتولّى أمر الإشراف عليه والى قوص[١٩٧] .

---

[١٩٥] ابن الطوير : نزهة ٩٤ – ٩٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٨٣ ، ٢ : ١٩٣ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٥١٩ .

[١٩٦] ابن المأمون : أخبار مصر ٧١ ، الخطط ١ : ٣٩٩ .

[١٩٧] القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٥١٩ – ٥٢٠ وانظر عن تجارة الكارم مايلى ص .

ولتفاصيل أكثر عن الأسطول والبحرية الفاطمية راجع ، السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبّادى : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، بيروت – جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ ، ٨٤ – ١٥٢ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة – دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧ ، ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ١ : ٢١٨ – ٢٢٩ .

الفصل الحادى عشر

النشاط الاقتصادى

الزراعـــــة

تعد الزّراعة هى عَصَب الاقتصاد المصرى ، وقد تنبّه إلى ذلك الفاطميون منذ قدوم جوهر القائد [١]. وتوقف نجاح الزّراعة فى مصر على عاملين : فيضان النيل ، وعناية الحكومات بتوفير الإمكانيات اللازمة للعناية بالزّراعة [٢]. فقد كان فيضان النيل ذا أثر عظيم بالنسبة لرخاء البلاد وعائد الإيرادت التى تحصل عليها الحكومة . وكان الفيضان المنخفض (وهو الظمأ أى اثنتا عشر ذراعًا) يعنى استحالة رَىّ جميع الأراضى مما يؤدى إلى نَقْص المحصول وعَجْز الحكومة عن جباية الخراج ، كما أن الفيضان العالى (وهو الاستبحار أى ثمانية عشر ذراعًا) كان يؤدى إلى إغراق الأرض وإتلاف الزرع فيقل الكلأ والمَرْعى مما يضر بالبهائم ، وفى كلا الحالتين يُهَدِّد البلاد القَحْط الذى كثيرًا ما صحبه الوباء [٣].

لذلك فقد قَسَّم المصريون الأرض الزراعية إلى حياض يصل إليها الماء فى زمن الفيضان بواسطة شبكة واسعة من التُرع والقنوات التى تُسَدّ حتى يبلغ

---

[١] انظر أعلاه ص٨١ .

[٢] البرواى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطمين ٦٣ .

[٣] المخزومى : المنهاج – خ ٤٧ ظ ، ناصر خسرو : سفرنامة ٨٢ ، ٨٣ ، ابن مماتى : قوانين ٧٦ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٢٩٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٥٨ – ٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٥٤ .

ارتفاع النيل حدًا معينًا اتَّفق المؤرِّخون أنه ستة عشر ذراعًا [٤]. وحتى يتسنى غَمْر هذه الحياض بالماء كان من الضرورى أن يبلغ النيل حد الوفاء، وأن يتم تطهير هذه التُرَع فى فصل الجفاف [٥]. وقد عَجَز الفاطميون، وحكام مصر الإسلامية عمومًا، عن مواجهة النتائج المترتبة على ظاهرة نقص فيضان النيل. وقد استتبع ذلك ضرورة صيانة الجسور، التى يتوقف عليها بقاء الماء فوق سطح الحياض ومنعها من التسرب مرة أخرى إلى النهر من وراء الجسور [٦].

أما العامل الثانى فقد تمثل فى ضرورة عمل الحكومات المتعاقبة على تحسين الرى وتعميق الترع والقنوات والمحافظة على الجسور المقامة على النيل [٧]. فكانت صيانة الجسور عملًا إجباريًا، وكان هناك نوعان من الجسور: جسور سلطانية تشرف عليها الحكومة، وجسور بلدية تنتفع بها ناحية دون أخرى كان يتولَّى صيانتها وإقامتها المُلّاك والمُتَقَبِّلون، تُخْصَم نفقات عملها وصيانتها من الخراج الذى يتعيَّن عليهم دفعه [٨].

وقد أدَّى اعتماد الزِّراعة فى مصر على مجيء فيضان النيل وما يحمله من طَمْى، إلى تعطيل الأرض الزراعية معظم أوقات العام، ولم يسمح سوى بزراعة محصول واحد فى السنة من المحاصيل الأساسية وبذلك امتازت مصر بالزراعة الشتوية [٩].

---

[٤] المقريزى: الخطط ١ : ٦٠ .
[٥] محمد محمود إدريس: تاريخ الحضارة الإسلامية (العصر الفاطمى)، القاهرة ١٩٨٦، ٨٤ – ٨٥، البراوى: المرجع السابق ٦٣ .
[٦] البراوى: المرجع السابق ٦٣ .
[٧] نفسه ٦٥ .
[٨] المخزومى: المنهاج – خ ٤٤ ظ، ٤٨ و، ابن مماتى: قوانين الدواوين ٢٣٢، المقريزى: الخطط ١ : ٨٢، ١٠٢، الحموى: روضة الأديب (أبحاث ألفية القاهرة) ١٠٨٣، البراوى: المرجع السابق ٦٥ .
[٩] البراوى: المرجع السابق ٦٦ .

كانت الزراعة الشتوية تبدأ فى شهر كيهاك (ديسمبر) – فقد كان التقويم القبطى هو الذى يُعْتمد عليه فى معرفة مواسم الزراعة والحصاد وكذا جباية الخراج – وتمتد حتى شهر بؤونة (مارس) . فكانت الأراضى التى يغمرها الفيضان غمرًا كاملًا تعرف بـ « البياض » وتنتج المحاصيل التى لا تحتاج للرى حتى وقت حصادها ، وهذا النوع كان سائدًا فى معظم أراضى مصر العليا والوسطى باستثناء الفيوم . أما الأراضى التى لم يغمرها الفيضان غَمْرًا كاملًا أو التى لم يغمرها على الإطلاق فكان يُلْجأ فيها إلى الرى الصناعى عن طريق الآبار ، وتعرف بـ « الشتوى » ورغم ما تُكَلِّفه المحاصيل الناتجة عن هذا النوع من الزراعة ، فإن عائدها كان أكبر مما تدره محاصيل النوع الأول [10] .

وكانت الزراعة الصيفية تبدأ بعد حصاد المحاصيل الشتوية فى الأماكن الواقعة على جانبى النهر نظرًا لجفاف الترع ، وتمتد من شهر بؤونة (إبريل) وحتى آخر شهر توت (يولية) . وكان الفلاحون يوفرون الماء فى هذه الحالة عن طريق رفعه من النيل بالسواق والقواديس وغيرها من أدوات [11] .

أما الأراضى المنخفضة المجاورة للنهر والتى لا تحتاج إلى آلات لرفع المياه إلى منسوب الأرض فكانت تزرع طوال العام وبأكثر من محصول وعلى الأخص المحاصيل التى لا تضار من وفرة الماء مثل القصب والأرز. وتعرف هذه الطريقة باسم « الرى بماء الراحة [12] » .

وكانت أهم المحاصيل الشتوية هى : القمح والشعير والبرسيم والكتان والجُلْبان ، أما أهم المحاصيل الصيفية فكانت قصب السكر والأرز والنيلة والسمسم والفواكه ، وخاصة الكروم والرمان والخوخ والنارنج والبطيخ والأترج والسَّفَرْجل والليمون التفاحى [13] .

---

[10] محمد محمود إدريس : المرجع السابق ١١٨ ، البراوى : المرجع السابق ٦٦ — ٦٧ .

[11] الراوى : المرجع السابق ٦٧ .

[12] محمد محمود إدريس : المرجع السابق ٨٧ .

[13] البراوى : المرجع السابق ٧١ .

وكانت الأزمات الاقتصادية التى حَلّت بمصر فى العهد الفاطمى وخاصة فى أوائل القرن الخامس ومنتصفه عادة نتيجة لقصور ماء النيل وانقطاع الفيضان . وعادة ما كان يعقب هذه الأزمات انتشار الأوبئة وخراب الكثير من المواضع العمرانية مع ما يصحب ذلك من ندرة الأقوات وارتفاع الأسعار [١٤].

وكجزء من محاولة التصدى لهذه الكوارث الطبيعية عملت الحكومة ، فى أعقاب الشِّدَّة العُظْمى وبعد استيلاء بدر الجمالى على السلطة ، على العناية بأمر الترع والجسور مما أدَّى إلى ارتفاع إيرادات الدولة ، فيذكر المَخْزومى أن جملة الخراج فى زمن بدر الجمالى بلغ سنة ٤٨٣/١٠٩٠ ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار بزيادة ثلاثمائة ألف دينار عن ما كان يُحَصَّل قبل قدومه [١٦].

وفى أيام الوزير الأفضل شاهنشاه تم فتح خليج من النيل إلى الشرقية . فقد كان الماء لا يصل إليها إلّا من السَّردوسى ومن الصماصم فكان أغلب أراضى هذه المنطقة يَشْرَق فى أكثر السنوات [١٧]. وكان مُشارف هذه المنطقة رجلًا يهوديًا يعرف بسنى الدولة وأمينها أبى المُنَجّا شلومو بن شِعْيا [١٨]. فتضرر إليه المزارعون وطالبوه بفتح ترعة يصل الماء منها فى ابتداء الفيضان إليهم . فبدأ فى حفر الخليج المعروف بـ « خليج أبى المُنَجّا » يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ٣٠/٥٠٦ يناير سنة ١١١٣ واستمر حفر هذا الخليج سنتين وكانت الفائدة منه تبرر ما غُرِم عليه . وقد استنكر الأفضل ، بعد ما أُنْفق على فتح هذا الخليج ، أن يسمى خليج أبى المُنَجّا وأمر أن يُغَيّر اسمه إلى « البحر

---

[١٤] انظر أعلاه ص ، ودراسة السيد الصاوى : مجاعات مصر الفاطمية – أسباب ونتائج ، بيروت – دار التضامن ١٩٨٨ ، ٢٥ – ٧١ .

[١٥] المخزومى : المنهاج – ٤٦ و ، المقريزى : الخطط ١ : ١٠٠ .

[١٦] ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٣ ، ١٠٠ ، اتعاظ الحنفا ٣ : ٧٢ .

[١٧] ابن المأمون : أخبار مصر ١١ .

[١٨] انظر عنه Goiten , S .D ., A Med . Soc . II pp . 356 , 358 , 377

الأفضلى » ومع ذلك فإنه لم يعرف عند المؤرخين أو بين الناس إلّا باسم « خليج أبى المُنَجّا »[١٩] .

وقد اقترح الوزير المأمون البطائحى على الخليفة الآمر أن يكون لهذا الخليج يوم كخليج القاهرة ، فأمر ببناء منظرة بجرى سد الخليج لينظر منها الخليفة الاحتفال بفتح هذا الخليج ، وظل يُحْتَفل بيوم فتح هذا الخليج حتى نهاية الدولة الفاطمية[٢٠] .

وربما كان خليج أبى المُنَجّا هو نفسه الفرع البيلوزى القديم الذى كان قد طُمِر ولكن بقيت آثاره تدل عليه ، فأعاد الفاطميون حفره وتعميقه مما ساعد على رَىّ جانب كبير من الأراضى الواقعة فى شرقى فرع دمياط[٢١] .

---

١٩ ابن المأمون : أخبار ١١ – ١٢ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٠١ – ٣٠٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٧١ – ٧٢ ، ٤٨٧ – ٤٨٨ ، اتعاظ الحنفا ٣ : ٥٠ .

٢٠ نفسه .

٢١ البراوى : المرجع السابق ٤٠١ .

الصنّــــاعة

لا شك أن التطور الكبير فى تجارة مصر الدولية وافتتاح أسواق جديدة لها ، بالإضافة إلى الرفاهية العالية للبلاط الفاطمى قد أدّيا إلى ازدهار مختلف فروع الصّناعة فى مصر الفاطمية [٢٢]. كذلك فقد دعت الحياة الاجتماعية المترفة ، التى وصفها لنا الرحّالون الذين زاروا مصر فى هذه الفترة ، إلى تقدم الصّناعة من حيث الكم والكيف ، وألْقت أعباءً جديدة على الإنتاج الصناعى المحلى [٢٣]. فقد زاد حجم الصّناعات القديمة القائمة فى مصر وأُوْجِدت لها فروع جديدة ، وظهرت معها صناعات لم تكن معروفة من قبل ، واسْتُخْدِمَت أساليب جديدة كما تحسّنت الطرق القديمة أو تم تقليد الطرق المستعملة فى مراكز أخرى بنجاح [٢٤].

ويمكننا تفسير هذا الازدهار ، ولو جزئيًا ، بسياسات الفاطميين الاقتصادية التى تَبَنَّت مبدأ حرية المشاريع [٢٥]. ولما كان الأقباط هم عماد الصّناعة فى مصر فى هذا الوقت ، فقد كان لسياسة التسامح التى اتبعها أغلب خلفاء الفاطميين ، أثرٌ فى أن يجد الأقباط أنفسهم ويأمنون على اموالهم ويجوّدون أعمالهم ، وكان وراء هذه الروح الجديدة رغبة الفاطميين فى استغلال مهارة الأقباط فى الإنتاج الصّناعى [٢٦]، وقد جذب هذا الازدهار الكثير من العمال الأجانب الذين استقدمهم الفاطميون من بلادهم واجتذبوهم بالرواتب المغرية ، كما أن الفاطميين استعانوا ببعض الأسرى الأجانب فى مجال الصّناعة [٢٧].

---

[٢٢] Ashtor , E . , op . cit . , p . 198 .

[٢٣] راشد البراوى : المرجع السابق ١٢٢ .

[٢٤] Ashtor , E . , op . cit . , p . 198 ، وعن الصناعات فى مصر قبل العصر الفاطمى انظر ، زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ، القاهرة ١٩٣٥ ، ٨٣ – ١١٥ .

[٢٥] Ibidem .

[٢٦] البراوى : المرجع السابق ١٢١ .

[٢٧] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤١ – ١٤٢ ، البراوى : المرجع السابق ١٢١ – ١٢٤ .

وأهم الصِّناعات التى ازدهرت فى عصر الفاطميين « صناعة النَّسيج » التى انتشرت فى دَبِيق وتِنِّيس وتونة وشَطا فى الوجه البحرى . كما تشير أوراق الجنيزة إلى مراكز جديدة لصناعة الكِتّان مثل : قَطًّا ومِنْية الخصيب ومِنْية غَمْر أو مِنْية زِفْتى [٢٨].

وأصبحت « صناعة السُّكَّر » دون شك تمثل جانبًا هامًا فى الاقتصاد المصرى فى القرن الخامس/الحادى عشر . وقد تحسَّنت طرق تكرير عصير قصب السكر فى مصانع القصب العديدة القائمة فى هذه الفترة فى مدن وقرى كثيرة فى مصر ، حيث استخدم النَّطْرون والشَّبّ فى تنقية المواد المتخلِّفة وذلك بدلًا من الغَلْى المتكرر . وكانت صناعة السكر فى ظل الفاطميين ذات طابع رأسمالى بالتأكيد ، فالطرق المعقدة التى استخدمت فى هذه العملية كان لا يمكن استخدامها إلّا فى المصانع الكبيرة التى كان يطلق عليها « مطابخ السكر » [٢٩].

وفى هذه الفترة كذلك بدأت « صناعة الورق » فى الازدهار بعد انقراض إنتاج البَرْدى ، وأصبحت « مطابخ الورق » فى الفُسْطاط تنتج الورق المعروف بالورق الطَّلْحى ، نسبة إلى طَلْحة بن طاهر والى خراسان المتوفى سنة ٨٢٨/١٢٣ ، أحد أوائل من أدخل « مطابخ الورق » فى الإسلام [٣٠].

---

٢٨ Ashtor, E. op. cit, p. 198 انظر فيما يلى الفصل الرابع عشر عن صناعة النسيج .

٢٩ Ibid., 199 .

٣٠ Ibid., 199, Goitein, S .D., A Med. Soc. I, p. 81 وانظر الفصل الرابع عشر حول صناعة الخزف والأخشاب .

التّجـــارَة

لم تلعب مصر فى بداية العصور الوسطى دورًا هامًا فى التجارة المتجهة إلى آسيا ، بينما كان لها دورٌ ملحوظ فى حركة التجارة المتجهة إلى أوربا وبيزنطة [٣١]. وكانت التجارة بين أراضى البحر المتوسط والمناطق الشرقية تمر منذ الزمن القديم عبر طريقين : الأول من خلال وادى الرافدين والخليج الفارسى ، والثانى من خلال مصر والبحر الأحمر إلى الهند والسند والصين .

وقد حاول أحمد بن طولون أن تشارك مصر بدور بارز فى التجارة الشرقية وأن يُقلّل من اعتمادها على الخلافة العبّاسية ، ولكن هذا المشروع قضى عليه مع وفاته . ولم يكن خلفاؤه من الطولونيين ثم الإخشيديين من القوة التى تتيح لهم تحدى سيطرة الخلافة فى بغداد [٣٢]، فقد كانت بغداد فى هذه الفترة ، مركز الخلافة العبّاسية والعاصمة التجارية للعالم الإسلامى وأثّرت تاثيرًا سلبيًا على التجارة المصرية .

وقد خلق الفتح الفاطمى لمصر سنة ٩٦٩/٣٥٨ موقفًا جديدًا تمامًا ، بحيث انتقل حجم التجارة الإسلامية فى أواخر القرن الرابع/العاشر تدريجيًا من العراق والخليج الفارسى إلى مصر والبحر الأحمر ، وخدمت المتغيرات فى أراضى الخلافة العبّاسية سياسة الفاطميين ، الذين كانوا فى أوج قوتهم ، بينما كانت الاضطرابات المتتالية فى جنوب العراق بالإضافة إلى عدم الأمان المتزايد فى الخليج عاملًا فى صالح الموانئ المصرية والتجارة الفاطمية .

---

٣١ Labib, S., "Egyptian commercial Policy in the Middle Ages" in Cook, H. A., (ed.) Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day, London 1970, p. 63.

٣٢ Lewis, B., "The Fatimid and the route to India". p. 50.

وقد هجر كثيرٌ من الناس بغداد والعراق خوفًا من هذه الاضطرابات وفرُّوا إلى مصر . وكان المستفيد الأول من ذلك « مدينة الفُسْطاط » ، عاصمة مصر التجارية فى زمن الفاطميين ، حيث كانت السفن تُفَرِّغ بضائعها فى هذا الميناء الداخلى ، سواء القادمة من الإسكندرية ، أو القادمة من البحر الأحمر ، حيث تحمل برًّا إلى الصعيد قرب مدينة قوص ، ومن هناك تحملها السفن النيلية إلى الفُسْطاط .

وأدَّت استراتيجية الفاطميين الشرقية ومحاولة قضائهم على العبّاسيين ، إلى إحكام سيطرتهم على طرق التجارة المؤدية إلى الهند ، سواء للانتعاش الاقتصادى أو لنشر الدعوة الإسماعيلية على طول الطرق التجارية ، وذلك بالإضافة إلى تجارتهم مع جنوب أوربا وشمال إفريقيا وصِقِلّية وبيزنطة فى الشمال .

كانت هذه البضائع كلها تَصُبّ فى « الفُسْطاط » ، التى جعل لها الجغرافى المَقْدسى ، فى أواخر القرن الرابع ، مكانة تسبق بَغْداد فى هذا الوقت [٣٤]. وأصبحت المركز الحيوى للنشاط الاقتصادى والتجارى فى المنطقة .

الفُسْطاط والإسكندرية مراكز التجارة فى العصر الفاطمى

كانت الفُسْطاط فى العصر الفاطمى ، دون شك ، هى العاصمة التجارية لمصر Metropole . وكان يُطْلَق عليها فى أوراق الجنيزة : « مِصْر » بينما أطلق عليها فى الوثائق الشرعية : « فُسْطاط مِصْر » وهو مصطلح كان يستخدم لتمييزها عن المدينة الأخرى حديثة النشأة « القاهرة » ، العاصمة السياسية [٣٥].

وسيكون من الخطأ أن نظن أن الإسكندرية ، الميناء الواقع على البحر المتوسط ، كانت مركز توزيع التجارة ، وأن الفُسْطاط كانت تستمد أهميتها

---

[٣٥] Goitein, S.D., " Cairo, An islamic City in the light of the Geniza Documents " in Lapidus, Ira M. (ed.), Midle Eastern Cities, Berkeley 1969, p. 81; id., A Mediterranean Society IV (Berkeley 1983), p. 6 -7.

من كونها مقرًا للإدارة . فالنصوص التى لا تقبل الشك لمئات من أوراق الجنيزة [٣٦] التى ترجع إلى القرن الخامس/ الحادى عشر تُثبت أن الفُسْطاط ، المدينة الواقعة فى عمق الإقليم ، كانت أيضًا المركز التجارى والمالى للبلاد ، وأن الإسكندرية المدينة الساحلية ، كانت ترتبط من كل النواحى بالفُسْطاط التى كانت بمثابة الوكالة التجارية لكل المنطقة والتى تتجمع بها كل أنواع البضائع .

وفيما يخص البضائع التى كانت ترسل إلى ما وراء البحار فإن مكوسها كانت تُحَصَّل مسبقًا فى الفُسْطاط ، ولم يكن يسمح بنقلها إلى الإسكندرية دون أن تكون مصحوبة بما يُثْبت دفع المكوس عنها فى العاصمة . وحتى السِّلَع التى كانت تُجْلب من موانئ البحر المتوسط إلى الإسكندرية لم تكن تصل إليها إلّا بإذن من الفُسْطاط .

كانت الفُسْطاط والإسكندرية تختلفان كذلك فى تركيب سكانهما فالمدينتان كانتا تعجان بالأجانب ، ولكن الفرق بينهما كان ينحصر فى أن من كان يلحق منهم بالعاصمة كانت لديه النية للاستقرار بها ، بينما من كان يقيم منهم بالإسكندرية كان مصممًا على مغادرتها « بعد قضاء الحوائج » [٣٧] .

على كل حال فقد كانت طرق التجارة ، سواء القادمة من الإسكندرية أو من داخل أفريقيا أو من البحر الأحمر ، تلتقى كلها فى الفُسْطاط بسبب قربها من النيل . وكانت تمر من خلالها كافة أنواع البضائع الشرقية والغربية من منسوجات وجلود ومعادن مشغولة وعطارة وكافة أنواع التوابل التى يحتاج إليها بلاط الفاطميين والتجار الإيطاليين [٣٨] .

---

[٣٦] عن الجنيزة أنظر أعلاه مقدمة الكتاب .

[٣٧] Ibid., 82; Ibid., IV p. 8.

[٣٨] Goitein, S.D., "From the Mediterranean to India", Speculum XXIX (1954), p. 192 - 93; Garcin, J.C., Un centre musulman de la haute - Egypte medieval: Qūs, IFAO, 1975, p. 100.

وكان الطريق الذى تسلكه التجارة الشرقية هو نفس الطريق الذى كان يسلكه ركب الحجيج ، وهو الطريق الذى سلكه ووصفه ابن جُبَيْر بعد بضع سنوات من سقوط الفاطميين . فبعد خروجه من الفُسْطاط سار فى النيل جنوبًا مارًا بالصعيد تجاه مدينة قوص ومن هناك عبر الطريق البرى إلى عَيْذاب على البحر الأحمر [٣٩].

فابتداء من النصف الثانى للقرن الخامس/الحادى عشر أصبح لمدينة قوص مكانة أساسية فى نقل حركة التجارة الشرقية فى أعقاب الإصلاحات الإدارية التى أدخلها نظام بدر الجمالى على الإدارة المصرية ، وشاركت الفُسْطاط فى نشاطها التجارى ، وتمثَّلت المرحلة الأساسية فى هذا التطور فى فَرْض وتحصيل مكوس على البضائع الواردة إلى قوص تؤكده لنا أوراق الجنيزة اعتبارًا من سنة ١٠٩٧/٤٩٠ [٤٠].

ثراء الفُسْطاط فى العصر الفاطمى

يصف الرحالة المقدسى ، فى أواخر القرن الرابع ، ثراء الفُسْطاط ورخائها بقوله : « إن الأسواق قد التفّت حول جامع عمرو ، إلا أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشَّطّ وخزائن وميضأة ، وهو أعمر موضع بمصر ، وزقاق القناديل عن يساره ، وما يدريك ما زقاق القناديل ... ويطول الوصف بنعت أسواقها وجلالته غير أنه أجلّ أمصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وآهل بلدانهم » [٤١].

أما ناصر خسرو ، بعد ذلك بنحو خمسين عامًا ، فيقول : إن جامع عمرو يقع فى وسط سوق مصر ، بحيث تحيط به الأسواق من جهاته الأربع وتفتح

---

٣٩ ابن جبير : الرحلة ٢٢ – ٤٣ وانظر كذلك ناصر خسرو : سفرنامة ١١٦ ، ١١٨ .

٤٠ Goitein, S.D., op.cit., p. 193; Garcin, J. Cl., op.cit., p. 101.

٤١ المقدسى : أحسن ١٩٩ .

عليها أبوابه . ويقع سوق القناديل على الجانب الشمالى للجامع وأضاف أنه « لا يعرف سوقًا مثله فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف » [٤٢]

التُّجار الأجانب فى الفُسْطاط

كانت مصر لفترة طويلة من العصور الوسط مركزًا هامًا للتجارة الدولية وبالتالى فقد كانت تعج بالعديد من التجار الأجانب القادمين من خارج « دار الإسلام » والذين كانوا يصلون إلى الموانئ الساحلية ، وأعنى بهم التجار القادمون من أوربا المسيحية وبيزنطة الذين كانوا يقصدون موانئ البحر المتوسط . كان هؤلاء التجار يصلون إلى الإسكندرية وأحيانًا إلى دمياط وحتى تِنِّيس . ولم تكن هناك ضرورة لتوجههم إلى داخل البلاد أو حتى الفُسْطاط ، حيث كان هناك وسطاء محليون يقومون بنقل البضائع التى أحضروها أو التى يحتاجون إليها [٤٣].

وفى رواية لواقعة حدثت بمصر سنة ٩٩٦/٣٨٦ أوردها مؤرِّخان متعاصران هما : المُسَبِّحى ويحيى بن سعيد الأنْطاكى ، نعرف أن تجار مدينة أمالفى Amalfi الإيطالية كانوا يقيمون مع بضائعهم فى الفُسْطاط فى مبنى مخصَّص يعرف بـ « دار مَانِك » كان يقع فى خط الرَّفّائين . مما يعنى أنه كان لهم فى الفُسطاط وليس فقط فى الإسكندرية ، فُنْدُقًا إن لم يكن مِلْكًا لطائفتهم كان على الأقل موضوعًا تحت تصرفهم من قبل الحكومة الفاطمية [٤٤]. وقد نَهَبَت العامة هذه الدار بما فيها من ثروات ، بلغت تسعين ألف دينار ، فى أثناء حادثة سنة

---

[٤٢] ناصرى خسرو : سفر نامه ١٠٢ - ١٠٣ .

[٤٣] Cahen, Cl., "Les marchands etrangers au Caire sous les Fatimides et les Ayyoubides" CIHC p.97.

[٤٤] Ibid., p. 98; id., Makhzûmiyyât - Etudes sur l'histoire écomomique et financière de l'Egypte médiévale, Leiden - Brill 1977, pp. 105 - 106.

٩٩٦/٣٨٦ حيث كان بها نحو مائة تاجر أما لفي Amalfitains ، وهو رقم كبير يجعلنا نفترض أن لفظ أمالفي ، الوارد فى نص يحيى بن سعيد ، كان يشمل أيضًا بعض الإيطاليين الآخرين من سكان الجنوب [٤٥].

ورغم أن المُسَبِّحى قد ذكر خطأً أن « دار مَانِك » كانت تقع فى المُقْس (موضع ميدان رمسيس الآن) ، فإنه صَوَّب ذلك فى حوادث سنة ١٠٢٤/٤١٥ ، وذكر دار مانك بين الدور الواقعة فى الفُسْطاط [٤٦].

وتظهر دار مَانك فى وثائق الجنيزة كمكان لدفع المكوس على عدد كبير من السِّلع المُصَدَّرة وعلى تجارة العبور ، وعلى الأخص أصناف تجارة الجملة كالكتان والتوابل [٤٧].

وكان المَقْس ميناءً قديمًا على النيل ، عرف فى وقت الفتح بضَيْعَة أم دُنَيْن ، وعرف بالمَقْس لأن العاشر ، وهو صاحب المَكْس ، كان يقعد به فقيل لها المَكْس ثم قلبت فقيل المَقْس [٤٨]. أنشأ به الفاطميون دار صِنَاعة لا نعرف عنها شيئًا كثيرًا [٤٩]. ويبدو أنه استخدم كميناء للقاهرة لجلب ما يحتاج إليه القصر الفاطمى ، فيذكر المُسَبِّحى فى حوادث ربيع الآخر سنة ٤١٥/يونية سنة ١٠٢٤ أن مراكب مملوءة قمحًا وصلت إلى ساحل مصر الفُسْطاط ، ورئى

---

[٤٥] المسبحى : نصوص ضائعة ١٥ ــ ١٦ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٧٨ – ١٧٩ ، المقريزى الخطط ٢ : ١٩٥ – ١٩٦ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٤٨ ، Cahen, Cl., "Un texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amalfi au X° siècle", Archivio storico pen le provincie napolitane (1953-54), pp. 3-8, id., "Le commerce d'Amalfi dans le proche - orient musulman avant et après la Croisade", Comptes rendus d'Académie des Insriptions & Belles - Lettres (1977), pp. 292-294.

[٤٦] المسبحى : أخبار مصر ٦٩ .

[٤٧] Goitein, S. D., A Mediterranean Society IV, p. 27.

[٤٨] القلقشندى : صبح ٣ : ٣٥٧ ، المقريزى : الخطط ٢ : ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٥٣ .

[٤٩] المقريزى : الخطط ٢ : ١٩٥ .

نقل ما فيها إلى القصر الفاطمى ، فأمر بأن تصل إلى المَقْس مما أدّى إلى ارتفاع الأسعار وزيادة الغلاء فى هذا العام [٥٠].

وُكَلاء التجار بالفُسْطاط

وإلى جانب ذلك كان بالفُسْطاط عددٌ كبيرٌ من « وكَلاء التجار » أو « دور الوكالة » وهى دار لوكيل للتجار يمكن استخدامها كمُسْتَوْدَع أو مَصْرِف أو عنوان بريدى أو كل هذه الوظائف مجتمعة تبعًا لأهمية الوكيل [٥١]. وقد نشأ هذا النشاط منذ الأيام الأولى للدولة الفاطمية فى مصر أو قبل ذلك بقليل . فيذكر المُسَبِّحى فى حوادث سنة ١٠٢٤/٤١٥ وفاة الشريف أبى إسماعيل إبراهيم بن تَجّ المُعَدِّل الذى عمل بـ « الوكالة للتجار » فحملت إليه البضائع والمتاجر من كل ناحية ، وأنه خَلَّف عند وفاته مالًا كثيرًا جمًّا [٥٢].

وكان لكبار التجار فى المدن الكبرى الداخلية وكلاء عنهم فى الثغور ، فيذكر ناصر خسرو أنه لما اعتزم مغادرة أُسْوان إلى عَيْذاب ليتوجَّه منها إلى الحجاز كتب له تاجر من أُسْوان يدعى أبو عبد الله محمد بن فليح كتابًا إلى وكيله بَعيْذاب يوصيه به أن يدفع له ما يريد ، وأن ناصر سيعطيه مقابل ذلك صكًّا بالحساب يتولى الوكيل إرساله إلى التاجر بأسوان [٥٣].

وكان أغلب « وكلاء التجار » المسلمين المذكورين فى أوراق الجنيزة من « القضاة » وفى بعض الأحيان لم يكونوا يحملون هذا اللقب رغم شغلهم وظيفة القاضى [٥٤]. يقول ابن مُيَسَّر عن شخص ، أصبح ولده فيما بعد قاضى

---

٥٠ المسبحى : أخبار مصر ٣٩ .

٥١ Goitein, S. D., op. cit., IV, p. 26.

٥٢ المسبحى : أخبار مصر ١٠٨ .

٥٣ ناصر خسرو : سفرنامة ١١٩ ، ١٢٠ .

٥٤ Goitein, S. D., op. cit., I, p. 187., id., Studies in Islamic History pp. 346-47.

قضاة مصر ، إنه بعد هجرته من الشام إلى مصر فتح بالفُسطاط دار وكالة [٥٥]، ويذكر ابن المأمون فى حوادث سنة ١١٢٢/٥١٦ أن الوزير المأمون البطائحى أمر فى هذه السنة ببناء دار وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار [٥٦]. وهى أوَّل مرة تشهد فيها القاهرة هذا النوع من الأنشطة .

وبما أن وظيفة وكيل التجار أصبحت منذ هذا التاريخ وظيفة شبه حكومية ، فيمكننا الظن بأنه كان يحصل على ترخيص ، أو تأكيد لوظيفته من المُحْتَسب أو من والى مدينته ليباشر وظيفته . وعند الترخيص لشخص بوكالة التجار – إذا كان يُتَّبع فى الأساس إجراء كهذا – فإن السلطات الحكومية كانت تضع فى اعتبارها مكانة الشخص بين زملائه التجار .

وفى ظل هذه الظروف يمكننا اعتباره (فى وقت لم تعرف فيه النقابات) رئيسًا لما يشبه نقابة للتجار . ويكون وكيلًا مستقلًا فى مجتمع التجار المستقل . وكبقية المِهَن الأخرى . فإن وظيفة وكيل التجار كانت تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، وتعطينا وثائق الجنيزة مثلًا عن وكيل للتجار أصبح ابنه وحفيده أطباء ، بينما ورث أحد أحفاده بعد ثلاثة أجيال وظيفة جده الأعلى [٥٧].

اتصال القاهرة بالفُسْطاط

أسِّسَت القاهرة ، كما نعلم سنة ٩٦٩/٣٥٨ لتكون حصنًا تتحصن به الأسرة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر ، وظلَّت القاهرة طوال القرن الفاطمى الأول مدينة خاصة لا يُسْمح بدخولها لأفراد الشعب ، الذين كانوا يقيمون بالفُسْطاط إلّا بإذن خاص وبغرض خدمة أهل الحصن الفاطمى الذين كانوا من خواص الخليفة ورجال الدولة وفرق الجيش .

---

[٥٥] ابن ميسر : أخبار ١٢٦ – ١٢٧ .

[٥٦] ابن المأمون : أخبار ٣٩ ، ابن ميسر : أخبار ٩٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٥ ، اتعاظ ٣ : ٩٢ .

[٥٧] Goitein, S.D., A Med. Soc. I, pp. 186-192, id., Studies p.347-48.

وقد أدَّت الأزمة الاقتصادية الطاحنة والفوضى السياسية التى اجتاحت مصر فى أواسط القرن الخامس/الحادى عشر إلى خراب الفُسْطاط ، وأصابت بقسوة الأحياء العبّاسية والطولونية القديمة الواقعة شمال شرق الفُسْطاط (العَسْكَر والقَطَائع) . ولما استعان الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بوالى عَكّا ، أمير الجيوش بدر الجمالى ، وقام بتدبير أمر مصر « نُقِلت أنقاض ظاهر مصر مما يلى القاهرة ، حيث كان العسكر والقطائع ، وصار فضاء وكيمانًا فيما بين مصر والقاهرة ، وفيما بين مصر والقرافة »[٥٨] واستغلت هذه الأنقاض فى البناء داخل السور الفاطمى . فكان هذا – كما يقول المقريزى – أول وقت اختط الناس فيه بالقاهرة »[٥٩]. وبذلك فقدت القاهرة ، مؤقتًا ، مكانتها كمدينة خاصة ، وإن كان بدر الجمالى قد تدارك ذلك بعد قليل وحافظ على شكل المدينة وخصوصيتها عندما أعاد تحصينها وجدَّد بناء أبوابها وأسوارها وزاد فى مساحتها من جهة الشمال والجنوب فيما بين سنتى ١٠٨٧/٤٨٠ و ١٠٩٢/٤٨٥ .

لكن التغيير الذى عرفته القاهرة تم فى العقود الأولى للقرن السادس/الثانى عشر ، فى خلافة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحى (٥١٥ – ٥١٩) . فقد عاد للأحياء الشمالية للفسطاط ازدهارها مرة أخرى وأعيد تعمير المنطقة الواقعة بين المشهد النفيسى جنوبًا وباب زويلة شمالًا[٦٠]، يقول المقريزى : « حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمستخدمون يُصَلُّون العشاء الآخرة بالقاهرة ويتوجَّهون إلى سكنهم فى مصر ولا يزالون فى ضوء وسرج وسوق موفور من الباب الجديد خارج باب زويلة إلى باب الصفا ... والمعاش مستمر فى الليل والنهار »[٦١] وبذلك اتصلت المدينتان القاهرة والفُسْطاط .

---

[٥٨] المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٧ س ٣٥ – ٣٨ .

[٥٩] نفسه ١ : ٥ .

[٦٠] المقريزى : الخطط ١ : ٣٠٥ ، ٢ : ٢٠ ، ١٠٠ ، ٢٦٥ .

[٦١] نفسه ٢ : ١٠٠

ثم شاركت القاهرة الفُسْطاط فى بعض الأنشطة الاقتصادية ، ففى سنة ١١٢٢/٥١٦ قام الوزير المأمون البطائحى ببناء دار للضَّرْب فى القاهرة فى منطقة القَشّاشين (الصَّنادقية الآن) بالقرب من الجامع الأزهر ، وأنشأ فى نفس السنة دار وكالة بالقرب منها لمن يصل من تُجّار العراق والشام وغيرهما [٦٢]. مما دعى الخليفة الآمر إلى إعادة تخطيط المدينة بعد انتشار المحلات والدكاكين والأسواق بها [٦٣].

وتفيدنا وثائق الجنيزة بأن تاجرًا من لَبْدَة بليبيا يعرف بمضمون اللّبدى اشترى فى سنة ١١٠٢/٤٩١ جزءًا من دار فى القاهرة مقابل ثلاثمائة دينار [٦٤]، مما يشير إلى فتح القاهرة لأبوابها أمام التجار الأجانب .

وكان للحريق المُتَعمَّد الذى اجتاح الفُسْطاط قرب نهاية العصر الفاطمى فى سنة ١١٦٨/٥٦٤ الدور الأساسى فى هجرة الكثير من أهل الفُسْطاط إلى القاهرة بعد تدمير جزء كبير من الجانب الغربى للمدينة . ولكن الوزير شيركوه تمكن بعد أن تولّى الوزارة للفاطميين من إقناع قسم من أهالى الفُسْطاط بالعودة إلى ديارهم وإعادة بناء مدينتهم [٦٥]. ويبدو أن عملية إعادة البناء قد تَمَّت بصورة فعلية خلال عام ١١٧٦/٥٧٢ ، وهو التاريخ الذى يجعله أبو صالح الأرْمَنّى بداية إصلاح العديد من كنائس الفُسْطاط [٦٦]. كما أن ابن جبير ، الذى زار مصر بعد هذا التاريخ بنحو خمس سنوات ، يذكر أن أغلب المدينة كان قد استُجِدَّ وقت زيارته وأن البنيان بها متصل [٦٧].

---

٦٢ انظر اعلاه هـ ٥٦ .

٦٣ Fu'âd Sayyid , A , La Capitale de LÉgypte pp. 511 , 529 .

٦٤ Coitein S .D ., From the Mediterranean to India p . 191 .

٦٥ المقريزى : الخطط ٣٣٧ – ٣٣٩ .

٦٦ أبو صالح : تاريخ ٢٧ و ، ٣٣ ظ ، ٣٨ ظ ، .

٦٧ ابن جبير : الرحلة ٢٩ .

التجـــــارة الكارميـــــة

ترجع أقدم إشارة إلى التجارة الكارمية فى المصادر التاريخية إلى ما أورده المؤرخ ابن أيْبَك الدَّوادارى عن تأخر وصول التجار وانقطاع الكارم فى سنة ١٠٦٣/٤٥٦ [٦٨]، وإن لم يوجد فى المصادر التاريخية التى تشير إلى هذه الفتره ما يؤكد ذلك. وتُرَجِّح هذه الإشارة أن الكارم [٦٩] كان معروفًا قبل هذا التاريخ، وتؤيدها مئات من أوراق الجنيزة [٧٠] التى ترجع إلى العصر الفاطمى والتى تشير إلى أن التجارة الكارمية عرفت فى عصر الفاطميين وعلى الأخص الأوراق المتعلِّقة بالنشاط التجارى وحجم أعمال بيت أبى الفرج يوسف بن يعقوب بن عَوْكَل التى تعد أقدم أرشيف لنشاط حِرَفى وتجارى فى أوراق الجنيزة، وواحدة من أقدم مجموعات المراسلات المتعلِّقة بالأعمال الخاصة فى العصور الوسطى. ويحوى هذا الأرشيف واحدًا وستين موضوعًا (مراسلة) تغطى أربعة أجيال من بيت ابن عَوْكَل ما بين عامى ٩٨٠/٣٦٩ و١٠٧٦/٤٦٩. وتختلف مراسلات بيت ابن عَوْكَل فى محتواها ودلالتها عن

---

[٦٨] ابن أيبك: كنز الدرر ٦ : ٣٨٠.

[٦٩] لم يتوصل بعد الباحثون إلى تحديد مؤكد لمعنى لفظ «الكارم» أو «الكارمية» الوارد فى المصادر العربية وأوراق الجنيزة. (راجع صبحى لبيب: «التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية ٤ (مايو ١٩٥٢) ٦ – ٧، Labib, S. y., EI²., art. Kârimi IV, pp. 666 - 670 وما ذكر من مراجع) ويرى جويتين أن هذه الكلمة غير عربية، وأنه توجد فى لغة التاميل جنوب الهند كلمة «كاريام» وتعنى ضمن ما تحمل من معانى «الأعمال» و «الأشغال»، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسية مع ساحل الهند الشرق هى الأساس أعمالًا تجارية، فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أطلق على مُلّاك السفن والتجار المترددين على هذه البلاد (Goitein, S., D., Studies p. 300). ويرى الشاطر بصيلى رأيًا قريبًا من رأى جويتين، ولكنه يُرْجع الكلمة إلى أصل عربى وأنها تتكون من مقطعين: «كار» و «يم» و «كار» بمعنى الحِرْفَة أو التجارة و «يم» بمعنى المحيط أو البحر البعيد الشواطئ، وسقطت الياء فصارت «كارم» أى «حرفة التجارة فى البحار». (الشاطر بصيلى: «الكارمية»، المجلة التاريخية المصرية ١٣ (١٩٦٧/٢٢٠).

[٧٠] عن الجنيزة انظر اعلاه مقدمة الكتاب.

بقية أوراق الجنيزة ، كما لا تقتصر أهميتها فقط على التاريخ الإسلامى أو التاريخ اليهودى بل تتعداهما إلى التاريخ الاقتصادى عمومًا ، كما يقول ستيلمان Stilmann الذى درس هذه الأوراق . وقد استقرت أسرة ابن عَوْكَل فى الفُسْطاط على الأقل منذ وقت أبى بشر يعقوب والد يوسف ، فكل الرسائل التى كتبت لهما موجهة إلى الفُسْطاط ، ويبدو أن هذه الأسرة فارسية الأصل هاجرت إلى إفريقية فى أواسط القرن الرابع/العاشر وقدمت إلى مصر مع الفاطميين بعد سنة ٣٥٨/٩٦٩ [٧١].

وتمدنا كذلك الأوراق المتعلّقة بالتاجر محروس بن يعقوب ، والتى يرجع أقدمها إلى سنة ٥٢٩/١١٣٤ ، بمعلومات هامة عن التجارة الكارمية وتجارة الهند . وكانت أخت هذا التاجر زوجة لأبى زكرى كوهين وكيل التجار اليهود فى القاهرة [٧٢]. وتظهر أوراق الجنيزة التى تشير إلى هذه التجارة أن التوابل وعلى الأخص الفلفل والزنجبيل والإهليلج والقِرْفَة والقرنفل وكذلك الخُلُنْجان والراوند والأصباغ مثل العَنْدَم أو البقم وصمغ اللُّك قد حلّت محل العطور الثمينة التى كانت السِّلع الرئيسية للتجارة الهندية زمن الخلافة العبّاسية . فالتوابل ، نتيجة لرخص ثمنها ، تُستَهْلَك على نطاق واسع مما يعنى زيادة حجم التجارة [٧٣].

وتثبت أوراق الجنيزة بطريقة مقنعة أن العديد من التجار المنتسبين إلى الطبقة الوسطى كان لهم نشاطٌ فى تجارة الهند . وأن التجار الذين لم يملكوا سوى رؤوس أموال صغيرة شاركوا آخرين ، أى أنهم وَظّفوا بعض الأموال بعقود الضمان [٧٤].

---

٧١ Stilmann , N . A ., " The Eleventh Century Merchant House of Ibn 'Awkal (A Geniza Study) " , JESHO XVI (1973) pp . 16 - 17.

٧٢ Goitein , S .D ., Studies p . 353.

٧٣ Stilmann , N . A ., op , cit ., pp . 18 - 88 , Ashtor , E ., A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages , London - Collins 1976 , pp . 196 - 197.

٧٤ Ashtor , E ., op . cit ., p . 197.

ومعظم أوراق الجنيزة الخاصة بتجارة المحيط الهندى والبحر الأحمر هى خطابات أرسلت من عَدَن أوجَدَّة أو موانئ أخرى فى شبه الجزيرة العربية أو ساحل الهند الغربى إلى مدينة الفُسْطاط بمصر أو العكس ، فقد كانت الفُسْطاط فى هذا الوقت آخر طريق تجارة الهند وتجارة البحر المتوسط ، وأخذت هذه الأوراق طريقها إلى حجرة الجنيزة بطريقة أو بأخرى [٧٥].

وكانت عَدَن وعَيْذاب وقوص والفُسْطاط من أكبر مراكز التجارة الكارمية فى العصور الوسطى ، فكانت المتاجر تأتى من عَدَن إلى عَيْذاب حيث تُحَصَّل فيها المكوس ، وهى الزَّكاة على التجار المسلمين وواجب الذِّمَّة على الذِّميين من رعايا المسلمين [٧٦]، ومن عَيْذاب تحمل القوافل المتاجر عبر الصحراء الشرقية إلى مدينة قوص فى صعيد مصر ثم تحملها المراكب النيلية شمالًا إلى الفُسْطاط .

وقد توصَّل جويتين Goitein من دراسته لنصوص الجِنِيزَة التى ذكرت الكارم فى أيام الفاطميين إلى أن التجار اليهود شاركوا فى تجارة الكارم جنبًا إلى جنب مع التجار المسلمين حيث كان سائدًا قبل ذلك أن هذه التجارة اقتصرت فقط على التجار المسلمين وأن من أراد المشاركة فيها كان عليه اعتناق الإسلام [٧٧]. كذلك تفيدنا هذه النصوص بأن كلمة « الكارم » أصبحت شائعة فى بيوت الفُسْطاط فى القرن السادس/الثانى عشر بحيث أن أى امرأة كان يتوجَّه زوجها إلى الهند كانت تنتظر منه الهدايا « فى الكارم » [٧٨]. وأن هذا المصطلح ورد فى الأوراق التى ترجع إلى العصر الفاطمى بمعنى السِّلع أو البضائع التى اتَّجر فيها أولئك التجار ونسبوا إليها ، ولم تكن كلمة « كارمى » أو « التاجر الكارمى » التى شاعت فى العصر المملوكى معروفة فى زمن

---

[٧٥] حسنين محمد ربيع : « وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى ... » ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ١٩٧٩ ، ٢ : ١٣٤ .

[٧٦] ناصر خسرو : سفرنامة ١١٨ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ٣٢٧ ، وانظر فيما يلى ص .

[٧٧] Goitein , S . D ., op . cit , p . 360 .

[٧٨] Ibid ., p . 358 .

الفاطميين . لذلك فإن هذه الأوراق تستخدم ألفاظًا مثل : « ينفذها فى الكارم » أو « وأما الكارم فقد وصلنى منه كتاب » أو « جميع من خرج من أصحابنا فى الكارم » [٧٩].

ولعل الدليل على عناية الحكومة الفاطمية واهتمامها بأمر « الكارم » هو الإشارة الواضحة التى أوردها القَلْقَشَنْدى – رغم تأخره النسبى – إلى أن الفاطميين كان لهم بعَيْذاب أسطولٌ يُتَلَقّى به الكارم فيما بين عَيْذاب وسَواكن وما حولها ، خوفًا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) يعترضونها ، وكان يتولّى الإشراف عليه والى قوص [٨٠]. وتشير أوراق الجنيزة ، التى ترجع إلى الفترة الفاطمية ، إلى أن حاكم جزيرة دَهْلَك كان يتزعّم حركة القَرْصَنَة فى جنوب البحر الأحمر . ففى خطاب مُطَوّل للتاجر العَدَنى الشهير يوسف بن أبراهام ، كتب فى الثلاثينات أو الأربعينات من القرن السادس/الثانى عشر ، نجده يعرب عن أسفه من أن المرسل إليه أبى عمران بن نُفَيْع قد احْتُجِز مدة طويلة ولقى مصاعب كثيرة أثناء إقامته فى ميناء دَهْلَك على البحر الأحمر [٨١]. ولا شك أن العامل الأساسى فى نجاح التجارة الكارمية هو الحماية الخاصة التى وفّرتها لها الدولة الفاطمية ، فقد جاء فى أوراق الجنيزة أن مَضْمون – وكيل التجار اليهود فى عدن – عَقَد اتفاقات مع « حُكّام البحار والصحراء » لحماية السفن الخاصة به والقوافل الموكل إليه حمايتها . ومع ذلك ، فإن أوراق الجنيزة تخبرنا بأنه كانت هناك صيحات عالية تطلب دائمًا حماية السلطات الفاطمية وأسطولها الراسى بعَيْذاب . ويرى جويتين Goitein أنه كانت هناك دواعى مالية وراء حماية الأسطول الفاطمى لتجار الكارم ، فقد كان هؤلاء التجار قادرين على الدفع بينما كان على صغار التجار أن يتحمّلوا

---

٧٩ Ibid., pp. 353, 354, 357.

٨٠ القلقشندى : صبح ٣ : ٥١٩ – ٥٢٠ ، وانظر محاولة لنهب ثغر عيذاب سنة ١١١٨/٥١٢ من أمير مكة وردّ فعل الوزير الأفضل عليها عند النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٨٢ ، الفاسى : العقد الثمين ٧ : ٢٩ .

٨١ Goitein S.D., op, cit. p, 356.

تقلبات القَرْصَنَة التى كانت تشكل آنذاك خطرًا فعليًا فى جنوب البحر الأحمر [٨٢].

ووُجِدَ فى أوراق الجنيزة كذلك « التماس » Petition مرفوع إلى الخليفة الآمر بأحكام الله من التاجر اليهودى موسى بن صَدَقَة يشكوا فيه أنه أثبت فى مجلس القاضى جلال الملك تاج الأحكام [أبى الحجاج يوسف بن أيوب المتوفى سنة ٥٢١/١١٢٧] أنه وصل من الهند واليمن بتجارة وقِراض [٨٣] معه وأنه أعيق بشبهة لم تثبت ويلتمس من الإمام أن يخرج توقيعه إلى القاضى حتى يرد إليه حقه [٨٤].

---

٨٢ Ibid., pp. 359 - 360.

٨٣ عن القراض ، وهو اتفاق بين أصحاب المال وأحد الوكلاء على المتاجرة لهم فى أموالهم مقابل نسبة من الربح ، انظر Udovitch, A. L. EI. art. Kirad V, pp. 132 - 133.

٨٤ Stern, S. M, "Three Petitons of the Fatimid Period" Oriens 15 (1962), p. 179.

الطّوائِف الحِرَفيّة

بدأت الإشارة إلى ما يمكن أن نسميه تَكَتُّل بين التجار وأصحاب الحِرَف ، كما يقول لويس Lewis فى القرن الثالث/التاسع . ولكن هذه التجمعات لم تكن قد وصلت بعد إلى ما يمكن أن نعتبره نموذجًا للطوائف الإسلامية ، وإنما هى مجرد تنظيم عام وضبط للأسواق والحِرَف [٨٥].

ويرى ماسينيون Massignon أن الحركة الإسماعيلية – التى أرادت أن تجمع كل العالم الإسلامى تحت شعار العدالة الاجتماعية – هى التى أوجدت فى القرن الرابع/العاشر الطّوائف الإسلامية وأعطتها ميزتها الخاصة [٨٦]. فقد خَصَّصَت « رسائل إخوان الصَّفا » – وهى مجموعة رسائل فلسفية يُظَن أن مؤلفيها من دعاة الإسماعيلية – فصلًا كاملًا للنظر فى الحِرَف اليدوية وتبويبها وتصنيفها ، وتشير هذه الرسائل كذلك إلى نُظُم تشكيل الجمعيات ونعلم منها بوجود جمعيات لإخوان الصَّفا منتشرة فى العالم الإسلامى لبَثّ أرائها بين كل طبقات الشعب وخاصة بين الصُّنّاع وأصحاب الحِرَف [٨٨]. وليتوصَّل الإسماعيليون إلى استقلال أصحاب الحِرَف أوجدوا الطوائف وسيطروا عليها ، وأصبح لهذه الطوائف خاصيتان : كونها أصنافًا للحِرَف ، وكونها مؤسَّسات أخوية إسماعيلية [٨٩]. ومع ذلك فنستطيع القول بأنه لم يوجد بعد برهان واضح يؤكد أن الحركة الإسماعيلية أوجدت الطوائف أو الأصناف [٩٠].

---

[٨٥] لويس ، ب : « النقابات الإسلامية » ترجمة عبد العزيز الدورى ، مجلة الرسالة ٨ (١٩٤٠) ٦٩٦ .

[٨٦] Massignon , L ., EI[1] ., art . Sinf IV , p . 455 .

[٨٧] عن إخوان الصفا انظر مقال - Marquet , Y ., EI² ., art . Ikhwàn al -Safà II , pp . 1098 - 1103 .

[٨٨] رسائل إخوان الصفا ، القاهرة ١٩٢٨ ، ١ : ١١٣ – ١١٥ .

[٨٩] لويس ، ب . : المرجع السابق ٧٣٥ .

[٩٠] Cahen , Cl ., " Y'a - t -'il eu des Corporations professionnelles dans le monde

.ويرى ماسينيون كذلك أن المدينة الإسلامية بنيت فى الأساس على فكرة « السوق » التى أدّت إلى نشؤ ما يمكن أن نُطْلق عليه « الطوائف المهنية » [٩١]. ويضيف جويتين Goitein أن « السوق » هو الشيء الجديد حقًا فى مدينة الشرق الأدنى العصور الوسطى ، فهو فى رأيه ظاهرة جديدة تمامًا وفريدة من الناحية الطبوغرافية والناحية الاقتصادية الاجتماعية [٩٢].

ولعل الذى دفع ماسينيون إلى تبنى فكرة أن الحركة الإسماعيلية هى التى أوجدت الطوائف أو الأصناف ، هو موقف الريبة والاحتقار للعمل اليدوى الذى أظهره فقهاء السُّنة بحيث أصبحت التجمعات الحرفية خاضعة لقيود عديدة ومحرومة فى ظل الحكومات السنية من حقوق قانونية . بينما اتَّخذ الإسماعيليون موقفًا مؤيدًا للمِهن وتمتَّعت التجمعات المهنية فى ظل الحكم الفاطمى برخاء عظيم واعْتُرف بها من قِبَل الدولة وتمتعت بامتيازات كبرى ، كما لعبت دورًا كبيرًا فى النشاط التجارى والصناعى الذى تَميَّز به العصر الفاطمى [٩٣].

وساعدت روح التسامح التى سادت طوال أغلب فترات العصر الفاطمى على انخراط أفراد من أديان مختلفة فى الطوائف ، حيث كان المسلمون والمسيحيون واليهود يُقْبلون بنفس الشروط فيها ، حتى أن بعض هذه الطوائف غلب عليها غير المسلمين كطوائف الأطباء والمتعاملين بالمعادن الثمينة [٩٤].

و « الطوائف الحرفية » هى تجمعات تضم كل رؤساء حِرْفَة معينة ، وتنظم

= musulman classique ", dans Hourani & Stern , the Islamic City , oxford 1970 , p . 56 .

[٩١] Massignon , L . , Opera Minora , Beirut 1963 , I , p . 370 .

[٩٢] Goitein , S . D . , A Med . Soc . IV p . 3 .

[٩٣] لويس ، ب . : المرجع السابق ٧٣٥ .

[٩٤] نفسه ٧٣٦ .

طريقة ممارستهم لها ، وتتولّى الإشراف على بعض أنشطة المنتمين إليها وخاصة فى مجالى الدين والتضامن الاجتماعى [٩٥].

ولا شك أنه كان يوجد فى الفُسْطاط – عاصمة مصر الاقتصادية زمن الفاطميين – شكل للتنظيم الحِرَفى ، فقد ورد بها تقسيم طبوغرافى للمِهَن والأسواق [٩٦]، خاصة وقد ورد فى بردية ترجع إلى أوائل القرن الثالث/التاسع قائمة بأسماء الصّناعات المتعلقة بحرفة معينة ، تحوى : القطّاعين والمقشرين والدباغين والبقالين والنحاسين والحجارين والطباخين [٩٧]، وكانت هناك كذلك أعرافٌ يجب احترامها وأيضًا قواعد تُتَّبع عند قبول أفراد جدد فى الطائفة أو عند تدريب المبتدئين فى الصَّنْعة .

وقد حفظ لنا المقريزى – رغم تأخره النسبى – نصًّا هامًّا عن تنظيم الأسواق فى مصر الفُسْطاط زمن الفاطميين ، يقول فى معرض حديثه عن أزمة سنة ١٠٥٢/٤٤٤ : « وكان فى كل سوق من أسواق مصر (الفُسْطاط) على أرباب كل صَنْعة من الصّنائع « عريف » (جـ . عرفاء) يتولّى أمرهم » [٩٨] وقد سمّىَ ابن الطُّوَيْر هؤلاء العرفاء « عُرَفاء الأسواق ، وأرباب المعايش » [٩٩]. وكان انتخاب هؤلاء العُرفاء أو اختيارهم يتم بموافقة المُحْتَسب ، ممثل الحكومة المسئول عن الإشراف على الأسواق لمراجعة الأسعار والمكاييل والأوزان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والذى يمكن أن نعتبره الموظف البَلَدى الوحيد فى المدينة الإسلامية . ولكن كتب الحِسْبَة والمصادر التاريخية تُظْهر « العَريف »

---

٩٥ Cahen , Cl ., op . cit ., p . 53 .

٩٦ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٤ : ٣٢ – ٣٤ ، ٣٧ – ٤٠ .

٩٧ جروهمان ، أ : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن وراجعه عبد الحميد حسن ، القاهرة – دار الكتب المصرية ١٩٥٥ ، ٣ : ٢٣٢ – ٢٣٤ بردية رقم ٢١٤ .

٩٨ المقريزى : إغاثة الأمة ١٨ – ١٩ ، المقفى (مخ . السليمية) ٣٦٢ ظ ، اتعاظ ٢ : ٢٢٤ .

٩٩ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٤ – ٢٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤ .

كوكيل أو ممثل للمُحْتَسب لدى الطوائف والمِهَن أكثر من كونه شخصًا مختارًا من أصحاب المِهَن ليدافع عن مصالحهم لدى السُّلْطَة [١٠٠]. وكثيرًا ما كان الوالى يلجأ إلى « العُرَفاء » لمعاونته فى فرض الأمن والتعرف على مَنْ من شأنهم تكديره [١٠١]. ولا شك أن كل طائفة مهنية فى مصر الفاطمية كان لها « عَريف » ، فابن المأمون يحدثنا فى أحد نصوصه عن « عُرَفاء السَّقّائين » [١٠٢]، ويذكر نص المقريزى – السابق ذكره – « عَرِيف الخَبّازين » [١٠٣]، كما أن سائر الطوائف كان لهم عُرَفاء مثل « عرفاء العبيد » الذين يحدثنا عنهم المُسَبِّحى [١٠٤].

---

[١٠٠] أيمن فؤاد سيد : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها زمن الفاطميين » ، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ١٢ – ١٣ .

[١٠١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤ .

[١٠٢] ابن المأمون : أخبار ٦٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٦٣ ، اتعاظ ٣ : ١٠٠ .

[١٠٣] المقريزى : إغاثة ١٨ وعن العريف راجع ، S. Ah. El-Ali & Cahen, Cl., EI², art. arif. I, pp. 649 - 651.

[١٠٤] المسبحى : أخبار ٨٩ .

الدينـــار الفاطمـــى

يذكر ابن أبى طىّ أن المُعِزّ لما خرج من بلاد المغرب كان معه خمسمائة جمل محمّلة بالذهب الذى جمعه الفاطميون طوال الستين عامًا التى أمضوها هناك وأمر بسبكه على هيئة أرحية الطواحين [١٠٥]. وهو أمر غير مستبعد فى ضوء ما نعرفه عن سيطرة الفاطميين على كل الطرق التجارية المؤدية إلى غانا التى كانوا يجلبون منها الذهب بعد قضائهم على إمارة تاهرت واحتلالهم لسِجِلْماسَة [١٠٦]. وقد فَقَد الفاطميون هذا المصدر الهام بعد انتقالهم إلى مصر وإن استعاضوا عنه بما كانوا يحصلون عليه من منجم وادى العَلاقى جنوب مصر ومن مقابر الفراعنة، حيث أشرف عمال الخليفة بأنفسهم على عملية استخراج الذهب من هناك [١٠٧]. كذلك فقد تمكن الفاطميون من مناجم الشام بعد فتحهم لها وإن كانوا قد فقدوها تباعًا بعد استيلاء السّلاجِقة ثم الصليبيين على ممتلكاتهم هناك [١٠٨].

وبدأ الفاطميون إصلاحاتهم الاقتصادية فى مصر برفع قيمة الدينار إلى ما كانت عليه العملة الفاطمية فى إفريقية بحيث تراوح وزنه بين ٤ جرام و ٤,٠٦ جرام [١٠٩]. ورغم أن الأزمة الاقتصادية التى شهدتها مصر فى أواسط القرن الخامس/الحادى عشر قد أدّت إلى تخفيض قيمة العُمْلَة إلّا أنها سرعان

---

[١٠٥] المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٢ .

[١٠٦] Lombard, M., " L'or musulman du VII° au XI° siècle ", Annales ESC II (1947), p. 152، وانظر إبراهيم على طرخان : « غانة فى العصور الوسطى »، المجلة التاريخية المصرية ١٣ (١٩٦٧) ٦١ – ٦٤ .

[١٠٧] المقريزى : الخطط ١ : ١٩٧ س ٢٣ ، Lombard, M., op. cit., pp. 150-51 .

[١٠٨] Ehrenkreutz, S. A., "The Fiscal Administration of Egypt in the Middle Ages", BSOAS XVI (1954), p. 507 .

[١٠٩] ابن المأمون : أخبار مصر ٣٨ ، ابن ميسر : أخبار ٩٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٥ ، اتعاظ ٣ : ٩٢ .

ما استعادت مكانتها فى عصر الخليفة الآمر بأحكام الله حيث ارتفعت درجة نقاوة الدينار مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل ، وذلك بعد أن أنشأ الوزير المأمون البطائحى فى سنة ٥١٦/١١٢٢ أوّل دار ضَرْب بالقاهرة [١١٠]. فتبعًا لابن بَعْرَة بلغ دينار الآمر أقصى درجات النقاوة فى العصور الوسطى بعد أن جرت عمليات كميائية بلغت بالذهب حدًا لم يصل إليه أحدٌ قبله [١١١]. وقد أثبت Ehrenkreutz ، بعد دراسة ٤٩ قطعة من الدنانير التى تعود إلى عصر الآمر ، أن خمس عشرة قطعة من بينها (أو ١٥,٩ ٪) تحوى ما لا يقل عن ٩٠ ٪ من الذهب ، بينما اثنتين وسبعين قطعة (أو ٧٥,٥ ٪) تحوى أكثر من ٩٦٪ من الذهب مما يجعلها دنانير شبه تامة . وجدير بالذكر أنه لم يوجد أى دينار ضرب بعد سنة ٥١٨/١١٢٤ (وهو تاريخ أول دينار ضرب بدار ضرب القاهرة) به نسبة أقل من ٩٠٪ من الذهب [١١٢]. فقد أدّت عمليات الاستكشاف ، التى تُوصِّل إليها فى زمن الآمر ، « إلى أن صار دينار دار الضَّرْب المصرية أعلى عيارًا من جميع ما يضرب بجميع الأمصار » [١١٣] ، حتى أصبح كما أطلق عليه Ehrenkreutz « الدولار الإسلامى فى العصور الوسطى » [١١٤] ، ويعكس مستوى الرخاء الاقتصادى الذى عرفته مصر فى عصر الفاطميين .

---

[١١٠] ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمى – القاهرة ١٩٦٦ ، ٤٩ – ٥٠ .

[١١٢] Ehrenkreutz , A . S . "Arabic Dinars Struck by the Crusaders ", JESHO VII (1964) , pp . 176 - 177 .

[١١٣] ابن المأمون : أخبار ٣٨ ، ابن بعرة : كشف ٥٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٥ .

[١١٤] Ehrenkreutz , A . S ., op . cit ., p . 179 .

الفصل الثاني عشر

النظام الضرائبي للفاطميين

فى تفسيره للتاريخ الإسلامى ذكر عبد الحَىّ شعبان أن نظام الفاطميين الضرائبى ، الذى كان حَجَر الأساس فى نجاحهم وفشلهم معًا ، لم يُناقش أبدًا [١]. ولعل سبب ذلك راجع إلى قِلّة المصادر التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة من هذا النوع ، وإن كان الدكتور راشد البَرّاوى فى كتابه « حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » قد أشار إلى نظام الجباية عند الفاطميين [٢]، كما أن الدكتور حسنين ربيع أشار أيضًا إلى النظام الضرائبى للفاطميين كمدخل لدراسة النظام المالى فى مصر بين سنتى ٥٦٤ – ١١٦٩/٧٤١ – ١٣٤١ [٣].

والواقع فإنه ، بعد أن وصل إلينا كتاب « المِنْهاج فى أحكام خراج مصر » للمَخْزومى ، وما نعرفه من كتاب « قوانين الدواوين » لابن مَمّاتى ، يمكننا أن نُقدِّم عرضًا للنظام الضرائبى للفاطميين ، وذلك بمقارنة معطياتهما مع الجزء الثامن من « نهاية الأرب » للنويرى والمؤلّفات المتأخّرة مثل « صُبْح الأعْشَى » للقلقشندى الذى اعتمد مطولًا على ابن مَمّاتى ، أو « خِطَط » المقريزى الذى يتابع كذلك ابن مَمّاتى ولكن مع الأخذ من مؤلّفين آخرين من بينهم المخزومى ، وكذلك كتاب « روضة الأديب » لمحمد بن إبراهيم بن ظهير الحنفى الحموى :

---

[١] Shaban , A ., op . cit. p . 186 .

[٢] البراوى : حالة مصر الاقتصادية ٣٢١ – ٣٥٣ .

[٣] Rabie , H ., " The Financial System of Egypt " , London 1972 .

وهاذان هما المؤلِّفان الوحيدان اللذان عرفا كتاب المَخْزومى ويتيحان لنا من بعض النواحى استكمال نقص مخطوط المِنْهاج [٤].

وترجع قيمة كتاب « المِنْهاج » للمَخْزومى إلى أن مؤلِّفه تَولَّى أكثر من مرة ، فى زمن الفاطميين والأيوبيين ، ديوان المَجْلس [٥] (وهو ديوان لم يختف فورًا فى زمن صلاح الدين ولكنه اختفى دون شك فى زمن الأيوبيين) [٦] ، واكتسب المَخْزومى نتيجة لذلك خبرة عملية بالعلميات المتعلِّقة بجباية المكوس وعلى الأخص فى ثغر الإسكندرية وكذلك جباية الجِزْية التى كان يدفعها الذِّمّيون [٧].

وتبعًا للبروفيسير كاهن فقد كان هناك تأليفان لكتاب « المِنْهاج » تأليف أوَّل فى آخر عصر الفاطميين نحو سنة ١١٦٩/٥٦٥ والنظام الفاطمى ما زال سائدًا ، ثم أضاف إليه إضافات ومراجعات فى سنة ١١٨٥/٥٨١ أو بعد ذلك بقليل بعد أن مضى وقت طويل على النظام الأيوبى ودخلت العديد من التحسينات عليه [٨]. ولا شك فى أن كتاب « المِنْهاج » يعد مصدرًا لا نظير له عن النواحى الإدارية ونظام الزراعة والنظام المالى فى مصر فى القرن السادس/الثانى عشر ، ويتيح لنا أن نُحدِّد وأن نُكْمل أو نراجع ، من بعض النواحى ، معارفنا عن نظام الضرائب فى مصر قبل العصر الأيوبى .

الضَّرائِب

لن نعرض هنا للتباين بين أراء الفقهاء فى موضوع الضَّرائب والتنظيمات العملية للضرائب . فالضَّرائب الأصلية أو الضَّرائب الشرعية التى تستقى منها

---

[٤] Cahen , Cl . , " Makhzûmiyyat " p . 7 .

[٥] المخزومى : المنهاج – خ ٤٦ و .

[٦] النابلسى : لمع القوانين المضية ٣٦ .

[٧] Cahen Cl . , op . cit . , p . 4 .

[٨] Ibid . , p . 3 ، المخزومى : المنهاج – خ ٣٨ و ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٧٦ – ٢٧٧ .

الدولة مواردها فى نظر الفقهاء هى : الفَيْء ، وهو ما يؤخذ من المشركين دون قتال ويشتمل على : الخَراج والجِزْيَة والضرائب المفروضة على تجار أهل الذِّمَّة وعلى التجار المشركين القادمين من خارج دار الإسلام . والخُمْس على ما يُسْتَخْرج من المعادن والرِّكاز والغنائم وخُمْس سيب البحر مما يقذف به البحر ويستخرج منه . والزَّكاة أو الصَّدَقَة وتجبى على : المواشى والزروع والثمار والذهب والفضة وعلى بضاعة التجار المسلمين [9].

أما ماعدا ذلك من ضرائب فيعد ضرائب فرعية فرضت لتعويض احتياجات بيت المال وترتبط عادة بأوْساط التجار ويُطْلَق عليها « المُكُوس » وهى بنظر الفقهاء ضرائب غير شرعية .

المَوارِد الشَرْعية

قَسَّمَ المَخْزومى موارد بيت المال إلى ثلاثة أقسام : « المال الخراجى » ، وهو ما يُسْتَأدى مُسانَهَةً مما هو مفرد على الأراضى المرصدة للزراعة والنخل والبساتين والكروم ، وينقسم إلى نوعين : « خراجى الزراعة » وأوَّل عامه توت وآخره مَسَرّى ، و « خراجى البساتين » وهو ما يُرْوى بالسواقى وما يجرى مجراها وأوَّل عامه أمشير وآخره طوبة . « وحساب ذلك ينظم للسنة الخراجية الواقع عليها من الاسم ما وافق زمانها من سنى الهجرة » [10].

و « المال الهلالى » ، وهو ما تُسْتَأدى أموره مُشاهَرَة وتنقسم أُصوله على أربعة أقسام : « الجوالى » (الجِزْية) وتنظيم حسباناتها على أساس استخراجها ابتداء من المحرم من السنة الهلالية . و « الزَّكاة » ، وإن كانت سنتها هلالية إثنى عشر شهرًا ، فإنها تختلف باختلاف ابتداء ملك صاحب المال .

---

[9] متز : الحضارة الإسلامية ١٩٤ ، ٢١٠ ، الدورى ، عبد العزيز : تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، بيروت – دار المشرق ١٩٧٤ ، ١٨٧ – ١٨٢ .

[10] المخزومى : المنهاج ٣٤ وقارن النويرى : نهاية ٨ : ٢٤٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٠٣ .

و « الرِّباع » ومثلها أجر الأملاك المسقفة من الأدر والحوانيت والحمامات والأفران وأرحية الطواحين الدائرة بالعوامل وسنتها هلالية وابتداؤها من استقبال إسكانها واستخراجها مشاهرة . و « ما يستأدى من تُجّار الروم » وغيرهم وفيه حكمان : من ورد فى البر وينظم حسابه لمدة أولها المحرم وآخرها ذو الحجة ، وأما من يرد فى البحر الملح فيستحسن لنظم حسابه « أن يكون لحَوْل أوّله من الشهور العربية ما وافق افتتاح البحر من شهور القبط »[11] .

و « ماله عام مفرد يخالف شهور الهلالى والخراجى » وهى ثلاثة أنواع : المراكب النيلية وأبقار الجاموس وأبقار الخَيْس . وشهور سنة ذلك ثلاثة عشر شهرًا ، ولكل نوع منها حساب مستقل[12] .

المَوارِد غير الشّرْعية

يقول المقريزى إن أوّل من أحدث مالًا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد بن مُدبِّر لما ولى الخراج بمصر سنة ٨٦٤/٢٥٠ فحجر على « النَّطْرون »[13] بعد أن كان مباحًا لجميع الناس ، وقرّر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالًا سمّاه « المَراعى » كما قَرّر على ما يخرج من البحر مالًا سمّاه « المَصائد » ، وقد عرفت هذه الضّرائب التى استحدثها ابن المُدَبِّر بـ « المَرافِق والمَعاوِن »[14] ، وعندما تولّى أحمد بن طولون إمرة مصر أسْقَط هذه الضّرائب وكانت تبلغ مائة ألف دينار فى كل سنة[15] .

ولما وصل الفاطميون إلى السلطة أرادوا أن يستغلوا إمكانيات مصر الزّراعية والصّناعية إلى أقصى درجة ، وأن يأخذوا منها أقصى ما يمكن من عائدات

[11] نفسه ٣٤ وقارن نفسه ٨ : ٢٢٨ ، ١ : ١٠٧ .
[12] نفسه ٣٤ .
[13] انظر فيمايلى ص .
[14] المقريزى : الخطط ١ : ١٠٣ – ١٠٤ .
[15] البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، دمشق ١٣٥٨ ، ٧٤ – ٧٦ ، ابن سعيد : المغرب ٨٥ – ٨٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٠٤ ، ٢ : ٢٦٦ – ٢٦٧ .

مالية تلبى احتياجاتهم الخاصة ، مثلما كانوا يقومون بالجباية فى شمال إفريقية [١٦]، فأعادوا « الأموال الهلالية » وصارت تعرف بـ « المكوس » – وهو الاسم الذى يطلق على الضَّرائب غير الشَّرعْية – وقد لجأ الفاطميون إلى ذلك لمواجهة النفقات الباهظة لبلاطهم الفخم واحتفالاتهم الباذخة .

وحينما أراد الخليفة الحاكم أن يرجع إلى أصول الإسلام الأولى فى المرحلة التى أطلقنا عليها « تَصَوّف الحاكم » ، أسْقَط جميع الرُّسوم والمكوس التى جرت العادة بأخذها ، وأقطع ووهب جل الضِّياع والأعمال والعقارات والأملاك السلطانية [١٧]، فلما استولت أخته سيدة الملك على مقاليد الأمور بعد اختفائه ، قبضت على جميع الإقطاعات التى أقطعها وأعادت المكوس إلى ما كانت عليه قبل تسامح الحاكم بها [١٨]. ويبدو أن الدولة كانت تلجأ إلى إلغاء المكوس أثناء الأزمات الاقتصادية تيسيرًا على الناس ، فيذكر المُسَبِّحى أن دَوّاس بن يعقوب الكتامى متولى الحِسْبَة قرأ سجلًا فى شوارع مصر الفُسْطاط أثناء أزمة الحِنْطَة التى مَرَّت بها مصر عام ١٠٢٤/٤١٥ – ١٠٢٥ ، بحطيطة جميع المكوس عن سائر أصناف الغلّات الواردة إلى سواحل مصر الفُسْطاط ، مما أدَّى إلى توافر الأخباز فى الأسواق وانخفاض سعر الدقيق [١٩].

وقد عَدَّد المقريزى ثمانين نوعًا من المكوس التى كانت موجودة فى زمن الفاطميين وأسقطها السلطان صلاح الدين عن مصر والقاهرة ، وقد بلغ عائد هذه المكوس مائة ألف دينار سنويًا [٢٠]وأضاف ابن أبى طىّ – راوى الخبر – أن

---

[١٦] القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٣٣٧ – ٣٣٨ .

[١٧] يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٦ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٢٨٦ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٧٤ ، ٩٢ ، ١٠٢ .

[١٨] نفسه ٢٣٧ .

[١٩] المسبحى : أخبار مصر ٧٥ .

[٢٠] المقريزى : الخطط ١ : ١٠٤ – ١٠٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٦٦ – ٤٦٧ ، وانظر نص سجل إسقاط المكوس وهو مؤرخ فى ٣ صفر سنة ١١٧١/٥٦٧ عند أبى شامة : الروضتين ١ : ٥٢٢ – ٥٢٣ .

الذى أسقطه السلطان صلاح الدين من المكوس والذى سامح به لعدة سنين آخرها سنة ١١٦٨/٥٦٤ مبلغه ألف ألف دينار وألفى ألف أردب ، وكان أشهر هذه المكوس مَكْس البُهار [٢١] . ويفهم مما ذكره المقريزى أنه لم يسلم أى إنتاج أو أية مهنة أو أيه حِرْفَة من دَفْع المكوس . وقد أبدى الرحّالة والجغرافى المَقْدسى ، الذى زار مصر نحو سنة ٩٨٥/٣٧٥ ، استغرابه من ثِقَل المكوس خاصة فى تِنِّيس ودِمْياط وعلى ساحل النيل بالفُسْطاط ، وذكر أن الثياب الشَّطَوية (التى تصنع بمدينة شطا) فرضت عليها مكوس عالية القيمة فى جميع مراحل تصنيعها ونقلها وبيعها [٢٢] . ويذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، الذى زار مصر نحو سنة ١٠٤٨/٤٤٠ ، أن عائد بيت المال من تِنِّيس بلغ يوميًا ألف دينار مغربى [٢٣] .

نظام الضّمان

كانت الحكومات الإسلامية تلجأ فى تحصيل الضّرائب (المكوس) إما إلى الجباية المباشرة بواسطة العامل المختص أو عن طريق الضّمان [٢٤] . والضّمان نظام مالى غير شرعى [٢٥] أشبه بنظام الإلتزام ، يتعّهد بموجبه الضّامن أن يدفع إلى الدولة سنويًا مبلغًا اتفاقيًا عن قيمة الضّرائب أو المكوس المفروضة على الجهة أو العمل الذى تضمّنه مقدّمًا . وعادة ما يكون هذا المبلغ أدنى من العائد الذى سيُحَصِّله الضّامن من هذه الجهة ويحصل على الزيادة لحسابه الشخصى . أما إذا نقص العائد عن المبلغ المتفق عليه – وهو الأمر النادر حدوثه – فيلزم الضّامن

---

[٢١] نفسه ١ : ١٠٥ .

[٢٢] المقدسى : أحسن التقاسيم ٢١٣ ، ناصرخسرو : سفرنامة ٧٧ .

[٢٣] ناصرخسرو : سفرنامة ٧٩ .

[٢٤] Cahen, Cl., EI², art. Bayt al-Mal I, p. 1178.

[٢٥] الماوردى : الأحكام السلطانية ١٦٠ .

بتسديد كل المبلغ [٢٦] إلّا إذا سامحه ولى الأمر فى ذلك ، مثلما حدث مع هبة الله بن عبد المحسن الشّاعر الذى انكسر عليه مالٌ فى ضمانه سنة ١١٣٦/٥٣١ فسامحه الوزير رضوان بن وَلَخْشى مما عليه من الباق [٢٧]. كما أن الوزير المأمون البطائحى أمر فى نهاية عام ١٢٢١/٥١٥ بكتابة سجل يتضمَّن المُسامحة بالبواق إلى آخر سنة عشر وخمسمائة بعد أن انتهى إليه حال المعاملين والضُّمناء والمتصرّفين وما فى جهاتهم من بقايا معاملاتهم واختلال أحوالهم وتجمد البقايا فى جهاتهم . وقد أورد السجل مبلغ ماسومح به من العَيْن والغَلّة [٢٨].

وقد لجأ الفاطميون منذ وصولهم إلى مصر إلى هذا الأسلوب فى تحصيل الأموال ، حيث ضمنوا أموال الدولة كلها . ففى سنة ٩٧٤/٣٦٣ ضمن محمد بن القاضى أبو الطاهر الذُّهْلى الأحْباس بمبلغ ألف ألف وخمسمائة درهم [٢٩]. وبعد وفاة الوزير يعقوب بن كِلِّس ضمن الخليفة العزيز بالله أموال الدولة بجماعة من المستخدمين ، حيث ضمن على بن عمر العدّاس مال الدولة والنفقات سنة ٩٩١/٣٨١ ثم حوسب بعد انقضاء السنة على دخلها وخرجها [٣٠].

ولما علم الوزير المأمون البطائحى ما يُعتمد فى الدواوين من قبول الزيادات وفَسْخ عقود الضّمانات وأخذها ممن تعب فى تحصيلها ونقلها إلى من يَتعهَّد ببذل زيادة فى قيمتها دون جهد مبذول ، أمر بقراءة منشور فى سنة ١١٢٢/٥١٦ بالجامع الأزهر بالقاهرة وجامع عمرو بالفُسْطاط بإنكار ذلك

---

[٢٦] القلقشندى : صبح ٣ : ٤٦٦ ، Cahen , Cl ., op . cit ., I , p. 1179 , Rabie , H ., op . cit ., p . 136 ، الراوى : حالة مصر الاقتصادية ٣٢٢ — ٣٢٣ .

[٢٧] ابن ميسر : أخبار ١٢٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٤ .

[٢٨] ابن المأمون : أخبار ٢٨ — ٢٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٣ ، اتعاظ ٣ : ٨٠ — ٨١ .

[٢٩] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٥ .

[٣٠] ابن الصيرفى : الإشارة ٥٤ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٢٢٩ .

ومنعه وأعفى كافة الضُّمناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرّفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم.[٣١]

ويفهم مما ورد فى هذا المنشور أن من بين الجهات التى كانت تُضَمَّن الأبواب والرِّباع والبساتين والحمّامات والقياسر والمساكن[٣٢].

وكان خازن ديوان الرّسائل (الإنشاء) يتولى عمل أضابير (جـ. إضْبارَة) تتضمن ما يصل من الضمّان إلى الديوان والجهة المرسلة منها لتيسير الرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ذلك[٣٣].

وكانت تولية الدواوين – كما ذكر ابن مَمّاتى – تتم بثلاثة أوجه بالأمان أو ببَذْل أو بضَمان. وفى حالة الضّمان كان إذا تأخّر من مال الضّمان شئ لزم الضّامن القيام به، فإن بقى له فى ذمة المعاملين مالٌ كان للسلطان أن يقبل الحوالة عليهم بعد اعترافهم أو لا يقبل، وله أن يطالبه بما فى ذمته ويعود متولى الديوان بالضّمان بالطلب على من كان الباقى عنده[٣٤].

المـــال الخراجـــى

الخَـــرَاج

كانت الضّريبة الشّرْعية الأساسية هى ضريبة الأراضى الزِّراعية المعروفة بـ « الخَراج »[٣٥]. وكانت تُفرض أصلًا على كل أراضى سكان البلاد الأصليين

---

[٣١] ابن المأمون : أخبار ٢٩ – ٣١ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٣ ، اتعاظ ٣ : ٨١ .

[٣٢] نفسه ٣٠ ، Wiet, G., RCEA VIII p. 219 n°. 3098 ، حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة – دار النهضة العربية ١٩٦٦ ، ٧٢٥ .

[٣٣] ابن الصيرفى : القانون فى ديوان الرسائل ٣٥ – ٣٦ .

[٣٤] ابن مماتى : قوانين الدواوين ٢٩٨ – ٣٠٠ .

[٣٥] عن الإدارة الزراعية فى مصر بصفة عامة راجع دراسة فرانز ميرفى الهامة Frantz-Murphy, The Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans, Suppl. An. Isl. Cahier N° 10, Le Caire IFAO 1986.

غير المسلمين . وقد عرَّفها الماوردى بأنها « حَقٌّ معلوم على مساحة معلومة [٣٦] » . والخَراج اجتهاد من الحاكم بعكس « الجِزْيَة » التى نُصَّ عليها فى القرآن [٣٧] . وعندما خُشِىَ مع الوقت أن يؤدى تَحَوُّل عدد كبير من سكان البلاد الأصليين إلى الإسلام إلى تقليل موارد بيت المال ، فقد رؤى أن لا تتأثر ضريبة الأرض بتغير اعتقاد مالكها ، أى أن دخول الإسلام كان يعفى من الجِزْية ولكنه لا يعفى من الخراج . وبذلك أصبح الخَراج بنظر الفقه الإسلامى إيجارًا دائمًا للأرض لمصلحة الأمة المالك الأعلى لها بوصفها فَيْئٌ [٣٨] ، بينما كان بوجهة نظر السكان المحليين مجرد استمرار لضريبة الأرض الزراعية التى كان معمولًا بها قبل الإسلام [٣٩] ، وعلى خلاف السائد فى بقية العالم الإسلامى لم توجد فى مصر أراضى عُشْرِيَّة بل كانت كلها أرض خراجية .

وكانت هناك مجموعة من الاعتبارات يجب مراعاتها عند تقدير الخَراج أهمها مراعاة نوع الأرض ونوع المزروع وطريقة الرى [٤٠] . ولا يجب الخَراج إلَّا إذا أوفى النيل ستة عشر ذراعًا ، فقد كان أقل حَدّ للرى دون خوف القَحْط إثنا عشر ذراعًا ، كما كان يُخشى من الاستبحار إذا بلغ منسوب النيل ثمانية عشر ذراعًا [٤١] . ومعنى ذلك أن الفيضان المنخفض كان يستحيل معه رَىّ جميع الأراضى مما يؤدى إلى نقص المحصول وعجز الحكومة عن جباية الخَراج ، كما أن الفيضان العالى كان يؤدى إلى إغراق الأراضى وإتلاف الزرع وفى كلا الحالتين يهدد البلاد القَحْط الذى كثيرًا ما صحبه الوباء [٤٢] .

---

[٣٦] الماوردى : الأحكام السلطانية ١٣٧ .

[٣٧] الآية ٢٩ سورة التوبة .

[٣٨] الماوردى : الأحكام ١٢٧ ، ١٣١ – ١٣٢ .

[٣٩] Cahen, Cl., EI², art., "Bayt al-Māl" I, p. 1179.

[٤٠] النويرى : نهاية الأرب ٨ : ٢٤٦ – ٢٤٧ ، الحموى : روضة الأديب ١٠٧٥ .

[٤١] المخزومى : المنهاج – خ ٤٧ ظـ ، ناصرخسرو : سفرنامة ٨٢ ، ابن مماتى : قوانين ٧٦ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٢٩٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٥٨ – ٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم ١ : ٥٤ .

[٤٢] البراوى : حالة مصر الاقتصادية ٦٣ ، وانظر مثالًا لزيادة فيضان النيل وأثره على الزرع فى علم ٤٠٦ ، ٤١٦ (المقريزى : اتعاظ ٢ : ١١٢ ، ١٧٥) .

وعادة ما كانت تبدأ زيادة ماء النيل فى الخامس من بؤونة (يونية) من السنة القبطية ، وينادى بالزيادة فى السابع والعشرين منه ويحسب كل ذراع (فى المقياس) ثمانية وعشرين إصبعًا إلى أن يكمل إثنى عشر ذراعًا فيحسب كل ذراع أربعًا وعشرين إصبعًا ، فإذا وَفَّى ستة عشر ذراعًا كُسِر الخليج ووجب الخراج [٤٣]. وكان الناس إذا توقَّف النيل فى أيام زيادته أو زاد قليلًا يزداد قلقهم ويظنون أن النيل لن يوفى « فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون عن بيعها رجاء أرتفاع السعر ، ويجتهد من عنده مالٌ فى خزن الغَلَّة ، إما لطلب السعر أو لطلب ادخار قوت عياله ، فيحدث بهذا الغلاء » . لذلك رأى الخليفة المُعِزّ لدين الله فى سنة ٩٧٣/٣٦٢ مَنْع النداء بزيادة النيل وأن لا يُكْتَب بذلك إلَّا إليه وإلى القائد جوهر ، ولم يبح النداء إلَّا إذا تمَّ ست عشرة ذراعًا وكُسِر الخليج ، وبذلك منع الناس من تخزين الغلال ورفع الأسعار [٤٤].

نظام القَبالَة

فى نص مجمل أوضح لنا المقريزى نظام « القَبالَة » قائلًا : « كان متولى خراج مصر يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفُسْطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قَبالَة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجلٌ ينادى على البلاد صفقات صفقات وكُتّاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكُوَر والصفقات على من يتقبَّلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبَّلها متقبِّلوها بالأربع سنوات لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك . فإذا

---

[٤٣] المخزومى : المنهاج (Pellat , Ch . Cinq Calendriers Egyptien p . 99) ابن مماتى : قوانين ٢٥٣ (Ibid ., p . 79)، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٨٩ – ٢٩٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٧٢ س ٢٨ – ٢٩ .

[٤٤] المخزومى : المنهاج – خ ٤٧ ظ ، ابن ميسر : أخبار ١٦٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ٦١ ، اتعاظ ١ : ١٣٨ .

انقضى هذا الأمر خرج كل من تَقَبَّل أرضًا وضمنها إلى ناحيته فتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من خراج فى أبانه على أقساط (انظر فيما يلى) وتُحْسب له من مبلغ قَبالَته وضَمانه لتلك الأراضى ما ينفق على عمارة جسورها وسَدّ ترعها وحَفر خلجها بضرابة مقدرة فى ديوان الخراج » [٤٥].

يتَّضح من هذا النص أن نظام تَقَبُّل الأرض عملٌ مالى بحت الغرض منه تسهيل جباية الخَراج (بما أن أرض مصر كانت كلها منذ الفَتحْ أرضًا خراجية) ولا علاقة له بملكية الأرض مطلقًا ، حيث ضمنت الحكومة الفاطمية الخراج وسائر الضَّرائب الأخرى مقابل مبالغ محددة ، واعتبر الفائض بعد ذلك أرباحًا للضامنين ، لذلك فكثيرًا ما حدث فى المصادر خلطٌ بين الضّمان والقَبالَة (انظر أعلاه) . وعادة ما كان يتأَخَّر من مبلغ الخَراج فى كل عام فى جهات الضمّان والمُتَقَبِّلين قسمٌ يقال له « البواق » كانت الولاة تتشدَّد فى طلبه مرة وتُسامح به مرة ، فكثيرًا ما كانت تكتب سِجِلّات « بالمُسامَحَة بالبواقى» يحدد فيها آخر السنة المُسامح بها [٤٦].

وكانت الحكومة تؤجر للفلاحين الأراضى التابعة لبيت المال مقابل إيجار محدود أو تعطيها لهم وفق نظام « المُزارعة » أو « المُقاسَمَة » فى المحصول [٤٧]. أما جباية الخراج طوال العصر الفاطمى فى بقية الأراضى فكانت تتم على أساس « القَبالَة » ، أى التعهد بدفع مبلغ معين عن منطقة محددة . وكانت هذه التلزيمات تجرى بالمزاد وتُعْطى لمن يَتَعهَّد بدفع المبلغ الأكبر [٤٨]. فلم تكن فى

---

[٤٥] المقريزى : الخطط ١ : ٨٢ .

[٤٦] راجع ، ابن الصيرفى : الإشارة ١٠٦ – ١٠٧ ، ابن المأمون : أخبار ٢٨ — ٣١ ، ابن ميسر : أخبار ٥٣ ، عمارة اليمنى : النكت العصرية ٥٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٣ ، ٨٦ ، ٣٨٢ ، الاتعاظ ٢ : ١١٤ ، ٣٢٩ ، ٣ : ٨٠ ، – ٨١ ، ٢٥٣ .

[٤٧] البراوى : المرجع السابق ٥٣ .

[٤٨] المقريزى : الخطط ٢ : ٥ – ٦ .

الدولة الفاطمية لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى الإقطاع الأسيوى الشرقى ، وإنما كانت تُضَمَّن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجهاء بما عليها من الفلاحين الأقْنان ، وأصبح ما يُطْلَق عليه « إقطاع » هو منطقة زراعية مؤجَّرة مقابل مبلغ اتفاق يُطْلَق عليه « قَبالَة » ، ويسمى المزارع المقيم فى البلد « فلاحًا قرارًا » فيصير عبدًا قِنًّا لمن أُقْطِع تلك الناحية . وقد عرف من نسخة المسموح الذى تضمن ترك البواقى فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحى ، أن بلاد مصر فى زمن الفاطميين كانت تُقَبّل بَعْين وغَلّة وأصناف [٤٩].

ويوضح نص المَخْزومى ما جاء فى نسخة المسموح المذكور حيث قسم « القَبالات » إلى نوعين : « القَبالات المقررة الأسعار » وهى التى تعنى عقدًا يتضمن سعرًا ثابتًا غير قابل للمناقشة ، و « قبالات المُناجَزَة » بالعَيْن والحَبّ [٥٠]. وهى تعنى اتفاقًا بالمزايدة ، بحيث أن لفظ « القَبالَة » بإطلاقه يصبح مماثلًا للفظ « المُناجَزَة » [٥١].

ويبدو أنه كان سائدًا فى مصر الفاطمية ثلاثة أنواع من الإقطاع : « إقطاع الاسْتِغْلال» وهو فى حقيقته لا يزيد عن نظام الالتزام ، وفيه تُمْنَح بعض أراضى الدولة إلى الأفراد من الوزراء والأمراء والأجناد ، مقابل أن يدفع المُقْطَع مبلغًا معينًا من المال يذكر فى الأمر الصادر بإقطاعه جهة ما ، وهذا المبلغ ، الذى يُطْلَق عليه الضَّمان ، يقل بطبيعة الحال عما يجبيه المُقْطع من أهل الجهة [٥٢].

---

[٤٩] نفسه ١ : ٨٦ ، اتعاظ ٣ : ٨٠ – ٨١ ، Cahen , Cl ., EI² . art . Kabala IV , pp . 337-338 .

[٥٠] المخزومى : المنهاج ٦٠ .

[٥١] Cahen , Cl , Markhzūmiyyāt p . 42 , Cooper , R . S . "The As essment and Collection of Kharaj Tax in Medieval Egypt ", JAOS 96 (1974) . p . 381 .

[٥٢] البراوى : المرجع السابق ٥٨ .

« إقطاع الارتفاع » وفيه يستفيد المُقْطَع من ارتفاع بعض النواحى عوضًا عن الرَّواتب ، مثلما حَدَث مع الوزير ابن كِلّس حيث جعل له الخليفة العزيز بالله إقطاعًا فى كل سنة بمصر والشام مبلغه مائة ألف دينار [٥٣]. كما أن إقطاع قاضى القضاة مالك بن سعيد كان مبلغه فى السنة خمسة عشر ألف دينار [٥٤]، ويحدثنا المُسَبِّحى كذلك عن إقطاع مماثل لشمس الملك مسعود بن طاهر الوَزّان فى عام ١٠٢٤/٤١٥ [٥٥].

« إقطاع التمليك » وفيه تتنازل الدولة تنازلًا تامًا مُطْلَقًا عن جزء من الأراضى التابعة لها إلى بعض الأفراد . حيث لجأت الدولة الفاطمية فى أوَّل عهدها إلى التصرف فى أراضى الحَوْز (وهى الأراضى التى تعد ملكًا لبيت المال فلا هى خراجية ولا هى عُشْرية ، وهى مامات أربابه بلا وارث وآل إلى بيت المال) مكافأة لأعوانها [٥٦]. ويرى الفقهاء أنه لا يجوز مصادرة إقطاع التمليك حيث يصير المُقْطع بالتمليك كالكًا لرقبتها . غير أن الحكومة الفاطمية كانت فى مصادرتها للإقطاعات لا تُمَيِّز بين إقطاع التمليك وإقطاع الاستغلال [٥٧].

ويلاحظ أن أغلب المُقْطَعين فى آخر وقت الدولة الفاطمية كانوا من الأجناد ، وذلك بعد أن هَزَّت الحوادث العنيفة المجتمع المصرى والحياة الاقتصادية منذ أواخر خلافة المستنصر وانتشر الخراب والفقر فى أنحاء البلاد ، وأصبح العسكريون هم أصحاب الكلمة العليا وتعذر على أفراد الشعب المشاركة فى المزايدات التى كانت تعقد بشأن هذه الإقطاعات [٥٨].

[٥٣] ابن ظافر : أخبار ٣٩ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٤٩ ، ابن الصيرفى : الإشارة ٥٢ ، ابن أيبك : كنز الدرر ٦ : ٢٢٥ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٦ (وفيه أن إقطاعه بلغ ثلاثمائة ألف دينار) .

[٥٤] المقريزى : اتعاظ ٢ : ١٠٧ .

[٥٥] المسبحى : أخبار مصر ٢٩ – ٣٠ .

[٥٦] البراوى : المرجع السابق ٥٤ ، ٥٩ .

[٥٧] نفسه ٥٩ ، الماوردى : الأحكام ١٦٨ – ١٧١ .

[٥٨] ابن ظافر : أخبار ١٠٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٢١٦ .

وقد انتهز الأفراد وكبار الأجناد فرصة الاضطرابات التى حدثت فى أيام المستنصر وزادوا إقطاعاتهم وجاروا على ما فى أيدى صغار المقطعين حتى أن بعض أرباب الأملاك فى الصعيد أضافوا إلى حيازاتهم من أملاك الدواوين أراضى اغتصبوها ومواضع مجاورة لأملاكهم تعلَّوا عليها وخلطوها بها وحازوها . ونتيجة لذلك اقترح القاضى الرَّشيد بن الزُّبير ، الذى أطْلَع الوزير الأفضل شاهنشاه على ذلك أثناء مُشارفته الصَّعيد الأعْلَى ، بإرجاع هذه الأملاك إلى الديوان . غير أن الوزير الأفضل أصدر منشورًا قرئ بالصَّعيد الأعْلَى « بإقرار جميع الأملاك والأرضين والسواقى بأيدى أربابها من غير انتزاع شئ منها ولا ارتجاعه وأن يقرر عليها من الخَراج ما يجب تقريره »[٥٩] وهذا يدل على أن الحكومة الفاطمية – على الأقل فى زمن الأفضل – اعتبرت وضع اليد زمنًا على أملاك الدولة أو على الأراضى غير المملوكة – والتى تعتبر من مال الديوان – مما يُكْسِب واضع اليد حتى امتلاكها .

وفى سنة ٥٠١/١١٠٧ خاطب القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى حَلّ جميع الإقطاعات وإعادة رَوْكها[٦٠] للمحافظة على قيمة العائد والخدمات ، وذلك بعد أن تَضَرَّر كثيرٌ من العَسْكرية والمُقْطَعين من كون إقطاعاتهم قد قلَّ ارتفاعها وساءت أحوالهم لقلة المُتَحَصَّل منها ، وأن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عَبْرتُها[٦١] بحيث صار فى كل ناحية للديوان جملة تجبى بالعَسْف . فحُمِّلَت

---

[٥٩] ابن المأمون : أخبار مصر ٣٢ – ٣٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٥ .

[٦٠] الرَّوْك . كلمة قبطية أصلها (روش) ومعناها الحبل ، ثم استعملت للدلالة على عملية قياس الأراضى الزراعية وحصرها فى سجلات وتثمينها على أن يتم ذلك مرة كل ثلاث وثلاثين عامًا ، وذلك لتقدير خصوبة تربتها لربط خراج مناسب عليها ثم إعادة إقطاعها . (طرخان . النظم الإقطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ابن المأمون : أخبار ١٠ هـ٢) وهى تعنى فى الوقت الحاضر : فك الزمام أو تعديل الضرائب العقارية .

[٦١] العَبْرَة : هى مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأراضى ، وما يتحصَّل من كل قرية من عَيْن وغَلَّة وصنف . (المقريزى : الخطط ١ : ٨١ ، ٨٧ ، Cahen, Cl., Markhzûmiyyât, pp. 198 - 199).

الإقطاعات كلها على أملاك البلاد ودعى الأمراء والأجناد والطوائف للمزايدة عليها فى دار الوزارة ، ووعدهم الأفضل بترك أملاكهم التى لهم فيها يتصرفون فيها بالبيع أو الإيجار ، ثم حَلّ جميع الإقطاعات ووقعت المزايدة عليها ، وتَمَيّز لكل منهم إقطاع وكتب لهم السِّجلّات بأنها باقية فى أيديهم لمدة ثلاثين عامًا ما يقبل منهم فيها زائد ، وحصلت بذلك للديوان بلادٌ مُقَوَّرَة [٦٢] بما كان مُفَرَّقًا فى الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار [٦٣].



ولما كان التفاوت بين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يومًا تقريبًا ، وكانت كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية تعادل اثنين وثلاثين سنة شمسية ، فقد كان « التوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية » أمرًا ضروريًا لأن استحقاق الخراج وجبايته منوطان بالزروع والثمار وهى مرتبطة بالشهور والسنين الشمسية وما يقابلها من التقويم القبطى [٦٤]. ونتيجة للأزمة التى اجتاحت مصر فى أواسط القرن الخامس/الحادى عشر أُغْفِل نَقْلُ السنين فى الديار المصرية ، يقول المَخْزومى : « ... حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربعمائة للهلال تجرى مع سنة سبع وتسعين الخراجية ، فنُقِلَت سنة سبع وتسعين الخراجية إلى سنة إحدى وخمسمائة . هكذا رأيت فى تعليقات أبى رحمه الله » [٦٥]. ويضيف ابن المأمون فى حوادث سنة ٥٠١/١١٠٧ أنه قد

---

[٦٢] البلاد المُقَوَّرَة . الأماكن والأراضى المتسعة التى لا نبات فيها . (طرخان : المرجع السابق ٥٠٥) ، وفى نهاية الأرب والاتعاظ : ضياع مفردة .

[٦٣] ابن المأمون : أخبار ٩ — ١٠ ، النويرى : نهاية — خ ٢٦ : ٨١ — ٨٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٣ ، اتعاظ ٣ : ٤٠ ، Cahen, Cl., EI²., art. Iktâ' III, p. 1116.

[٦٤] ابن مماتى : قوانين ٣٥٨ — ٣٥٩ ، القلقشندى : صبح ١٣ : ٥٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٧٥ .

[٦٥] المخزومى : المنهاج — خ ورقة ٣٨ و ، القلقشندى : صبح ١٣ : ٦٠ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٧٦ .

حصل بين السنة الشمسية والعربية تفاوت أربع سنين ، ففاتح القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك الوزير الأفضل فى ذلك (وهو نفس العام الذى تم فيه الرُّوْك الأفضلى) فأمر ابن الصَّيْرَفى ، كاتب الإنشاء بإنشاء سِجِلّ « بنقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى سنة إحدى وخمسمائة لتكون موافقة لها ... ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية إلى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ... وكتب فى محرم سنة إحدى وخمسمائة »[٦٦].

وقد ظل نظام القَبالة سائدًا حتى قدوم الجيش الكردى التركى المصاحب لشيركوه وصلاح الدين والذى اعتاد أفراده على الأنظمة المتوارثة عن السَّلاجِقَة ، فأدخل الأيوبيون تغييرًا جذريًا على النظام السابق مستمدًا فى غالبه من الإقطاع الشرقى وإن ارتبط بخصوصية نظام الزراعة فى مصر . وزالت القَبالَة سريعًا أمام نمو الشكل الجديد للإقطاع الأيوبى[٦٧].

جباية الخراج

كان ينظم عمل جباية خراج أراضى مصر المزروعة « أدِلّاء » (جـ . دليل) يقومون بإعداد ما يعرف بـ « سِجِلّات التحضير » يسجلون فيها البقاع التى فى النوحى برسم الزرع بأسمائها وعدد فدنها ونوعها (ما يروى منها ، والباق ، والبروبية ، والوسخ المزدرع ، والوسخ الغالب ، والشراق) ويعين تحت كل باب عدد فدنه[٦٨].

---

[٦٦] ابن المأمون : أخبار ٣ – ٨ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٨٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٧٩ – ٢٨١ ، اتعاظ ٣ : ٤٠ .

[٦٧] Cahen, Cl., EI², art. Iktâ' III, p. 1116; id. EI², art Kabâla IV, pp. 337-38.
وعن الإقطاع بعد العصر الفاطمى انظر Rabie, H. op. cit., pp. 26-72 ، طرخان : المرجع السابق ١٧ – ٥٨ .

[٦٨] المخزومى : المنهاج ٥٨ – ٥٩ ، ابن مماتى : قوانين ٣٠٥ .

و « السِّجِلّات » هى الأساس الذى يتم على أساسه جمع الخراج ، بعد تحضير الأراضى وتسجيلها استنادًا على « قوانين الزراعة » المشتملة على ذكر البقاع [٦٩]. وإذا تكاملت الزراعة (أى بعد مرور أربعة أشهر من السنة الخراجية [٧٠]) يُنْدَب من الديوان المُسّاح لمساحة الأراضى ومعهم شهود لمساحة الأرض ، فيخرج المشارف والعامل والماسح والشاهد والأدلاء ووجوه المزارعين والقصّابون ، فيبتدؤن بالمساحة ويثبتون عدة الأقصاب إلى أن تمسح الأرض كلها ويثبتها الماسح من إملاء القصّاب من مشاهدته ، ويعمل بها كل يوم « قُنْداق » يقدم وصفًا مساحيًا للزراعات المنفذة أولًا ضَيْعَة ضَيْعَة ثم باسم كل مزارع على حروف المعجم [٧١]، ويرفع « القُنْداق » إلى الديوان ، ثم تعمل بعد ذلك « المُكَلَّفَة » (جـ . مُكَلَّفات) التى تُوَضّح لكل مزارع ما يجب عليه من خراج [٧٢].

ويتم تقدير خراج الأرض حسب نوعها وهى : القَبالَة والمناجَزَة والمُفادَنَة . وقد تحدثنا فيما سبق عن القَبالَة ، أما المُفادنة فهى عملية مساحية تعنى تقدير خراج الأراضى غير المزروعة بساتين ، ونموذج ذلك أراضى الحَبْس الجيوشى الذى كان يسجل جمعيه للمزراعين « مُفادَنة » بالعَيْن ، وذلك بمبلغ محدد (قطيعة) عن وحدة الفدان [٧٣]. أما نظام القَبالَة/المناجزة فيطبق على الأخص على الزراعات التى تشغل مساحات كبيرة دون أن تحصل عائدًا مرتفعًا بعكس زراعة المُفادَنة [٧٤].

---

[٦٩] نفسه ٥٩ ، Cooper , R . S ., op . cit ., p . 378 .

[٧٠] المقريزى : الخطط ١ : ٨٦ ، ٤٠٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٤ .

[٧١] المخزومى : المنهاج ٥٩ ، ابن مماتى : قوانين ٣٠٥ .

[٧٢] نفسه ٥٩ ، ٦٠ ، Cahen , Cl . Makhzûmiyyât p . 50 , Cooper , R . S ., op . cit., p. 374 .

[٧٣] ابن مماتى : قوانين ٣٣٦ – ٣٣٧ ، Cahen , Cl ., op . cit ., p . 41 .

[٧٤] Cahen , Cl ., op . cit., p . 43 .

وكان الخراج يدفع إما على ثلاث دفعات وفق ما تشهد به « المُكَلَّفات » [٧٥] أو على ثمان دفعات إذا أخذ من واقع « السجلات » ، وكان افتتاح الخراج ومطالبة الزرّاع به يبدأ فى شهر طوبة (يناير) حيث يحاسب المتقبلون على الثمن من السجلات ، ويتم دفع الربع فى أمشير (فبراير) وهكذا [٧٦] .

وكان الذين يتولون استخراج الخراج أفرادٌ غير الذين تولوا مساحة الأرض .

المَـــالُ الهِـــلالى

الجَـــوَالى

« الجالية » (جـ . الجوالى) هى الاسم الشائع فى الاستخدام الإدارى فى مصر لتعريف الضّريبة المفروضة على أهل الذِّمة [٧٧] ، والتى تعرف فى كتب الفِقْه باسم « الجِزْيَة » . [٧٨] . وهى ضريبة موضوعة على الرؤوس على الذِّميين (النَّصارى واليهود) تؤخذ طالما ظلّ الكتابى على عقيدته ، وتسقط بدخوله الإسلام [٧٩] . وكما يذكر ابن مَمّاتى فهى واجبة على أهل الذِّمّة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين [٨٠] . وتبعًا لوثيقة من أوراق الجنيزة ،

---

[٧٥] المقريزى : الخطط ١ : ٨٦ ، ٤٠٥ .

[٧٦] ابن حوقل : صورة الأرض ١٣٦ — ١٣٧ ، المقريزى : الخطط ١ : ٢٧١ .

[٧٧] المخزومى : المنهاج ٣٤ ، ٣٥ ، ابن مماتى : قوانين ٣١٧ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٨ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٠٧ ، Cahen , Cl ., Makhyūmiyyāt p . 26 ; id . EI² ., art . Djawāli II , p . 502 ; id., EI.²., art . Djizya II , pp , 573 - 576 ; Rabie , H ., op . cit ., p . 108 ; Goitein , S . D., A . Med . Soc . II . pp . 380 - 44 .

[٧٨] الماوردى : الأحكام السلطانية ١٢٧ .

[٧٩] نفسه .

[٨٠] ابن مماتى : قوانين ٢١٧ — ٣١٨ ، النويرى نهاية ٨ : ٢٣٦ .

كتبت نحو سنة ١٠٩٥/٤٨٨ ، فإن « الجالية » كانت تجب متى بلغ الصبى سن التاسعة [٨١] !

ويتّفق المَخْزومى وابن مَمّاتى على أن الجِزْيَة فى وقتهما (٥٦٥ – ٥٨٥) كانت ثلاث طبقات : من الغنى أربع دنانير وسدس ، ومن المتوسط ديناران وقيراطان ، ومن الفقير دينار واحد وثلث وربع وحبتان (أى دينار و ٥/٨) [٨٢]. ويؤكّد المَخْزومى أن أكثر أهل الذّمة فى وقته فى الطبقة السُّفْلى والغنى منهم قليل [٨٣]، وانفرد ابن ممّاتى بالقول بأنه كان يضاف إلى كل جزْيَة درهمان وربع عن رسم المُشِدّ والمستخدمين [٨٤].

ولا شك أن الوصف الذى يقدمه لنا كلّ من المَخْزومى وابن مَمّاتى يتعلّق بما كان سائدًا فى العصر الفاطمى واستمر فى صدر العصر الأيوبى . فهذا التقسيم راجع إلى الإجراءات التي اتخذها الوزير السنى رضوان بن وَلَخْشى سنة ١١٣٧/٥٣٢ لمواجهة تسلّط النصارى [٨٥]، حيث ذكر صاحب « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » هذه القيم من بين الإجراءت التى اتخذها ابن وَلَخْشى [٨٦].

ويتطابق ما ذكره المَخْزومى وابن مَمّاتى مع ما كان مطبقًا فى الواقع ، فقد دفع طبيب يهودى – كما جاء فى وثيقة من الجنيزة مؤرّخة فى سنة

---

[٨١] Goitein, S. D. op, cit., II, p. 383.

[٨٢] المخزومى : المنهاج ٣٥ ، ابن مماتى : قوانين ٣١٨ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٨ . ويلاحظ أن أهل الذمة فى مصر فى الفترة الإسلامية المبكرة كانوا يدفعون الجزية بمسئولية تضامنية على أساس متوسط هو ديناران على الرأس ، بينما فى سائر البلاد الأخرى كانت تدفع برسم متناقص تبعًا لحالة كل فرد .

[٨٣] المخزومى : المنهاج ٣٥ ، وهذا دليل على أن الذين تحولوا إلى الإسلام كانوا من الأغنياء بغرض كسب مراكز اجتماعية متميزة فى الدولة الإسلامية .

[٨٤] ابن مماتى : قوانين ٣١٩ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٨ .

[٨٥] انظر أعلاه ص ٢٠٠ ..

[٨٦] ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٣١ .

١١٨٢/٥٧٨ - أربع دنانير وسدس كجالية [٨٧]. ونجد أن تاجرًا من تونس دفع أيضًا ، قبل هذا التاريخ بنحو ١٢٠ عامًا ، فى الفُسْطاط جالية عن حمّال يهودى يعمل فى مركز زراعة الكتان فى بوصير قيمتها مماثلة لما ذكره المَخْزومى وابن مَمّاتى [٨٨]. كذلك فقد ورد فى أوراق فينا ما يفيد أن المدعو أبا إلياس بن مينا دفع فى ١١ رمضان سنة ٥/٤١٦ نوفمبر سنة ١٠٢٥ ما قيمته دينار واحد وثلثين ونصف قيراط كجزية عن عام ١٠٢٤/٤١٥ [٨٩]. وكان على دافع الجزية أن يحمل مخالصة تفيد أنه أدّى ما عليه خاصة إذا كان مسافرًا حتى لا يتعرّض لأى متاعب مع السلطات [٩٠].

وتجب الجِزْيَة بحلول الحَوْل ، أى أنها تُسْتأدى مُسانَهَة بعد انقضاء السنة بالشهور الهلالية [٩١]، وتستخرج عادة فى مصر فى المحرم [٩٢]. وقد اصطلح الكُتّاب فى مصر على إيرادها قلمًا واحدًا مستقلًا بذاته بعد الهلالى وقبل الخراجى ، وكانوا يرون وجوبها مشاهرة حتى يُلْزموا من أسلم أو مات أثناء الحَوْل بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته [٩٣].

وشرح لنا المَخْزومى عمليًا الطريقة التى يجب أن يتبعها المُشارِف [٩٤] والعامل [٩٥] اللذين يتوليان أمر الجَوالى ، إذ يجب عليهما أن يطلبا إلى من

---

[٨٧] Goitein, S. D., op. cit. II, p, 387.

[٨٨] Ibid., p., 387.

[٨٩] Rabie, H., op. cit., p. 109.

[٩٠] Goitein, S. D., Studies in Islamic History p.

[٩١] الماوردى : الأحكام ١٢٦ ، النويرى : نهاية ٨ : ٢٣٩ .

[٩٢] المخزومى : المنهاج ٣٤ ، ابن مماتى : قوانين ٣١٩ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٨ .

[٩٣] المقريزى : الخطط ١ : ١٠٧ .

[٩٤] أورد لنا القلقشندى نسخة سجل بمشارفة الجوالى بالصعيد الأدنى والأشمونين (صبح ١٠ : ٤٦٢ - ٤٦٣) والمشارف لا ينبغى لأحد مستخدميه أن ينفرد عنه بشئ ويكتب خطه على ما يرفع من الحساب ، ويكون الحاصل من المستخرج فى مودعه وتحت حوطته . (ابن مماتى : قوانين ٢٩٨ ، ٣٠٢) .

[٩٥] العامل هو من يتولى عمل الحسابات ورفعها والكتابة على ما يرفع من معاملات بالصحة والموافقة ، وهو الأصل فى الخدمة والمشارف والناظر لضبطه والشد منه . (نفسه ٣٠٣) .

تقدمهما بيانات مُفَصَّلة تتضمَّن عدد من يجب عليهم الجزية وطبقاتهم وأسمائهم كما كانت فى آخر شهر من السنة الهلالية المنصرمة ، وكذلك تعيين الحُشّار [٩٦] الذين تولوا جمعها . كما يجب أن تحتوى هذه البيانات على القيمة الكاملة للمبالغ التى جُبيت بالفعل وكذلك العَبْرَة (أى تقدير ما يجب أن يُدْفَع عادة) مأخوذة من القائمة المحتوية على أسماء من يجب عليهم دفع الجزية . وفى هذه الحالة يستثنى منها من هَلَك أو اهتدى أو بَعُد من الناحية المذكورة وانتقل إلى ناحية أخرى ، ويثبت ذلك فى « محاضر مجلس الحكم » وتستنزل هذه القيمة من الحساب الختامى لكل ناحية . ومن جهة أخرى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار « النَّشْو » الذين بلغوا السن التى يجب عليهم فيها دفع الجزية [٩٧] .

ويتولّى العمل الحقيقى للحصر والجباية « الحاشر جـ . حُشّار » يعاونهم فى ذلك أَدِلّاء (جـ . دليل) موجودين بكل ناحية . ويُدَوِّن الحُشّار أعمالًا تشتمل على عدد وطبقات وأسماء من تجب عليهم الجِزْيَة يعينون فيها « الراتب المستقر » (أى المقيمين بالناحية) « والنَّشْو » (الذين بلغوا من الصبيان) و « والطارئ » (الأجانب الوافدين على الناحية) ويستثنى من هلك أو اهتدى أو بَعُد فى تلك السنة [٩٨] .

ومن ناحية أخرى يُعِدّ « المُشارف » و « العامل » وكذلك « الجَهْبَذ » [٩٩] الذى ينضم إليهما لعمليات الجباية ، « تعليقًا » يشتمل على المبالغ المحصّلة

---

[٩٦] الحاشر جـ . حُشّار . هو الموظف المختص بجمع الجزية من أهل الذمة (نفسه ٣٠٦) . وكان يوجد حاشر لليهود وحاشر للنصارى يعرف أرباب الأسماء الواردة فى الديوان ومن ينضم إليهم ممن يبلغ فى كل عام من الصبيان ويعبر عنهم (بالنَّشْو) ، ومن يقدم إلى الحاضرة من البلاد الخارجة عنها ويعبر عنهم « بالطارئ » ومن يهتدى أو يموت ممن اسمه وارد فى الديوان . (القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٨ ، النويرى : نهاية ٨ : ٢٤٢ – ٢٤٣) .

[٩٧] المخزومى : المنهاج ٣٦ – ٣٧ .

[٩٨] نفسه ٣٧ .

[٩٩] الجَهْبذ جـ . جهابذة . كاتب برسم استخراج المال وقبضه ، وكتب الوصولات به . وعليه عمل المخازيم والرزنمجات والختيمات وتواليها . (ابن مماتى : قوانين ٣٠٤) .

بالفعل لحساب الجوالى فى كل ناحية عن كل يوم متضمنة أسماء دافعى الجزية والسنة المستحقة عنها ، ويعمل الجَهْبذ بها « مَخْزومَة » (جـ . مخازيم ، نوع من الدفاتر يُخْرَق) [١٠٠] يوقع عليها العامل والمشارف ويحتفظ كل منهم بنسخة منها . ويعمل كل عشرة أيام « روزنامج » وصفته مثل صفة « المَخْزومة » إلّا أن جملته تكون فى آخره ، يحتفظ كل من العامل والمشارف بنسخة منه .

وإذا انقضى الشهر ينظم الجهبذ « خَتْمَة » (جـ . خِتَم) تتضمن المستخرج على يده من الأعمال ويعين اسم العمل لشهر كذا وكذا بمشارفة فلان وتولى فلان . وإذا انقضت السنة نَظَم العامل « عملًا » بما اشتمل عليه ارتفاع الجوالى بالأعمال الفلانية لسنة كذا مما اعتمد فى أصوله على ما تضمنته أعمال الحُشّار [١٠١] .

وبذلك فإن « الخَتْمَة » و « العمل » يُحْتَفَظ بهما كوثيقة فى بيت المال باعتبارهما مؤشرًا على ما تغلّه الجوالى عن كل عام .

الزّكـــاة – النَّجْـــوَىٰ

الزّكاة هى الصَّدَقَة التى لا يجب على المسلم فى ماله حقّ سواها . وهى تجب فى الأموال المرصدة للنماء والتى حال عليها الحَوْل . وينقسم هذا المال من وجهة نظر الفقه إلى مال ظاهر يشمل الزروع والثمار والمواشى ، ومال باطن يشمل الذهب والفضة وعروض التجارة . ويختص نظر والى الصَّدقات فقط بزكاة الأموال الظاهرة ، أما زكاة المال الباطن فليس لوالى الصَّدقات نظرٌ فيه وإنما أربابه أحق بزكاته [١٠٢] .

---

[١٠٠] انظر النويرى : نهاية ٨ : ٢٦٠ ، ٢٧٤ .

[١٠١] المخزومى : المنهاج ٣٧ – ٤٢ ، Cahen , Cl ., op . cit ., pp . 26 - 30

[١٠٢] الماوردى : الأحكام السلطانية ٩٨ – ١٠١ .

وحدّد ابن ممّاتى فى جدول جامع ما تجب فيه الزّكاة ومصارفها وما لم تجب فيه [١٠٣]، مع ملاحظة أن مصرف الزكاة منصوص عليه وليس للأئمة اجتهادٌ فيه [١٠٤].

وما يذكره المَخْزومى فى « المِنْهاج » حول حساب الزّكاة يصدق دون شك على فترة حكم صلاح الدين [١٠٥]. فالمقريزى يذكر أن السلطان صلاح الدين أوّل من جبا الزّكاة بمصر [١٠٦]. فقد كان الناس قبل ذلك يدفعون الزّكاة إلى المستفيد منها مباشرة دون وساطة الدولة .

وبدلًا من أن يحرص الفاطميون على تعيين متولى للزكاة فقد كان على الإسماعيليين أن يدفعوا للحكومة الفاطمية ممثلة فى شخص الداعى أو نقبائه ما يُعْرف « بالفِطْرَة » و « النَّجْوى» ومبلغها ثلاثة دراهم وثُلْث فيجتمع من ذلك شئٌ كثير يحمله الداعى إلى الخليفة بيده بنيه وبينه وأمانته فى ذلك مع الله تعالى ، فيفرض له الخليفة منه ما يعنيه لنفسه ولنقبائه [١٠٨]، وقد اتخذ الفاطميون النَّجْوىٰ من قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [الآية ١٢ سورة المجادلة] .يقول الإمام المستنصر فى سِجِلّ مؤرّخ فى العشر الأخر من ذى القعدة سنة ٤٨١/أوائل فبراير سنة ١٠٨٩ « فقد صارت هذه الصَّدقات فرضًا واجبًا على كل مؤمن العمل به ، ومن تركه كمن ترك فرضًا من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد ؛ وليس ما يراه أمير المؤمنين من متابعة أوامره بإخراج الفِطْرة والنَّجاوى احتذاء يحتذيه ، ولا اتساعًا فى بيت ماله يلتمسه ويستدعيه ، ولكن لما كانت من الفروض اللازمة للإمام على المؤمنين وبها قوام دين المؤمن ، تَعيَّن على أمير

---

[١٠٣] ابن مماتى : قوانين الدواوين ٣١٠ – ٣١٦ .

[١٠٤] الآية ٦٠ سورة التوبة ، الماوردى : الأحكام ١٠٧ .

[١٠٥] المخزومى : المنهاج ٤٢ – ٤٣ .

[١٠٦] المقريزى : الخطط ١ : ١٠٨ .

[١٠٧] المقريزى : اتعاظ ٢ : ٥٠ ، ٨٢ ، ٨٥ ؛ ٣ : ٨٥ ، ٨٦ ، ٣٣٧ .

[١٠٨] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٩١ وانظر أعلاه ص .

المؤمنين تَعَهُّد أوليائه بحملها ليُرْفع لهم فى الأعمال الصالحات ويجتنوا بها ثمرة الباقيات »[١٠٩].

الرّبــــاع

الرَّبع (جـ . رباع) هى المساكن المشتركة التى يقطنها أكثر من أسرة فى وقت واحد بعكس الدور (مفردها دار) وهى المساكن التى تسكنها أسرة واحدة من بابها[١١٠].

يقول ناصرخسرو « إن فى القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان ، كلها ملك للسلطان (الخليفة) ، وكثير منها يؤجَّر بعشرة دنانير مغربية فى الشهر ، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين . والأَرْبِطَة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحَصْر وكلها ملك السلطان ، إذ ليس لأحد أن يملك عقارًا أو بيتًا غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه . وسمعت أن للسلطان ثمانية ألف بيت فى القاهرة ومصر وأنه يؤجِّرها ويحصِّل أجرتها كل شهر . يؤجِّرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يُجْبَر شخصٌ على شئ »[١١١]. ويضيف ناصر خسرو أنه حين كان مقيمًا فى مصر أُجِّر منزل مساحته عشرون ذراعًا فى إثنى عشر ذراعًا (نحو ٧٨م ^{٢}) بخمسة عشر دينارًا مغربيًا فى الشهر ، وكان أربعة طوابق ، ثلاثة منها مسكونة والرابع خالى[١١٢].

وقد أوكلت الحكومة الفاطمية أهمية خاصة للإشراف على الرِّباع ، فقد حفظ لنا القلقشندى نص سِجِلّ بحماية الرِّباع صادر إلى من يتولّى « حماية الرِّباع السُّلطانية بالمعزية القاهرة المحروسة » محددًا مهامه « بكشف أحوال هذه

---

[١٠٩] السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٢٣ وانظر أيضًا السجلات رقم ٣٦ ، ٥٧ .

[١١٠] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٩٢ .

[١١١] ناصرخسرو : سفرنامة ٨٩ .

[١١٢] نفسه ٩١ .

الرِّباع كَشْفًا يُعْرف به حالها ... وأن يستخرج مالها من السكان ويستعمل فى استيدائه غاية الاستطاعة والإمكان ... وأن يتعهَّدها بالطواف فيها ويحافظ على حراسة غيرها وتناول أجرها ورَمّ مالعله يُسْتَرم منها ويتشَعَّث ... وحمل مال ارتفاعها إلى بيت المال المعمور بعد ما يُصْرَف فى مصالحها .. »[١١٣].

ويحدِّد هذا النص وكذلك نص ناصرخسرو وجود نوعين من الرِّباع : الرِّباع السلطانية والرِّباع الخاصة التى سمّاها ناصر خسرو « بيوت » وفى وثائق الجنيزة ما يفيد بأن التاجر اللّبَدى أجَّر فى سنة ٤٩٦/١١٠٢ قسمًا من رَبْع (منزل) فى القاهرة مقابل ٣٠٠ دينار فى الشهر وقدمت أسرته لتقيم فيه[١١٤].

ويوضِّح لنا المَخْزومى أن سنة الرِّباع هلالية وابتداؤها من استقبال إسكانها ، واستخراج إيجارها مُشاهَرَة ، وأن الحَوْل الذى ينظم به حساب عملها الجامع من المحرم إلى آخر ذى الحجة[١١٥].

وتبعًا للمَخْزومى فإن « متولّى الرَّبع » يتولى إعداد « جريدة استقرار » تتضمَّن ما استقرت عليه أجرة المسكون منه. وعَبْرَة الحال إلى آخر شهر ذى الحجة وكذلك اسم الوكيل الذى يتولّى الإسكان والخلوة والجباية فى الرَّبْع ، ويُفَصِّل فى هذه الجريدة ما فى الرَّبْع من قاعات وطباق ، ويذكر كذلك حِلْيَة كل منزل منها وما فيه من أخشاب كالأبواب التى يخشى ذهابها وما يجرى مجراها دون السقوف التى يوثق باستقرارها ، مفصلًا كل موضع منها بعَبْرته واسم ساكنه واستقبال إجارته التى عادة ما تكون سنوية ، ولكن يمكن أن تكون كذلك لعدة أيام ، وتجب الإجازة شهريًا ، ولكن تبقى أحياناً بعض البواقى المؤجلة . ويجب على العامل أن يرفع إلى الديوان تعريفًا يوميًا يسمى

---

[١١٣] القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٤٩ – ٤٥٠ .

[١١٤] Goitein, S. D., "From the Mediterranean to India" p. 791.

[١١٥] المخزومى : المنهاج ٣٤ .

« المَخْزومَة » بمايُسْكن من الخال وما يُبْذل من الزيادة فى المسكون ، و « خَتْمَة » يرفعها مشاهرة يوضح فيها ما استخرج خلال الشهر ، وكذلك عملا فى آخر العام يسمى « عمل الزائد والناقص » يتضمن مبلغ ما اشتمل عليه أجرة المسكون من الرَّبْع وما سكن من الخالى منه [١١٦].

وتقرُّبًا إلى الله وابتغاء لثوابه ، لا سيما فى شهر رمضان ، أصدر الإمام الآمر بأحكام الله منشورًا فى شهر رمضان سنة ٥١٧/نوفمبر سنة ١١٢٣ بمُسامَحَة كافة سكان الرِّباع السُّلْطانية بالقاهرة ومصر من الآدر والحمامات والحوانيت ... بأجرة شهر رمضان من كل سنة لاستقبال رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة وما بعدها إحسانًا وتعظيمًا لحرمة هذا الشهر ، وأمر أن يُخَلَّد بالجامع العتيق بالفسطاط . ولما قرىء هذا المنشور ضَجَّ العامة بالدعاء [١١٧].

ما يُسْتَأْدى من تُجّار الرُّوم
أو الخُمْس الرُّومى

كان على الروم ، وهو لفظ يُقْصَد به التجار البيزنطيين والإيطاليين وخاصة الجنوبيين والبنادقة ، أن يدفعوا بوصفهم تجارًا أجانب غير مسلمين رسومًا جمركية على البضائع الواردة إلى الموانىء المصرية المطلة على البحر المتوسط عرفها المَخْزومى باسم « الخُمْس » أو « الخُمْس الرومى » [١١٨]. ويشرح لنا ابن ممّاتى كلمة الخُمْس بأنها عبارة عما يستادى من تجار الروم الواردين على

---

[١١٦] المخزومى : المنهاج ٤٤ – ٤٥ ، Cahen , Cl . op . cit . , pp . 34 , 36

[١١٧] المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٠٤ – ١٠٥ .

[١١٨] المخزومى : المنهاج ٤٥ ، ٤٩ ، Cahen, Cl. op. cit., pp. 63, 75 وكانت العادة أن يجبى من التجار غير المسلمين الذين يفدون إلى دار الإسلام « العُشْر » من قيمة بضائعهم ، وقد أباح الإمام الشافعى للحاكم أن يزيد هذه النسبة إلى الخُمْس أو ينقصها إلى نصف العُشْر أو يزيلها نهائيًا . (القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٥٩ ، متز : الحضارة الإسلامية ٢٠١ – ٢٠٣) .

الثغور بمقتضى ما صولحوا عليه ، ورغم أن قيمة الرسوم الواجب عليهم أدائها يبلغ قيمته ٣٥ بالمائة من قيمة بضائعهم وقد ينحط إلى مادون العشرين بالمائة ، فإنها تسمى مع ذلك « خُمْسًا » [١١٩]. ويوضّح هذا النص ، الذى أورده ابن مماتى ، أن الحكومة الفاطمية لم تكن تعامل التجار الأجانب غير المسلمين على أساس واحد ، الأمر الذى يمكن إرجاعه إلى اعتبارات سياسية واقتصادية . فقد تُخَفّض الرسوم على تجار البلاد التى تُزَوّد الحكومة الفاطمية بما يلزمها من المواد الضرورية لصناعة السفن على سبيل المثال [١٢٠]. وأمام ارتفاع قيمة هذه الرسوم حرص التجار على تخفيض المبالغ التى يدفعونها عما ينقلونه من متاجر ، يدل على ذلك ما وعد به روجر الثانى Roger II أهالى مدينة سالرنو Salerne سنة ١١٣٧/٥٣٢ بالتدخل لدى الحكومة الفاطمية لتخفيض الرسوم الجمركية (الخُمْس الرومى) التى يدفعها تجار هذه المدينة فى ميناء الإسكندرية إلى القيمة التى يدفعها أهالى صقلية [١٢١]. وقد عقد روجر الثانى نحو سنة ١١٤٣/٥٣٨ معاهدة تجارية مجزية مع مصر ، لم يصل إلينا للأسف نصها ، وهى دون شك أوّل اتفاقية تجارية معروفة وُقّعت بين قوة مسيحية غربية ومصر [١٢٢]. أما ما يُفْرَض من رسوم على التجارة الخارجية الواردة على ثغور البحر المتوسط من بقية التجار الأجانب غير الروم فيفضل أن يُطْلَق عليه « المَكْس » [١٢٣].

ويدلنا على ارتفاع عائد الخُمْس أن شاور وعمورى الأول ، عندما حاصرا صلاح الدين فى الإسكندرية سنة ٥٦٢ /١١٦٦ ، عرض شاور على أهالى

---

[١١٩] ابن مماتى : قوانين ٣٢٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٠٩ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٩ .

[١٢٠] Stern, S.M., "An Original Document from the Fatimid chancery concerning Italien Merchants", Studi Orientalistci in Onore di Giorgio Levi Della Vida, Roma 1956, II, 529 - 38.

[١٢١] Canard, M., "Une lettre du calife fatimite al - Hâfiz (524 - 544/1130 - 1149) à Roger II", Atti del convegno Internazionale di Studi Ruggeriano (Palerme 1955), pp. 125-126 ، البراوى : المرجع السابق ٢٥٠ ، ٢٦٨ .

[١٢٢] Ibid., p. 126

[١٢٣] Cahen, Cl., op. cit., p. 75

الإسكندرية أن يُسَلِّموا إليه صلاح الدين ومن معه مقابل أن يضع عنهم « المكوس » ويعطيهم « الأَخْماس »[١٢٤].

والثغور التى تناولها نص المَخْزومى هى : الإسكندرية ودِمْياط وتِنِّيس مع إشارة عابرة إلى رشيد ونَسْتروه المواجهة لها . ولم يذكر المَخْزومى أى ميناء من موانئ البحر الأحمر . وربما يُوضِّح لنا نصٌ لابن ممّاتى سبب عدم ذكر المَخْزومى لموانئ البحر الأحمر ، فهو يذكر أنه على العكس من الإسكندرية ودِمْياط وتِنِّيس فإنه لا يوجد بعَيْذاب – ميناء البحر الأحمر – سوى الزَّكاة وواجب الذِّمة لا غير[١٢٥]. وهذا يعنى أنه لم يكن يتردد عليه سوى تجار مسلمين أو ذميين قادمين من البلاد الإسلامية ، وأن المتاجر الشرقية الصينية والهندية كانت تصل إلى عَدَن ثم يحملها تجار مسلمون أو ذميون من أصل عربى إلى عَيْذاب ، رغم أن ناصر خسرو يذكر أنه كانت تُحَصَّل بعَيْذاب المكوس على ما فى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن ! [١٢٦].

والصفة الغالبة على نص المَخْزومى هى الغموض والالتباس فى بعض مواضعه حيث يقسم الرسوم الواجبة إلى : رسوم أصلية ورسوم مقابل خدمات الحماية ثم رسوم بناء على اتفاقيات ومعاهدات تجارية . والخط الفاصل الوحيد للتقسيم بينها ، كما يرى البروفسير كاهن برغم بعض التداخل ، هو التمييز بين « الوارد » و « الصادر »[١٢٧].

ويتولى الإشراف على جباية « الخُمْس » فى الإسكندرية ودمياط تِنِّيس جهاز مكون من : ناظر ومُشارف وشاهد الخُمْس وعامل وعدد من الكتاب

---

[١٢٤] النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ١٠١ .

[١٢٥] ابن مماتى : قوانين ٣٢٧ .

[١٢٦] ناصرخسرو : سفرنامة ١١٨ .

[١٢٧] Cahen, Cl., op. cit., p. 84.

يتولون إعداد عدد من التعليقات والجرائد لحفظ الارتفاعات وضبط الأموال وصيانتها [١٢٨].

وتتضمّن « التعريفات » بيانات عن ورود المراكب الرومية مبينًا لكل مركب من أى البلاد قدمت ونوع البضائع التى تحملها موضحًا وزنها وعددها . ثم تعد « تعريفات » بما يُفَرَّغ فى كل يوم من جميع المراكب من البضائع فى المخازن بالصناعة ، كما يُعَدّ « تعريف » مفصل بأسماء التجار ومراكبهم [١٢٩].

وإذا كان عرض المَخْزومى عما يؤدى إلى الخُمْس بثغر الإسكندرية ناقصًا أو غير واضح ، فإن ما يعرضه عن ثغر تِنِّيس – رغم قِلَّة المترددين عليها بالقياس إلى الإسكندرية – ملئ بالتفصيلات حيث يقدم لنا كشفًا بنسبة الخُمْس الواجب أداؤها عما قيمته مائة دينار من أنواع متعددة من البضائع [١٣٠]. ويفيدنا عرضه كذلك بأنه كان يُعْقَد بها بيع بالمزاد العلنى للبضائع الواردة يعرف « بحِلَق الخُمْس » (جـ . حلقة) تَفرِض عليه الدولة مكوسًا لا تجب إلّا بعد إتمام عملية البيع ، وينال السَّماسرة والمنادين والمستخدمين نسبة منها [١٣١]. وكذلك كان من بين الرُّسوم المفروضة « رسم التوفير » وهو عما يُسْتخرج على يد جَهْبذ الديوان من التجار المشترين وتجار الروم عن كل مائة دينار سدس وثمن دينار [١٣٢].

ويمكننا أن نُصَنِّف الرُّسوم المُعَقَّدَة التى كان على التجار الروم دفعها فى الإسكندرية وبقية الثغور إلى مجموعتين أساسيتين هما : « القُوف » و

[١٢٨] المخزومى : المنهاج ٤٥ – ٤٦ .
[١٢٩] نفسه ٤٦ .
[١٣٠] نفسه ٢٢ – ٢٩ .
[١٣١] نفسه ٩ .
[١٣٢] المخزومى : المنهاج ١٠ .

« العَرْصة » ومعنى هذين المصطلحين غير واضح على الإطلاق [١٣٣]. ويظن البروفسير كاهن أن كل الرسوم التى كانت تُدْفع فى الإسكندرية تتجمع حول هاتين المجموعتين الرئيسيتين ، ويبلغ مجموعها ١٩ بالمائة [١٣٤].

ونستطيع أن نتبين من بين العمليات المتنوعة والرُّسوم التى يُطْلَق عليها « القُوف » مع بعض الصعوبات ، ثلاثة تقسيمات : مراكب تدفع رسومًا بالكامل ، وهى المراكب التى يكون ارتفاعها ألف دينار فما فوق ، وتدفع ما قدره مائة وأحد وخمسين دينارًا وربع ، ومراكب تدفع رسومًا بحق الثلثين عن ستمائة ست وستين دينارًا وثلثين قدرها مائة دينار ما قدره خمسة وسبعين دينارًا ونصف وثُمنْ من جميعه [١٣٥]وهذا التقسيم ، كما يذهب الدكتور ربيع ، يبدو غامضًا إلى حد ما [١٣٦]. ويمثل العائد من « القُوف » من قيمة الخُمْس نسبة قدرها $\frac{1}{8}$ ١٥ بالمائة تشمل رسوم المستخدمين وهم : الجُباة والخُزّان والأُمناء وبوابين البحر ، ورسوم لعديد من الأبواب مثل رسم « الخَتْمة » ورسم « الطُعْمَة » ورسم « الضيافة » [١٣٧]. أما ما يُطلق عليه الروم « العَرْصَة » فهو كما يذكر المخَزومى ، ما يؤخذ عن محاسبة المراكب الخمسْية متعلقًا برسم الإشراف والعمل ورسم صاحب البحر ورسوم الولاية ورسوم الترجمة وكاتب الخُمْس والجَهْبَذ والمحاسبة [١٣٨]. وهذا فيما يخص التجار الأجانب غير المسلمين .

أما التجار المسلمون فقد اعتبر الفقهاء المكوس أو الضرائب الجمركية ، بالنسبة لهم داخلة ضمن الزَّكاة ، ومن هنا نشأت فكرة أن التاجر المسلم

---

[١٣٣] نفسه ١٠ – ١٢ ، ١٣ ، Rabie , H ., op . cit ., p . 90 .

[١٣٤] Cahen Cl ., op . cit ., pp . 88 - 89 .

[١٣٥] المخزومى : المنهاج ١٠ .

[١٣٦] Rabie , H ., op . cit ., p . 91 .

[١٣٧] المخزومى : المنهاج ١١ ، ١٢ .

[١٣٨] نفسه ١٣ ، Rabie , H ., op . cit ., p . 91 .

يستطيع أن يطوف عامًا كاملًا أينما شاء من حدود البلاد معفى من المكوس متى دفع المَكْس مرة واحدة وهو « العُشْر » ، وذلك بالإضافة إلى الزَّكاة الشرعية على عَيْن المال ، وهى عن كل مائة دينار ديناران ونصف ($2\frac{1}{2}$٪) ،وقد أطلق عليها المَخْزومى « عروض (عيون) التجارات » ، وكانت تجبى بعد أن يحدد المُشارف حَوْل كل تاجر على ما يقتضيه ابتداء ملكه للمال . وضَرَب المَخْزومى مثلًا عمليًا على ما يجب عن مائتى أردب من الغَلَّة قيمتها أربعون دينارًا وهو دينار واحد ، وكذلك على ما يجب عن مائة قنطار من القطن قيمتها خمسون دينارًا وهو دينار واحد وربع [١٣٩]. وقد أبدى الرحالة ابن جُبَيْر تذمره من الإجراءت الجمركية بالإسكندرية عندما وصل إليها سنة ١١٨٣/٥٧٨ فى طريقه لأداء فريضة الحج ، وذكر أن الموكلين بهذا الأمر طالبوهم بأداء زكاة ما معهم دون أن يبحثوا إذا كان قد حال عليه الحَوْل أو لم يحل ، رغم أن ما يحملونه لم يزد عن كونه زاد لطريقهم ولم يكن لغرض الاتجار [١٤٠].

أما الرسوم المفروضة على ما يرد ويصدر مع التجار الذِّمِّيين فتعرف « بواجب الذِّمَّة » ، وكانت فى وقت ابن مَمّاتى تُستأدى فى أماكن ثلاثة هى : مصر والفُسْطاط والإسكندرية وأخميم [١٤١]، التى يجب أن نضيف إليها عَيْذاب التى ذكرها ابن مَمّاتى فى موضع آخر [١٤٢]، وإن كان لم يحدِّد لنا قيمة هذه الرسوم .

المَتْجر

كانت الحكومة الفاطمية تحتكر بعض البضائع التى يشرف عليها ديوان يعرف « بالمَتْجَر » أو « المَتْجَر الديوانى السعيد » . وقبل تولى الوزير اليازورى الوزارة

---

[١٣٩] المخزومى : المنهاج ٤٢ ، ٤٦ ، .Cahen , Cl . , op . cit , pp . 75 - 91; Rabie , H , op . cit . , pp . 96 - 97 .

[١٤٠] ابن جبير : الرحلة ١٣ .

[١٤١] ابن مماتى : قوانين ٣٤٩ .

[١٤٢] نفسه ٣٢٧ وانظر كذلك ناصرخسرو : سفرنامة ١١٨ .

سنة ١٠٥٠/٤٤٢ كان يُبْتاع للسلطان فى كل سنة غَلَّة بمائة ألف دينار وتُجْعَل مَتْجرًا حتى إذا نقصت الأقوات من الأسواق ، بسبب جَشَعَ التجار أو بسبب العوامل الطبيعية ، أخرجت الحكومة ما فى مخازنها وباعته للناس ، وبذلك تتحكم فى أسعار السِّلع التى لا غنى عنها للناس ، وقد وجد الوزير اليازورى أن المَتْجَر الذى يقام بالغَلَّة فيه مَضَرَّة على المسلمين إذ ربما انحط السعر عن السعر الذى اشتريت به فلا يمكن بيعها فتتغير بالمخازن وتتلف . فاقترح فى سنة ١٠٥٢/٤٤٤ إقامة مَتْجَر لاكُلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغَلَّة ولا يُخْشى عليه من تَغَيُّر فى المخازن أو انحطاط سعره وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك ، فوافقه الخليفة على رأيه واستمر ذلك النظام [١٤٣].

وكانت كل هذه الأصناف عندما ترد على ظهور السفن يبتاعها المَتجر الديوانى السعيد – وهو الاسم الذى أطلقه عليه المَخْزومى – لحاجة الدولة إليها فى صناعة السفن والسِّلاح ، فقد كانت هذه المواد ذات أهمية خاصة للدولة ، فلم تكن مصر أو الشام تملك موارد متاحة من الحديد أو الأخشاب ، وعلى عكس وضع السوق الحرة فإن هذه البضائع كان يبتاعها المَتْجَر برسم مستقر مقدمًا لحساب المَتْجَر الديوانى السعيد من التجار الواردين على الثغور مقابل رسم يعادل ١٠٪ من قيمتها يدفعها التاجر للمَتْجَر [١٤٤]. يقول ابن ممّاتى : « فإن زاد ثمن المبتاع من التاجر شيئًا عما يجب عليه من الخُمْس أُعْطى به شبًّا بحق الثلث . وأصل ثمن هذا الشَّبّ ورد من جملة ارتفاع المَتْجر » [١٤٥]، فقد احتكرت الحكومة الفاطمية الشَّبّ لتبيعه إلى تجار الروم ، وكان إذا عثر على أحد اشترى منه شيئًا أو باعه ، غير الديوان ، نُكِّل به [١٤٦]. كذلك فقد احتكرت الحكومة الفاطمية ، مثل الحكومات السابقة عليها ، النَّطْرون [١٤٧]. ويدل على قيمة

---

[١٤٣] المقريزى : إغاثة الأمة ٢٠ ، الخطط ١ : ١٠٩ ، ٤٦٥ ، اتعاظ ٢ : ٢٢٥ .

[١٤٤] المخزومى : المنهاج ٩ ، Cahen , Cl ., op . cit ., p , 98 .

[١٤٥] ابن مماتى : قوانين ٣٢٧ ، المخزومى : المنهاج ٤٨ ، ٥٧ .

[١٤٦] نفسه ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٠٩ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٥ .

[١٤٧] نفسه ٣٣٤ – ٣٣٦ ، نفسه ١ : ١٠٩ .

موارد الدولة من الشَّبّ ما جاء فى سجل المُسامَحَة بالبواقى إلى آخر عام ١١١٧/٥١٠ ، والذى أمر بكتابته الوزير المأمون البطائحى فى آخر سنة ١١٢١/٥١٥ ، فقد بلغ ما سومح به من الشَّبّ ما قيمته تسعمائة وثلاثة عشر قنطارًا ونصف [١٤٨].

وقد أشار النابلسى إلى أن الديوان كان يبتاع ما يرد فى البحر من خشب وحديد ورصاص وغير ذلك ، ثم يبيعه إلى الناس بكسب يسير ، ولكن إذا دعت الحاجة لمهمات الدولة من عمل الشوانى وعمارة الحصون وغير ذلك اشترى الديوان من التجار الذين اشتروا من الديوان بضعفى الثمن ، وربما كان ذلك فى العصر الأيوبى الذى كتب فيه النابلسى كتابه [١٤٩].

المَوارِد غير المُنْتَظِمَة

المُصـــــادَرَة

تُعَدّ مُصادَرَة أموال وممتلكات كبار رجال الدولة فى أعقاب عزلهم أو التخلص منهم موردًا من موارد الدولة غير المنتظمة . وقد عُرِفَت المُصادرات فى مصر قبل العصر الفاطمى ، فقد صادر الإخشيديون الكثير من عُمّالهم وخاصتهم بعد القبض عليهم ، وكان إذا أفلت أحدٌ من المصادرة حيًّا لم يَسْلَم من أخذ أمواله بعد وفاته ، وكذلك كانوا يفعلون مع التجار المياسير [١٥٠]. وفى العراق شاعت كذلك ظاهرة مصادرة كبار الموظفين فى القرن التاسع/العاشر وأثرت تأثيرًا سلبيًا على الملكيات الخاصة ، وأنشئ فى بغداد ديوان خاص لذلك سمى « ديوان المصادرين » مهمته إدارة الأملاك المُصادَرَة [١٥١].

أما فى مصر الفاطمية فكان أول من صودر هو الوزير يعقوب بن كِلِّس ، فعندما صرفه الخليفة العزيز من منصبه فى ثامن شوال سنة ١٨/٣٧٣ مارس

---

[١٥٠] ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ١٦٥ ، ١٨٧ .

[١٥١] الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ٢٥٨ – ٢٥٩ ، متز : الحضارة الإسلامية ١٣٦ .

سنة ٩٨٤ اعتقله وحمل من ماله خمسمائة ألف دينار ، ولكنه لم يلبث أن أفرج عنه وأعاده إلى منصبه فى العالم التالى [١٥٢]. وفى الفترة التى انقلب فيها الخليفة الحاكم بأمر الله على معاونيه وتَخلَّص من أغلبهم بالقتل ، نجده يصادر عددًا منهم مثل الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن النعمان سنة ١٠١٠/٤٠٠ . واضطر الحاكم أمام كثرة المصادرات إلى إحداث ديوان جديد سمّاه « الديوان المُفْرد » برسم مَنْ يُقْبَض ماله من المقتولين وغيرهم [١٥٣].

ولم يكتف الخلفاء فقط بالمُصادَرَة بل شاركهم فى ذلك أيضًا الوزراء ، فيذكر كل من ابن الصَّيْرَفى وابن مُيَسَّر أن الوزير أبا البركات الحسين بن محمد الجَرْجَرائى (٤٣٩ – ١٠٤٧/٤٤١ – ١٠٤٩) « كثر فى أيامه القبض والمصادرات واصطفاء الأموال والنفى [١٥٤]» .

وعندما حاصر الوزير القوى أمير الجيوش بدر الجمالى ولده الأَوْحَد فى الإسكندرية وتَمَكَّن من أسره فى أوائل عام ١٠٨٤/٤٧٧ أعاد بناء جامعها المعروف بجامع العَطَّارين من مال المُصادَرَات ومن أموال أخذها من الإسكندرانيين [١٥٥]. أما فى عصر ولده وخليفته الأَفْضَل شاهنشاه فيذكر ابن مُيَسَّر أنه « لم يُعْرف أحدٌ صودر فى زمانه ولا قُسِّط » [١٥٦]. ولكن بعد أن تَخَلَّص الخليفة الآمر بأحكام الله من وزيره المأمون البطائحى واستعان بالراهب المعروف بأبى نجاح بن قَنا كثرت المصادرات على يديه ، وبذل فى مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار ، ولم يسْلم منه جميع رؤساء الديار المصرية

---

[١٤٨] ابن المأمون : أخبار ٢٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٨٣ .
[١٤٩] النابلسى : لمع القوانين المضية ٤٥ – ٤٦ .
[١٥٢] النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٤٨ .
[١٥٣] المقريزى : اتعاظ ٢ : ٨١ ، ٨٢ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٥٣ .
[١٥٤] ابن الصيرفى : الإشارة ٧٢ ، ابن ميسر : أخبار ١٠ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٠٨ .
[١٥٥] ابن ظافر : أخبار ٧٧ ، ابن ميسر : أخبار ٤٦ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٣٢١ .
[١٥٦] ابن ميسر : أخبار ٨٣ .

وقضاتها وكتابها وغيرهم [١٥٧]، وبلغ به الأمر أنه صادر رجلًا جمّالًا فأخذ له عشرين دينارًا ثمن جمل ابتاعه لم يكن يملك سواه [١٥٨]. وكان يجلس فى قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص ويستدعى الناس للمصادرة حتى قُتِل بأمر الخليفة الآمر سنة ٥٢٣/١١٢٩ . فلما قام أبو على الأفضل كُتَيْفات بانقلابه فى أعقاب وفاة الخليفة الآمر « أعاد على الناس ما أخِذ من أموالهم » [١٥٩].

ويشير ابن ظافر إلى أن الوزير طلائع بن رُزِّيك وقت وزارته « احتكر الغَلّات إلى أن غَلَت أسعارها ... وكان أشَدّ الناس تطلعًا إلى ما فى أيدى الناس من أموالهم وصادر أقوامًا لم يكن بينهم وبينه معاملة ولا سبب يوجب التَعَرُّض » [١٦٠].

ويبدو أن الدولة الفاطمية قد استعاضت عن « الديوان المُفْرَد » الذى أنشأه الخليفة الحاكم فى أواخر القرن الرابع « بالديوان المُرْتَجَع » وهو ديوان نشأ فى عصر الخليفة الحافظ بعد عزل الوزير بَهْرام لارتجاع ما أخِذ منه ومن غيره من الضّياع [١٦١].

المَوارِيث الحَشْرِيَّة

وهى مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء ، أو الباقى من الفَرْض من مال من يموت وله وارث أو فَرْض لا يستغرقه جميع المال ولا عاصب له [١٦٢].

---

[١٥٧] ابن ظافر : أخبار ٨٨ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٨ ، النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٨٦ ، المقريزى : اتعاظ ٣: ١٢٥ .

[١٥٨] نفسه ٨٩ .

[١٥٩] ابن ميسر : أخبار ١١٧ .

[١٦٠] ابن ظافر : أخبار ١١١ ، وقارن النويرى : نهاية – خ ٢٦ : ٩٧ ، المقريزى اتعاظ ٣ : ٢٤٤ .

[١٦١] القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٥٧ ، وراجع حول المصادرة Rabie , H., op . cit . , pp . 127 - 122 .

[١٦٢] القلقشندى : صبح ٣ : ٤٦٠ وانظر ابن مماتى : قوانين ٣١٩ – ٣٢٥ ، النابلسى : لمع القوانين المضية ٥٤ .

وكان القائد جوهر قد وعد المصريين فى « الأمان » الذى منحه لهم وقت الفَتْح : أن يجريهم فى المواريث على كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ ، ويضع ما كان يؤخذ من تركات موتاهم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها ، لأنه لا استحقاق لتصييرها ببيت المال [١٦٣]. وما جاء فى أمان جوهر يدل على أن نظام الميراث فى مصر قبل مجيء الفاطميين كان يسير وفق ما يأخذ به المذهب السنى فى الميراث الذى يرى أن من مات ولم يكن له من يرثه من عُصْبَة وذى سَهْم ذهب إرثه إلى بيت المال ، كما أنه إذا بقى شىء من الإرث ، بعد إعطاء كل ذى سَهْم من الورثة سَهْمه ، فإنه يذهب إلى بيت المال [١٦٤]. كذلك فإن ما جاء فى أمان جوهر يدل على أنه كانت تؤخذ من تركة المتوفى ما يُطْلَق عليه « ضريبة الإرْث » وهى ضريبة غير مشروعة [١٦٥].

أما المذهب الشيعى (سواء الإسماعيلى أو الإمامى أو الزيدى) فيرى توريث ذوى الأرحام وأن البنت إذا انفردت تأخذ الإرْث جميعه بلا عصبة ولا بيت مال [١٦٦]، بينما يقضى مذهب السنة أن لا ترث البنت أكثر من نصف الثروة التى يتركها أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت .

وقد أورد لنا ابن زولاق خلافًا فى تنفيذ قوانين الميراث بين السنة والشيعة حدث وقت المُعِزّ حول قضية حَمّام ادَّعى رجلٌ يدعى ابن بنت كيجور أنه من إنشاء جده لأمه وأخذ توقيعًا من المُعِزّ بأن ينظر فى أمره القاضى الإسماعيلى عبد الله بن أبى ثَوْبان فأقام البينة على أن جده المذكور هو الذى بنى الحمام وأنه توفى وانحصر إرثه فى بنته — والدة المدعى — وكان المُعِزّ يطلب إلى قضاته أن

---

[١٦٣] المقريزى : المقفى ٣٣٤ ، الاتعاظ ١ : ١٠٥ ، ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد ٥١ .

[١٦٤] الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ١٩٠ .

[١٦٥] نفسه ١٩١ ، متز : الحضارة الإسلامية ١٩٥ .

[١٦٦] القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٩٧ ، دعائم الإسلام ٢ : ٣٧٩ — ٣٨٠ ، ابن حجر : رفع الإصرا : ٢٩٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ١١١ ، اتعاظ ٣ : ٨٩ ، Fyzee, A. A. A., "The Fatimid Law of Inheritance", SI IX (1958), pp. 61 - 69.

يورثوا البنت جميع الميراث إذا لم يكن معها أخ أو أخت . غير أن القاضى السنى أبا الطاهر الذُّهْلى اعترض على ذلك لأنه كان قد سبق وحكم فى هذه القضية بأن محمد بن على الماذرائى قد حَبَس هذا الحمام بعد وفاة صاحبه وأنه لا حَقَّ له فيه [١٦٧].

ولكن بعد وفاة القاضى أبى الطاهر الذُّهْلى أصبح قضاة الفاطميين جميعهم من الإسماعيلين يحكمون وفق المذهب الإسماعيلى . ويبدو من نصّ للمقريزى أن الدولة الفاطمية كانت تُلْزم رعاياها باتباع الفقه الشيعى فى الميراث إلى أن استجد أمير الجيوش بدر الجمالى وقت وزارته نظامًا جديدًا هو « أن كل من مات يُعْمَل فى ميراثه على حُكْم مذهبه » [١٦٨]، وقد أدّى ذلك إلى أن تؤول كثير من أموال المواريث إلى ديوان المواريث الحَشْرية ، ولكن عندما تولى الأفضل شاهنشاه الوزارة أفرد مال المواريث ، كما يذكر ابن مُيَسَّر ، ومنع من أخذ شيء من التركات وأمر بحفظها بمَوْدع الحكم حتى إذا حضر من يطلبها وطالعه القاضى بثبوت استحقاقها أطلقها فى الحال ، وكان القاضى قد أراد رفعها إلى بيت المال بعد أن بلغ ما اجتمع منها فى مودع الحكم مائة ألف وثلاثون ألف دينار [١٦٩].

وفى أيام الوزير المأمون البطائحى أراد الفقيه المالكى أبو بكر محمد بن الوليد الطُّرْطوشى مناقشة أمور المواريث وما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وهو رُبْع العُشْر ، وتوريث البنت نصف المال حيث كان الفاطميون يورثونها جميع المال مع وجود ذوى العصبية . وكان رأى الوزير المأمون أنه لا يقول بذلك وأنه من ابتكار الوزير بدر الجمالى ، وانتهت المناقشة بين الفقيه والوزير إلى إصدار مَنْشور كتب فى ٢٨ ذى القعدة سنة ٥١٦/٢٧ يناير سنة ١١٢٣

---

[١٦٧] ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ١ : ٢٩٦ – ٢٩٨ ، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ٣١٥ .

[١٦٨] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٨٩ .

[١٦٩] ابن ميسر : أخبار ٨٣ – ٨٤ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٧٢ .

بأن « يَخْلُص لحُرَم ذوى التَشيُّع الوارثات جميع موروثهم »[١٧٠] ... ويُحْمَل من سواهن على مذهب مخلفيهن ، ويشركهم بيت المال فى موجودهم ، ويحمل إليه جزء من أموالهم التى أحلّها الله لمن بعدهم ... أما من توفى حَشْريًا ولا وارث له حاضرٌ أو غائب ، فإن ميراثه يؤول بأجمعه إلى بيت المال ، إلّا إذا كان عليه مالٌ يستحق لإحدى الجهات الحكومية أو دَيْن يؤدى إلى مستحقيه ... وإذا توفى شخصٌ وله وارثٌ غائب فيتحفَّظ الحُكّام والمستخدمون على تركته احتياطًا حُكْميًا ، فإذا حضر وأثبت استحقاقه ذلك فى مجلس الحكم على الأوضاع الشرعية طولع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والإنتهاء بقبضه عليه »[١٧١] .

وجاء فى هذا المَنْشور كذلك الأمر بتعويض أمناء الحُكْم عما يتقاضونه من رُبْع العُشْر من ثمن ما يبيعونه من التركات مما يؤدى إلى نقص أموال الأيتام ، وذلك بتقرير جارٍ لهم فى كل شهر من مال الديوان على المواريث الحَشْرية[١٧٢] .

أما إذا توفى ذِمِّى ولم يخلِّف وارثًا فتُرَدّ تركته على أهل مِلَّته لا على بيت المال ، وذلك عملًا بما روى عن النبى ﷺ من أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم ، وأنه لا يتوارث أهل ملَّتين[١٧٣] .

وقد حفظ لنا القلقشندى نسخة مَنْشور تقدَّم بكتبه السيد الأجلّ الأفضل (ربما رضوان بن وَلَخْشى) إلى القاضى الرشيد سديد الدولة أبى الفتوح محمد بن القاضى السعيد عين الدولة أبى محمد عبد الله بن أبى عقيل يقره فيه على

---

[١٧٠] تبعاً لما جاء فى سورة الأنفال الآية ٧٥ .

[١٧١] المقريزى : اتعاظ ٣ : ٩٠ – ٩١ ، المقفى (مخ . ليدن) ٣ : ١٩٥ و – ١٩٧ ظ ، حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ٣١٦ – ٣١٧ .

[١٧٢] نفسه ٣ : – ٨٩ ، ٩١ ، نفسه ٣ : ١٩٥ و ، ١٩٧ ظ .

[١٧٣] متز ، ١ : الحضارة الإسلامية ١٩٥ .

ما هو متوليه من الخدمة فى مشارفة المواريث الحشرية وتقرير الفروض الحكمية [١٧٤].

وكان يشرف على المواريث الحَشْرية ، باعتبارها موردًا من موارد الدولة الفاطمية غير المنتظمة ، ديوانٌ يعرف بـ « ديوان المواريث » أو « ديوان المواريث الحشرية » ، وكان يُضَمّ أحيانًا كما يُفْهَم من نصّ لابن الطُّوير إلى « ديوان الجوالى » [١٧٥].

ويبدو أن الحَشْريين كانوا يضيقون بقوانين هذا الديوان ، فكانوا يتنازلون فى حياتهم عما يمتلكون من عقار ثابت أو أموال منقولة بمختلف الطرق الشرعية ، نظرًا لأن الديوان – كما يذكر النابُلسى – كان يُهْمل أموال الحَشْريين التى لهم لدى أفراد متفرقين فى أقاليم الديار المصرية بحجة استحالة تحصيلها وبذلك لا تؤول هذه الأموال إلى الديوان ولا تصرف فى الوجوه المقرَّرة لها [١٧٦]. وتوضِّح لنا حُجَّة تمليك ووقف ترجع إلى العصر الأيوبى مؤرَّخة سنة ١٢٥١/٦٤٩ ، كيفية تصرف الحشريين فى العقارات الخاصة بالوَقْف حتى لا تؤول إلى ديوان المواريث الحَشْرية [١٧٧]. ولا شك أن الناس قد لجأوا أيضًا إلى هذه الحيلة فى العصر الفاطمى .

الأحبـــــاس

ظَلَّت الأوقاف (الأحْباس) فى مصر منذ الفتح الإسلامى فى أيدى مستحقيها أو نُظّار الوَقْف حَسَب شروط الواقف دون أى تَدَخُّل أو إشراف

---

[١٧٤] القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٦٦ .

[١٧٥] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٩٢ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٤٩ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٩٢ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٣٤٢ وقارن Rabie, H., op. cit., p. 127 .

[١٧٦] النابلسى : لمع القوانين المضية ٥٤ ، والهامش التالى .

[١٧٧] حسنين محمد ربيع : « حجة تمليك ووقف » ، المجلة التاريخية المصرية ١٢ (١٩٦٤ – ١٩٦٥) ، ١٩٢ ، ١٩٦ .

من الدولة ، حتى ولى قضاء مصر القاضى الأموى تَوْبَة بن نَمِر فى مستهل صفر سنة ١٩/١١٥ مارس سنة ٧٣٣ فخاف عليها من الهلاك والتوارث ، ولما كان مآل الأحْباس إلى الفقراء والمساكين ، فقد وجد أنه من الأفضل أن يضع يده عليها فأفرد لها ديوانًا سُمِّى « ديوان الأحْباس » كان يتولَّى الإشراف عليه القاضى [١٧٨]. ويعتبر هذا الديوان أوَّل تنظيم للأوقاف ليس فى مصر فحسب بل فى كافة الدولة الإسلامية [١٧٩].

وظل القضاة يتولون النظر فى الأوقاف بحفظ أصولها واستثمارها وقَبْض ريعها وصرفه فى الأوجه التى أُرْصِدَت لها . ومنذ النصف الأول للقرن الرابع/العاشر كان يُعَيَّن فى بعض الأحيان متولى للأحْباس ونفقة الأيتام بالإضافة إلى القاضى [١٨٠]. وكانت الأحْباس فى أوَّل الأمر فى الرِّباع وما يجرى مجراها من المبانى ، أما الأراضى فلم يكن سَلَفُ الأمة من الصحابة والتابعين يتعرَّضون لها [١٨١]. أما أوَّل من حَبَس الأراضى والبساتين فى مصر فأبو بكر محمد بن على الماذَرَائى الذى حَبَس نحو سنة ٩٣٠/٣١٨ ، بركة الحَبَش وأسيوط على الحرمين وعلى جهات بِرّ مختلفة [١٨٢]. يقول المقريزى : « فلما قدمت الدولة الفاطمية من المغرب إلى مصر بَطُل تحبيس البلاد وصار قاضى القضاة يتولَّى أمر الأحْباس من الرِّباع ، وإليه أمر الجوامع والمَشاهد ، وصار للأحْباس ديوان مفرد » [١٨٣]، كذلك فقد أدخل الفاطميون الكثير من التنظيمات الخاصة بالوقف . فقد أمر الخليفة المُعِزّ لدين الله فى ربيع الآخر سنة ٩٧٤/٣٦٣ أن تُحَوَّل المحصَّلات المالية المجباة من الممتلكات الموقوفة من مَوْدع الحكم إلى بيت المال ، وطالب

---

[١٧٨] ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٦١ .

[١٧٩] محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الإجتماعية فى مصر ٦٤٨ – ١٢٥٠/٩٢٣ – ١٥١٧ – دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ١٩٨٠ ، ٤٨ .

[١٨٠] نفسه ٤٨ – ٤٩ ، ٥١ .

[١٨١] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٤ .

[١٨٢] نفسه ٢ : ٢٩٥ .

[١٨٣] نفسه ٢ : ٢٩٥ .

المنتفعين بأن يظهروا الوثائق التى تدل على أحقيتهم فى ريع هذه الأوقاف [١٨٤].
ويُعَدّ محمد بن القاضى أبى الطاهر محمد الذُّهلى أوّل من ضَمَن جباية أموال الأحْباس فى الدولة الفاطمية ، ففى النصف من شعبان من سنة ٩٧٤/٣٦٣ ضَمَن الأحْباس بألف ألف وخمسمائة ألف درهم فى كل سنة ، على أن يدفع إلى المستحقين حقوقهم ويحمل الباقى إلى بيت المال [١٨٥].

وهكذا أصبح لبيت المال منذ أيام الفاطميين نصيبٌ من متحصلات الأحْباس ، التى صارت تمثل أحد موارد الدولة المالية [١٨٦]. وحتى يضمن الفاطميون موردًا ثابتًا يُنْفقون منه على تعمير المساجد وفرشها والصرف على قَوَمَتها وخُدّامها ، أوقفوا الكثير من الأراضى الزراعية وغيرها من المواضع . فيذكر المُسَبِّحى أن الخليفة الحاكم بأمر الله أمر فى سنة ١٠١٢/٤٠٣ بإثبات المساجد التى لاغَلّة لها ولا أحد يقوم بها أو التى لها غَلّة لا تقوم باحتياجاتها فأثْبِتَ فى سِجِلّ رُفِع إليه ، وبلغت عدتها ثمانمائة وثلاثين مسجدًا قُدّر لها نفقة شهرية قيمها ٩٢٢٠ درهمًا بواقع اثنى عشر درهمًا لكل مسجد [١٨٧]. وبناء عليه أمر الحاكم فى يوم الجمعة ١٨ صفر سنة ١٩/٤٠٥ أغسطس سنة ١٠١٤ بقراءة سجل بتحبيس ضِياع هى : إطْفيح وصول وطوخ وست ضِياع أخر وعدة قياسر وغيرها على القُرّاء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع ، وعلى المصانع والقُوّام بها ونَفَقة المارستانات وأرزاق المستخدمين فيها وثمن الأكْفان لفقراء المسلمين [١٨٨]. ويذكر الشريف محمد بن أسعد الجَوّانى أن القضاة بمصر كانوا إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يومًا على المساجد والمَشاهِد بمصر والقاهرة ، يبدأون بجامع المَقْس ثم جوامع القاهرة ثم المَشاهِد ثم القرافة ثم جامع عمرو بالفُسْطاط ثم مشهد الرأس لنظر حصر ذلك وقناديله وما تَشَعَّث

---

[١٨٤] نفسه ٢ : ٢٩٥ ، المقريزى : اتعاظ ١ : ١٤٨ ، محمد محمد أمين : المرجع السابق ٥٢ .

[١٨٥] نفسه ٢ : ٢٩٥ ، محمد محمدأمين : المرجع السابق ٥٢ ، انظر أعلاه ص .

[١٨٦] محمد محمد أمين : المرجع السابق ٥٢ .

[١٨٧] المسبحى : نصوص ضائعة ٣١ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٥ ، ٤٠٩ ، اتعاظ ٢ : ٩٦ .

[١٨٨] نفسه ٣٢ ؛ نفسه ٢ : ٢٩٥ ، ٤٠٩ .

منها وما يحتاج إلى عمارة منها وظل الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية [١٨٩].

وكان أمير الجيوش بدر الجمالى قد حَبَس على عَقِبه وقت وزارته عددًا من النواحى عرفت « بالحَبْس الجيوشى » ، بعضها فى البر الشرقى وهى بَهْبيت والأميرية والمنية ، وبعضها فى البر الغربى جهة الجيزة هى : سَفْط ونَهْيا ووسيم . وظلّت جميع البساتين المختصة بهذا الحَبْس بأيدى وَرَثة أمير الجيوش حتى وزارة المأمون البطائحى ، فلما توفى الخليفة الآمر واستولى أبو على الأفضل كُتَيْفات حفيد بدر الجمالى على السلطة أعاد جميع الحَبْس إلى المُلّاك لكون نصيبه فى ذلك الأوفر ، فلما قُتِل كُتَيْفات وأعيد الخليفة الحافظ أمر بالقبض على جميع الأملاك وحَلّ الأحْباس المختصة بأمير الجيوش لولا تدخل غلمان الأفضل عز الملك ويانس - الذى أصبح وزير الحافظ - وأقنعا الحافظ بإبقائها . ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق منه سوى امرأة أفتى الفقهاء بأن الحَبْس باطل فصار ماله يُحْمَل إلى بيت المال ليُنْفَق فى مصالح المسلمين [١٩٠].

ولعل أقدم حُجّة وَقْف وصلت إلينا من مصر وتعد الوحيدة التى ترجع إلى العصر الفاطمى ، هى حُجّة وَقْف الوزير الملك الصّالح طلائع بن رُزِّيك الذى أوْقَف فى مستهل جمادى الأولى سنة ٥٥٤/٢١ إبريل سنة ١١٥٩ بعض الرِّباع ونصف بركة الحَبَش [١٩١] وناحية بَلْقَس الأشراف [١٩٢] على أن يكون النصف

---

[١٨٩] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٥ .

[١٩٠] ابن المأمون : أخبار ١٠٥ ، ابن مماتى : قوانين ٣٣٦ - ٣٣٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ١١٠ ، ٢ : ١٢٩ ، ٤٨٧ .

[١٩١] بركة الحَبَش . حوض من الأراضى الزراعية التى يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنويًا ، كانت تقع جنوب مدينة الفُسْطاط بين النيل وجبل المقطم وكان الماء يصل إليها بواسطة خليج بنى وائل الذى كان يستمد ماءه من النيل جنوبى الفسطاط ، فكانت الأرض وقت أن يغمرها الماء تشبه البرك ولهذا سميت بركة . ونظرًا لأن الصالح طلائع أوقفها على الأشراف فقد عرفت أحيانًا فى المصادر باسم « بركة الأشراف » . (المقريزى : الخطط ٢ : ١٥٢ ، ابن دقماق : الانتصار ، القاهرة ١٨٩٤ ، ٤ : ٥٥ - ٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزهراة ٦ : ٣٨٢ من تعليقات المرحوم محمد رمزى) .

[١٩٢] بَلْقَس الأشراف . قرية قديمة ذكرها ابن مماتى ضمن أعمال الشرقية (قوانين الدواوين =

والثمن منها ، أى خمسة عشر من أربعة وعشرين سهمًا على الأشراف الحسنيين والحسينيين المقيمين بالقاهرة المعزية ومصر خاصة ، والثلث ، أى ثمانية أسهم من أربعة وعشرين سهمًا ، على الأشراف الحسنيين والحسينيين القاطنين بمدينة رسول الله وفى بوادى الفرع القريب منها ، ويُمْنَح السَّهْم الباقى للشريف ابن معصوم على أن يكون له أمد حياته ثم من بعده لولده وولد ولده ، وإن انقرضوا رجعت منافع هذا السهم إلى الأشراف الأقارب والمقيمين بالمدينة [١٩٣].

كان يتولَّى الإشراف على الأحْباس فى العصر الفاطمى ديوانٌ يعرف بـ « ديوان الأحْباس » ، يقول ابن الطُّوير : هو أوفر الدواوين مباشرة ، ولا يخدم فيه إلَّا أعيان كُتَّاب المسلمين من الشهود المعدّلين – بحكم أنها معاملة دينية – وفيه علة مدبرين ينوبون عن أرباب هذه الخِدَم فى إيجاب أرزاقهم من ديوان الرُّواتب بعد حضور ورقة من جهة مشارف الجوامع والمساجد تفيد استمرار خدمة صاحبها طوال الشهر ، ومن تأخر تعريفه تأخَّر صرف راتبه وإن تمادى ذلك استبدل به آخر أو توفر ما بإسمه لمصلحة أخرى ، أما المَشاهد فإنها لا توفر ولكنها تنتقل من مُقَصِّر إلى ملازم . وكان يطلق لكل مشهد خمسون درهمًا فى الشهر لتزويدها بالماء لزوّارها والمترددين عليها .

= ١١٠ س ٢) وذكرها ابن الجَيْعان ضمن أعمال القليوبية (التحفة السنية ٦ س ٢١) وهى الآن من بين قرى محافظة القليوبية شمال بَهْتيم وهى تابعة لمركز قليوب وكانت قبلًا من قرى مركز شبرا الخيمة . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القاهرة ١٩٤٥ ، ق ٢ ج (ص ٥٥) .

[١٩٣] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٤ – ١١٥ ، ابن الفرات : تاريخ ٤/١ : ١٤٥ – ١٤٦ ، ابن دقماق : الإنتصار ٥ : ٤٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨١ – ٤٨٢ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٤ ، Cahen , Cl ., Ragib , Y . et Taher , M . A , " L'achat et le wakf d'un grand domaine égyptien par le vizir fatimide Tala'i b . Ruzzik " , An. Isl. XIV (1978), pp. 113 - 115 .

وكان بالديوان كاتبان ومعينان لتنظيم الاستمارات ويورد كل منهم فى استيماره كل ما ورد فى الرقاع والرواتب وماجبى له من جهات الوجهين القبلى والبحرى [١٩٤].

مُتَحَصَّل دار الضَّرْب ودار العِيار

كانت الدولة تُحَصِّل مقابل تحرير ما يتعامل به الناس من الذَّهَب والفِضَّة رسْمًا مقابل هذا العمل منعًا للتلاعب فى قيمته إذا خرج عن إشراف الدولة . ويعتبر هذا الرسم أجرة دار الضَّرْب عما يُحْضِره المُوَرِّدون وغيرهم من التجار من الذّهب على اختلاف أصنافه وهو ثلاثة وثلاثون دينارًا وثلث عن كل ألف دينار تستثنى منه أجرة الضَّرّابين وهو ثلاثة دنانير ونصف عن كل ألف دينار ، وأجرة مشارف العيار وهى دينار واحد وثلثان عن كل ألف دينار [١٩٥].

أما الفِضَّة فكان يُحَصَّل على تحرير عيارها رسمًا قدره نصف دينار (حوالى عشرين درهمًا) عن كل ألف درهم خالصًا من أجرة الضَّرّابين وحق متولى العيار وسائر المؤن لأنها تلزم مالكها دون الديوان [١٩٦]، وهو ما أطلق عليه ابن بَعْرَة « رسم واجب السِّكَّة وأجرة الضرّابين » [١٩٧].

ودار العيار هى الدار التى تتولَّى ضَبْط الموازين والمكاييل والصَّنْج ، وإيرادات هذه الدار عبارة عن أثمان ما يباع من هذه الموازين ، وكذلك مصاريف إصلاحها وتحريرها لمن يريد [١٩٨]. وكان المُحْتَسب هو المنوط به التأكد من ذلك ، ففى ذى

---

[١٩٤] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠٠ — ١٠١ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٤٩ — ١٥٠ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٥ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٩٠ .

[١٩٥] المخزومى : المنهاج ٣١ ، وقارن نفسه آخر الصفحة وابن مماتى : قوانين ٣٣٢ ، النابلسى : لمع القوانين المضية ٥٢ بالنسبة للعصر الأيوبى .

[١٩٦] نفسه ٣١ ، ابن مماتى : قوانين ٣٣٣ والقيمة التى ذكرها هى أربعة عشر درهمًا ونصف عن كل ألف درهم يخصم منها درهمان وربع برسم المُشارفة .

[١٩٧] ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية ٦١ .

[١٩٨] ابن مماتى : قوانين ٣٣٣ – ٣٣٤ ، Rabie, H., op. cit., p. 116 .

القعدة سنة ٤١٥/يناير ١٠٢٤ ضرب المُحْتسب جماعة من الخبّازين ضربًا وجيعًا لأنه وجد موازين أرطالهم باخسة وصنَجهم التى يزنون بها الدراهم زائدة [١٩٩]. وفى شهر ذى الحجة من نفس العام/فبراير ١٠٢٤ ضرب المُحْتسب رجلًا يبيع الحلواء فى حانوت على باب زقاق القناديل بالفُسْطاط وطاف به على جمل لأنه وجد أرطاله ينقص كل رطل منها أوقيتين ، وكل صنجة يزن بها الدراهم تزيد ثُمْن درهم [٢٠٠].

ويفيدنا هذا النص فى أن التعامل بالدراهم فى العقود الأُولى للقرن الخامس/الحادى عشر كان يتم بالوزن وليس بالعدد .

---

[١٩٩] المسبحى : أخبار مصر ٧٣ .

[٢٠٠] نفسه ٧٨ .

الفصل الثالث عشر

الحياة الاجتماعية

فى كتابه « إغاثة الأُمَّة » قَسَّم المقريزى طبقات الناس فى مصر سبعة أقسام ، ورغم أن المقريزى كتب ذلك فى سنة ١٤٠٦/٨٠٨ (تاريخ تأليفه للكتاب) إلّا أنه يصدق فى العموم على سكان مصر فى العصور الوسطى . وهذه الأقسام هى : « أهل الدولة ، وأهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، والباعة – وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب البَزّ – ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ، وأهل الفَلْح – وهم أهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف ، والفقراء – وهم جل الفقهاء وطُلّاب العلم ، وأرباب الصنائع والأجراء أصحاب المِهَن ، ثم ذوو الحاجة والمَسْكَنة وهَمّ السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم »[1] .

بِناء المُجْتَمعَ

وعندما وصل الفاطميون إلى مصر كان السكان المصريون أو المواطنون الأصليون من القِبْط ومن أهل السنة . وقد صحب الفاطميين عناصر متعددة استعانوا بهم فى توطيد سيطرتهم ومَدّ نفوذهم ، كان أسبقهم العنصر المغربى متمثلًا فى الكُتاميين والزُّوَيليين والصِّنْهاجيين والباطليين والبَرّقيين بالإضافة إلى عنصرى الروم والصَّقالبة ، وهؤلاء هم الذين قدموا مع جيش جوهر ثم مع الخليفة المُعِزّ إلى مصر . وقد أقاموا جميعهم بوجه خاص فى المدينة المُحَصَّنَة « القاهرة » واقتسموا حاراتها المختلفة . فقد كانت القاهرة عند إنشائها مدينة

---

[1] المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ٧٢ – ٧٣ .

خاصة يسكنها « الخليفة وحرمه وجنده وخواصه » ولا يُسْمَح بدخولها لأفراد الشعب الذين كانوا يقيمون فى مصر الفُسْطاط – مركز النشاط الاقتصادى والتجارى والصناعى للبلاد – إلّا بإذن خاص وبغرض خدمة أهل الحِصْن الفاطمى [٢].

وقد انضاف إلى هذه العناصر الأجنبية ، التى سكنت الحِصْن الفاطمى ، طوال القرن الفاطمى الأول عنصرى الأتراك والدَّيْلم اللذين اصطنعهما الخليفة العزيز بالله ، وكذلك العنصر الأسود الذى استكثرت منه والدة الخليفة المستنصر .

وفى أعقاب الشِّدَّة العظمى فى عصر المستنصر وقدوم بدر الجمالى وتولّيه السلطة فى مصر أباح لمن وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء فى القاهرة – وذلك بعد خراب القسم الشمالى من الفُسْطاط فى أثناء الأزمة – ولكنه قصر ذلك على العسكرية والمَلْحية والأرْمن ، وهم العنصر الجديد الذى أصبح يكوِّن أغلب سكان القاهرة وضواحيها فى العقود الأولى للقرن السادس/الثانى عشر . وكان الغالب على هذه العناصر الطابع العسكرى وكانوا يكوِّنون فرق الجيش الفاطمى المختلفة .

أما الفُسْطاط فقد كانت قبل العصر الفاطمى وطوال العصر الفاطمى ، المركز الاقتصادى النشيط لمصر ، فكان يقطنها « التجار والباعة وأصحاب المعايش » ، وقد وصف ناصرخسرو فى سنة ١٠٤٨/٤٤٠ أسواق الفُسطاط وما بها من عمال مهرة وتجار بين « بقالين وعطّارين وبائعى خردوات » [٣]. كما أن أوراق الجنيزة التى لا تقبل الشك تقدم لنا وصفًا غنيًا عن نشاط الطبقة البرجوازية فى الفُسْطاط .

---

[٢] راجع مقالى : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها فى زمن الفاطميين » ، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ١ – ١٣ .

[٣] ناصرخسرو : سفرنامة ١٠٥ .

وكانت الفُسْطاط كذلك هي والإسكندرية مركز المقاومة السنية فى مصر ، ويقدم لنا ناصرخسرو أيضًا وصفًا للحركة العلمية التى كان يقودها العلماء أو طبقة أرباب العمائم فى جامع الفُسْطاط فذكرأنه يقيم به المدرسون والمقرئون وأنه مكان اجتماع سكان المدينة وأنه لا يقل من فيه فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب [٤].

ونظرًا لأننا لا نملك كتابًا فى طبقات العلماء وتراجمهم شاملًا قبل كتاب « وفيات الأعيان » لابن خَلِّكان فإننا لا نستطيع أن نقدم تصورًا واضحًا لدور طبقة العلماء كذلك الذى يمكن أن نقدمه فى العصر المماليكى اعتمادًا على مؤلفات مثل « الدُّرَر الكامنة » أو « الضَّوْء اللامع » للسَّخاوى [٥].

ومن بين أرباب العمائم الذين قاموا بدور هام فى هذه الفترة دعاة الإسماعيلية الذين استقروا فى القاهرة – أكبر مركز شيعى فى العالم الإسلامى فى هذا الوقت – بجوار الجامع الأزهر ودار العِلْم والمُحَوّل بالقصر ، بالإضافة إلى نقبائهم الذين انتشروا فى أقاليم مصر لجمع الفِطْرَة والنَّجْوىٰ من أتباع المذهب [٦].

أما معلوماتنا عن الفَلّاحين والزرّاع فى هذه الفترة ونشاطهم الاجتماعى فمحدودة للغاية ، ويذكر المقريزى أن المُزارِع المقيم على الأرض الزراعية التى يَتَقَبَّلها الوجوه والأمراء والأجناد ، يسمى « فلاحًا قرارًا » وأنه يصير عبدًا قنًّا لمن أُقْطِع تلك الناحية هو ومن وُلِد له كذلك لا يرجو أن يباع ولا أن يُعْتَق [٧].

وإلى جانب أهل السُّنَّة والإسماعيلية وبعض الإمامية ، فإن الأقباط واليهود كانوا يمثلون عنصرًا هامًا فى مصر . وقد استفادوا من روح التسامح التى سادت

---

[٤] نفسه ١٠٢ .

[٥] انظر مثلًا دراسة بترى , Petry , C., The Civilian elite of Cairo in the later middle ages . Princeton 1971

[٦] انظر أعلاه ص ٣٤١ .

[٧] المقريزى : الخطط ١ : ٨٥ .

فى العصر الفاطمى ، كما استغل الفاطميون مهارة الأقباط فى الصّناعة والشئون المالية وأسندوا إليهم العديد من المناصب الهامة ، وكذلك فعلوا مع اليهود [٨]. ولا شك فى أن موقف الفاطميين المحابى للأقباط نابع من عدم ثقتهم برعاياهم المسلمين السنيين .

وأدّى تزايد ظاهرة تولّى الأقباط والنّصارى من الأرْمن للعديد من المناصب الهامة فى العقود الأولى للقرن السادس/الثانى عشر إلى قيام رد فعل سنى قوى قاده الوزيران السنيان رضوان بن وَلَخْشى والعادل بن السّلار أبعد أهل الذّمة عن شغل المناصب الهامة [٩]. ويعرض لنا كتاب « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » المنسوب إلى ساويرس بن المُقَفّع وكتاب « كنائس وأديرة مصر » المنسوب إلى أبى صالح الأرمنى حياة الأقباط وعلاقتهم بالدولة [١٠].

وتقدّم لنا كذلك أوراق جنيزة القاهرة Cairo Ceniza Douments صورة مُفَصّلة عن المجتمع اليهودى فى مصر وفى حوض البحر المتوسط ونشاطه الاقتصادى وعلاقاته الاجتماعية والأسرية وحياته اليومية والمعيشية . وتوضّح لنا هذه الأوراق كذلك التسامح الذى كان سائدًا فى مصر الفاطمية ، وأن مدن مصر لم تعرف الـ Gheto الدينى أو الحِرَفى على الإطلاق وأن اليهود والأقباط كانوا يعيشون جنبًا إلى جنب مع المسلمين فى الفُسْطاط وغيرها من أقاليم ومدن مصر المختلفة [١١].

---

[٨] راجع ، قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى — دراسة وثائقية ، القاهرة — دار المعارف ١٩٧٧ ، سلام شافعى محمود : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى ، القاهرة — دار المعارف ١٩٨٢ .

[٩] انظر أعلاه ص ١٩٩ .

[١٠] انظر ثبت المصادر والمراجع .

[١١] راجع بصفة خاصة Mann , J . , The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs , I - II . Oxford 1920 , Fischel , W . J . , Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam , NY 1969 , pp , 45 - 89 , Golb , N . , " The Topography of the Jews of Medieval Egypt " , JNES 24 (1967) , pp. 251 - 270; 32 =

ترف الحياة الاجتماعية

اتَّسَمت الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى بمظاهر العَظَمة والأُبَّهة التى لم تقتصر فقط على الخلفاء بل تعدَّتهم إلى الوزراء وكبار رجال الدولة. كذلك فقد امتازت احتفالات الفاطميين المختلفة بالبَذَخ والرَّوْعة، وشهدت العديد من الأسْمِطَة (جـ. سماط) التى كان يُقَدَّم فيها الكثير من أنواع الأطعمة والحلوى التى وفَّروا لها المقادير الكبيرة من الدقيق والسكر اللازمة لصناعتها. وكانت هذه الاحتفالات أيضًا مناسبة لتفريق الخِلَع والكُسْوات على رجال الدولة والتى كانت تصنع فى دور الطِّراز العامة ودار الدِّيباج، وقد وصف لنا تفصيل هذه الاحتفالات وصفًا حيًّا مؤرِّخون من أمثال ابن المأمون وابن الطُّوَيْر وأكَّدها شاهدو عيان مثل ناصرخسرو وغليوم رئيس أساقفة صور Guillaume de Tyr.

وأنشأ الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم العديد من «المناظر» (جـ. مَنْظَرَة) التى كانوا ينتقلون إليها فى ضواحى القاهرة والفُسْطاط للاسترواح والاستجمام وخاصة أيام زيادة النيل التى كان ينتقل فيها الخليفة، وعلى الأخص ابتداء من عصر الخليفة الآمر، إلى منظرة اللؤلؤة على الخليج [١٢] وكان الناس يوم ركوبه

= (1974) pp. 116 - 149; Stern, S. M. "A Petition of the Fatimid Caliph al - Mustansir concerning a Conflict within the Jewish Community" REJ 138 (1969), pp. 203 - 215; Goitein, S. D, Mediterranean Society - the Jews Communities of the Arab World as portrayed in the documents of the Cairo Geniza I - V, Berkeley - Los Angles 1967 - 1989; Cohen, M. R, Jewish Self - Governement in Medieval Egypt - the Origins of the Office of Head of the Jews, ca 1065 - 1126, Princetan 1980. وانظر كذلك مارك كوهن: المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى، جامعة تل أبيب ١٩٨٧، قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، القاهرة – دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٧، والمراجع المذكورة فى الهامش رقم ٨ أعلاه.

[١٢] ابن المأمون: أخبار ٥٦، ٩٨ – ١٠٠، المقريزى: الخطط ١: ٤٦٨، ٤٧٠.

يخرجون من القاهرة ومصر بمعايشهم ويجلسون للنظر إليه فيكون كيوم العيد ، وكانوا يصنعون أخشابًا متراكبة بعضها على بعض يجلسون فوقها للتفرج يوم كسر الخليج ، لذلك فقد أمر الخليفة الآمر بأحكام الله – الذى استعاد هذه الرسوم التى انقطعت منذ استيلاء الوزير الأفضل على الدولة – فى سنة ١١٢٤/٥١٨ ببناء دار واسعة ليتفرج الناس فيها عند كَسْر الخليج بالكراء [١٣].

ويفيدنا كذلك نصٌ أورده المقريزى فى حوادث سنة ١١٢٣/٥١٧ أنه وجدت فى العصر الفاطمى دورٌ مختصة بالأفراح تؤجَّر لهذا الغرض وأن الوالى أخذ الحجة على ملاك مثل هذه الدور بأن يزيلوا التطرُّق إليها حتى لا يطَّلع أحدٌ على النساء أثناء العُرسْ [١٤].

ويرجع أغلب ما نعرفه عن الاحتفالات الفاطمية إلى الفترة التى شارك فيها الخليفة الآمر الوزير المأمون البطائحى فى الحكم (٥١٥ – ١١٢١/٥١٩ – ١١٢٥) والتى قَدَّم لنا كل من ابن المأمون وابن الطُّوَيْر تفصيلات دقيقة عنها .

المَوَاكِبُ الاحْتفالية زَمَن الفاطميين

كانت رسوم البلاط الفاطمى تتضمَّن عددًا من المواكب الاحتفالية بعضها دينى مثل : ركوب أوَّل رمضان وركوب أيام الجُمَع الثلاث من شهر رمضان وركوب عيد الفِطْر وركوب عيد النَّحر . وبعضها الآخر مدنى مثل : ركوب أوَّل العام وركوب تخليق المِقْياس وركوب فَتْح الخليج .

فالعادة أن يحتفل المسلمون طوال العام بعيدَىْ الفِطْر والأضْحى ، وهما العيدان اللذان يحتفل بهما المسلمون فى كل مكان . وإلى جانب هاذين العيدين كانت العادة فى مصر الفاطمية أن يُحْتَفَل كذلك « برأس السنة

---

[١٣] ابن ميسر : أخبار مصر ٩٧ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٠٧ .
[١٤] المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٠٠ .

الهجرية » (أول المحرم) ، باحتفال ليلى يستمر إلى اليوم التالى « أوّل العام » ، و « مولد النبى » (١٢ ربيع الأول) ، و « قافلة الحج » ، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك الاحتفال « بليالى الوقود الأربع » (ليلة مستهل رجب وليلة نصفه ، وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه) . وأخيرًا ، فإن « صَوْم رمضان » كانت تصحبه بعض الرسوم فى البلاط الفاطمى خاصة وقت « إفطار » و « سُحور » الخليفة [١٥].

أما إحياء ذكرى المناسبات الشيعية فقد كانت عديدة على رأسها : « حُزْن عاشوراء » (١٠ محرم) حيث يُمَدُّ فيه سماط يعرف « بِسمَاط الحُزْن » ، وكذلك « مَوْلد الحُسَيْن » (٥ ربيع الأول) و « مَوْلد السَّيِّدة فاطمة » (٢٠ جمادى الآخر) ، و « مَوْلد الإمام على » (١٣ رجب) و « مَوْلِد الحسن » (١٥ رمضان) و (مَوْلد الإمام الحاضر » ويطْلَق على هذه الموالد الخمسة الأخيرة بالإضافة إلى « المولد النَّبوى » : « المَوَالِد الستة » أما آخر هذه الاحتفالات الشيعية « فعيد غَدير خُمّ » (١٨ ذى الحجة) [١٦].

وكعادة سابقيهم كان الفاطميون يحتفلون بأعياد النيل حيث كان « كَسْرُ الخليج » مناسبة لخروج الجماهير للاستمتاع بمنظر النيل ومشاهدة الخليفة وهو ينظر هذا الاحتفال . ويدخل فى هذا النوع من الاحتفالات رأس السنة القبطية أو « النَّوْرُوز » (أول توت) الذى يتوافق قدومه مع أقصى ارتفاع للفيضان .

كذلك فقد كان الخلفاء الفاطميون يُبْرزون بحضورهم قيمة الاحتفالات الشعبية التى كانت تصحب بعض الأعياد القبطية مثل : « المِيلَاد » و « الغِطَاس » و « خميس العَهْد » الذى كان مناسبة تَضْرب فيها الحكومة الفاطمية قطعًا صغيرة ذهبية تسمى « خراريب الذَّهَب » [١٧].

---

[١٥] ابن المأمون : أخبار ٨٢ – ٨٣ ، الخطط ١ : ٤٩١ – ٤٩٢ .

[١٦] ابن الطوير : نزهة ٢١٧ ، Wiet , G ., CIA Egypte II , pp . 176 - 177, Fu'âd Sayyid , A ., op . cit ., pp . 503 - 505 .

[١٧] ابن المأمون : أخبار ٩٥ ، الخطط ١ : ٤٥٠ ، Balog , p ., " Monnaies islamiques , =

ميزانية الاحتفالات الفاطمية .

وبالطبع فإن كل هذه الاحتفالات لم تكن تمر دون إرهاق ميزانية الدولة الفاطمية . فبمطالعة « الاستيمار » أو « الرُّوزْنامج » الذى يتضمَّن ما أُنْفِق عَيْنًا من بيت المال فى مُدَّة أوَّلها محرم سنة ٥١٧ وآخرها سَلْخ ذى الحجة منها (أول مارس ١١٢٣ - ١٨ فبراير ١١٢٤) ، والذى حفظه لنا ابن المأمون فى تاريخه ، نستطيع أن نلحظ حجم المبالغ المنصرفة فى هذا العام بعد خمسة عشر شهرًا فقط من تَوَلّى المأمون الوزارة . فقد بلغ حجم المنصرف عينًا « أربعمائة ألف وسبعة وستين ألفا ومائة وأربعين دينارًا ونصف » (٤٦٨,٧٩٧) وفى حقيقة الأمر فقد وُفِّر من أبواب هذا الاستيمار ٩٨,٣٩٧ دينارًا حملت إلى الصناديق الخاص برسم المهمات العسكرية الاستثنائية .

أما القسم الثانى من هذا الرُّوزْنامج فقد بلغ مائتى ألف دينار خُصِّصت « للديوان المأمونى » الذى ابتلع بذلك أكثر من رُبْع مجموع نفقات الدولة وهو يتضمَّن مصروفات الوزير وإخوته وأولاده بالإضافة إلى ما يُحْمَل مشاهرة إلى موظفى الدولة [١٨].

وفى الوقت فإننا نعلم كذلك المُنْفق فى مطابخ وأسْمِطَة الخليفة الآمر فقد كان يُذْبح له فى كل شهر خمسة آلاف رأس من الضَّأْن ثَمَن الرأس ثلاثة دنانير ، غير ما يذبح من الأنواع الأخرى [١٩]. ومن جهة أخرى يذكر لنا ابن المأمون أن عدد ما ذُبِحَ فى عيد النَّحْر وعيد الغَدِير سنة ٥١٥/فبراير سنة ١١٢٢ بلغ ألفين وخمسمائة وأحد وستون رأسًا تفصيله ، نوق : مائة وسبعة

. rares fatimites et ayyubites ", BIE XXXVI (1953 - 54), pp . 328 - 329

[١٨] نفسه ٧٠ - ٧١ ، الخطط ١ : ٣٩٩ ، المقفى (مخ . ليدن) ٢ : ٢١٢ و ، Wiet , G ., op . cit ., p . 181 ; Fu'ād Sayyid , A ., op . cit ., pp . 506 - 508 قارن ذلك بالاستيمار المعمول فى زمن الوزير اليازورى فى منتصف القرن الخامس (الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩) .

[١٩] المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٣١ .

عشر رأسًا ، بَقر : أربعة وعشرون رأسًا وهو عدد ما كان يذبحه الخليفة بيده في المُصَلّى والمَنْحَر وباب السّاباط . بينما كان الجزّارون يذبحون ألفين وأربعمائة رأس من الكباش [٢٠].

وهذا بالطبع غير ميزانية الكُسْوات والخِلَع التى كانت تُوَزَّع فى المناسبات المختلفة ، وكذلك ميزانية دار الفِطْرة والأسْمِطَة التى كانت تُمَدّ فى الاحتفالات الدينية والمدنية .

الخِلَع والتشاريف

هى الملابس ذات القيمة والتى يُطْلَق عليها حُلَّة (جـ . حُلَل) وبَدْلَة (جـ . بدلات) والتى يمنحها الحكام إلى رعاياهم الذين يودون مكافأتهم أو تشريفهم [٢١]. والخِلْعَة فى اللغة هى ما يُخْلع على الإنسان من الثياب [٢٢].

ففور وصول الخليفة المُعِزّ لدين الله إلى مصر أمر بعمل دار سمّاها « دار الكُسْوة » ، كان يُفَصَّل فيها جميع أنواع الثياب ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كُسْوَة الشتاء والصيف من العمامة إلى السراويل وما دون ذلك من الملابس ، وبلغ مقدار ما أنتجته هذه الدار فى أحد الأعوام أكثر من ستمائة ألف دينار [٢٣].

وبالإضافة إلى دار الكُسْوَة أنشأ الفاطميون دورًا للطراز ، وهى مصانع للنسيج تشرف عليها الحكومة نميز منها نوعين : طراز الخاصة وكان لا يشتغل إلّا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته ، وطراز العامة الذى كان يشتغل لحساب رجال البلاط وما يخلعه الخليفة على كبار رجال الدولة وأفراد الشعب [٢٤].

---

[٢٠] ابن المأمون : أخبار ٢٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٣٦ وقارن ذلك بما ذبحه الخليفة سنة ٥١٦ (ابن المأمون ٤١ — ٤٢ ، الخطط ١ : ٤٣٦) .

[٢١] انظر Stilman, N. A., EI²., art. Khil'a V, pp. 6-7.

[٢٢] الزبيدى : تاج العروس ، القاهرة ١٢٨٦ هـ ، ٥ : ٣٢٢ .

[٢٣] المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٩ .

[٢٤] زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ٨٣ — ٨٤ وانظر الفصل التالى .

وأوفى مصدرين يحدثانا عن تفريق الكُسْوات والخِلَع وأنواعها والتشاريف فى العصر الفاطمى هما : « تاريخ المُسَبِّحى » بالنسبة لبداية عصر الفاطميين ، « وتاريخ ابن المأمون » فيما يخص الفترة التى تولّى فيها والده المأمون البطائحى الوزارة للخليفة الآمر (٥١٥ – ٥١٩) . فيمدنا هذان المؤرخان بمعلومات غنية عن أنواع الملابس والعمائم والخِلَع ، سواء التى كان يرتديها الخليفة أو التى كان يَخْلَعها على وزارئه وخاصته وكبار رجال الدولة ، وكذلك قيمتها . فيذكر ابن المأمون أن كاتب الدَّفْتَر – وهو أحد موظفى ديوان المَجْلِس – كان يعد قبل بداية الشتاء ما يطلق عليه « جرائد كُسْوة الشتاء » ، وقد بلغ ما اشتمل عليه المنفق فيها سنة ١١٢٢/٥١٦ – أى فى بداية وزارة المأمون البطائحى – من الأصناف أربعة عشر ألفًا وثلاثمائة وخمس قطع (١٤,٣٠٥) ، بينما لم يتعد أكثر ما أُنْفِق فيها فى أيام سلفه الوزير الأفضل شاهنشاه ، على طولها ، ثمانية آلاف وسبعمائة وخمس وستون قطعة (٨,٧٦٥) صُرِفَت فى عام ١١١٩/٥١٣ [٢٥]. ولا شك أن كاتب الدَّفْتَر كان يعد جرائد مماثلة قبل حلول موسم الصيف .

وكانت المواسم التى توزَّع فيها الخِلَع والكُسْوات ، كما يذكر ابن المأمون ، هى عيد الفِطْر وعيد النَّحرْ ، وهى الموسم الكبير ويطلق عليها لذلك « عيد الحُلَل » لأن الحُلَل تعم فيها الجميع بينما توزَّع فى غيرها على الأعيان والخاصة [٢٦]، ويوم فَتْح الخليج ويوم النوروز [٢٧]. أما الكُسْوة المختصة بغُرَّة شهر رمضان وجمعتيه والمعروفة باللباس الجُمَعى ، فيبدو أنها كانت للخليفة فقط بهذه المناسبة ، وكانت فى عام ١٠٢٣/٤١٥ مكونة من طَيْلسان شَرْب مُفَوّط وعمامة قَصَب بياض مذهبة وثياب ديبقى بياض للجمعة الأولى من رمضان [٢٨]، ورداء بياض مُحَشّى قصبًا وذهبًا بياض ديبقىّ وثوبُ مُصْمَط

[٢٥] ابن المأمون : أخبار مصر ٤٨ ، ٥٥ .

[٢٦] نفسه ٣٨ ، ٤٨ .

[٢٧] نفسه ٢٤ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٤ .

[٢٨] المسبحى : أخبار مصر ٦٢ .

أبيض وعمامة مذهبة للجمعة الثانية [٢٩]. أما فى عام ١١٢٢/٥١٦ ، فى عهد الخليفة الآمر ، فكانت بَدْلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة لغُرَّة رمضان ، وبدلة موكبية حريرى مكملة منديلها وطيلسانها بياض برسم صلاة الجمعة الأولى بالجامع الأزهر [٣٠] ، وبدلة منديلها وطيلسانها شعرى برسم صلاة الجمعة الثانية [٣١] ، وكان إخوة الخليفة والوزير يصرف لهم كذلك خلع فى غُرَّة رمضان وجمعتيه .

كانت خزانة الكُسْوَة تستقبل ما تنتجه دور الطِّراز وكانت تتألف من قسمين : الخزانة الباطنة التى يحفظ بها ملابس الخليفة ويتولى أمرها امرأة تعرف أبدًا « بزَيْن الخُزّان » يعاونها ثلاثون جارية ، والخزانة الظاهرة التى تُفَصَّل فيها الثياب حسب ما تدعو إليه الحاجة ، ومنهاكانت تُوَزَّع الخِلَع التى يخلعها الخليفة على الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وضيوفها [٣٢].

وكان الذى يستلم ما يختص بالخليفة فى العيدين « مقدم خزانة الكُسْوَة الخاص » ، وهى بدلة خاصة جليلة مذهبة برسم الموكب ، ونصف بدلة برسم الجلوس على السِّماط بالإضافة إلى البدلة الحمراء التى كان يرتديها الخليفة عند دخوله المَنْحَر فى عيد النَّحر [٣٣] . وكان الخليفة يلبس فى الأعياد والمواسم المنديل (العمامة) بالشَّدَّة العربية المعروفة بـ « شَدَّة الوقار » (وكان لشَدّه ترتيب خاص لا يعرفه كل أحد ، يتولّاه أحد الأستاذين المُحَنَّكين ، يأتى بها فى هيئة مستطيلة ، ويكون المنديل من لون ثياب الخليفة) [٣٤]، أما فى غير هذه المناسبات فكان الخليفة يرتدى منديلًا « بالشدة الدانية » غير العربية [٣٥].

---

[٢٩] نفسه ٦٤ .
[٣٠] ابن المأمون : أخبار ٥٤ – ٥٥ .
[٣١] نفسه ٨١ – ٨٢ .
[٣٢] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٢٨ – ١٢٩ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٦٣ .
[٣٣] ابن المأمون : أخبار ٤٨ ، ٤٩ .
[٣٤] نفسه ٤١ ، ٧٥ .
[٣٥] نفسه ٧٩ .

وفى موسم فَتْح الخليج كان يصل إلى خزانة الكُسْوة بدلتان إحداهما منديلها وطَيْلَسانها طميم يرتديها عند ذهابه لفتح الخليج ، والأخرى جميعها من الحرير يريدتها عند رجوعه إلى القصر [٣٦].

وكان يُصْنَع بدار الطِّراز ثوب خاص للخليفة يقال له « البَدَنَة » ، لا يدخل فيه من الغزل سداء ولُحْمَة غير أوقيتين ، ويُنْسَج باقيه من الذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار [٣٧]، أغلب الظن أن الخليفة كان يرتديه عند جلوسه على سرير الملك فى قاعة الذَّهَب . وقد وصل إلينا وصفان لسرير الملك واحد فى أواسط القرن الخامس/الحادى عشر أورده صاحب « الذَّخائر والتحف » يذكر أن « فيه من الذهب الإبريز الخالص مئة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال . وأنه رُصِّع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه » [٣٨]. والآخر أورده غليوم رئيس أساقفه صور حيث يصف الخليفة العاضد بأنه « جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة » [٣٩].

وكانت الخِلَع تَوزَّع على إخوة الخليفة وأبناء وبنات عمومته وللوزير والأمراء المُطَوَّقين والأستاذين المُحَنَّكين والمُتَمَيِّزين وكاتب الدَّسْت ومتولى حَجْبَة الباب وكبراء الدولة وشيوخها . وقد بلغت كُسْوَة عيد الفِطْر فى سنة ١١٢١/٥١٥ مائة قطعة وسبع قطع (١٠٧) [٤٠].

وعندما كان يتولّى أحد كبار الموظفين وظيفة جديدة كان الخليفة يخلع عليه ، فعندما قُلِّد سنى الدولة حَمَد بن أخى التاهرتى جميع سيارات أسفل الأرض فى ٢٣ رجب سنة ٤١٥/سبتمبر سنة ١٠٢٤ خلع عليه الخليفة الظاهر

---

[٣٦] نفسه ٥٥ .
[٣٧] بن الطوير : نزهة المقلتين ١٠٣ ، ١٢٤ ، ١٩٨ ، المقريزى : الخطط ١ : ١٧٧ .
[٣٨] الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٦٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٥ .
[٣٩] Schlumberger, G., op. cit., p. 126.
[٤٠] ابن المأمون : أخبار ٢٥ ، ٤٨ ، ٤٩ .

« عمامة صغرى مذهبة وثوب طميم » [٤١]. وخُلِع على دوّاس بن يعقوب الكُتامى « ثوب مثقل وعمامة » عندما قُلِّد الحِسْبَة والأسواق والسواحل فى رجب سنة ٤١٤/أكتوبر سنة ١٠٢٣ [٤٢]. وبمناسبة وفاء النيل سنة ٤١٥/١٠٢٤، خلع الخليفة على ابن أبى الرّداد، متولى المقياس، « خِلَعًا ديبقية مذهبه ورداء مُحَشّى مذهب وعمامة شَرَب مذهبة » [٤٣]، كما خَلَع الخليفة كذلك على أبى عبد الله محمد بن على بن إبراهيم الرَّسّى نقيب نقباء الطالبيين فى جمادى الأولى سنة ٤١٤/أغسطس سنة ١٠٢٣ « ثوبًا ديبقيًا مذهبًا مصففًا بأطواق عراض ومن تحته ثوب مصمت مذهب وغلالة مذهبة وكذلك عمامة شَرَب مذهبة » [٤٤]. كما كانت الخِلَع تخلع كذلك على الرسل والأجانب الذين يزورون العاصمة [٤٥].

الأسْمِطَة

السِّماط (جـ . أسْمِطَة وسماطات) هو ما يُمَدُّ من الطعام [٤٦]. وقد تعدَّدت الأسْمِطَة الرسمية التى كان يحضرها الخليفة بنفسه فى العصر الفاطمى، وكان السِّماط يُمَدُّ فى قاعة الذّهب من القصر الفاطمى الشرق وذلك فى ليالى رمضان وفى العيدين وفى ليالى الوقود الأربعة والموالد الأربعة : النبوى والعلوى والفاطمى والإمام الحاضر [٤٧]، بالإضافة إلى سماط الحُزْن الذى كان يُمَدّ فى يوم عاشوراء [٤٨].

---

[٤١] المسبحى : أخبار ٥٠ .
[٤٢] نفسه ١٤ .
[٤٣] نفسه ٤٧ .
[٤٤] نفسه ٦ وانظر كذلك المسبحى : أخبار ٣، ١٧، ٣٢، ٤٧، ٦٣، ٨٣ .
[٤٥] ٣، ٥٤ . وانظر عن صناعة النسيج الفصل التالى .
[٤٦] الزبيدى : تاج العروس ٥ : ١٥٩ .
[٤٧] ابن المأمون : أخبار ٦٢، ابن الطوير : نزهة ٢١٧ .
[٤٨] ابن الطوير : نزهة ٢٢٤، المقريزى : الخطط ١ : ٤٣١ .

وكانت الأطعمة التى تقدم فى هذه الأسْمِطَة تعمل فى موضعين : اللحوم وما شاكلها فى مَطْبَخ القصر ، والحلوى والكعك بدار الفِطْرَة . ويقدم لنا المُسَبِّحى وابن المأمون مرة أخرى بالإضافة إلى ابن الطُّوَيْر معلومات غنية عن ما كان يقدم فى هذه الأسْمِطَة من أنواع المآكل وتكلفتها .

ففى بداية العصر الفاطمى كان سماط عيدى الفِطْر والنَّحْر يحمل قبل يوم العيد بيوم ويحتفل بذلك بأن يشق به الشارع الأعظم وحوله المجانية وأفراس الخيال والسودان والطبّالون ويجتمع الناس فى الشوارع لمشاهدته [٤٩]. وكان يشتمل على التماثيل والتزايين وقصور السكر وبلغ عدد قطعه فى عيدى الفِطْر والنَّحْر عام ١٠٢٥/٤١٥ مائة واثنتين وخمسين قطعة من التماثيل وسبعة قصور سكر كبار [٥٠]. ويذكر المُسَبِّحى أنه نتيجة لأزمة عام ١٠٢٥/٤١٥ كَبَس العامة القصر يوم عيد النَّحْر صائحين : الجوع الجوع ، نحن أحق بسِماط مولانا ، ولم يبالوا بضرب الصَّقالبة لهم وتهافتوا على الطعام وضرب بعضهم بعضًا ونهبوا جميع ما أصلح من الأخباز والأشوية والحلوى ونهبوا القصاع والطيافير (جـ . طيفور) والزبديات (جـ . زبدية) [٥١].

وقبل كل موسم كبير كان « متولى المائدة » يُحْضر مطالعة يستدعى بها ما جرت به العادة فى هذا الموسم من الحيوان والضأن والبقر وغيره [٥٢].

ويصف لنا ابن الطُّوَيِر السِّماط الذى كان يُمَدّ فى شهر رمضان كل ليلة بقاعة الذَّهب ابتداء من اليوم الرابع من الشهر وحتى اليوم السادس والعشرين منه ، وكان يدعى إليه الأمراء نوبة نوبة بمسطور يخرج إليهم . أما قاضى القضاة فكان يُسْتَدعى له فى ليالى الجُمَع فقط توقيرًا له . وكان السِّماط يُبْسَط فى

---

[٤٩] المسبحى : أخبار ٦٥ ، ٧٩ .
[٥٠] نفسه ٦٥ ، ٧٩ .
[٥١] نفسه ٨٢ .
[٥٢] ابن المأمون : أخبار ٧٤ .

طول القاعة من أول الرواق إلى ثلثى القاعة ، والفراشون قيام لخدمة الحاضرين ، وكانت تقدم فيه أفخر أنواع المأكولات والأغذية . وبلغ ما يُنْفَق فى شهر رمضان على سماطه مدة سبعة وعشرين يومًا ثلاثة آلاف دينار [٥٣] .

أما سِماط العيدين فهو سماطان فى عيد الفِطْر وسماط واحد فى عيد النَّحْر . وكان يوضع على السِّماط أوانى الفضة والذَّهب والصينى وطوله بطول القاعة وعرضه عشر أذرع . ويوضع فى وسطه واحد وعشرون طبقًا فى كل طبق واحد وعشرون خروفًا ، ومن الدجاج ثلاثمائة وخمسون طائرًا ، ومن الفراريج مثلها وكذلك من الحمام . ويتخلَّل هذه الأطباق صحون خزفية فى جنبات السماط يبلغ عددها خمسمائة صحن فى كل صحن تسع دجاجات فى ألوان فائقة من الحلوى والطَّباهِجَة المفتقة بالِمسْك . وبعد ذلك يحضر قصران من حلوى عملا بدار الفِطْرة زنة كل واحد سبعة عشر قنطارًا ينصبان أول السِّماط وآخره . ويستمر السِّماط إلى قرب الظهر ويتداوله الناس ولا يرد عنه أحدٌ حتى يذهب عن آخره [٥٤] .

وفى الموالد الستة ، التى أبطلها الوزير الأفضل وأعادها الخليفة الآمر فى سنة ١١٢٢/٥١٦ وهى : مولد النبى ﷺ ، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومولد السيدة فاطمة عليها السلام ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين عليهما السلام ومولد الخليفة الحاضر [٥٥] ، وكذلك فى ليالى الوقود الأربعة ، كان السِّماط يشتمل على الكعك والحلوى وعلى الأخص الخُشْكَنانج (وهو نوع من الحلوى المصنوعة من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يُمْلأ وسطها باللوز أو الفُستُق) والبَسَنْدود والفانيد ، التى كانت تعمل بدار الفِطْرة وكان يوفر لها ما يلزم من السكر والعسل واللوز والدقيق والسيرج [٥٦] . ففى « مولد

---

[٥٣] ابن الطوير : نزهة ٢١٣ ، ٧٥ ، المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٧ .

[٥٤] نفسه ٢١٣ – ٢١٤ ، نفسه ١ : ٣٨٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزهراة ٤ : ٩٧ – ٩٨ .

[٥٥] ابن الطوير : نزهة ٢١٧ .

[٥٦] ابن المأمون : أخبار ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ .

النبى ، كان يُعْمل فى دار الفِطْرَة عشرون قنطارًا من السكر اليابس حلواء يابسة تعبى فى ثلاثمائة صينية من النحاس تفرَّق فى أرباب الرُّسوم من أرباب الرُّتَب وكل صينية فى قوّارة [٥٧].

وكان يوفّر لدار الفِطْرَة سنويًا ما يلزم لإعداد هذه الحلوى ابتداء من النصف الثانى من شهر رجب من السكر والعسل والقلوب والزَّعْفران والطيب والدقيق وذلك لعمل الخُشْكنانج والبَسَنْدود وأصناف الفانيد الذى يقال له كعب الغزال والبَزْماورد والمفستق [٥٨]. وكان ما يُنْفق فى دار الفِطْرَة فيما يفرق على الناس منها ما قيمته سبعة آلاف دينار [٥٩]. ويذكر ناصرخسرو أن راتب السكر فى اليوم الذى تنصب فيه مائدة السلطان خمسون ألف مَنّ وأنه شاهد على المائدة شجرة أعِدّت للزينة – تشبه شجرة الترنج – كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، وعليها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضًا [٦٠].

وفى الموالد الستة كان يُعْمَل بدار الفِطْرة ما يقرب من خمسة قناطير حلوى تفرق على المتصدرين والقراء والفقراء بالمشاهد والمساجد الستة [٦١]. أما عدد الصوانى التى كانت تقدم على سماط الخليفة فى هذه المناسبات فكانت ما يقرب من أربعين صينية خُشْكنانج [٦٢].

ويقدم لنا ابن المأمون تفصيلات غنية عن قيمة ما كان يصرف من مواد

---

[٥٧] ابن الطوير : نزهة ٢١٧ . والقوّراة جـ . قوّارات . غطاء من شرب تكون تحت العراضى الدبيقى تعمل بدار الطراز للولائم ويغطى بها الصوانى . (ابن المأمون : أخبار ٧٣) .

[٥٨] ابن الطوير : نزهة ١٤٤ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٢٦ (نقلًا عن ابن عبد الظاهر) .

[٥٩] نفسه ١٤٥ .

[٦٠] ناصرخسرو : سفرنامة ١٠٨ .

[٦١] ابن المأمون : أخبار ٣٦ ، ٦٠ . والمساجد الستة هى : الأزهر والأقمر والأنور بالقاهرة والطولونى والعتيق بمصر وجامع القرافة . (نفسه ٦٣) .

[٦٢] نفسه ٣٥ ، ٦٢ ، ٦٤ .

لصناعة ما كان يقدم فى هذه الأسْمِطَة [٦٣]. ويكفى أن نعلم أن ما كان ينفقه الوزير المأمون البطائحى على السِّماط الذى كان يمده فى داره بلغ ١٣٢٦ وربع وسدس دينار ، وثمانية وأربعون قنطارًا من السكر برسم قصور الحلواء والقطع المنفوخ التى كانت تصنع له بدار الفِطْرة [٦٤].

---

[٦٣] نفسه ٩٢ - ٩٣ .

[٦٤] نفسه ٢٦ ، ٤٢ .

الفصل الرابع عشر

النّشاط العلمى والثّقافى

دارُ العِلْم وبدايات المدارس

دارُ العِلْم

كانت القاهرة طوال العصر الفاطمى هى مركز الدَّعْوة الإسماعيلية فى العالم الإسلامى. وتركَّزَت هذه الدَّعْوَة فى جامع القاهرة الذى عرف بالجامع الأزهر، والمُحَوَّل فى القصر، ودار العِلْم مقر داعى الدعاة الفاطمى.

وكانت بداية الدَّعْوَة الإسماعيلية فى الأزهر فى سنة ٩٧٥/٣٦٥. ففى صفر من هذا العام جلس القاضى على بن النُّعمان فى الجامع وأملى مختصر أبيه فى الفِقْه المعروف بـ «الاقتصار» فى جمع حافل من العلماء والكبراء وأثبت أسماء الحاضرين، فكانت هذه أوَّل حَلَقَة للدرس بالجامع الأزهر[1]. ولما تولّى يعقوب بن كِلِّس الوزارة سنة ٩٧٩/٣٦٨ رتَّب فى العام التالى فى داره «مجالس» للعلماء والشعراء والقُرَّاء والمتكلمين وأجرى لهم الأرزاق، كما كان هو نفسه يقرأ على الحاضرين «الرسالة الوزيرية»، وهى كتاب أَلَّفه فى فِقْه الإسماعيلية يتضمَّن ما سمعه عن المُعِزّ لدين الله وابنه العزيز بالله[2].

---

[1] المقريزى: الخطط ٢ : ٣٤١، اتعاظ ١ : ٢٢٧.

[2] ابن الصيرفى: الإشارة ٤٩ – ٥٠، ابن خلكان: وفيات ٧ : ٣٠، المقريزى: الخطط ٢ : ٣٤١، ٣٦٣.

وشهدت سنة ٩٨٨/٣٧٨ أوَّل محاولة لترتيب درس مُنَظَّم فى الأزهر حيث عَيَّن الوزير ابن كِلِّس سبعة وثلاثين فقهيًا بالأزهر يرأسهم الفقيه أبو يعقوب قاضى الخَنْدَق ، كانوا يتحلَّقون كل يوم جمعة بالجامع بعد الصلاة ويتكلمون فى الفقه حتى وقت العصر . ورَتَّب لهم الخليفة العزيز أرزاقًا وجرايات شهرية وأقام لهم دارًا للسكنى بجوار الجامع الأزهر [٣]. يقول المقريزى : « وهى أوَّل مرة يقام فيها درس فى مصر بمعلوم جارٍ من قِبَل السلطان » [٤].

أما الجهد الواضح للفاطميين فى مجالى الثقافة والتعليم فقد تركَّز فى دار العِلْم (الحِكْمة) التى أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله وافتتحت رسميًا يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥/إبريل سنة ١٠٠٥ [٥] . وقد أراد مؤسِّسها أن تكون شبيهة ببيت الحكمة الذى أقامه الخليفة المأمون العبّاسى فى بغداد ، فحمل إليها من خزانة كتب القصر كتبًا كثيرة تحتوى على سائر العلوم والآداب وأباح الاطلاع عليها لمن يريد فتردد عليها الناس ونسخ كل من التمس نسخ شئ مما فيها ما التمسه . ورتَّب فيها أناسًا يُدَرِّسون الناس العلوم المختلفة بين منجمين وأطباء وقُرّاء ونحويين ولغويين ، وعَيَّن بها خُزّانًا وخُدّامًا وفرّاشين ، وأجرى الأرزاق لمن رُسِم له الجلوس فيها والخدمة بها من الفقهاء والعلماء وغيرهم ، ووَفَّر بها ما يحتاج إليه الناس من حبر وأقلام وورق ومحابر [٦].

وقد مَرَّت هذه الدار على امتداد ١٧٢ عامًا من الحياة المليئة بالتقلُّبات والتغييرات بثلاث فترات مختلفة . فعندما أنشأها الحاكم سنة ١٠٠٥/٣٩٥ كان يقصد إلى إظهار حماسة وتقرُّبه إلى أهل السنة وتشجيع العلوم على إطلاقها

---

[٣] المسبحى : نصوص ضائعة ٣٨ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٣٦٣ ، المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٣ ، ٣٤١ ، محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ٤٣ – ٤٤ .

[٤] المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦٣ .

[٥] انفرد المسبحى ومن أخذ عنه بإطلاق اسم « دار الحكمة » على الدار التى أنشأها الحاكم ، بينما سمّاها معاصره يحيى بن سعيد باسم « دار العلم » .

[٦] المسبحى : نصوص ضائعة ٢٢ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ١٨٨ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٨٥ – ٤٨٦ ، اتعاظ ٢ : ٥٦ .

وظَلَّت كذلك فى عهد مؤسِّسها ، وإن تَغَيَّر دورها الدينى اعتبارًا من عام ١٠١٠/٤٠٠ وقُتِل بعض علمائها وتخَفَّى عدد آخر منهم ، وأصبحت مركز الدعاية الإسماعيلية [٧] . وفى عام ١١١٩/٥١٣ أغلقت دار العِلْم مؤقتًا لمساعدتها على نمو روح معادية لمذهب الدولة الدينى [٨] ، ثم أعيد افتتاحها سنة ١١٢٣/٥١٧ فى موضع مغاير لموضعها الأول لتستمر كمؤسَّسة إسماعيلية حتى قضى عليها بوصول الأيوبيين إلى السلطة فى عام ١١٧١/٥٦٧ [٩] .

ورغم أن المصادر لا تحدَّثنا عن نشاط دار العِلْم فيما بين عهد الحاكم وعام ١١١٩/٥١٣ ، فلا شك أنها كانت بين هذين التاريخين تؤدى دورها كمكتبة عامة وكانت مركز نشاط جدير بالاهتمام هو الدعوة الإسماعيلية . ويؤكد أهمية هذه الدار فى هذه الفترة أن واحدًا من كبار رجال الدعوة هو داعى الدعاة المؤيد فى الدين هبة الله الشّيرازى دُفِن بها عند وفاته سنة ١٠٧٧/٤٧٠ [١٠] .

وبعد إعادة افتتاح دار العِلْم فى سنة ١١٢٣/٥١٧ بأمر الوزير المأمون البطائحى ، أصبحت المقر الرسمى للدعوة الإسماعيلية ، فيذكر ابن الطُّوَيْر عن داعى الدعاة – وهو يكتب فى نهاية الدولة الفاطمية – أنه يُجب أن يكون فقيهًا عالمًا بجميع مذاهب أهل البيت ، وأنه يقوم بأخذ العَهْد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم ، ويتردَّد عليه فقهاء الدولة ويجتمعون فى مكان يعرف بـ « دار العِلْم » [١١] .

---

[٧] انظر أعلاه الفصل الثالث .

[٨] ابن المأمون : أخبار مصر ٤٤ – ٤٦ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٥٩ – ٤٦٠ ، المقفى (غ . السليمة) ٢٧٧ ظ – ٢٧٨ .

[٩] ابن ميسر : أخبار مصر ٩٥ ، Eche , y . , Les bibliothèques arabes publiques et semi - publiques en Mesopotamie , en Syrie et en Egypte au Moyen Age , Damas 1967 ., p . 75 .

[١٠] المقريزى : الخطط ١ : ٤٦٠ .

[١١] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٠ ، القلقشندى : صبح ٤٨٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ١ : ٣٩١ .

أما « خزانة كتب الفاطميين » فقد وصفها ابن أبى طَىّ بأنها « من عجائب الدنيا ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر .. ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة »[١٢]. ولدينا كذلك وصفًا مثيرًا للإعجاب لمكتبة القصر أمدَّنا به صاحب الكتاب « الذّخائر والتُّحَف » ، الذى كان فى مصر بين سنتى ٤٥٩/١٠٦٧ و ٤٦١/١٠٦٩ ، وأضاف أن أغلب كتب هذه الخزانة قد ذهب عندما تسلَّط الأتراك على القاهرة فى أيام المستنصر وأخذوه عِوَضًا عن مرتباتهم[١٣]. وقرب نهاية العصر الفاطمى يُقَدِّم لنا ابن الطُّوَيْر وصفًا دقيقًا لترتيب هذه الخزانة وتنظيمها ، فيذكر أنها تحتوى على عدد من الرفوف فى دائر المكان المخصص لها ، وهذه الرفوف مُقَطَّعة بحواجز وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقِفْل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجرَّدات ، تتراوح موضوعاتها بين الفِقْه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء ، وعلى باب كل خزانة ورقة ملصقة توضح محتوياتها من هذه الكتب . أما المصاحف الكريمة فكانت فى مكان منفصل فوق الخزائن ، وكانت بها دروج بخط ابن مُقْلَة وابن البَوّاب وغيرهم من مشاهير الخطاطين[١٤]. وقد بيعت هذه المكتبة الضخمة بعد استيلاء صلاح الدين على السلطة تولَّى بيعها شخص يعرف بابن صورة ، وخُصِّص لبيعها يومان فى الأسبوع لمدة عشر سنوات[١٥].

---

[١٢] المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٩ .

[١٣] الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٦٢ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٨ ، Khoury , G .R . , " Une description fantastique des fonds de la Bibliothèque " Hizãnat al - Kutb " au Caire " , proceedings of the Ninth Gongess of the union Europèenne des Arbisants et Islamisans ., Leiden 1981 , pp . 123 - 100 .

[١٤] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٢٧ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٠٩ .

[١٥] أبو شامة : الروضتين ١ : ٦٨٦ – ٦٨٧ ، المقريزى : ١ : ٤٠٩ .

المَدارِس

إذا كانت المدارس فى الشرق الإسلامى ، وخاصة فى بغداد ، قد نشأت فى مجتمع سنى بهدف تأييد المذهب الأشْعَرى ولمواجهة مذاهب الشيعة ، وللمساعدة فى إعداد رجال الدين وكوادر الموظفين الرسميين[١٦] . فإن نشأة المدارس فى مصر فى آخر العصر الفاطمى كان له مغزى آخر إذ قامت لتدعيم الإسلام ضد تحدِّى أو استفزاز أهل الذِّمة الذين وصلوا إلى شغل مناصب عُلْيا فى الدولة فى العقود الأولى للقرن السادس/الثانى عشر عندما كان الأَرْمنَ هم أصحاب السيادة وعلى الأخص فى فترة وزارة بَهْرام الأَرْمنى (٥٢٩ – ٥٣١)[١٧] . وقد قام رضوان بن وَلَخْشى ، الوزير السُّنِّىّ الذى خلف بَهْرام ، ببناء أوَّل مدرسة فى الإسكندرية لتدريس المذهب المالكى فى سنة ١١٣٨/٥٣٢ وقرَّر فى تدريسها الفقيه المالكى أبا الطاهر بن عَوْف ، وقد عرفت هذه المدرسة بـ « المدرسة الحافظية » وبـ « المدرسة العَوْفية »[١٨] . وأنشأها رضوان فى الإسكندرية باعتبارها مركز المقاومة السنية ، فقد كان كل سكانها من السنة والمذهب الشائع بينهم هو المذهب المالكى بسبب صلاتها بشمال إفريقيا والأندلس ، وبعد أربعة عشر عامًا أنشأ وزيرًا سنيًا آخر هو العادل بن السَّلار مدرسة ثانية فى الإسكندرية ولكن فى هذه المرة لتدريس المذهب الشّافِعى نحو سنة ٥٤٦/١١٥٠ ، وقرَّر فى تدريسها الفقيه والمحَدِّث

---

١٦ Leier , G . , " The Madrasa and the Islamization of the Middle East - The case of Egypt ", JARCE XXII (1985), p. 29; id., " Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society ", MW LXXV (1986), p. 16 .

١٧ ابن ميسر : أخبار ١٢٢ ، ساويرس : تاريخ البطاركة ٣/١ : ٣١ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٥٩ ، وأنظر أعلاه ص .

١٨ ابن ميسر : أخبار ١٣٠ ، القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٥٩ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٦٧ ، الشيال : « أول أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية » ، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية ١١ (١٩٥٧) ٣ – ٢٩ .

الشّافعى الحافظ أبا الطاهر السِّلَفى[١٩] . ولكن المدرسة كمؤسسة سنية رسمية لم تُعْرَف على مستوى واسع فى مصر إلّا مع تولّى صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، وأُسّست المدارس الأولى فى مصر فى مدينة الفُسْطاط سنة ٥٦٦/١١٧١[٢٠] .

الفنـــون والآثـــار

العِمارَة

انحصرت فنون العمارة الفاطمية التى وصلت إلينا فى المدن التى أسّسها الفاطميون فى إفريقية ومصر (المَهْدِيَّة ، صَبْرة المنصورية ، القاهرة) .

وما زالت المَهْدِيَّة ، التى أسّسها الخليفة المهدى سنة ٣٠٣/٩١٥ وانتقل إليها سنة ٣٠٨/٩٢٠ ، تحتفظ بأنقاض تحصيناتها الفاطمية ، ومسجد جامع أعيد بناؤه ، وبقايا قصر القائم بأمر الله ويتميّز جامع المَهْدِيَّة بمدخل رئيسى بارز عن سَمْت جدار المؤخر على هيئة بوابة تُذَكّرنا بأقواس النصر الرومانية ، وقد انتقل هذا الطراز إلى العمارة الفاطمية فى مصر[٢١]. وعند مدخل مدينة القيروان – حيث أنشئت مدينة صَبْرَة المنصورية – ما زالت هناك بقايا لقصر يُظَن أنه من عمل المنصور بالله إسماعيل ، نستطيع أن نميّز منه قاعة عريضة تفتح عليها ثلاث قاعات على شكل إيوان[٢٢]. ويشبه هذا التنسيق شكل القاعات

---

[١٩] ابن خلكان : وفيات ١ : ١٠٥ ، ٣ : ٤١٧ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٣٧ ، الصفدى : الوافى ٧ : ٣٥٤ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ١٩٨ .

[٢٠] المقريزى : الخطط ٢ : ٣٦٣ ، اتعاظ ٣ : ٣١٧ ، وانظر أيمن فؤاد سيد : « المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى » مقال فى كتاب « المدارس فى مصر الإسلامية » (تحت الطبع) .

[٢١] انظر Lezine , A . , Mahdiya, Recherches d'Archéologie Islamique, Paris 1965; Fu'ād sayyid, A . , La capitale de l'Egypte (sous press) .

[٢٢] انظر Zbiss, S. M., " Mahdia et Sabra Mansouria. Nouveaux documents d'art fatimide d'occident " , JA CCXLIV (1956) , pp . 79 - 93 .

الطولونية التى كُشِفَت فى الفُسْطاط ، وهو يدل على وجود علاقات بين مصر وإفريقية سابقة على انتقال المُعِزّ إلى مصر [٢٣].

وفى مصر أسَّس جوهر مدينة القاهرة واستخدم فى بناء أسوارها وأبوابها الأولى الآجُرّ ، وقد زالت أثار سور جوهر وأبوابه منذ زيادة ناصرخسرو لمصر فى أواسط القرن الخامس/الحادى عشر [٢٤].

وفى نفس الليلة التى اختط فيها جوهر مدينة القاهرة وضع أساس « قصر كبير » فى وسط المدينة اعتمادًا على التصميم الذى وضعه الخليفة المُعِزّ بنفسه ، وبالطبع فإن هذا التصميم لم يكن يتضَمَّن نصف الأبهاء والقاعات الفخمة التى وصفها المقريزى . وهو عبارة عن مجموعة من الأبنية والقصور الصغيرة أُطْلق على مجموعها « القصور الزاهرة » . وللأسف الشديد فنحن نجهل كل شيء عن عمارته حيث زال كل أثر لهذا القصر وحَلَّت محله الآن المدارس التى أنشئت فى العصرين الأيوبى والمملوكى وحَىّ خان الخليلى وحَىّ الجمالية . ومصدر معلوماتنا عن هذا القصر ما أمَدَّنا به المقريزى فى كتاب الخِطَط نقلًا عن مصادر أيوبية أو ما شاهده بنفسه من بقايا أطلال القصر التى قُضِىَ عليها تمامًا نحو سنة ٨١١/١٤٠٨ فى أيام استبداد جمال الدين الأُسْتادّار [٢٥]. وعلى عكس المدن الإسلامية فقد كان القصر الفاطمى وليس المسجد الجامع هو مركز مدينة القاهرة الذى يتركز حوله نشاط المدينة .

وفى عام ٣٥٩/٩٧٠ وضع جوهر القائد أساس « جامع القاهرة » — الذى

---

[٢٣] Marçais, G., EI², art. L'Art Fatimide II, p. 882.

[٢٤] Creswell, K. A. C., "The Founding of Cairo" CIHC pp. 125-130; Fu'ad sayyid, A., La capitale de L'Egypte jusqu'à lèpoque fatimide (sous press).

[٢٥] المقريزى : الخطط ١ : ٣٨٤ – ٤٥٨ ، Ravaisse, P., Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire, MMIFAO, II (1887, 1890), Fuād Sayyid, A., op. cit.

عرف فيما بعد « بالجامع الأزهر » [٢٦]– ولم يُفْتَتح هذا الجامع للصلاة إلّا فى ٧ رمضان سنة ٢٠/٣٦١ يولية سنة ٩٧١ ، وقد استخدم فى بنائه أيضًا الآجُرّ . ويشبه التخطيط الأصلى له تخطيط جامع ابن طولون وجامع المهدية ، والجامع الذى نراه اليوم ليس كله بالجامع الفاطمى الذى وضع أساسه جوهر ، بل هو مجموعة من المبانى ضُمَّت إليه أزمنة لاحقة . ولم يبق من الجامع الفاطمى سوى المجاز المتجه إلى المحراب الفاطمى وعقوده وهى الجزء الوحيد الباقى من العقود القديمة [٢٧].

أما « جامع الحاكم » فقد بدأ بناءه الخليفة العزيز بالله خارج باب الفتوح القديم سنة ٩٩٠/٣٨٠ وسمّاه « جامع الخُطْبَة » ، ثم توقّف العمل فيه إلى أن أكمله ولده الحاكم بأمر الله سنة ١٠٠٣/٣٩٣ ، ولكنه لم يُفتَتح رسميًا للصلاة إلّا فى سنة ١٠١٢/٤٠٣ وأطلق عليه فى فترة لاحقة اسم « الجامع الأنْوَر » ويجمع هذا الجامع فى تخطيطه بين عناصر إفريقية وعناصر مصرية ، فتخطيط الجامع بلا جدال يماثل تخطيط جامع ابن طولون الذى بنى على طراز سامَرّا ، ويفتح مدخل الجامع الرئيسى فى منتصف جدار مؤخّر الجامع فى موضع يقابل المِحراب ، وهو يتّفق فى ذلك مع مدخل جامع المهدية . ويبرز المدخل الرئيسى خارج سَمْت جدار المؤخر متخذًا هيئة برجين يتوسطهما ممر يؤدى إلى باب بحيث أصبح شكل المدخل يماثل البوابة بالمعنى المصطلح عليه فى عمارة الأسوار ، بينما كانت المداخل الرئيسية قبل ذلك تفتح عادة فى الجدارين

---

[٢٦] استخدم الفاطميون صيغة أفعل التفضيل فى تسمية منشآتهم الدينية التى أنشأها الخلفاء مثل : الجامع الأزهر ، الجامع الأنور ، الجامع الأقمر ، الجامع الأفخر . فقد كان الجامع الأزهر يطلق عليه فى عصر المسبحى (مطلع القرن الخامس/الحادى عشر) جامع القاهرة ، وكذلك الجامع الأنور الذى ظل لفترة غير قصيرة يعرف بجامع الحاكم .

[٢٧] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٣ – ٢٧٧ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ١ : ٤٧ – ٦٣ ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ١ : ٤١ – ٥٩ ، Creswell , K . A . C. MAE I , pp . 36 - 64; Jomier , J ., EI² ., art . al-Azhar I , pp. 837 - 844 ; Fu'ad Sayyid , A ., op . cit ، محمد عبدالله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ١٩٥٨ .

الجانبيين غير جدارى القِبْلَة والمؤخر كما هو واضح فى جامع ابن طولون ، وقد تكرَّر هذا الطِّراز فى جامع الأقمر (٥١٩/١١٢٥) ولكن بأبعاد مختلفة . أما مئذنتى هذا الجامع فطراز فريد بين المآذن فى مصر الإسلامية وقد بنيتا من الحجارة ، واحدة فى الركن الغربى الشمالى والأخرى فى الركن الشمالى الشرقى على شكل محور أسطوانى تحيط به كتلة مربعة الشكل . وتمثل الزخرفة ذات الأشكال الهندسية والنباتية على قاعدة هاتين المئذنتين وعلى المدخل الرئيسى للجامع مرحلة حاسمة فى تشكيل الزخرفة الإسلامية [٢٨].

ولم تظهر الحجارة فى العمارة الفاطمية إلّا عند بناء جامع الحاكم (الأنْوَر) وبذلك أصبح يمكن الاستغناء عن الاستعانة بالطلاء الجصى فى غطاء المسطحات الجدارية وتسويتها . وقد أضافت الزخرفة المنحوتة على الحجارة أهمية إلى واجهات المساجد الفاطمية تظهر بوضوح فى جامعى الأَقْمَر والصّالح طلائع .

ومنذ بناء جامع الحاكم ، لم يبن فى القاهرة أىّ مسجد ، وكان أوَّل مسجد بنى بعد ذلك هو « الجامع الأقمر » ، ورغم أنه يعرف بالجامع ، فإنه لم يكن جامعًا إذ لم تكن فيه خطبة كما يذكر المقريزى [٢٩] . وقد شُيِّد هذا الجامع ، كما يذكر ابن مُيَسَّر ، فى آخر عام ٥١٥/١١٢١ فى أيام الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحى [٣٠] ، وافتتح للصلاة فى عام ٥١٩/١١٢٥ [٣١]. وقد بنيت جدران المسجد وواجهته من الحجارة ، وهى أوَّل واجهة لمسجد قائم بالقاهرة عنى ببنائها وزخرفتها ولا تقتصر هذه الزخرفة على البوابة فقط بل تشمل

---

[٢٨] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٧ – ٢٨٢ ، أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ٨٣ – ٨٥ ، Creswell , K. A . C., MAE I , pp . 65 - 66; Bloom , J. M. " The Mosque of al - Hakim in Cairo " , Muqarnas I (1983), pp. 15 - 36; Fu'ad sayyid, A., op , cit .

[٢٩] المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٠ .

[٣٠] ابن ميسر : أخبار ٩١ ، المقريزى : اتعاظ ٣ : ٧٧ .

[٣١] Wiet , G ., CIA Egypte II , pp . 170 - 181; id ., RCEA VIII , pp . 146 - 148 no 3011 - 3012 .

واجهة المسجد كلها المواجهة لجدار القبلة ، وهى واجهة تحوى جناحين متماثلين على يمين ويسار المدخل تظهر فيها أشكال المُقَرْنَصات لأول مرة فى عمارة القاهرة [٣٢].

ويعد « جامع الصّالح طلائع » ، الذى بناه خارج باب زُوَيْلَة فى عام ٥٥٥/١١٦٠ الوزير الملك الصالح طلائع [٣٣]، آخر المساجد الجامعة التى أقامها الفاطميون فى القاهرة وهو من المساجد المُعَلّقة ، فقد أقيم على أبنية طابق تحت سطح الأرض كانت تستخدم كمخازن وحوانيت ، وهو بذلك الأوّل من هذا النوع فى القاهرة . وقد تعرّض هذا الجامع لكثير من الحوادث والإصلاحات إلى أن تم ترميمه وإعادة بنائه بواسطة لجنة حفظ الآثار العربية فى العقد الثانى من هذا القرن [٣٤].

ويلاحظ أن مساحة المساجد فى العصر الفاطمى ، التى بنيت بعد جامع الحاكم ، قد أخذت فى التقلص ، ويرجع ذلك إلى كثرة وتعدد المساجد الجامعة . كما يلاحظ فى تخطيط المساجد الفاطمية اتساع أُسْكوب المحراب وبلاطته وذلك لتمهيد قاعدة مربعة للقبة التى تقام أمام المحراب على تقاطع أسكوبه ببلاطته . وقد استوجبت قاعدة القبة المربعة تساوى ضلوع هذه القاعدة وأصبحت بذلك عنصرًا جديدًا فى تخطيط المساجد [٣٥].

وعرفت مصر فى العصر الفاطمى نوعًا آخر من المنشآت الدينية هو المسجد

---

[٣٢] انظر ، المقريزى : الخطط ٢٩٠ – ٢٩١ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ٦٩ – ٧٣ ، أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ٩٥ – ١٠٢ ، K. A. C., MAE I, pp. 241 -246; Williams, C., " The Mosque of al - Aqmar ", Muqarnas I (1984), pp. 43 - 52; Fu'ad Sayyid, A, op. cit.

[٣٣] Wiet, G, RCEA IX no 3231.

[٣٤] انظر المقريزى : الخطط ٢ : ٢٩٣ ، حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ٩٧ – ١٠٥ ، أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ١١٠ – ١٢١ ، Creswell, K. A. C., MAE I, pp. 275 - 288; Fu'ad Sayyid, A., op. cit.

[٣٥] أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ١٢٦ ، ١٣٧ .

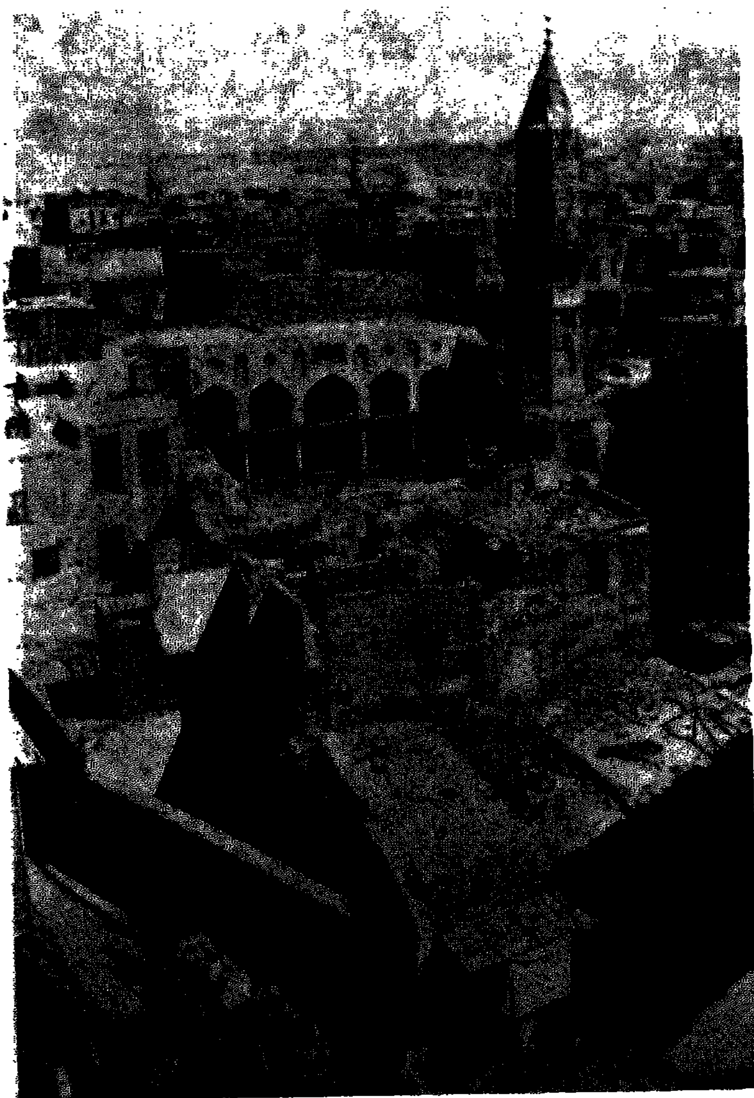


واجهة جامع الحاكم بأمر الله (الأنور)

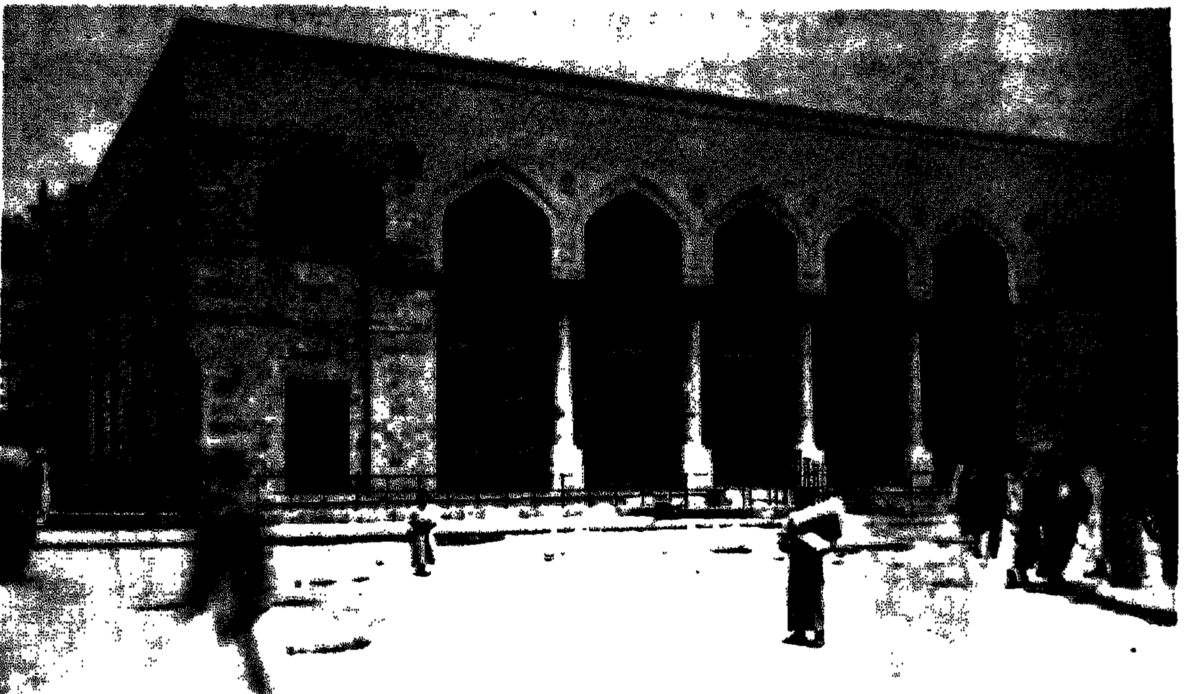


واجهة جامع الحاكم بأمر الله (الأنور) بعد ترميمها

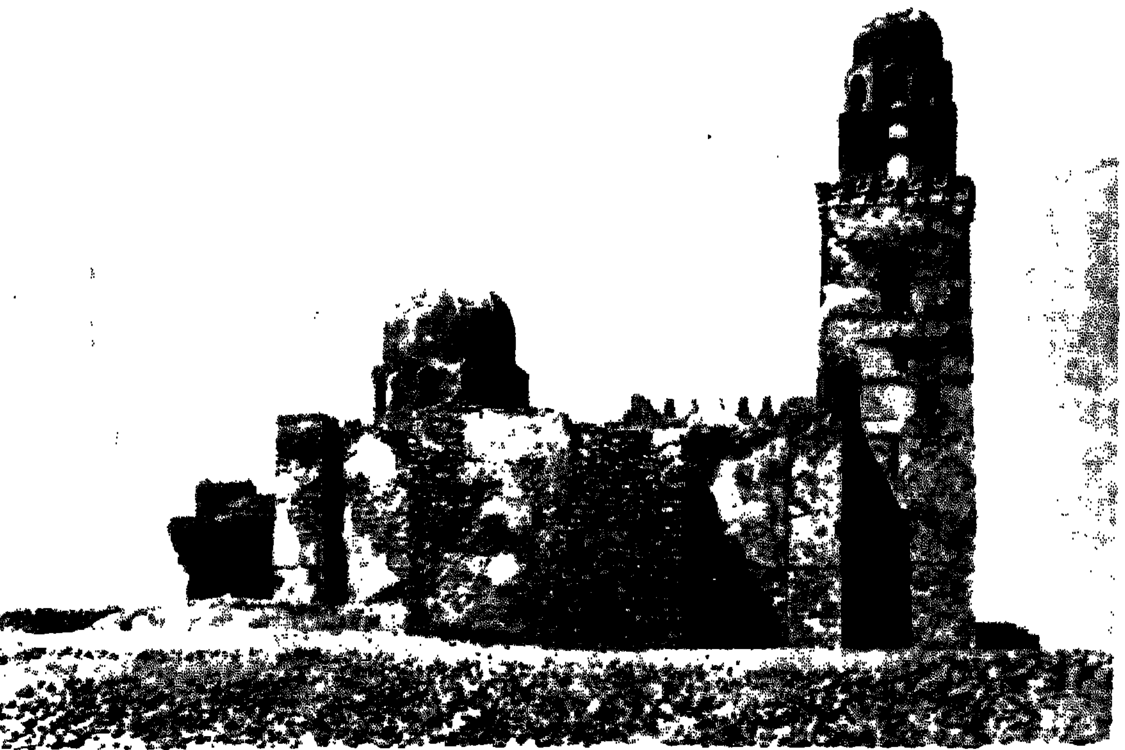
الجامع الأقْمَر (٥١٥-٥١٩/١١٢١-١١٢٥)



جامع الصّالح طلائع (٥٥٥/١١٦٠) قبل ترميمه



جامع الصّالح طلائع (٥٥٥/١١٦٠) - الواجهة الغربية بعد ترميمها



مَشْهَد الجُيُوشى (١٠٨٥/٤٧٨) – الواجهة الشمالية الشرقية

ذو الضريح أو « المَشاهِد » ، وهى مشاهد أقيمت لإحياء ذكرى آل البيت ، وأغلب هذه المشاهد مشاهد رُؤْيَة ويقع أغلبها فى المنطقة المعروفة بالمَشاهِد بين القاهرة والفُسْطاط . ومعظم هذه المشاهد غير ثابت التاريخ ويقوم ترجيح انتمائها إلى العصر الفاطمى على دراسة عناصرها المعمارية والزخرفية ، وعادة ما يحتفظ المَشْهَد أو المسجد المستخدم ضريحًا بجميع العناصر التخطيطية للمسجد . وأهم هذه المشاهد : مَشْهَد السيدة سُكَيْنَة ، مَشْهَد عَاتِكَة والجَعْفَرى ، مَشْهَد السيدة رُقَيَّة ، مَشْهَد إخْوة يوسف ، مَشْهَد اللُّؤْلؤة والمشاهد التسعة والقباب السبع بالقرافة[٣٦]. ويمكننا أن نضيف إلى هذه المشاهد « مَشْهَد الجُيوشى » الذى أقامه بدر الجمالى على هضبة المقطم سنة ١٠٨٥/٤٧٨ ، ربما ليدفن فيه[٣٧]!

أما « أبواب القاهرة » و « وأسوارها » التى شَيَّدها بدر الجمالى بين عامى ١٠٨٧/٤٨٠ و ١٠٩٢/٤٨٥ فما زال باقيًا منها جزء من السور الشمالى وأربعة أبواب : باب النَّصْر وباب الفتوح فى السور الشمالى وباب زُوَيْلَة فى السور الجنوبى وباب البَرْقِية الذى كان يفتح فى السور الشرقى . وقد بنيت

---

[٣٦] نفسه ١ : ٢٨ – ٣٨ ، Ragib , y . , " Les Mausolées du quartiers d'al -Masāhid ", An . Isl . XVII (1981) pp . 1- 30; id . , " Les Sanctuaires des gens de le famille dans la cité des morts du Caire " , RSO LI (1977) , pp . 47 - 46 ; id . , " Sur un groupe de mausolée du cimetière du Caire " , REI XL (1972) , pp . 189 - 159 ; . Fu'ad Sayyid , A , op . cit

[٣٧] عن هذا المشهد أو المسجد راجع Van Berchem , M . , " Une mosquée du temps des Fatimites au Caire " ,MIE II (1889), pp . 605 -619 , Creswell ,K . A . C . , MAE I pp . 155 - 160; Shafei , F . , أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ١ : ٨٩ – ٩٤ ، " The Mashhad al - Juyûshi - Archeological notes and Studies " , in Studies in Islamic Art and Architecture 1965 , pp. 237 - 252 ; Ragib , Y . , " Un oratoire fatimide au sommet du Muqattam " , SI LXV (1987), pp.51-67 وهو يرى أنه مجرد مصلى أقامة على المقطم بدر الجمالى لتخليد انتصاره على الخارجين وقضائه على الفوضى رغم أن نصه التذكارى يذكر أنه مشهد ، Fu'ad Sayyid, A ., op. cit .

أبواب القاهرة التى شيَّدها بدر الجمالى من الحجارة وهى أبنية ضخمة سواء من حيث المساحة التى تشغلها كل بوابة ، وهى حوالى خمسة وعشرين مترًا مربعًا ، أو من حيث ارتفاعها الذى يزيد عن عشرين مترًا ، أو من حيث الكتل الحجرية التى استخدمت فى بنائها وقد جُلب الكثير منها من الآثار الفرعونية وواضح بها إلى الآن الكتابة المصرية القديمة . ويتقدَّم كل بوابة بدنتان أو برجان ضخمان فى الجهة الخارجية عن سَمْت الأسوار ، فيما عدا باب البَرْقِيَّة . وتظهر فى بوّابة النَصْر أقدم أمثلة لتجميع الصَّنَج المُعَشَّقة فى عمارة القاهرة إن لم تكن فى تاريخ العمارة كلها [٣٨].

ويتَّضح فى هذه الأبواب تأثير العمارة الأرمنية . فيذكر المقريزى أن ثلاثة إخوة قدموا من الرُّها بنّائين هم الذين بنوا الأبواب الثلاثة [٣٩]، بينما يذكر أبو صالح الأرمنى أن الذى هَنْدَس سور القاهرة وأبوابها شخص يدعى يوحنا الرّاهب [٤٠].

الفُنون الفَرْعيّة

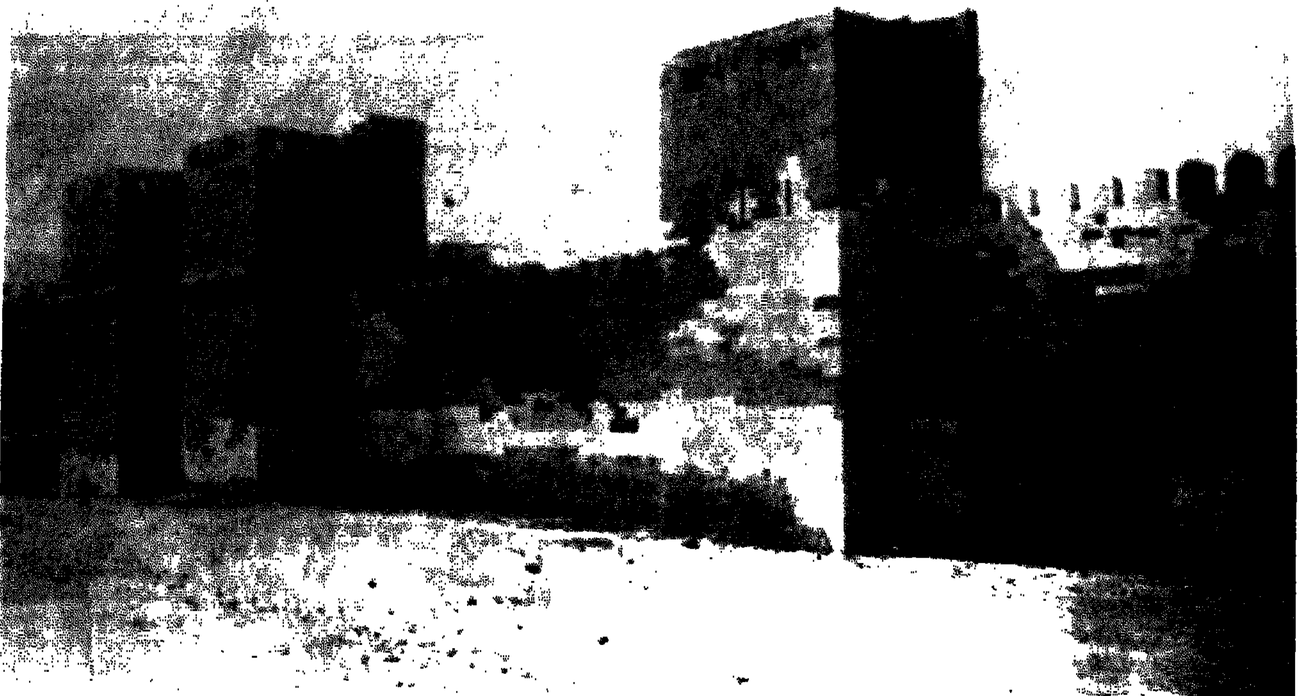
يعد العصر الفاطمى ، من الوجهة الفنية ، عصر النجاح فى الوصول إلى طراز فنى يضم بين ثناياه شتّى الأساليب الفنية فى العصور السابقة . ورغم أن الأساليب الفنية فى بداية العصر الفاطمى استمدت الكثير من الأساليب الطولونية وأساليب سامَرّا إلّا أنها لم تلبث أن تفوّقت عليها وتميَّزت برهافة الذوق والدقة والبراعة فى الإبداع والتنفيذ . وقد تأثَّرت فنون الفاطميين ببعض التقاليد الإيرانية ، كما أخذت أيضًا عن فنون بيزنطة . ويرى G . Wiet أن اختلاط هذين العنصرين على يد الفنانين المصريين أنتج تحفًا ألطف وأرق من

---

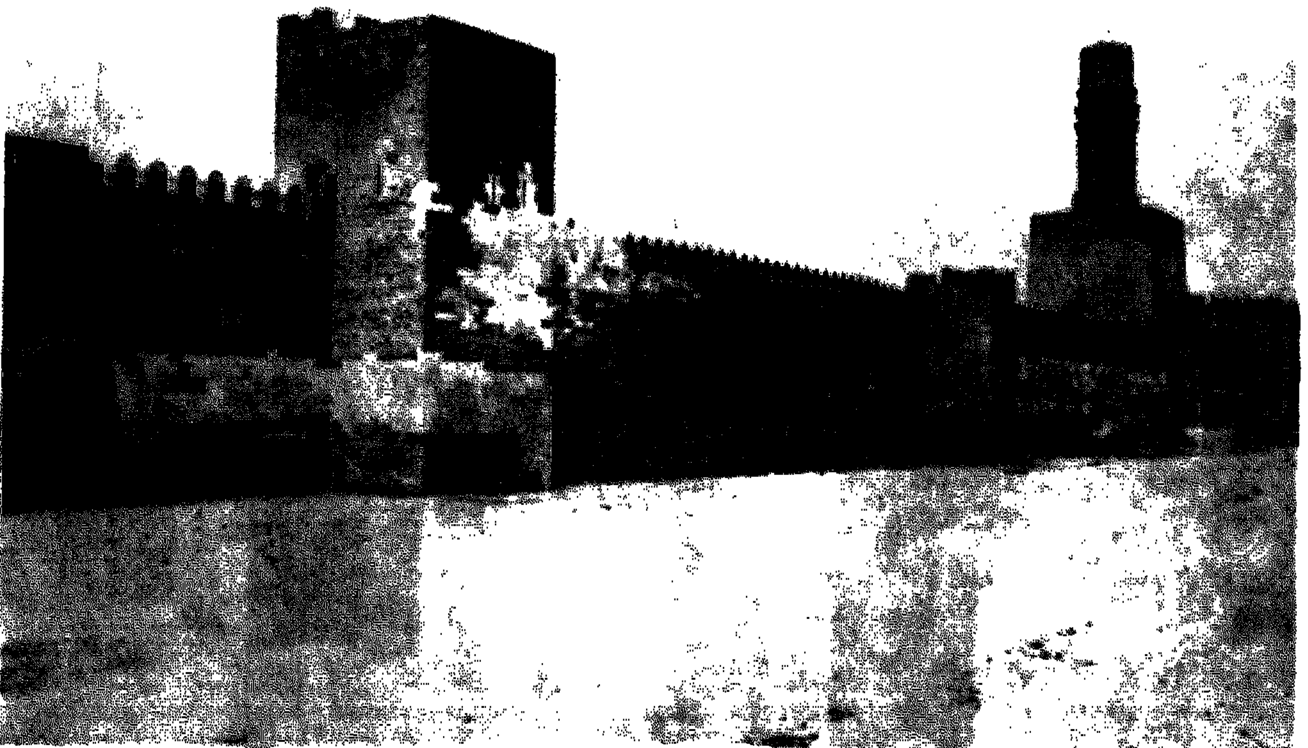
[٣٨] أحمد فكرى : مساجد القاهرة ١ : ٢٦ ، ١٥١ ، ٢٠٧ .

[٣٩] المقريزى : الخطط ١ : ٣٨١ .

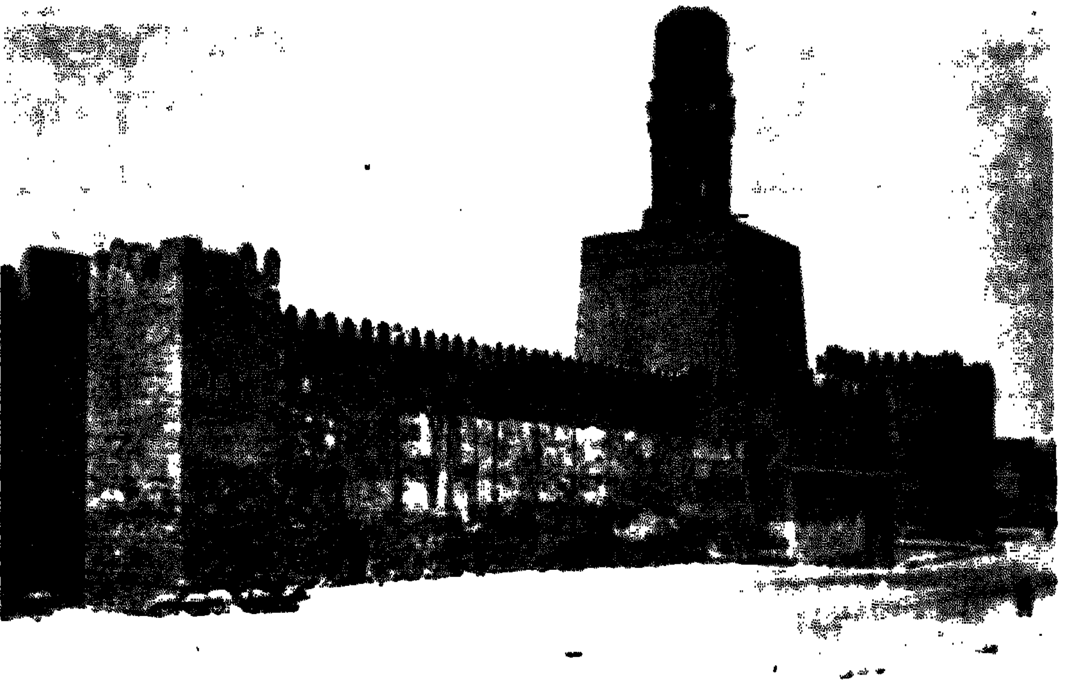
[٤٠] أبو صالح : تاريخ ٦٥ . وراجع ، أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ٢١ – ٢٨ ، Greswell, K . A . C . I, pp . 161-216; Fu'ad , Sayyid , A ., op . cit .,



سور القاهرة الشمالى الذى بناه بدر الجمالى سنة ١٠٧٨/٤٨٠ ويربط بين باب النّصْر وباب الفتوح



جزء من سور القاهرة الشمالى من جهة باب النَّصْر



جزء من سور القاهرة الشمالى من جهة باب الفُتُوح



منظر عام لسور القاهرة الشمالى تظهر فيه البَدَنَة اليسرى لباب الفتوح ومئذنة جامع الحاكم



باب النّصر (١٠٨٧/٤٨٠)



باب الفُتوح (٤٨٠/١٠٧٨)



باب البَرْقِيَّة (١٠٧٨/٤٨٠)
اكْتُشِف سنة ١٩٥٧



باب زُوَيْلة (١٠٩٢/٤٨٥)

منتجات أى عصر آخر ، تميَّزت بصدق التعبير وبدقة تصوير الحركة بطريقة لا نجدها فى النماذج السابقة عليهم حتى ليمكننا القول بأن عصر الفاطميين كان « عصر ثورة ملموسة فى الفن » فلم يكتف الفنان الفاطمى بالزَّخارف النباتية والهندسية أو اتخاذ الكتابة عنصرًا أساسيًا للزَخْرَفَة ، كما كان سائدًا فى الطُرُز السابقة ، بل اكتشف مُرَكَّبات وموضوعات زخرفية جديدة حاكى فيها الطبيعة الصادقة ، بل واستمد وَحْيَها فى بعض الأحيان من الحياة اليومية مع براعة فى إبداع النقش والزخارف الدقيقة [٤١].

وقد ازدهرت فى العصر الفاطمى العديد من الفنون الفرعية كالتصوير وصناعة النسيج والخَزَف والأخشاب ذات الزخارف المحفورة .

فقد شجَّع الفاطميون (التَّصْوير) والمصوِّرين الذين شملوهم برعايتهم ، وحذا حذوهم الوزراء وكبار رجال الدولة . وقد أشار المقريزى فى الخطط ، فى معرض حديثه عن المنافسة بين المُصَوِّرَيْن ابن عزيز وقصير ، والتى تمَّت بحضرة الوزير اليازورى (٤٤٢ – ٤٥٠) ، إلى كتاب طبقات المصورين المنعوت بـ « ضَوْ النِّبْراس وأنْس الجُلّاس فى أخبار المُزَوِّقين من الناس » [٤٢]. ويقدم لنا المقريزى كذلك وصفًا لصور ونقوش ملونة كانت فى جامع القرافة الذى بنته على طراز الجامع الأزهر السيدة زوجة الخليفة المُعِزّ ، ولصورة لسيدنا يوسف فى الجُبّ كانت فى دار النعمان بالقرافة [٤٣]. كذلك فقد ذكر الشريف الجوّانى أن الخليفة الآمر بأحكام الله بنى على منظرة بئر دِكَّة الخركاة بالقرب من بركة الحَبَش منظرة من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف على خضرة البركة وصَوَّر فيها الشعراء كل شاعر وبلده وجعل بجانب كل منهم رف لطيف [٤٤]. وللأسف فلم يصل إليناشىء من المخطوطات الفاطمية المزينة بالرسوم

---

[٤١] فييت ، جاستون : دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية ، ترجمه بتصرف زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٣٩ ، ١٢ – ١٣ .

[٤٢] المقريزى : الخطط ٢ : ٣١٨ .

[٤٣] نفسه ٢ : ٣١٨ .

[٤٤] نفسه ١ : ٤٨٦ – ٤٨٧ .

والصور ، ولكن أبرز مثال وصل إلينا عن التصوير عند الفاطميين لم يوجد فى مصر – مقر الخلافة الفاطمية – بل فى جنوب أوربا وهو زخارف صور الفريسكو بالكابِلّا بلاتينا Capella Palatina فى بالِرْم بصقلية والتى أمر بعملها الملك النورماندى روجر الثانى Roger II. فمجموعة الصور الجدارية بألوانها الزاهية التى تُزَيّن هذه الكنيسة تختلف تمامًا عن الفُسَيْفساء البيزنطية الموجودة فى نفس الكنيسة ، فأسلوب صور هذه الأيقونات والكلمات العربية الموجودة داخل الصور وكذلك صِيَغ التَّبرُّك العربية المُطوَّلة المستخدمة كأُطُر لتزويق الصور ، تُظْهر بوضوح أن الذى نَفّذ هذه الأعمال فنانون مسلمون ظل الفن الفاطمى مستمرًا معهم منذ أن كانت صقلية خاضعة للمسلمين [٤٥].

وتشتمل هذه الرسوم على كثير من الصور المدنية مثل صور الراقصات والموسيقيات ومجالس الشراب والطرب ، وصور الحيوان والطير فى أوضاع متماثلة أو فى حالة انقاض بعضها على بعض ، فضلًا عن زخارف نباتية من النخل والأزهار وأوراق الشجر والفاكهة . ومن بين صور الكابِلّا بلاتينا صورة تمثل إنسانًا جالسًا وفى يده اليمنى كأس وفى اليسرى زهرة ، ويتدلى فوق جبهته وصدغيه خُصْلات من الشعر ويحف برأسه هالة ، ويكسو الرداء الذى يرتديه زخارف تتألّف من وحدة متكررة [٤٦]. وتتفق هذه الصورة فى كثير من المميزات مع الصورة التى كُشِفَت بالحمام الفاطمى بجوار منطقة أبى السعود بمصر القديمة والمرسومة على الجَصّ والمحفوظة الآن بمتحف الفن الإسلامى ، وهى تمثل شابًا جالسًا يمسك بيده كأسًا ، ويرتدى جلبابًا تزينه حليات من زخرفة نباتية حمراء اللون وعلى رأسه عمامة ذات طيّات وحول الرأس هالة كاملة الاستدارة [٤٧].

---

٤٥ Ettinghausen, R." Painting in the Fatimid Period - A Reconstruction ", Ars Islamica IX (1942), p. 113.

٤٦ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة – دار الآثار العربية ١٩٣٧ ، ١٠٥ ، حسن الباشا : التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ٨٢ .

٤٧ حسن الباشا : المرجع السابق ٧٨ ، ٨٢ – ٨٣ . وراجع فى موضوع التصوير ، زكى محمد =

وازهرت (صناعة النَّسيج) فى العصر الفاطمى فى دور الطِّراز العامة والخاصة الموجودة فى تِنِّيس ودِمْياط وشَطا وفى بعض مدن الصعيد . وقد أشار ابن الطُّوَيْر مطولًا إلى وظيفة صاحب الطِّراز وما كان يُعْمَل فى طراز الخاص برسم الخليفة مثل المِظَلَّة وبَدْلَتها والبَدَنَة واللباس الخاص الجُمَعى [٤٨] . كما أن دار الوزير ابن كِلِّس حُوِّلت فى العصر الفاطمى الثانى إلى دار للديباج [٤٩] ، فقد كان الخلفاء الفاطميون فى حاجة ماسة إلى كميات هائلة من المنسوجات لهم ولرجال البلاط وللكُسْوة الشريفة وللخِلَع التى كانوا يمنحونها فى الاحتفالات والمواسم [٥٠] . وقد سجَّل ناصرخسرو أثناء زيارته لتِنِّيس إعجابه بما كان يُنْسَج بها من « قَصَب » ملون تُصْنع منه العمائم الشُّرَب والطواقى وملابس النساء ، وكذلك قماش البوقلمون وهو قماش ذهبى يتَغَيَّر لونه بتغير ساعات النهار [٥١] .

وقد نجح النَّسّاجون فى العصر الفاطمى نجاحًا كبيرًا فى توزيع الألوان واختيارها بالإضافة إلى ثروتهم الزخرفية الواسعة وابتكارهم فى الرسوم المستخدمة ذاتها . فنجد فيما وصل إلينا من قطع النسيج الفاطمى السيقان والفروع النباتية مرسْومة بثقة وبدقة سواء فى التواءاتها أو فى تَفَرُّعها ونشؤ غيرها منها ، كما نجدها مزدحمة برسوم الحيوانات على اختلاف أنواعها . وظلت زخارف الأقمشة فى العصر الفاطمى فى تطور مستمر ، فقد كانت فى أوَّل الأمر تحمل أشْرِطَة متوازية فى بعضها كتابات ، ثم أخذت هذه الأشرطة تزداد

حسن : المرجع السابق ٨٦ – ١٠٦ ، حسن الباشا : المرجع السابق ١٥٩ – ١٦٥ ، فنون التصوير الإسلامى فى مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ، ٥٦ – ٩٠ ، محمود إبراهيم حسين : التصوير الإسلامى فى مصر فى العصر الفاطمى ، رسالة ماجستير بكلية الآثار – جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

[٤٨] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠١ – ١٠٤ ، وانظر كذلك Goitein, S. D. " Petitions to Fatimid Caliphs from the Cairo Geneza ", the Jewish Quarterly Review XLV (1954), pp. 34-36.

[٤٩] المقريزى : الخطط ١ : ٤٦٤ .

[٥٠] انظر أعلاه ص ...

[٥١] ناصرخسرو : سفرنامة ٧٧ .

عرضًا وعددًا بين القرنين الخامس والسادس/الحادى عشر والثانى عشر حتى أصبحت فى بعض الأحيان تكسو سطح النسيج كله ، كذلك فإننا نجد على المنسوجات الفاطمية زخارف فى معينات وفى جامات (مناطق) مختلفة الأشكال [٥٢].

وكانت أسماء الخلفاء وألقابهم تكتب على الأقمشة بلُحْمَة من الذهب أو الفضة أو بخيوط متعددة الألوان ومن مادة أغلى من مادة النسيج ، وكان شريط الكتابة يشمل أيضًا بعض عبارات الأدعية وتاريخ الصُّنع واسم مصنع الطِّراز الذى نسجت فيه هذه الزَّخْرَفة [٥٣]، فقد كانت كتابة أسماء الخلفاء على الطِّراز أحد رموز السيادة [٥٤].

ووصل إلينا العديد من نماذج النسيج الفاطمى محفوظة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة وفى المتاحف العالمية [٥٥].

---

[٥٢] فييت ، جاستون : المرجع السابق ٧٦ - ٧٧ .

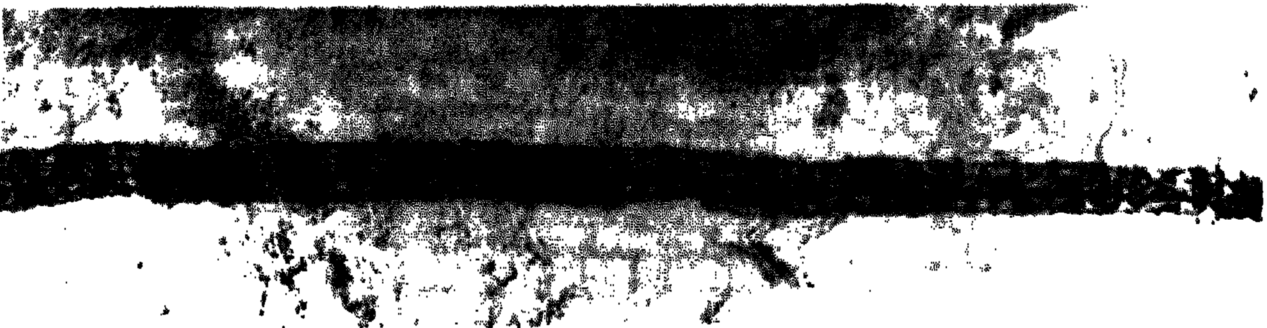
[٥٣] زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ٨٣ - ٨٥ ، وعن الطراز راجع ، المخزومى : المنهاج ٣٢ - ٣٣ ، ابن مماتى : قوانين ٣٣٠ - ٣٣١ ، ابن الطوير : نزهة ١٠١ - ١٠٤ والمراجع المذكورة فى الهامش رقم ٥٥ ، Cahen , Cl ., Makhzūmiyyāt , pp . 190 - 193 ، صلاح الدين البحيرى : نص هام عن أحوال دار الطراز المصرية فى أوائل الدولة الأيوبية ، القاهرة - مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٣ .

[٥٤] ابن الصيرفى : الإشارة ١٠٥ ، وانظر تفاصيل الأمتعة المخرجة من القصر الفاطمى وقت الأزمة زمن المستنصر من الستور والمقاطع والثياب المنسوجة من الذهب والفضة وغير ذلك عند الرشيد ابن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

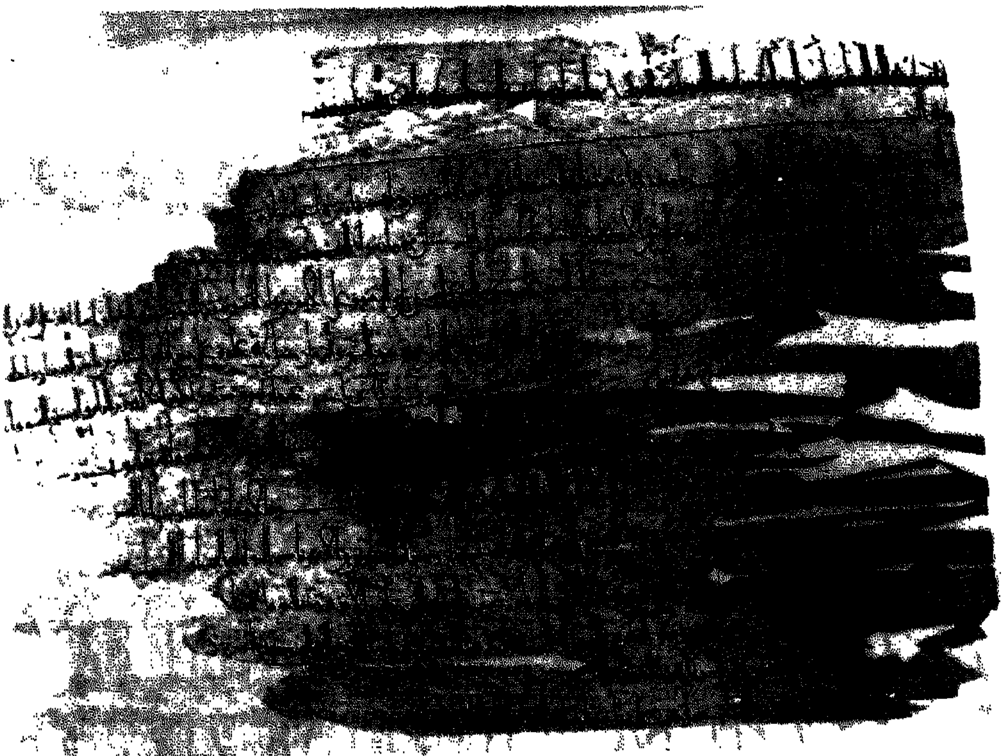
[٥٥] عن صناعة النسيج وما وصل إلينا من قطع النسيج الفاطمى راجع ، محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٤٢ ، سعاد ماهر : النسيج الإسلامى ، القاهرة ١٩٧٧ ، Bahgat , A ., Les manufaetures d'etoffcs en Egypte " , BIE (1903) , pp . 351 - 61 ; Combe , E . , " Tissus fatimides du Musée Benaki " , Melanges Maspero , Le Caire IFAO 1940 , III , pp . 259 - 272 ; Serjeant , R . B . Islamic Textiles - Material for a History up to the Mongol Conquest , Beirut 1972 ; Rogers , Early Islamic Tetiles , Brighton 1983 .



قطعة نسيج باسم العزيز بالله



قطعة نسيج باسم الحاكم بأمر الله ٣٨٧/٩٩٧



عقد زواج على القماش من عهد المستنصر

ويعد (الخَزَف ذو البَريق المَعْدَنى) من أهم الفنون التى تَمَيَّز بها العصر الفاطمى . وإن كان مما يؤسف له أن النماذج السليمة التى نعرفها منه نادرة جدًا ، فما كُشِف منه فى أطلال الفُسْطاط ، على كثرته ، نماذج غير كاملة . وقد استخدم المسلمون الخَزَف ذا البريق المعدنى بدلًا من الأوانى الذهبية التى حرَّم الإسلام استعمالها لماله من بريق يعادل بريق الأوانى الذهبية ، وإن كنا نعلم من المصادر أن الفاطميين ، رغم ذلك ، قد استخدموا الأوانى الذهبية والفضية .

وقد تطورت هذه الصناعة فى مصر تطورًا طبيعيًا حتى بلغت أقصى درجات الجودة فى العصر الفاطمى . وهذا الضرب من الخَزَف يعد من مفاخر صناعة الخَزَف الإسلامية ، لا سيما وأن الصين الذائعة الصيت فى صناعة الخَزَف لم تعرف هذه الصناعة ، كما لم يَفْلَح الخَزّافون الغربيون فى تقليده إلّا فى القرن الثامن عشر [٥٦]. وقد أشاد ناصر خسرو بصناعة الفخّار فى مصر الفاطمية من كل نوع ووصفه بأنه لطيف وشفّاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وأنه كانت تُصْنَعَ منه الكؤوس والأقداح والأطباق ، ويضيف ناصر أن المصريين كانوا يزينوها بألوان تختلف وتتغير باختلاف أوضاع الإناء [٥٧]. ومما يدل على ازدهار صناعة الفخار عمومًا فى العصر الفاطمى ما ذكره ناصر خسرو أيضًا من أن التجار فى مصر من بقّالين وعطارين وبائعى خردوات كانوا يعطون الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج أو خزف بحيث لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء [٥٨].

وذكر صاحب كتاب « الذّخائر والتحف » أن من بين ما وجد فى القصر فى أثناء الأزمة سنة ١٠٦٨/٤٦١ خزائن مملوءة من سائر أنواع الصينى الذى

---

[٥٦] جمال محمد محرز : « الخزف الفاطمى ذو البريق المعدنى » ، مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة ٧ (١٩٤٤) ١٤٣ .

[٥٧] ناصر خسرو : سفر نامة ١٠٣ — ١٠٤ .

[٥٨] نفسه ١٠٥ .

يستعمله الناس ، وجد فى بعضها أجاجين (جـ . إجانة وهو الإناء المعد لغسل الثياب) صينى كبار وصغار محمولة على ثلاث أرجل على صور الوحوش والسِّباع والبهائم قيمة كل قطعة منها ألف دينار [٥٩].

وتكتسب القطعة الخزفية هذا البريق المعدنى باستخدام أملاح معدنية كالنحاس والحديد وربما الفضة لرسم الموضوعات الزخرفية فوق الطبقة الزجاجية التى يُطْلى بها الفخّار لتمنعه من امتصاص الألوان ، ولهذا تدخل القطعة الخزفية الفرن ثلاث مرات : الأولى لإكساب الطَمْى صلابة ، والثانية لتثبيت الزجاج فوق الفخّار ، والثالثة لتثبيت المعدن ، إذ أن الأملاح تتحوَّل باتحادها بالدخان المتصاعد من النار إلى طبقة رقيقة من المعدن فوق الطبقة الزجاجية التى يغلب عليها اللون الأبيض والتى تكون معتمة فى أكثر الأحيان نتيجة إضافة القصدير إلى المادة الزجاجية كما قد تكون شَفّافة إذا ما أضيف الرصاص [٦٠].

ويمتاز الخَزَف الفاطمى بأنه ذو لون واحد يميل إلى الاحمرار ويغطى مسطحه الخارجى طلاء رقيق أبيض أو أبيض مائل إلى الزُّرقة أو الإخضرار وتعلوه رسوم ذات بريق معدنى ذهبية اللون [٦١]. ولم يتقيَّد شكل التحف الخزفية الفاطمية بشىء ، حتى أننا نجد منها ضروبًا شتى من الأوانى ذات الأحجام والأشكال المتنوعة : قدور كبيرة ذات أجسام ضخمة ، وسلطانيات عميقة تشبه الأوانى الإغريقية وأطباق مسطحة تشبه الصحون [٦٢]. أما العناصر الزخرفية التى نجدها على التحف الخزفية الفاطمية فهى رسوم آدمية أو حيوانية أو زخارف نباتية فى مناطق هندسية تصاحبها أحيانًا كتابات كوفية [٦٣]. وبلغ

---

[٥٩] الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٥ (المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٨٥ – ٢٨٦ ، الخطط ١ : ٤١٥) .

[٦٠] جمال محرز : المرجع السابق ١٤٤ .

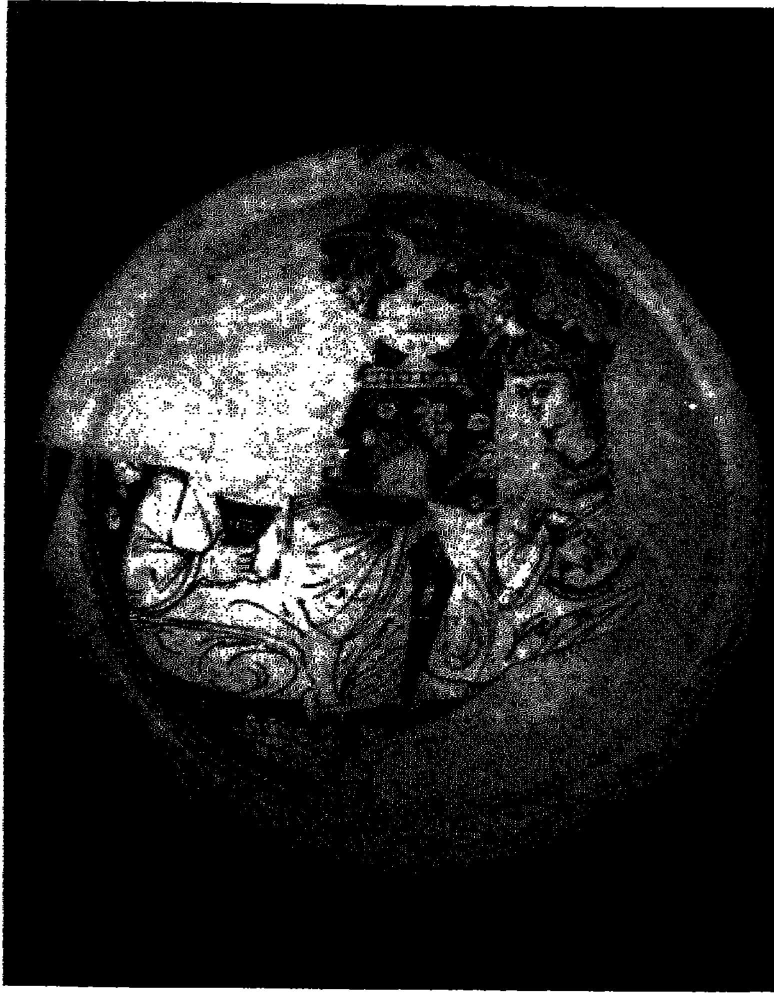
[٦١] زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٥١ .

[٦٢] جمال محرز : المرجع السابق ١٦٥ .

[٦٣] نفسه ١٦٥ ، Grabar, O., "Imperial and Urban Art in Islam: The Subject Metter of Fatimid Art", CIHC pp. 178 - 179.



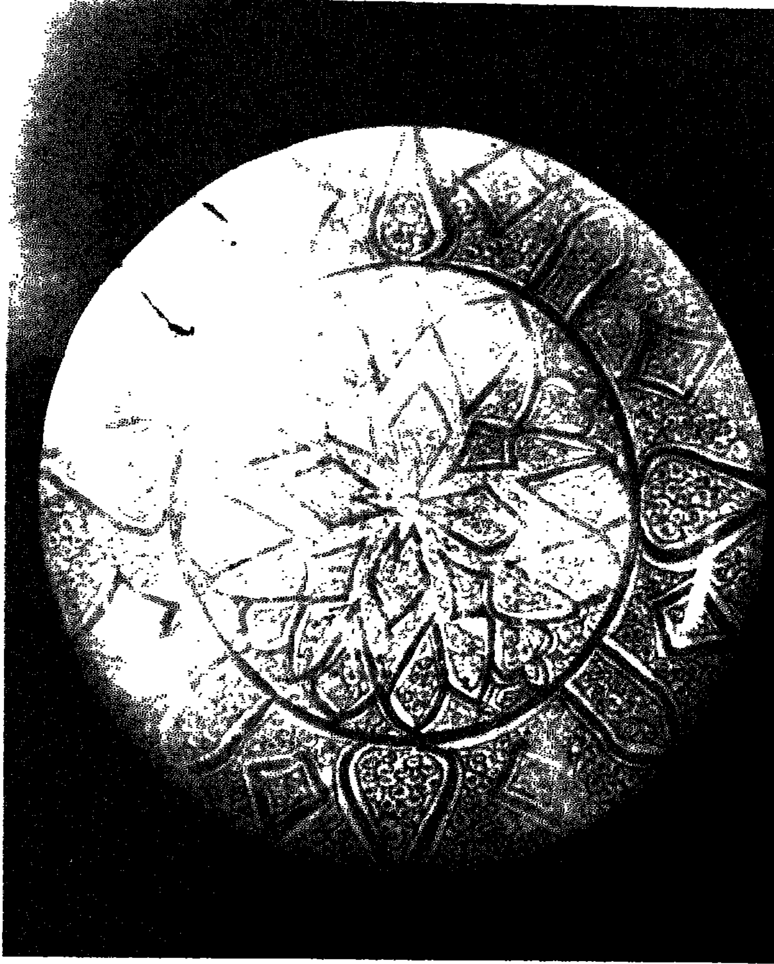
طبق من الخزف ذى البريق المعدنى – آخر القرن الرابع الهجرى



طبق من الخزف ذى البريق المعدنى – القرن الخامس الهجرى



طبق من الخزف المرسوم – القرن الخامس الهجرى



طبق مرسوم من الخزف ذى البريق المعدنى – القرن الخامس الهجرى

الخزّافون الفاطميون مرحلة متقدمة فى دقة التعبير فى الرسوم الآدمية التى صوّروا فيها أشخاصًا يقومون بمختلف الأعمال حيث نرى فيها راقصين ومناظر الشراب والطرب والموسيقى ورسومًا لنساء رشيقات ، إلى حد قد يبعث على الظن بأنهم تأثّروا فى بعض الأحيان برسوم هِلّينِسْتِية أو بيزنطية [٦٤]. وقد وصلت إلينا نماذج عديدة من الخَزَف الفاطمى مثبت عليها مكان الصنع وتوقيع الصانع [٦٥].

ومن الفنون المتطورة فى العصر الفاطمى (المصنوعات الزجاجية) و (صناعة البَلّور الصخرى) . فمن المصنوعات الزجاجية التى وجدت رواجًا فى العصر الفاطمى « الصِّنَج الزُّجاجية » التى تستخدم كعيارات وزن وكَيْل ويطبع بها على الأوانى لبيان أحجامها المختلفة [٦٦]. ويحدثنا المقريزى وهو يصف قرية سمناى ، إحدى قرى تِنّيس ، نقلًا عن شاهد عيان أنه كُشِف بها فى ربيع الأول سنة ٨٣٧/أكتوبر سنة ١٤٣٣ غضارات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الإمام المُعِزّ لدين الله وعلى البعض الآخر اسم الإمام العزيز بالله وكذلك اسم الإمام الحاكم بأمر الله واسم الإمام الظاهر لإعزاز دين الله وأكثرها عليه اسم الإمام المستنصر بالله [٦٧]. وقد وصل إلينا العديد من هذه الصِّنَج ووجدت طريقها إلى المتاحف العالمية [٦٨].

---

[٦٤] زكى محمد حسن : « تحف جديدة من الخزف الفاطمى ذى البريق المعدنى » ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٣ (١٩٥١) ٩٤ .

[٦٥] عبدالرؤوف على يوسف : « خزافون من العصر الفاطمى وأساليبهم الفنية » ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ٢٠ (١٩٥٨) ١٧٣ – ٢٢٣ .

وراجع بالإضافة إلى المراجع المذكورة فى الهوامش السابقة ، زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٤٧ – ١٧٥ ، حسن الباشا : « طبق من الخزف باسم (غَبْن) مولى الحاكم بأمر الله » ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٨ (١٩٥٦) ٧١ – ٨٥ ، عبدالرؤوف على يوسف : « طبق غَبْن والخزف الفاطمى المبكر » ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٨ (١٩٥٦) ٨٧ – ١٠٦ ، Wiet, G., "Deux pièces de Céramiques égyptienne", Ars Islamica III (1936) pp. 172 - 179.

[٦٦] زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٧٩ .

[٦٧] المقريزى : الخطط ١ : ١٨١ ، زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٨٠ .

[٦٨] Jungfleisch, H., "Jetons (ou Poids) en verre de l'Imam al-Montazar", BIE =

ولا شك أن صناعة الزُّجاج قد تقدمت فى العصر الفاطمى تقدمًا كبيرًا مَهَّد لبلوغها الذروة فى عصر المماليك الذى صنعت فيه المشكاوات المُمَوَّهَة بالمينا والتى تعد فخر صناعة الزجاج عند المسلمين على الإطلاق [٦٩].

ويدلنا على تَقَدُّم صناعة الزجاج والبَلّور فى العصر الفاطمى ما كتبه ناصر خسرو وما ذكره صاحب كتاب « الذَّخائر والتحف » فى منتصف القرن الخامس/الحادى عشر ، بالإضافة إلى النماذج المتعددة التى وصلت إلينا من الكؤوس والقوارير والأوانى الزجاجية .

فيذكر ناصر خسرو أنهم كانوا « يصنعون بالفُسْطاط قوارير كالزبرجر فى الصفاء والرقة ويبيعونها بالوزن » [٧٠] وأنه شاهد هناك أيضًا بسوق القناديل « معلمين مَهَرَة ينحتون بلورًا غاية فى الجمال ، يحضرونه من المغرب » وأضاف أنه ظهر حديثًا ، عند بحر القُلْزُم « بَلّور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب» [٧١].

ولعل أهم المصنوعات الزجاجية الفاطمية وأكبرها قيمة فنية هو الزجاج المُذَهَّب والمُزَيَّن بزخارف ذات بريق معدنى . وللأسف فان ما وصل إلينا من هذا النوع وكشف فى حفائر الفُسْطاط ليس نماذج كاملة [٧٢].

واستخدم الفاطميون كذلك البَلُّور الصخرى فى عمل الكؤوس والأباريق وغيرها ، فيذكر صاحب كتاب « الذَّخائر والتحف » أنه وُجِدَ فى خزائن

= XXXIII (1950 - 51), pp. 359 - 374, Balog, P., "Fatimid Glass Jetons: Token Currency or Coin - Weights?", JESHO XXIV (1981), pp. 93 - 109, id., "The Fatimid Glass Jeton ", Annali dell'Istituto Italiano 18-19 (1971 - 72), pp. 175 - 264; 20 (1973), pp. 121-212.

[٦٩] زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٨٠ .

[٧٠] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٤ .

[٧١] نفسه ١٠٣ .

[٧٢] زكى محمد حسن : المرجع السابق ١٨٣ .

الطَّرائف والفضة ، وقت الأزمة ، « ستة وثلاثون ألف قطعة من مُحْكَم وبَلّور مجرود من سائر أنواعه »[٧٣]، وأن ناصر الدولة حصل من خزائن القصر على « قاطرميز وعاء عميق ذو غطاء بَلّور فيه صور نابتة عن جسمه يسع من الشراب سبعة عشر رطلًا ، ودكُّوجَة[٧٤]بَلّور مجرود تسع عشرين رطلًا »[٧٥]، كذلك وجد فى خزائن القصر « مجمع سكارج[٧٦] مخروط من قطعة بَلّور بغطائه ، وفيه سكارج بَلّور تخرج منه وتعود إليه ، فتحته أربعة أشبار فى مثلها مليح الصنعة فى غلاف خيزران مذهب »[٧٧]. وكان مما حصل عليه ناصر الجيوش ، على هيئة كيزان الزير المعمولة من النحاس ، نوع معمول من البلّور المجرود مقبضه مستخرج منه يحمل عشرة أرطال من الماء بالمصرى[٧٨].

أما أحسن فروع الفن الفاطمى حظًّا فى وفرة النماذج التى وصلت إلينا فهى (الأخشاب ذات الزَّخارف المحفورة — Bois Sculptés) . وقد وصلت إلينا منها نماذج كثيرة على شكل حَشَوات وألواح خشبية ومصاريع أبواب ومنابر متنقلة ، كانت فى المساجد والكنائس وبقايا القصر الفاطمى الصغير ، محفوظة اليوم فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، وتعد أغنى المجموعات الخشبية فى متاحف العالم أجمع .

وفى دراسته الهامة عن « مميزات الأخشاب المزخرفة فى الطرازين العبّاسى والفاطمى فى مصر » قَسَّم فريد شافعى الطراز الفاطمى إلى ثلاث مراحل . المرحلة الأولى وتشمل النصف الأول من القرن الخامس/الحادى عشر ،

---

[٧٣] الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٨ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٩٠ .

[٧٤] دَكُّوجَة أو دَكُّوشَة (جـ . دكاكيج . جرَّة صغيرة) . (Dozy , R . , Suppl . Dict . Ar . I , 453) .

[٧٥] نفسه ٢٥٩ ، نفسه ٢ : ٢٩١ .

[٧٦] سُكُروجة أو سُكُرُّجة (ج . سكارج) . القَصْعَة أو الجَفْنَة (Dozy , R . Suppl . Dict . Ar . I , 668) .

[٧٧] الرشيد بن الزبير : الذخائر ٢٦٠ ، المقريزى : اتعاظ ٢ : ٢٩٢ .

[٧٨] نفسه ٢٦١ ، نفسه ٢ : ٢٩٣ .

والمرحلة الثانية وتشمل النصف الثانى من القرن الخامس/الحادى عشر والربع الأول من القرن السادس/الثانى عشر ، والمرحلة الثالثة وتشمل الربع الثانى والربع الثالث من القرن السادس/الثانى عشر [٧٩].

وتعد المرحلة الأولى استمرارًا للطراز الطولونى أو الطراز السامرىّ الثالث فى مصر (نسبة إلى سامَرّاء) ، وأهم نماذجها حشوات مصراعى الباب الذى أمر بعمله الحاكم بأمر الله ليوضع فى الجامع الأزهر وقت تجديده سنة ٤٠٠/١٠١٠ [٨٠].

وأهم نماذج المرحلة الثانية الأخشاب التى اكتشفت أثناء عملية ترميم مارستان قلاوون فى مطلع هذا القرن ، فقد كشف فيه عن مجموعة نادرة من التحف الخشبية كانت مستخدمة بالقصر الفاطمى الغربى ، الذى بنى فى موضعه المارستان ، وأعيد استخدامها فى المارستان على وجهها الآخر فى كسوة الجزء العلوى من جدران مارستان قلاوون . وهى عبارة عن ألواح طويلة يبلغ عرض الواحد منها نحو ٣٠ سم كانت مستخدمة فى تغطية الإفريز الأعلى بالجدران [٨١]. وقد زخرفت هذه الألواح بتقسيمها إلى ثلاثة أشرطة ، الأوسط عريض وفى حافتيه العليا والسفلى شريطان رفيعان مزخرفان بعروق على هيئة أمواج مطردة أو متقابلة فى تماثل وتخرج منها أوراق نخيلية وأنصاف نخيلية ، وزخرفت أمثلة قليلة من هذه الأشرطة الرفيعة بحلزونات بداخلها عناصر نباتية ورسوم حيوانات وطيور . أما الشريط الأوسط العريض فقد قُسِّم إلى مناطق

---

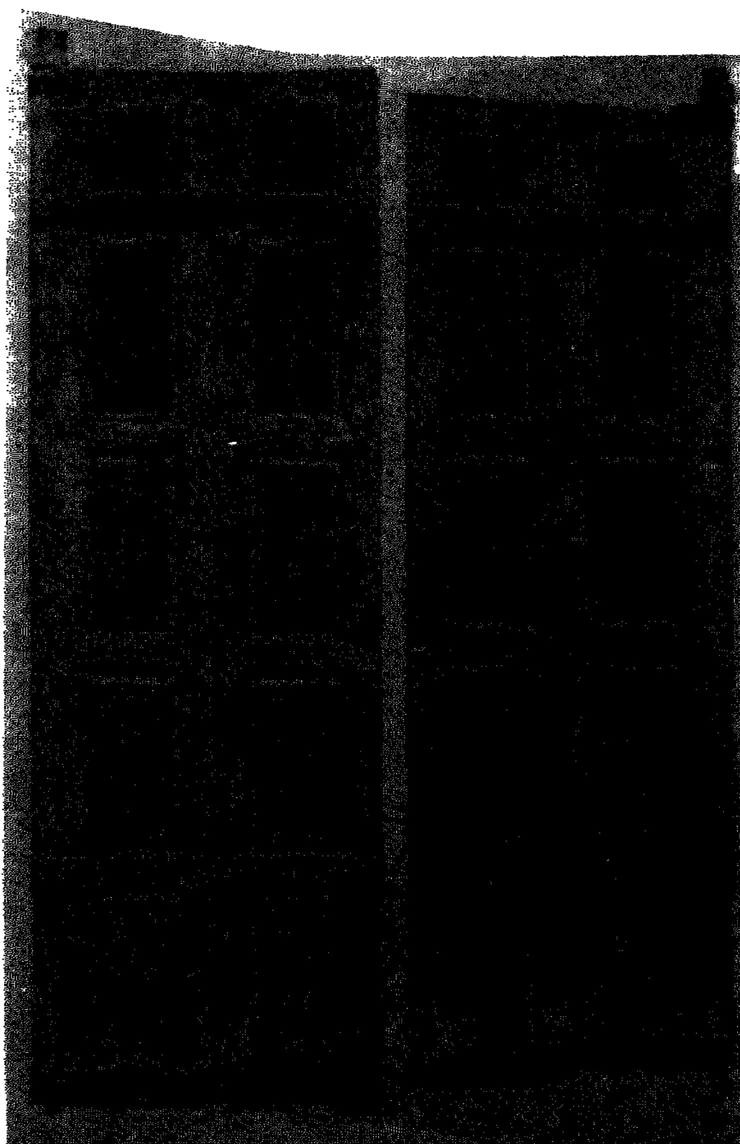
[٧٩] فريد شافعى : « مميزات الأخشاب المزخرفة فى الطرازين العباسى والفاطمى فى مصر » ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٦ (مايو ١٩٥٤) ٦٦ – ٩١ .

[٨٠] زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٠٢ – ٢٠٢ ، فريد شافعى : المرجع السابق ٦٤ .

[٨١] انظر Herz , M . , " Boisserie fatimites aux Sculptures figurale " , Orientalisches Archiv III (1913) , pp . 169 - 174 ; Marçais , G . , " Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés d'époque fatimide conservés au Musée du Caire" , Melanges Maspero , Le Caire IFAO 1940 , III , 241 - 57.



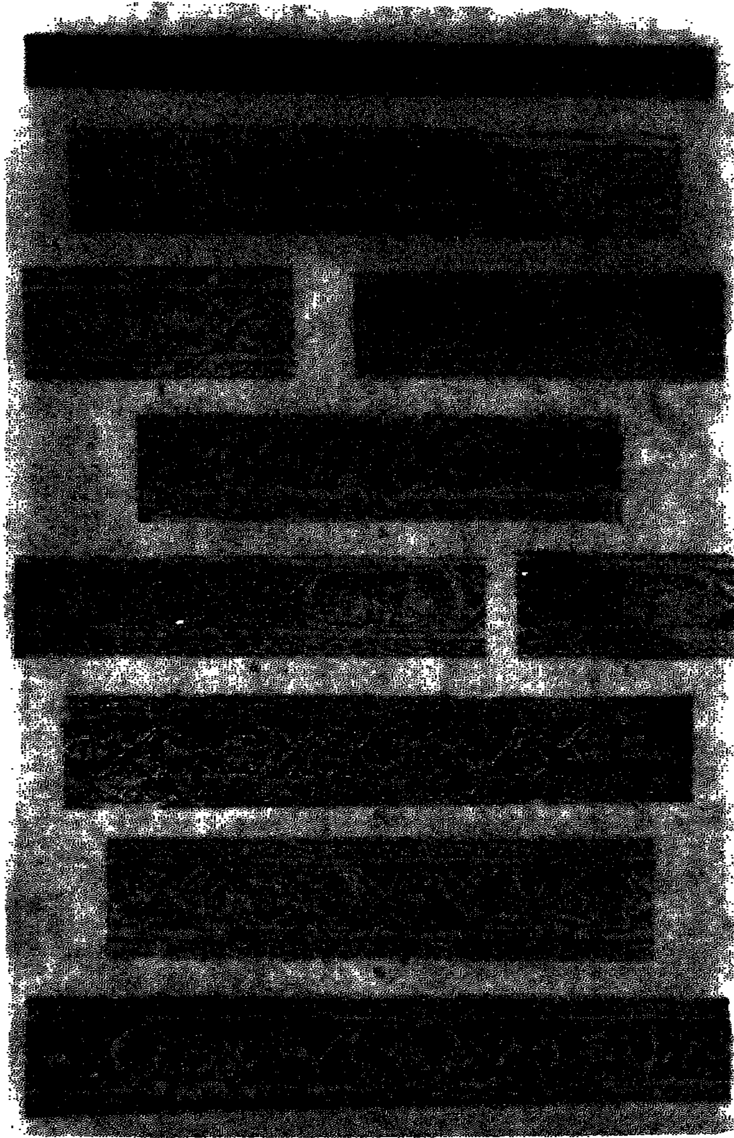
مصراعى باب الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠/١٠١٠



أحد الأبواب المستخدمة فى القصر الفاطمى الغربى وجد فى مارستان قلاوون



محراب خشبى وجد فى مشهد السيدة نفيسة



أخشاب فاطمية محفورة وجدت فى مارستان قلاوون

هندسية تملأها عناصر آدمية وحيوانات وطيور تمثل موضوعات مختلفة منها مناظر صيد وقَنْص ومنها مجالس شراب وطَرَب وغير ذلك ، وملئت أرضية تلك العناصر بزخارف نباتية دقيقة مستواها منخفض عن مستوى المناطق الهندسية والأشرطة الرفيعة وعناصر الكائنات الحية ، أى أن الحفر فى هذه الألواح قد عمل على مستويات ثلاثة [٨٢].

ويرى فريد شافعى أن الألواح المُثَبَّتة بالجدران الداخلية لمدفن شجر الدر ، فى مستوى أعتاب الأبواب وتحت قبة المحراب ، قد صنعت فى العصر الفاطمى وانتزعت من مكانها الأصلى وأعيد استخدامها فى هذا المدفن ، حيث أن التكوين الزخرفى فيها هو نفسه الموجود فى الألواح المكتشفة فى مجموعة قلاوون . وتميَّزت ألواح مَدْفَن شَجَر الدُّر بأن الأشرطة الوسطى العريضة بها ملئت بكتابات كوفية كلها آيات قرآنية ما عدا شريط واحد به عبارات دعائية ، عوضًا عن العناصر الآدمية والحيوانية ورسوم الطيور التى وجدت فى مجموعة قلاوون ، إلّا أن الحَفْر فى هذه الألواح تم على مستويين وليس على ثلاثة مستويات كما فى المجموعة السابقة [٨٣].

أما المرحلة الثالثة فتَميَّزت بظهور عناصر ذات أصل هِلِّينِسْنى وأخرى ذات طابع إسلامى أهمها زخارف الأرابيسك وازدياد التعقيد والتنويع فى التقسيم الهندسى والاتجاه نحو تجميع حَشَوات صغيرة منفصلة مختلفة الأشكال بواسطة ضلوع مُعَشَّقَة [٨٤]. وأهم نماذج هذه المرحلة : ضلفتا باب من مسجد السيدة نفيسة ، ومحراب مسجد السيدة نفيسة ، ومحراب السيدة رُقَيَّة ، وحشوات باب جامع الفكهانى (الأفخَر) ، وأضاف إليها فريد شافعى حجاب الهيكل

---

[٨٢] فريد شافعى : المرجع السابق ٧٤ – ٧٥ .

[٨٣] نفسه ٧٥ .

[٨٤] نفسه ٨٠ – ٨١ .

فى كنيسة الست بَرْبارَة بمصر القديمة المحفوظ فى المتحف القبطى [٨٥]، والذى كان الباحثون يرجعونه عادة إلى المرحلة الأولى [٨٦].

---

[٨٥] فريد شافعى : المرجع السابق ٨٢ .

[٨٦] زكى محمد حسن : المرجع السابق ٢٠٤ وانظر كذلك حول موضوع الأخشاب المحفورة Pauty, E., Les bois sculptés jusqu'à L'époque ayyoubide , Le Caire - IFAO 1931 ; id., Bois sculptés d'églises coptes (époque fatimide) , Le Caire — IFAO 1930 .

خـاتـمـة

تُعَدّ الدولة الفاطمية نموذجًا منفردًا فى التاريخ الإسلامى لم يتكرَّر على الإطلاق . فقد كانت دولة ذات طابع دينى فَلْسَفى وحضارة متميِّزة أرادت بَسْط نفوذها على كل العالم الإسلامى المعاصر . وجاء فتحهم لمصر سنة ٩٦٩/٣٥٨ ممثلًا المرحلة قبل الأخيرة فى سبيل تحقيق هدفهم البعيد وهو الإحلال محل الخلافة العبّاسية كحكام وحيدين للعالم الإسلامى .

ولكن آمال الفاطميين تحطَّمت فى الشام التى كانت ستُسْتَخْدم كنقطة إنطلاق للهجوم النهائى الذى كان سيحمل جيوش الفاطميين إلى بغداد لتضع نهاية لحكم البُوَيْهيين وللخلافة العبّاسية . فقد استغرقت محاولة إخضاعهم لسوريا الشمالية وقتًا طويلًا ولم تخلص لهم أبدًا ، وقبلوا فى النهاية أن يتقاسموا نفوذهم فى الشام مع البيزنطيين – الشريك التجارى الأهم للفاطميين – بينما كانت بغداد ، التى استولى عليها السَّلاجِقَة نحو أواسط القرن الخامس/الحادى عشر ، تتولَّى حركة نشطة للجهاد الإسلامى .

وهكذا – إذا استثنينا محاولة البَساسيرى وداعى الدُّعاة الشِّيرازى – فإن فكرة مواجهة العبّاسيين ظلَّت فى إطار الهدف ولم تخرج على الإطلاق إلى حَيِّز السياسات العملية . وبدلًا من أن يحافظ الفاطميون على حدود إمبراطوريتهم فى الغرب فقدوا ممتلكاتهم فى صِقِلّية وفى إفريقية كما لم يلبثوا أن فقدوا ممتلكاتهم فى سوريا الوسطى والجنوبية أمام السَّلاجِقَة والفِرِنْج . وبعد فشلهم فى مواجهة العبّاسيين تبنَّى الفاطميون استراتيجية شرقية حيث مَدّوا نفوذهم على جنوب وشرق الجزيرة العربية (اليمن وعُمان) ، وعملوا على نَشْر دعوتهم على طول طرق التجارة الشرقية التى تخلَّى عنها العبّاسيون ، ونجحوا فى إحلال البحر

الأحمر محل الخليج الفارسى كطريق رئيسى للتجارة من الهند إلى البحر المتوسط .

وأنشأ الفاطميون بمصر لأول مرة قصرًا خلافيًا وبلاطًا للخلفاء ، ولم يكتف فقط بمنافسة بلاط خلفاء بغداد وأباطرة بيزنطة ، بل تفوّق عليهما بمظاهر الترف والبذخ والأُبَّهَة التى استغلّ الفاطميون فى إضفائها عليه كل إمكانيات مصر الحضارية وما تميَّز به مذهبهم العقائدى الخاص . كذلك فقد أدخل الفاطميون تغييرًا جذريًا على نظم الحكم والإدارة فى مصر تمثَّل فى استحداث مناصب الوزارة وقاضى القضاة وداعى الدعاة ، والعديد من الدواوين الإدارية والحربية التى لم تعرفها مصر من قبل .

وكانت سياسة الفاطميين الاقتصادية ونظامهم الضرائبى من أهم التطورات التى شهدها القرنين الخامس والسادس للهجرة . فقد تَبَنَّى الفاطميون مبدأ حرية المشاريع ، ولم يسلم فى وقتهم أى إنتاج أو أية مهنة أو أى حرفة من الضريبة أو المكوس . وقد استفاد خلفاؤهم الأيوبيين والمماليك فيما بعد من سياسات الفاطميين الاقتصادية ونظامهم الضرائبى .

ولعل من أهم إنجازات فترة الحكم الفاطمى لَفْت الانتباه إلى وضع مصر الاستراتيجى فى قلب العالم الإسلامى – وهو الوضع الذى حاول الطولونيون إظهاره من قبل . وأبرزوا كذلك دور مصر السياسى وقدرتها على قيادة العالم الإسلامى ، لو تمتَّعت حكومتها بتأييد هذا العالم ، وهو الأمر الذى استثمره بنجاح خلفاؤهم الأيوبيين والمماليك .

ثَبتُ المَصَادِر والمراجع وبيَان طبعَاتها

المَصَـــادِر

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد) المتوفى سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م .

« التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية » ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣ .

« الكامل فى التاريخ » ، ١ - ١٣ ، بيروت - دار صادر ١٩٦٥ - ١٩٦٧ .

أُسَامَة بن مُنْقِذ (مؤيد الدولة المُظَفَّر أسامه بن مُرْشِد الشَّيْزرى) المتوفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م .

« الاعتبار » ، تحقيق وتقديم قاسم السامرائى ، الرياض - دار الأصالة ١٩٨٧ .

استتار الإمام = النَّيْسابورى .

ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى) المتوفى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م .

« بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، الجزء الأول - القسم الأول ، تحقيق محمد مصطفى ، النشرات الإسلامية ١/٥ - آ ، القاهرة ١٩٧٥ .

ابن أَيْبَك الدَّوادارى (أبو بكر عبد الله بن أيْبَك) المتوفى بعد سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٥ م .

« كنز الدُّرر وجامع الغُرر » - الجزء السادس المسمى« الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية » ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الجزء السابع المسمى « الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب » ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة - المعهد الألمانى للآثار ١٩٦١ ، ١٩٧٢ .

° ليس هذا ثبتًا بجميع المؤلفات المستخدمة فى كتابة هذا المؤلف ، وإنما أذكر فقط المؤلَّفات المستخدمة دائمًا أثناء البحث . أما المصادر والمراجع التى استخدمت لشرح واقعة معينة أو للرجوع إليها لمزيد من التفصيل فقد ذكرت جميع المعلومات البيليوجرافية الخاصة بها فى موضعها .

ابن بَعْرَة (منصور الذهبي الكاملي) القرن السابع/الثالث عشر .

« كَشْف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية » ، تحقيق عبد الرحمٰن فهمي ، القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٥ .

البَكْرى (أبو عُبَيْد عبد الله بن عبد العزيز) المتوفى سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م .

« جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك » ، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، الكويت - مكتبة دار العروبة ١٩٨٠ .

البَلَوى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن عُمَيْر بن محفوظ المديني) من علماء القرن الرابع/العاشر .

« سيرة أحمد بن طولون » ، حَقَّقها وعلَّق عليها محمد كُرْد علي ، دمشق - مطبعة الترقي ١٣٥٨ .

البُنْدارى (أبو إبراهيم الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني) المتوفى سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م .

« سَنا البَرْق الشَّامي » اختصره من كتاب « البَرْق الشَّامي » للعماد الكاتب الأصفهاني ، تحقيق فتحية النبراوى ، القاهرة - مكتبة الخانجي ١٩٧٩ .

ابن تَغْرى بِرْدى = أبو المحاسن .

ابن جُبَيْر (أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني) المتوفى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م .

« الرِّحلة » ، بيروت - دار صادر ١٩٦٧ .

الجَزيرى (زين الدين عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصارى) المتوفى نحو سنة ٩٧٧ هـ/١٥٦٩ م .

« الدُّرَر الفَرائد المُنَظَّمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة » ، ١ - ٣ ، أعده للنشر حمد الجاسر ، الرياض - دار اليمامة ١٩٨٣ .

الجَوْذَرى (أبو علي منصور العزيزى) المتوفى بعد سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م .

« سيرة الأستاذ جَوْذَر » تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة - دار الفكر العربي ١٩٥٤ .

ابن الجَوْزى (أبو الفرج عبد الرحمٰن بن على بن محمد القرشى البغدادى) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م .

« المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » ، ٥ – ١٠ ، الهند – دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧ – ١٣٥٩ هـ .

ابن حَجَر العَسْقلانى (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٥٢ هـ/١٤٤٨ م .

« رَفْع الإصر عن قضاة مصر » الجزء الأول فى قسمين تحقيق حامد عبد المجيد وآخرين ، القاهرة – الإدارة العامة للثقافة ، وزارة التربية والتعليم ١٩٥٧ – ١٩٦١ .

ابن حَزْم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد الأندلسى) المتوفى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٤ م .

« جمهرة أنساب العرب » ، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة – دار المعارف ١٩٧٧ .

ابن حَمّاد (أبو عبد الله محمد بن على بن حماد بن عيسى) المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٣٠ م .

« أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » ، تحقيق وتعليق جلال أحمد البدوى ، الجزائر – المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٤ .

الحَمَوى (شمس الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن ظهير الحنفى) المتوفى بعد سنة ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م .

« رَوْضة الأديب ونُزْهَة الأريب » ، عَرّف به ونشر قسمًا منه محمد الحبيب الهيلة باسم « النظم الإدارية بمصر فى القرن التاسع الهجرى من خلال كتاب روضة الأديب ونزهة الأريب لمحمد بن إبراهيم بن ظهير الحنفى الحموى » ، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة ، القاهرة – دار الكتب المصرية ١٩٧١ ، ١٠٤١ – ١٠٩٥ .

ابن حَوْقَل (أبو القاسم محمد بن على) المتوفى بعد سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٧ م .

« صورة الأرض » ، نشرة كريمرز ، ليدن ١٩٣٨ .

ابن خَلْدون (ولىّ الدين أبو زيد عبد الرحمٰن بن محمد بن محمد الحضرمى الإشبيلى) المتوفى سنة ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م .

« العِبَر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر » ، ١ – ٧ ، بولاق ١٢٨٤ هـ .

ابن خَلّكان (شمس الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد) المتوفى سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م .

« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ١ – ٨ ، تحقيق إحسان عبّاس ، بيروت – دار الثقافة ١٩٦٩ – ١٩٧٢ .

ابن دُقْماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أَيْدُمُر العلائى) المتوفى سنة ٨٠٩ هـ/١٤٠٦ م .

« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، ٤ – ٥ ، نشرة فولرز ، القاهرة ١٨٩٤ .

الذَّهَبى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز) المتوفى سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م .

« العِبَر فى خبر من غبر » ، ١ – ٥ ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيّد ، الكويت – سلسلة التراث العربى ١٩٦٠ – ١٩٦٥ .

الرّاوندى (نجم الدين أبو بكر محمد بن على بن سليمان بن محمد) المتوفى بعد سنة ٦٠٣ هـ/١٢٠٧ م .

« راحَة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية » ، ألفه بالفارسية الراوندى ونقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربى وعبد النعيم حسنين وفؤاد عبد المعطى الصيّاد ، القاهرة – دار القلم ١٩٦٠ .

الرُّشيد بن الزُّبير (رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن على بن إبراهيم الأسوانى) المتوفى سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٦ م .

« الذَّخائر والتحف » ، تحقيق محمد حميد الله ، الكويت – سلسلة التراث العربى ١٩٥٩ .

الرُّوذْرَاورى (ظهير الدين أبو شجاع محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم) ، المتوفى سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م .

« ذيل تجارب الأمم وتعاقب الهِمَم لابن مَسْكويه » ، اعتنى بنشره هـ . ف . آمدروز ، مصر ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م .

ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين الليثى) المتوفى سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م .

« أخبار سيبويه المصرى » ، نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الديب ، القاهرة ١٩٣٣ .

« فضائل مصر وأخبارها » ، مخطوطة باريس رقم Paris B. N. n° 1817 .

ابن الزّيّات (شمس الدين أبو عبد الله محمد الأنصارى) المتوفى سنة ٨١٤ هـ/١٤١١ م .

« الكواكب السيّارة فى ترتيب الزيّارة » ، نشره أحمد تيمور باشا ، بولاق ١٣٢٥ هـ .

ساويرس بن المُقَفَّع ، أسقف الأشمونين .

« تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » المعروف بـ « سِيَر البِيْعَة المقدّسة » (المنسوب إلى) ، ٢ — ٤ ، نشره : يَسَّى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأزولد بورمستر وأنطوان خاطر ، القاهرة — جمعية الآثار القبطية ١٩٥٩ — ١٩٧٤ .

سِبْط ابن الجَوْزى (شمس الدين أبو المُظَفَّر يوسف بن قِزْأُوغلى) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م .

« مِرْآة الزمان فى تاريخ الأعيان » ، المجلد الثامن ، حيدر آباد الدكن — الهند ١٣٣٧ — ١٣٣٩ هـ .

السُّبْكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على) المتوفى سنة ٧٧١ هـ/١٣٦٩ م .

« طبقات الشافعية الكبرى » ، ١ — ١٠ ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى ، القاهرة — دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٣ — ١٩٧٦ .

السِّجِلّات المستنصرية .

« سِجِلّات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، إلى دعاة اليمن وغيرهم قَدَّس الله أرواح جميع المؤمنين » ، تحقيق عبد المنعم ماجد القاهرة — دار الفكر العربى ١٩٥٤ .

السَّخاوى (نور الدين أبو الحسن على بن أحمد) المتوفى بعد سنة ٨٨٧ هـ/١٤٨٢ م .

« تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات » ، نشره محمود ربيع وحسن قاسم ، القاهرة ١٩٣٧ .

ابن سَعِيد (على بن سعيد المغربى) المتوفى سنة ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م .

« المُغْرِب فى حُلَى المَغْرب » ، القسم الخاص بالفسطاط ، حقَّقه زكى محمد حسن وآخرون ، القاهرة — جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ .

« النجوم الزَّاهرة فى حُلَى حضرة القاهرة » ، تحقيق حسين نصَّار ، القاهرة — مركز تحقيق التراث ١٩٧٢ .

سيرة المُؤَيَّد فى الدين = المُؤَيَّد فى الدين .

السُّيوطى (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمٰن بن أبى بكر بن محمد) المتوفى سنة ٩١١ هـ/١٥٠٥ م .

« بُغْية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » ، ١ - ٢ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٦ .

« تاريخ الخلفاء » ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٦ .

« حُسْن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » ، ١ - ٢ ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ .

ابن شاكر الكتبى (صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد) المتوفى سنة ٧٦٤ هـ/١٣٦٢ م .

« فوات الوفيات » ، ١ - ٥ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت - دار صادر ١٩٧٣ - ١٩٧٤ .

أبو شامَة (شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسى) المتوفى سنة ٦٦٥ هـ/١٢٦٧ م .

« الرَّوْضتين فى أخبار الدولتين » ، الجزء الأول فى قسمين ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٦٢ .

أبو شجاع = الروذراورى .

ابن شَدَّاد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم) المتوفى سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٩ م .

« النَّوادِرُ السُّلْطانية والمَحَاسِن اليوسفية » أو « سيرة صلاح الدِّين » ، تحقيق جمال الدين الشَّيَّال ، القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤ م .

الشَّهْرِسْتانى (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) المتوفى سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م .

« المِلَل والنِّحَل » ، ١ - ٢ ، تخريج محمد بن فتح الله بدران ، القاهرة - مكتبة الأنجلو ١٩٥٦ .

أبو صالح الأَرْمَنِى = أبو المكارم سعد الله .

الصَّفَدى (صلاح الدين خليل بن أَيْبَك) المتوفى سنة ٧٦٤ هـ/١٣٦٣ م .

« الوافى بالوفيات » ، ١ - ١٨ و ٢٢ ، تحقيق مجموعة من العلماء (النشرات الإسلامية - ٦) ، استامبول - بيروت ١٩٤٩ - ١٩٨٨ .

ابن الصَّيْرَفى (تاج الرِّئاسة أبو القاسم على بن منجب بن سليمان) المتوفى سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٨ م .

« القانون فى ديوان الرَّسائل والإشارة إلى مَنْ نال الوزارة » ، حققهما وكتب مقدمتهما وحواشيهما ووَضعَ فهارسهما أيمن فؤاد سيِّد ، القاهرة — الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٠ .

الضَّبِّى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عُمَيْرة) المتوفى سنة ٥٩٩ هـ/١٢٠٢ م .

« بُغْيَة المُلْتَمِس فى تاريخ رجال الأندلس » ، مجريط ١٨٨٤ .

ابن الطُّوَيْر (أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن الفِهْرى القيسرانى) المتوفى سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م .

نُزْهَة المقلتين فى أخبار الدولتين » ، أعاد بناءه وحققه وقدَّم له أيمن فؤاد سيد ، النشرات الإسلامية — ٣٩ ، شتوتجارت ١٩٩٢ .

ابن ظَافِر (جمال الدين أبو الحسن على بن أبى منصور ظافر الأزْدى) المتوفى سنة ٦١٢ هـ/١٢١٥ م .

« أخبار الدُّوَل المنقطعة » ، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدّمة وتعقيب أندريه فرِّيه ، القاهرة — المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٧٢ .

ابن العَديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد) المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢١٦ م .

« بُغْيَة الطَّلب فى تاريخ حلب » ، التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة ، عنى بنشره على سويم ، أنقرة ١٩٧٦ .

« زُبْدَة الحَلَب من تاريخ حلب » ، ١ — ٣ ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق — المعهد العلمى الفرنسى ١٩٥١ — ١٩٦٨ .

ابن عِذارىّ (أبو عبد الله محمد بن محمد المرّاكشى) المتوفى نحو سنة ٦٩٥ هـ/١٢٩٥ م .

« البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب » ، ١ — ٤ ، تحقيق ج . س . كولان و إ . ليفى بروفنسال ، ليدن ١٩٤٨ .

على بن خَلَف (أبو الحسن على بن خَلَف بن على بن عبد الوهاب) المتوفى بعد سنة ٤٣٧ هـ/١٠٤٥ م .

« مواد البيان » ، تحقيق حسين عبد اللطيف ، طرابلس – جامعة الفاتح ١٩٨٢ .

عماد الدين إدريس بن الحسن بن عبد الله الأنف المتوفى سنة ٨٧٢ هـ/١٤٦٧ م .

« تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب » ، تحقيق محمد اليعلاوى ، بيروت – دار الغرب الإسلامى ١٩٨٥ .

الجزء السابع ، مخطوطة المكتبة الهمدانية .

« عيون الأخبار وفنون الآثار » ، ٤ – ٦ ، تحقيق مصطفى غالب ، بيروت – دار الأندلس ١٩٨٤ .

« نزهة الأفكار وروضة الأخبار فى ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار » ، مخطوطة عباس همدانى .

عماد الدين الأصفهانى من علماء القر ن السادس/الثانى عشر .

« البُستّان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان » ، حققه كلود كاهن Cahen, Cl., " Une chronique syrienne du VI° - XII° siècle " , BEO VII - VII (1937-38), pp. 113-158.

العماد الكاتب الأصفهانى (أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبو الفرج) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م .

« جريدة القصر وجريدة العصر » ، قسم شعراء الشام ، ١ – ٣ ، تحقيق شكرى فيصل ، دمشق – المجمع العلمى العربى ١٩٥٥ – ١٩٦٤ .

عُمارة اليمنى (نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على الحكمى) المتوفى سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م .

« تاريخ اليمن » ، نشره حسن سليمان محمود ، القاهرة – مكتبة مصر ١٩٥٧ .

« النُكَت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية » ، تحقيق هرتويج درنبرغ ، شالون ١٨٩٧ .

الفاسى (تقى الدين محمد بن أحمد المكى) المتوفى سنة ٨٣٢ هـ/١٤٢٩ م .

« العِقْد الثمين فى تاريخ البلد الأمين » ، ١– ٨ ، تحقيق فؤاد سيّد ، القاهرة ١٩٥٩ – ١٩٦٨ .

أبو الفِدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على صاحب حماة) المتوفى سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م .

« المختصر فى أخبار البشر » ، ١ – ٤ ، مصر ١٣٢٥ هـ .

ابن الفُرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) المتوفى سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٤ م .

« تاريخ الدول والملوك » ، مخطوطة مكتبة فينا رقم ٨١٤ ، الجزء الرابع/١ – ٢ ، تحقيق حسن محمد الشماع ، البصرة ٦٧ – ١٩٦٩ .

ابن فَرْحون (برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد) المتوفى سنة ٧٩٩ هـ/١٣٩٧ م .

« الدّيباج المُذْهب فى تراجم أعيان المذهب » ، ١ – ٢ ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة ١٩٧٩ .

ابن فَهْد (النجم عمر بن محمد بن محمد المكى) المتوفى سنة ٨٨٥ هـ/١٤٨٠ م .

« إتحاف الورى بأخبار أم القرى » ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، مكة – جامعة أم القرى ١٩٨٣ .

« فى نَسَب الخلفاء الفاطميين – أسماء الأئمة المستورين كما وردت فى كتاب أرسله المهدى عبد الله إلى ناحية اليمن » ، تقديم حسين فيض الله الهمدانى ، القاهرة – الجامعة الأمريكية ١٩٥٨ .

ابن قاضى شُهْبَة (بدر الدين أبو الفضل محمد بن أبى بكر بن أحمد الأسَدى الدمشقى الشافعى) المتوفى سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠ م .

« الكواكب الدُّريَّة فى السِّيرة النُّوريَّة » ، تحقيق محمود زايد ، بيروت – دار الكتاب الجديد ١٩٧١ م .

القاضى عبد الجبّار (أبو الحسن عبد الجبّار بن أحمد الهَمَذانى) المتوفى سنة ٤١٥ هـ/١٠٢٥ م .

« تثبيت دلائل النبوة » ، ١ – ٢ ، تحقيق عبد الكريم العثمان ، بيروت ١٩٧٠ .

القاضى النُّعمان بن محمد بن حَيّون المتوفى سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م .

« دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام » ، ١ – ٢ ، تحقيق آصف بن على بن أصغر فيضى ، القاهرة – دار المعارف ١٩٦٥ .

« رسالة افتتاح الدَّعْوَة » (رسالة فى ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية) ، تحقيق وداد القاضى ، بيروت – دار الثقافة ١٩٧٠ .

« المجالس والمسايرات » ، تحقيق الحبيب الفقى ، إبراهيم شبّوح ، محمد اليعلاوى ، تونس – الجامعة التونسية ١٩٧٨ .

ابن القَطّان (... بن أبو الحسن على بن محمد الكتامى) القرن السابع/الثالث عشر .

« نَظْم الجُمان » – جزء من كتاب ، تحقيق محمود على مكى ، الرباط – د . ت .

ابن القَلانِسى (أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى) المتوفى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م .

« ذيل تاريخ دمشق » ، تحقيق آمدروز ، بيروت ١٩٠٨ .

القَلْقَشَنْدى (شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨ م .

« صُبْح الأعشى فى صناعة الإنشا » ، ١ – ١٤ ، طبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩١٢ – ١٩٣٨ .

القُمّى (أبو القاسم سعد بن عبد الله الأشعرى) المتوفى سنة ٣٠٠ هـ/٩١٣ م .

« المقالات والفِرَق » ، تحقيق محمد مشكور ، طهران ١٩٦٣ .

الكِنْدى (أبو عمر محمد بن يوسف) المتوفى سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م .

« كتاب الولاة وكتاب القضاة » ، نشره رفن جست ، سلسلة جب Gibb التذكارية – بيروت ١٩٠٨ .

المالكى (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله محمد بن عبد الله) المتوفى سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٧ م .

« رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية » ، ١ – ٣ ، تحقيق بشير البكوش ومراجعة محمد العروسى المطوى ، بيروت – دار الغرب الإسلامى ١٩٨٣ .

ابن المأمون (الأمير جمال الدين أبو على موسى) المتوفى سنة ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م .

« أخبار مصر – نصوص من » ، حقّقها وكتب مقدمتها أيمن فؤاد سيّد ، القاهرة – المعهد العلمى الفرنسى للآثار ١٩٨٣ .

الماوَرْدى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب) المتوفى سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م .

« الأحْكام السُّلْطانية » ، عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى ، القاهرة ١٩٠٩ .

أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) المتوفى سنة ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م .

« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، ١ – ١٦ ، نشرة دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٢٩ – ١٩٧٢ .

محمد بن محمد اليمانى ، عاش فى أواسط القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى .

« سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سَلَمْية إلى سِجِلْماسة وخروجه منها إلى رَقَّادَه » . تحقيق و . إيفانوف ، مجلة كلية الآداب – الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ١٠٧ – ١٣٣ .

المَخْزومى (القاضى السعيد ثقة الثقات ذو الرياستين أبو الحسين على بن أبى عمرو عثمان بن يوسف) المتوفى سنة ٥٨٥/١١٨٩ .

« المِنْهاج فى علم خراج مصر » ، مخطوطة المتحف البريطانى رقم Add 23, 483 ، ونشره كلود كاهن ، القاهرة – المعهد العلمى الفرنسى للآثار ١٩٨٦ (منتخبات) وانظر Cahen, Cl. .

المُسَبِّحى (الأمير المختار عِزّ الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد) المتوفى سنة ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م .

« أخبار مصر » ، الجزء الأربعون ، حققه أيمن فؤاد سيّد وتيارى بيانكى ، القاهرة – المعهد العلمى الفرنسى للآثار ١٩٧٨ .

« نصوص ضائعة من أخبار مصر » ، اعتنى بجمعها أيمن فؤاد سيّد An. Isl. XVII (1981), pp. 1-54 .

المَسْعودى (أبو الحسن على بن الحسين) المتوفى سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٦ م .

« مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، ١ – ٧ ، طبعة بربيه دى منار وبافيه دى كرتاى ، عنى بتحقيقها وتصحيحها شارل بلّا ، بيروت – الجامعة اللبنانية ١٩٧٠ – ١٩٨٠ .

مُصْعَب الزُّبيرى (أبو عبد الله المُصْعَب بن عبد الله) المتوفى سنة ٢٣٦ هـ/٨٥٠ م .

« نَسَب قُرَيْش » ، عنى بنشره إ . ليفى بروفنسال ، القاهرة — دار المعارف ١٩٧٦ .

المَقْدسى (محمد بن أحمد البشّارى) المتوفى بعد سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م .

« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، نشر دى خوية ، ليدن — بريل ١٩٠٦ .

المَقْريزى (تقى الدين أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م .

« اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » ، ١ — ٣ ، الأول تحقيق جمال الدين الشيّال ، الثانى والثالث تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة — المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٧ — ١٩٧٣ .

« إغاثة الأمة بكَشْف الغُمَّة » ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيّال ، القاهرة ١٩٥٧ .

« الخِطَط » = « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، ١ — ٢ ، بولاق ١٢٧٠ هـ .

« المُقَفَّى الكبير » ، مخطوطة برتف باشا بالسليمانية رقم ٤٩٦ ، مخطوطة باريس رقم ٢١٤٤ ، مخطوطة ليدن (١ — ٣) رقم ١٣٦٦ . وتراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية من كتاب المُقَفّى الكبير ، اختيار وتحقيق محمد اليعلاوى ، بيروت — دار الغرب الإسلامى ١٩٨٧ .

« النقود الإسلامية » ، نشرة القاهرة ١٩١٤ .

أبو المَكَارِم (المؤتمن أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود) عاش فى القرن السادس/الثانى عشر .

« تاريخ الكنائس والأديرة » ، ١ — ٢ ، إعداد وتعليق الراهب صمويل السريانى ، القاهرة ١٩٨٤ ، والجزء الثانى بتحقيق B. T. A. Evets لندن ١٨٩٥ . عندما نشر Evets الجزء الثانى ، اعتمادًا على نسخة باريس ، نسب هذا الكتاب إلى أبى صالح الأرمنى . ولكن نسخة خطية مؤرخة فى سنة ١١٩١ م ، كانت فى ملك أحد أقباط طنطا ، أطّلع عليها على مبارك الذى استفاد منها كثيرًا فى الجزء السادس من خِطَطِه وهو يتكلّم عن كنائس القاهرة ، تُثْبت أن مؤلّف الكتاب هو المؤتمن

أبو المكارم سعد الله Iscarus, T., " Un nouveau manuscrit sur les églises et monastères de l'Egypte au XII° siècle " dans Congrés International de Géograhie, Avril 1925, Le Caire 1926, V, pp. 207-208. وقد نشر الراهب صمويل الكتاب اعتمادًا على صورة لهذه المخطوطة التى أُخرجت للأسف خارج مصر . وهذه النشرة ، التى كتبها ناشرها بخط يده ، لا تتناسب مع قيمة الكتاب وأهميته وفى حاجة إلى إعادة نشر بمنهج علمى .

ابن ممّاتى (أبو المكارم الأسعد بن مُهَذّب الخطير أبو سعيد بن مينا) المتوفى سنة ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م .

« قوانين الدواوين » ، حقّقه عزيز سوريال عطية ، القاهرة — الجمعية الملكية الزراعية ١٩٤٣ .

مؤلّف مجهول .

« أخبار الدولة المصرية » نشره كلود كاهن Cahen, Cl., " Un récit inédit du vizirat de Dirgham" An . Isl XIII (1969), pp. 27 - 46.

« الاستبصار فى عجائب الأمصار » ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ .

« العيون والحدائق فى أخبار الحقائق » ، الجزء الرابع/١ — ٢ ، تحقيق عمر السعيدى ، دمشق — المعهد العلمى الفرنسى ١٩٧٤ .

المُؤَيّد فى الدين هبة الله بن موسى الشّيرازى المتوفى سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م .

« سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة — ترجمة حياته بقلمه » ، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة — دار الكاتب المصرى ١٩٤٩ .

ابن مُيَسَّر (تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جَلَب راغب) المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م .

« أخبار مصر » المنتقى من ، حقّقه وكتب مقدمته وحواشيه أيمن فؤاد سيّد ، القاهرة — المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٨١ .

النابُلُسى (علاء الدين أبو عمرو عثمان بن إبراهيم) المتوفى بعد سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٤ م .

« تجريد سيف الهمة لاستخراج ما فى ذِمّة أهل الذّمّة » ، نشره كلود كاهن

.Cahen, Cl., " Histoires coptes d'un Cadi médiéval " BIFAO LIX (1960), pp. 133-150

« لُمَع القوانين المُضِيَّة » ، نشره كلود كاهن ، (60 - 1958) BEO XVI .

ناصر خسرو ، قام برحلته بين سنتى ٤٣٧/١٠٤٥ - ٤٤٤/١٠٥٢ .

« سَفَرْنامَة » رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية فى القرن الخامس الهجرى ، نقلها إلى العربية يحيى الخشّاب ، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧٠ .

ابن النّديم (محمد بن إسحاق) المتوفى نحو سنة ٤١٢ هـ/١٠٢١ م .

« الفِهْرِست » نشره رضا تجدُّد ، طهران ١٩٧١ .

النَّوْبَخْتى (أبو محمد الحسن بن موسى بن الحسن) المتوفى سنة ٣١٠ هـ/٩٢٢ م .

« فِرَق الشِّيعَة » ، تحقيق هيلموت ريتر ، استامبول ١٩٣١ .

النُّويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) المتوفى سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٣ م .

« نهاية الأَرَب فى فنون الأدب » ، المجلد السادس والعشرين مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة ، والجزء الثالث والعشرين بتحقيق حسين نصّار ، القاهرة ١٩٨٠ ، والجزء الثامن القاهرة ١٩٣١ .

النَّيسابورى (أحمد بن إبراهيم) كان يعيش فى أواخر القرن الرابع/العاشر .

« استتار الإمام عليه السلام وتفرُّق الدعاة فى الجزائر لطلبه » ، نشره و . ايفانوف فى مقاله « مذاكرات فى حركة المهدى الفاطمى » ، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ٩٣ - ١٠٧ .

« الهداية الآمرية فى إبطال الدعوى النِّزارية » ، نشرها آصف على أصغر فيضى فى كلكتا سنة ١٩٣٨ ، وجمال الدين الشيّال فى « مجموعة الوثائق الفاطمية » ، القاهرة - ١٩٥٨ ، ٢٠٥ - ٢٣٠ .

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم الحَمَوى) المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢١٧ م .

« مُفَرِّج الكروب فى أخبار بني أيوب » ، ١ - ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيّال ،

القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠ ؛ ٤ - ٥ ، تحقيق حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ - ١٩٧٧ .

يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ/١٠٦٦ م .

« تاريخ » ، نشره لويس شيخو مع كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » لابن البطريق ، بيروت ١٩٠٨ ، واستخدمت فى بعض المواضع نشرة كراتشكوفسكى وفازيلييف . Patr. Or. . XVIII (1924), pp. 699-833; XXIII(1932), pp . 347-504

المراجع العَرَبيَّة

آدم متز : « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » أو « عصر النهضة فى الإسلام » ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ١ - ٢ ، تونس - الدار التونسية للنشر ١٩٨٦ .

إبراهيم شَبّوح : « حول منارة قصر الرباط بالمُنَسْتِير وأصولها المعمارية » ، مجلة إفريقية ٣ - ٤ (١٩٧١) ٥ - ١٥ .

إبراهيم طَرْخان : « النُّظُم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى » ، القاهرة - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨ .

أحمد فكرى : « مساجد القاهرة ومدارسها » ، الجزء الأول - العصر الفاطمى ، القاهرة - دار المعارف ١٩٦٥ .

أيمن فؤاد سيّد : « تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى » ، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٨ .

ـــــ : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها فى زمن الفاطميين » ، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ، ١ - ١٣ .

ـــــ : « دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين فى مصر » ، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٨٢ ، ١٢٩ - ١٧٩ .

ـــــ : « مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى » ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٧٤ .

وانظر : ابن الصَّيْرَفى ، ابن الطُّوَيْر ، ابن المأمون ، المُسَبِّحى ، ابن مُيَسَّر ، Fu'ad Sayyid, A.

البَرّاوى = راشد .

جمال محمد محرز : « الخزف الفاطمى ذو البريق المعدنى فى مجموعة الدكتور على إبراهيم باشا » ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ٧ (١٩٤٤) ١٤٣ – ١٦٧ .

حسن إبراهيم حسن : « تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب » ، القاهرة – مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ .

حسن الباشا : « التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى » ، القاهرة – دار النهضة العربية ١٩٥٩ .

حسن عبد الوهاب : « تاريخ المساجد الأثرية » ، ١ – ٢ ، القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٤٦ .

حسنين محمد ربيع : « حجة تمليك ووقف » ، المجلة التاريخية المصرية ١٢ (١٩٦٤ – ٦٥) ، ١٩١ – ٢٠٢ .

ــــ : « وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن فى العصور الوسطى » ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ١٩٧٩ ، ٢ : ١٣١ – ١٤٤ .

درويش النّحيلى : « السفن الإسلامية على حروف المعجم » ، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤ .

الدورى ، عبد العزيز : « تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى » ، بيروت – دار المشرق ١٩٧٤ .

راشد البَرّاوى : « حالة مصر الأقتصادية فى عهد الفاطميين » ، القاهرة – مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .

زكى محمد حسن : « الفن الإسلامى فى مصر » ، القاهرة – دار الآثار العربية ١٩٣٥ .

ــــ : « كنوز الفاطميين » ، القاهرة – دار الآثار العربية ١٩٣٧ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : « شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية » ، المجلة التاريخية المصرية ١٦ (١٩٦٩) ١٥ – ٦٦ .

السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى : « تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام » ، ١ - ٢ ، بيروت - جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ .

سيدة إسماعيل كاشف : « مصر فى عصر الإخشيديين » ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٧٠ .

الشيّال ، جمال الدين : « أوّل أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية » ، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١١ (١٩٥٧) ٣ - ٢٩ .

ـــــ : « مجموعة الوثائق الفاطمية » ، القاهرة - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٨ .

صلاح الدين البحيرى : « ديوان الجيش فى الدولة الأيوبية » ، الموسم الثقافى - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٨٧ ، ١٦٩ - ١٩٠ .

صلاح الدين المُنَجِّد : « ولاة دمشق فى العهد السلجوقى » - نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق للحافظ بن عساكر ، دمشق ١٩٤٩ .

عثمان الكَعّاك : « مَسْلَك القاهرة » ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة ١٩٧١ ، ٧٧٧ - ٨٣٢ .

على مبارك : « الخطط التوفيقية الجديدة » ، ١ - ٨ ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٦٩ - ١٩٩٠ .

عمر السعيدى : « انتقال الفاطميين إلى مصر » ، ملتقى القاضى النعمان للدراسات الفاطمية - الدورة الثانية - تونس ١٩٨١ ، ١٣٩ - ١٤٩ .

فريد شافعى : « مميزات الأخشاب المزخرفة فى الطرازين العبّاسى والفاطمى فى مصر » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٦ (مايو ١٩٥٤) ٥٧ - ٩٤ .

فييت ، جاستون : « دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية » ، ترجمه بتصرف زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٣٩ .

كوهن ، مارك : « المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى » ، جامعة تل أبيب ١٩٨٧ م .

لويس ، برنارد : « النقابات الإسلامية » ، ترجمة عبد العزيز الدورى ، مجلة الرسالة ٨ (١٩٤٠) ٦٩٦ - ٦٩٨ ، ٧٣٥ - ٧٣٧ ، ٧٨٦ - ٧٨٨ ، ٩٧٣ - ٩٧٥ .

ماجد ، عبد المنعم : « نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر » ، ١ - ٢ ، القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٣ - ١٩٥٥ .

محمد أبو الفرج العُشّ : « مصر - القاهرة على النقود العربية الإسلامية » ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧١ ، ٩٠٥ - ٩٩٥ .

محمد كامل حسين : « طائفة الإسماعيلية ، تاريخها ، نظمها ، عقائدها » ، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ .

محمد محمد أمين : « الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨ - ٩٢٣/١٢٥٠ - ١٥١٧ - دراسة تاريخية وثائقية » ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

محمد محمود إدريس : « تاريخ الحضاره الإسلامية - العصر الفاطمى » ، القاهرة - مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٦ .

المناوى ، محمد حمدى : « الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى » ، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٠ .

يحيى الخشّاب : « وصف مصر من كتاب السفرنامة لناصر خسرو » ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧١ ، ١٣٠٧ - ١٣١٢ .

المراجع الأجنبية :

Ashtor , E., *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages* , London ,.Collins 1976 .

Bacharach, J. L., « African Military Slaves in the Medieval Middle East, The Cases of Iraq (869 - 955) and Egypt (869 - 1171) » , *IJMES* 13 (1981), pp. 471 - 95 .

Beshir, B.I., « Fatimid Military Organization », *Der* Islam LV (1978), pp. 37 - 56 .

———., « New Light on Nubian Fatimid Relations » , *Arabica* XXII (1975), pp. 15 - 24 .

Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide 359 - 468/969 - 1076* , Damas IFD 1986 .

———., « Al-Hakim bi amr Allah ou la folie de l'unité chez un souverain fatimide » , *les Africains* XI (1978), pp. 107 - 133 .

———., « La prise du pouvoir par les Fatimides en Egypte », *An. Isl*, XI (1972), pp. 49 - 108 .

———., « Une crise frumentaire dans l'Egypte fatimide », *JESHO* XXIII (1980), pp. 67 - 101 .

Blachère , R., « La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme Arabo - Islamique au IV° siècle », *CIHC* , pp. 95 - 96 .

Cahen, CL., « Le commerce d'Amalfie dans le Proche - Orient musulman avant et après la Croisade », *Comptes rendus d'Academie des Inscriptions et Belle - Lettres* (1977) pp. 292 - 294 .

———., *Makhzumiyyat - Etudes sur l'histoire économiaue et financière de l'Egypte médiéval* , Leiden - Brill 1977 .

———., « Les marchands étrangers au Caire au Moyen Age » , *CIHC*, pp. 97 - 101 .

———., « Un récit inédit du vizirat du Dirgham », *An. Isl.* VIII (1969) , pp. 27 - 46 .

———., « Un texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amelfie au X° siècle » , *Archivio storico per le provencio napolitane* (1953 - 54), pp. 3 - 8 .

———., « Y'a-t-il eu des corporations dans le monde musulman médiéval », in *The Islamic City* , ed, S.M. Stern & A. Hourani, Oxford 1970, pp. 51 - 63 .

Canard, M., « L'imperialisme des Fatimides et leur propogande », *AIEO* VI (1947), pp. 156 - 193 .

———., « Notes sur les Arméniens en Egypte à l'époque fatimite », *AIEO* XIII (1955), pp. 143 - 157 .

———., « Un vizir chrétien à l'époque fatimide : l'Arménien Bahram », *AIEO* XII (1954), pp. 84 - 157 .

———., « Une lettre du calife al- Hafiz à Roger II » dans *Atti del convegno Internazionale di Studi Ruggeriani* , Palerme 1955, pp. 125 - 146 .

Cooper, R.S., « The Assessment and Collection of Kharaj Tax in Medieval Egypt », *JAOS* 96 (1974), pp. 365 - 382 .

Creswell, K.A.C., *MAE* : *The Muslim Architecture of Egypt*, I. Ikhshids and Fatimids, Oxford 1952 .

Dachraoui, F., *Le califat fatimide au* Maghreb 296 - *362/ 909 - 973. Histoire politique et institutions*, Tunis 1981 .

Daftary, E., *The Isma'ilis Their History and Doctrines*, Cambridge 1990 .

Daghfous, R., « Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du V° siècle/ milieu du XI° siècle : Contribution à l'étude des conditions de l'immigration des tribus arabes (Hilal et Sulaym) en Ifriqiya », *CT* XXV (1977), 11. 23 - 50 .

Dozy, R., *Supplement aux Dictionnaires Arabes* I-II, Paris 1927 .

Eche, Y., *Les bibliothèques arabes et semi publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen Age*, Damas IFD 1967 .

Ehrenkreutz, A.S., « Arabic dinars struck by the Crusaders », *JESHO* V (1964), pp. 167 - 182 .

———., « Contributions of the Knowledge of the fiscal administration of Egypt in the Middle Ages », *BSOAS* XVI (1954), pp. 502 - 514 .

———., *Saladin* , N.Y. Albany 1972 .

———., « Saladin coup d'état in Egypt », in *Medieval and Middle Eastern Studies in homour of Aziz Suryal Atiya* , edited by Sami A. Hanna , Leiden 1972, pp. 144 - 157 .

Elisséeff, N., *Nûr al- Din, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades* , I-III, Damas IFD 1967 .

Ettinghausen, R., « Painting in the Fatimid period : A Reconstruction », *Ars Islamica* IX (1942), pp. 112 - 124 .

Fischel, W.J., *Jews in the Economic and Political life of Mediaeval Islam*, N.Y. 1969 .

Fu'ad Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte jusqu' à l'époque fatimide (al- Qâhira et al- Fustât) - Essai de recònstitution topographique* . (sous press) .

———., *« Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte »*, *An. Isl.* XIII (1977), pp. 1-41 .

Garcin, J. Cl, *Un Centre musulman de la Haute Egypte médièval : Qûs*, Le Caire IFAO 1976 .

Goitein, S. D., *A Mediterranean Society : The Jewish Communities of the Arab World as portrayed in the Documents of the Cairo Geniza* .

I. Economic Foundations .

II. The Community .

III. The Family .

IV. Daily Life .

V. The Individual., University of California press 1967 - 1989 .

———.,« Cairo, an Islamic City in the Light of the Geniza Documents » in Lapidus, Ira M. (ed), *Middle Eastern Cities*, Berkeley 1969, pp. 80 - 96 .

———., « From the Mediterranean to India : Documents on the Trade to India , South Arabia , and East Africa from the Eleventh and Twelfth Centuries », *Speculum* XXXIX (1954), pp. 181 - 197 .

———., *Studies in Islamic History and Institutions* , Leiden - Brill 1966 .

Grabar, O., « Imperial and Urban Art in Islam : The Subject Matter of Fatimid Art » , *CIHC*, DDR 1973, pp. 173 - 189 .

Grunebaum, G.V., « The Natùre fo the Fatimid Ahievement » , *CIHC*, DDR 1973 .

Hamdani, A., « Byzantine - Fatimid Relations before the battle of Manzikert » , *Byz. St.* I/2 (1974) , pp. 169 - 179 .

———., « Some Considéritions on the Fatimid Caliphat as a Mediterranean Power , Including an Interpretation of the Fatimid Split with the Qarmatians » in *Atti del Terzo Congresso di Studi Arabi E Islamici* , Ravello - Napoli 1967, pp. 385 - 396 .

Hamdani, A. & de Blois, F., « A Re - examination of al - Mahdi's letter to the Yemenites on the Genealogy of the Fatimid Caliphs » , *JRAS* (1983), pp. 173 - 207.

Hassan, Z.M., *Les Tulunides, études de l'Egypte musulmane à la fin du IX° siècle 868 - 905*, Prais 1937 .

Hawwari (al-), H., « Trois minarets fatimides à al frontière nubienne » , *BIE* XV, (1934 - 35) , pp. 141 - 153 .

Idris, H.R., *La Berbérie Orientale sous les Zirides X° - XII° siècles* , I- II , Paris 1962 .

Leiser, G., « The Madrasa and the Islamization of the Middle East - The Case of Egypt » , *JARCE* XII (1985), pp. 29 - 47 .

———., « Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society » , *MW* LXXVI (1986), pp.3 - 27 .

Lev , Y., « Army , Regime and Society in Fatimid Egypt 358 - 487 / 968 - 1094 » , *IJMES* 19 (1987), pp. 337 - 366 .

———., « The Fatimid Conquest of Egypt - Military , Political and Social Aspects » , *Isr. Or. St.* IX (1979) , pp. 315 - 328 .

———., « The Fatimids and Egypt 301 - 358 / 914 - 969 » , *Arabica* XXXV (1988) , pp. 186 - 196 .

———., « Fatimid Policy Towards Damascus (358 / 968 - 386 / 996) - Military , Political and Social Aspects » , *Jersusalem Studies in Arabic and Islam* III (1981 - 82) , pp. 165 - 183 .

———., « The Fatimid Princess Sitt al - Mulk » , *JSS* XXXII (1987), pp. 319 - 328 .

———., « The Fatimid vizier Ya'qub Ibn Killis and the Beginning of the Fatimid Administration in Egypt » , *Der Islam* 58 (1981) , pp. 237 - 249 .

Lewis, B., « An Interpretation of Fatimid History » , *CIHC* , DDR 1973, pp. 287 - 295 .

———., « The Fatimid and the route to India » , *Revue de la Faculté des Sciences économiques - Univ . d'Istambul* XI (1949 - 50) , pp. 50 - 54 .

Lombarb , M., « L'or musulman du VII° au XI° siècles » , *Annales ESC* II (1947) , pp. 143 - 160 .

Miles , G., *Fatimid Coins* , N.Y. 1952 .

Pellat , Ch., *Cinq Calandriers Egyptiens* , Le Caire - IFAO 1986 .

Quatremère, E., « Mémoires historiques sur la dynastie des khalifes fatimites » , *JA* 3° série II (1936) , pp. 97 - 142 .

Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564 - 641 A.D. 1169 - 1341* , London 1972 .

Ragib, Y., « Un épisode obscure d'histoire fatimide » , *SI* XLVIII (1978) , pp. 125 - 132 .

Schlumberger , G., *Campagnes du Roi Amaury 1er de Jérusalem en Egypte au XII° siècle* , Paris 1906 .

Shaban , M. Ab., *Islamic History A.D 750 - 1055 (A.H. 132 - 448) - A New Interpretation* , Cambridge 1976 .

Stern , S.M., « A Petition to the Fatimid Caliph al- Mustansir concerning a Conflict within the Jewish Community » , *Revue des études Juives* 128 (1969) , pp. 203 - 215 .

———., « An Original Document from the fatimid chancery concerning Italian Merchants » , *Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi della Vida* , Roma 1956 , II, pp. 529 - 38 .

———., *Fatimid Decrees - Original Documents from the Fatimid Chancery* , London 1964 .

———., « Heterodox Ismailism at the Time of al - Mu'izz » , *BSOAS* XVII (1955) , pp. 10 - 33 .

———., « Three Petitions of the Fatimid Period » , *Oriens* 15 (1962) pp. 172 - 209 .

Stilmann, N.A., « The Eleventh Century Merchant House of Ibn Awkal (A Geniza Study) » , *JESHO* XVI (1973) , pp. 15 - 88 .

Talbi, M., *L'Emirat Aghlabide 184 - 296 / 800 - 909 - Histoire politique* , Paris - Adrien Maisonneuve 1966 .

Wiet, G., *CIA* = *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicum* , 1ère partie - Egypte II , Le Caire - IFAO 1929 - 30 .

———., *L'Egypte Arabe* dans « Histoire de la Nation Egyptienne » publié sous la direction de G. Hanotaux t. IV, Paris 1937 .

Wiet, G., Combe, E., & Sauvaget, J., *RCEA* = *Repertoire chronologique d'Epigraphie Arabe* I- XVI, Le Caire - IFAO 1931 - 64 .

الرموز والاختصارات

ABREVIATIONS

AI EO = *Annales de l'Iustitut d'Etudes Orientales* (Alger) .
An. Isl. = *Annales Islamologiques* (Le Caire) .
BEO = *Bulletin d'Etudes Orientales* (Damas) .
BIE = *Bulletin de l'Institut d'Egypte* (Le Caire) .
BIFAO = *Bulletin de l'Institut Francais d'Archéologie Orientale* (Le Caire) .
BSOAS = *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* (London) .
Byz. St = *Byzantine Studies* .
CIA = *Corpus Inscriptionum Arabicum* .
CIHC = *Colloque International sur l'Histoire du Caire* , DDR 1973 .
CT = *Les Cahiers de Tunisie* .
EI^1 = *Encyclopédie de l'Islam* (1ère édition) .
EI^2 = *Encyclopédie de l'Islam* (2ème édition) .
IC = *Islamic Culture* .
IJMES = *International Journal of Middle Eastern Studies* .
Isr. Or. St. = *Israil Oriental Studies* .
JA = *Journal Asiatique* .
JAOS = *Journal of the American Oriental Studies* .
JARCE = *Journal of the American Research Center in Egypt* .
JBBRAS = *Journal of the Bengal Branch of the Royal Asiatic Society* .
JESHO = *Journal of the Economic and Social History of the Orient* .
JNES = *Journal of Near Eastern Studies* .
JRAS = *Journal of the Royal Asiatic Society* .
JSS = *Journal of Semitic Studies* .
MAE = *Muslim Architectur of Egypt* .
MUSJ = *Melanges de l'Université Saint - Joseph* .
MW = *Muslim World* .
PO = *Patralogia Orientalis* .
RCEA = *Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe* .
REI = *Revue d'Etudes Islamiques* .
REJ = *Revue d'Etudes Juives* .
RSO = *Rivista degli Studi Orientale* .
SI = *Studia Islamica* .

فهارس الكتاب

١ - الأعــــــلام

٢ – الأماكن والمواضع والبلدان

٣ – المصطلحات وأسماء الدواوين

رقم الإيداع ٧٠١٦ لسنة ١٩٩٢
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 270 — 006 — 9

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
١٨ شارع العباسية - القاهرة

LES FATIMIDES EN EGYPTE

NOUVELLE INTERPRETATION

par

AYMAN FŪ'ĀD SAYYID

Docteur-es-lettres

AL-DĀR AL-MIṢRIYYA AL-LUBNĀNIYYA